الأنوار القدسية

في معرفة قواعد الصوفية

الأنوار القدسية
فى معرفة قواعد الصوفية

تأليف

الإمام العلامة عبد الوهاب الشعرانى

الجزء الأول

حققه وقدم له

طه عبد الباقى سرور   السيد محمد عيد الشافعى

الناشر

مكتبة المعارف

بيروت

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.

بيروت - لبنان

يطلب من مكتبة المعارف ص.ب: ١٧٦١ - بيروت

بسم الله الرحمن الرحيم

أبو المواهب الإمام عبد الوهاب الشعرانى

٨٩٨ هـ — ٩٧٣ هـ

أسرة الشعرانى :

إلى الدوحة العلوية الهاشمية يرتفع نسب الشعرانى ، لجده الأعلى هو محمد بن الحنفية بن على بن أبى طالب رضى الله عنهما .

وقد هاجر أجداده إلى المغرب الأقصى فى الموجات المهاجرة من البيت العلوى التى اختارت الأطراف النائية من الامبراطورية الإسلامية ، وفراراً من الملاحم المتتابعة بينهم وبين البيت الأموى تارة ، والبيت العباسى تارة أخرى .

وكان الملك فى مدينة — تلمسان — وما جاورها لقبيلة بنى زغلة ، وإلى تلك القبيلة ينتسب : عبد الوهاب الشعرانى .

ولقد أرخ الشعرانى لنفسه فى كتابه — لطائف المنن — فلنستمع إليه وهو يحدثنا عن نفسه بأسلوبه الخاص به :

« . . . . أحمد الله تعالى حيث جعلنى من أبناء الملوك[1] فإنى بحمد الله تعالى عبد الوهاب بن أحمد بن على بن أحمد بن على بن محمد بن زوفا بن

---

(١) لطائف المنن ج ١ ص ٣٢

الشيخ موسى ، المكنى فى بلاد البهنسا ، بأبى العمران ، جدى السادس ابن السلطان أحمد ، بن السلطان سعيد ، بن السلطان فاشين ، بن السلطان محيا ، ابن السلطان زوفا ، بن السلطان ريان ، بن السلطان محمد بن موسى ، بن السيد محمد بن الحنفية ، بن الإمام على ، بن أبى طالب رضى الله عنه .

وكان جدى السابع الذى هو السلطان أحمد[1] سلطاناً فى مدينة تلمسان فى عصر الشيخ أبى مدين المغربى ، ولما اجتمع به جدى موسى ، قال له الشيخ أبو مدين : لمن تنتسب ؟ قال : والدى السلطان أحمد ، فقال له : إنما عنيتُ نسبك من جهة الشرف ، فقال : أنتسب إلى السيد محمد بن الحنفية ، فقال له : ملك ، وشرف ، وفقر — أى تصوف — لا يجتمعن ، فقال : يا سيدى قد خلعت ما عدا الفقر ، فرباه فلما كمل فى الطريق ، أمره بالسفر إلى صعيد مصر ، وقال له : اسكن بناحية — هو[2] — فإن بها قبرك ، فكان الأمر كما قال » .

ولم يحدد لنا التاريخ السنة التى هاجر فيها موسى إلى مصر ولكن كتب التاريخ حددت لنا تاريخ وفاته ، فقد توفى ببلدة — هو — عام ٧٠٧ هـ بعد أن نجحت دعوته ، واهتدى بهديه الصوفى جمهور ضخم فى الصعيد الأعلى .

واستمرت أسرة الشعرانى بالصعيد حتى مطلع القرن التاسع الهجرى ، فهاجر عميدها أحمد إلى ساقية أبى شعرة بالمنوفية ، وأسس بها زاوية للعلم والعبادة وانتقل إلى جوار ربه عام ٨٢٨ هـ

---

(١) هو أبو عبد الله أحمد الزغلى ، سلطان تلمسان وما جاورها .

(٢) إحدى مدن مديرية قنا .

مولده ونشأته :

ولد الشعرانى على أصح الروايات وأشهرها فى ٢٧ من شهر رمضان عام ٨٩٨ هـ ببلدة — قلقشنده — وهى قرية جده لأمه ، ثم انتقل بعد أربعين يوماً من مولده إلى قرية أبيـــه — ساقية أبى شعرة — وإليها انتسب ، فلقب بالشعرانى ، وعرف بهذا اللقب واشتهر به ، وإن كان هو قد سمى نفسه فى مؤلفاته بالشعراوى .

ولقد اضطرب رجال التاريخ فى تحديد مولده ، فقد ذكر صاحب « النور السافر » تاريخاً لمولده قبل هذا التاريخ بقليل ، والمناوى وعلى مبارك ، والمستشرق شاخت فقد أيدوا التاريخ الذى ذكرناه ، وهو المعتمد .

واضطرب رجال التاريخ أيضاً فى الحديث عن طفولته ونشأته ، فذهب المستشرقان — كرويمر — و — نيكلسون — إلى أنه اشتغل فى مطلع حياته بالنسيج[1] .

ولكن المستشرق — فولرز — يسخر من هذا القول قائلا : « إن حياة الشعرانى كانت زاخرة دائماً بالعبادة ، حافلة بالتعليم ، فلم يكن من الميسور أن يجد وقتاً يحترف فيه عملا » .

والشعرانى يقول فى صراحة ، إن من منن الله عليه : « أنه لم تكن هناك عوائق تعيقنى عن طلب العلم والعبادة منذ طفولتى ، وكانت القناعة من الدنيا باليسير سداى ولحمتى ، وهذه القناعة أغنتنى عن الوقوع فى الذل لأحد من أبناء الدنيا ، ولم يقم لى أننى باشرت حرفة ولا وظيفة لها

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية .

معلوم دنيوى ، من منـذ بلغت ، ولم يزل الحق تعالى يرزقنى من حيث لا أحتسب إلى وقتى هذا ، وعرضوا على الألف ديناراً وأكثر ، فرددتها ولم أقبل منها شيئاً ، وكان التجار والكبراء يأتون بالذهب والفضـــة فأنثرهما فى صحن جامع الغمرى ، فيلتقطه المجاورون[1] » .

وحفظ الشعرانى فى قريته ، كما يحدثنا فى المنن ، القرآن الكريم ، ثم حفظ أبا شجاع ، والاجرومية ، ودرسهما على أخيه الشيخ عبد القادر .

وتوفى والداه قبل أن يبلغ العاشرة ، فنشأ يتيما من الأبوين ، وكان الله وحده كما يقول ، هو نصيره ووليه .

ويقص علينا الشعرانى تاريخ حضوره إلى القاهرة ، بذلك الأسلوب القلبي الأخاذ الذى عرف عن الشعرانى فيقول :

« . . وكان مجيء إلى القاهرة افتتاح سنة عشرة وتسعمائة ، وعمرى إذ ذاك اثنتا عشرة سنة ، فأقمت فى جامع سيدى أبو العباس الغمرى ، وحنن الله على شيخ الجامع وأولاده فمكثت بينهم كأنى واحـــد منهم ، آكل ما يأكلون ، وألبس ما يلبسون ، فأقمت عندهم حتى حفظت متون الكتب الشرعية وآلاتها على الأشياخ .

ثم يقول : ولم أزل بحمد الله محفوظ الظاهر ، من الوقوع فى المعاصى معتقداً عند الناس ، يعرضون علىّ كثيراً من الذهب والفضة والثياب ، فتارة أردها ، وتارة أطرحها فى صحن الجامع ، فيلتقطها المجاورون » .

ولبث الشعرانى فى مسجد الغمرى ، يعلم ويتعلم ، ويتهجد ويتعبد ، سبعة عشر عاماً ، ثم انتقل إلى مدرسة أم خوند ، وفى تلك المدرسة بزغ نجم الشعرانى وتألق .

---

(١) لطائف المنن .

فى الطريق إلى الله :

عاش الشعرانى حياته تحت ظلال المساجد ليله ونهاره متبتلا فى طلب العلم عالماً فى التعبد ، عاش نقياً طاهراً مجاهداً فى سبيل الكمال العلمى ، والكمال الخلقى .

وقد اتصل منذ يومه الأول بالقاهرة بصفوة علمائها : جلال الدين السيوطى ، وزكريا الأنصارى ، وناصر الدين اللقانى ، والرملى ؛ والسمنودى وأضرابهم ، وقد أفاض الشعرانى فى ذكر أساتذته فى كتبه ، كما أفاض فى ذكر إجلاله لهم ، وحبهم له .

ودرس الشعرانى على هؤلاء الأعلام الثقافة الإسلامية بشتى فنونها وعلومها ، فى الأصول والفقه والتصوف والحديث والتفسير والأدب واللغة ، حتى غدا كما يقول : « لا يتصور أحد من معاصريه أحاط بما أحاط به علماً ، أو تخلق بما تخلق به عملا » .

ولكن هذه الدراسة لم ترض كل أشواق قلبه ، ونداءات روحه ، فكان يتطلع دائماً إلى سلوك الطريق المضىء ، الطريق الصاعد إلى الله على أجنحة الحب والذوق ، طريق التصوف ، كما رسمه شيوخه ، وكما تذوقه سالكوه .

ولقد كان الشعرانى صوفياً فى منهجه الذى أخذ نفسه به طوال حياته ، يقول فى المنن : « إن من منن الله علىّ أن ألهمنى مجاهدة نفسى من غير شيخ منذ طفولتى » .

ولكن الشعرانى كان ينشد الشيخ الذائق الواصل صاحب البصيرة والإلهام ليساعده كما يقول على اختصار الطريق ، وعلى إزالة عقبات النفس الخفية .

وأخذ الشعرانى يتصل بشيوخ التصوف يلتمس عندهم المفاتيح والأبواب كما يقول ، فلم يجد عند أحد منهم أمله .

يقول الشعرانى : « ولقد اجتمعت بخلائق لا تحصى من أهل الطريق ألتمس لديهم المفاتيح والأبواب ، فلم يكن لى وديعة عند أحد منهم » .

الشعرانى والخواص :

ثم تأذن الله له بالفتح لجمع بينه وبين الخواص ، فكان الخواص معراجه وسلمه الذى صعد عليه إلى أبواب الفتح ، وسموات المنح ، ومناطق النور والإلهام .

وصلة الخواص بالشعرانى ، هى آية الآيات على مكانة الشيخ فى الطريق ، وهى الآية الكبرى على مقام العلم اللَّدنِّى ، فلقد كان الخواص أمياً ، وكان الشعرانى عالماً ، ذلك هو حكم الظاهر ، أما حكم الباطن . فلقد كان الخواص عالماً ، وكان الشعرانى أمياً ! !

والشعرانى يقول : « إن من منن الله عليه ، أن كان وصوله وفتحه على يد أمى لا يعرف القراءة والكتابة » ويقول فى وصف هذا الأمى :

« رجل غلب عليه الخفاء فلا يكاد يعرفه بالولاية والعلم إلا العلماء العاملون لأنه رجل كامل عندنا بلا شك ، والكامل إذا بلغ مقام الكمال فى العرفان ، صار غريباً فى الأكوان » .

ويحدثنا الشعرانى بحديثه الروحى العذب عن وصوله إلى معارج المعارف العلوية على يد شيخه ، وعن بحار علوم شيخه فيقول :

« وكانت مجاهداتى على يد سيدى على الخواص كثيرة ومنوعة ، منها

أنه أمرني أول اجتماعي عليه ببيع جميع كتبي والتصدق بثمنها على الفقراء ففعلت !! وكانت كتباً نفيسة مما يساوى عادة ثمناً كثيراً فبعتها وتصدقت بثمنها ، فصار عندى التفات إليها لكثرة تعبي فيها وكتابة الحواشي والتعليقات عليها ، حتى صرت كأنني سلبت العلم ، فقال لي : اعمل على قطع التفاتك إليها بكثرة ذكر الله عز وجل ، فإنهم قالوا : متلفت لا يصل ، فعملت على قطع الالتفات إليها ، حتى خلصت بحمد الله من ذلك .

ثم أمرني بالعزلة عن الناس مدة حتى صفا وقتي ، وكنت أهرب من الناس وأرى نفسي خيراً منهم ، فقال لي : إعمل على قطع إنك خير منهم ، فجاهدت نفسي حتى صرت أرى أرذلهم خيراً مني .

ثم أمرني بالاختلاط بهم والصبر على أذاهم وعدم مقابلتهم بالمثل ، فعملت على ذلك حتى قطعته ، فرأيت نفسي حينئذ أنني صرت أفضل مقاماً منهم ، فقال لي : إعمل على قطع ذلك ، فعملت حتى قطعته .

ثم أمرني بالاشتغال بذكر الله سراً وعلانية ، والانقطاع بالكلية إليه ، وكل خاطر خطر لي مما سوى الله عز وجل صرفته عن خاطرى فوراً فمكثت على ذلك عدة أشهر .

ويفيض الشعراني في الحديث عن المجاهدات التي أخذه شيخه بها ، وعن الفتح الذي ظفر به على يديه ، وعن بحار علوم شيخه ، وعن اغترافه من هذه البحار الزاخرات .

وبهذا كله أصبح الشعراني إمام عصره علماً وذوقاً ، وغدا الشعراني قطباً تدور حوله الأحداث .

مكانة الشعرانى :

أصبحت زاوية الشعرانى التى أسسها ليتلقى فيها الطلاب علوم الظاهر مع أذواق الباطن ، من أعظم منارات العلم والثقافة والتوجيه فى العالم الإسلامى فى ذلك الوقت .

وغدت مثابة للعلماء والأدباء ، ومنبراً للدعوة والإرشاد ، وساحة للذكر والعبادة ، ورواقاً يرسل الشعاع الروحى النقى فى عصر انطفأت فيه المصابيح ، وخمدت مشاعل الحياة .

وأصبح الشعرانى قطب الرحى فى عصره ، يلوذ به طلاب العلم ، وطلاب الذوق ، كما يلجأ إليه أصحاب الحاجات والشفاعات ، وعلى باب الزاوية يزدحم الأمراء والكبراء .

واعتصم الشعرانى بخلقه وبدينه وبعزة نفسه فى عصر حطم فيه ولاة الترك كل إباء ، وكل عزة .

يقول الوزير الأعظم على باشا ، عند ما عزم على الرحيل إلى تركيا : « إننا مقربون إلى الخليفة ، فهل لك حاجة عنده ، نرفعها إليه ؟ فيقول الشعرانى فى عزة المؤمن ، وإباء الصوفى : ألك حاجة عند الله ، إننا مقربون إلى حضرته » .

ويقول الشعرانى : « تشفعت عند السلطان الغورى ، والسلطان طومان باى ، وخاير بك ، وغيرهم من بشاوات مصر ، فقبلوا شفاعتى وذلك معدود من جملة طاعة الملوك لى[1] » .

---

(١) المنن ج ٢ ص ٢٣٦

ويقول : « ومما منّ الله به علىّ كثرة قبول شفاعتى عنـد الأمراء ولا أعلم الآن أحداً فى مصر أكثر منى شفاعة عند الولاة ، فربما يفنى الدست الورق فى مراسلاتهم فى حوائج الناس فى أقل من شهر » .

وأصبح الشعرانى المدافع الأول عن الشعب فى وجه الطغاة من الولاة ، لأنه كان فوق المادة ، وفوق الرهبة ، وفوق كل إغراء ، وقد امتحنوه سراً وجهراً فأرسلوا إليه الأموال والخيرات فردها عليهم ، وعرضوا عليه الوظائف والهبات ، فأبى أن يأخـذ مالا من حاكم ، أو حتى أن يأكل من طعامه ، لأن فى ذلك ما يخدش عقيدته ، وما يخدش رسالته .

خلق الشعرانى :

تخلق الشعرانى بخلق التصوف وتأدب بأدبه وأخذ نفسه بكل ما كتب وسطر فى كتبه ، فكان خلقه صورة رسالته .

وكان بحسه وبوجدانه صورة للمثاليات ، وعنواناً كريماً للانسانية فى كل أفق من آفاقها .

كان الشعرانى يرى أن الإنسان لا يكون إنساناً إلا إذا شارك الناس كافة فى أحزانهم وآلامهم لأن الإنسانية وحدة متماسكة خيرها مشترك ، وعذابها مشترك ، يقول :

« من ضحك ، أو استمتع بزوجه ، أو لبس مبخّـراً ، أو ذهب إلى مواضع المتنزهات أيام نزول البلاء على المسلمين فهو والبهائم سواء » .

وكان رحيما بالناس ، ورحيما بنوع خاص بالعصاة والمذنبين ، لأنهم أشد الناس ضعفاً ، وأحوجهم إلى العطف والنصح والرحمة .

يقول متحدثاً عن مبادئه : « ثم سترى لعورات النـاس وعيوبهم ، ورحمتى بالعصاة حال تلبسهم بالمعصية ، فإنهم أشق الناس حينئذ » .

ثم يقول واصفاً خلقه : « ثم غـيرتى على أذنى أن تسمع زوراً ، وعينى أن تنظر محرماً ، ولسانى أن يتكلم باطلا » .

وكان الشعرانى يرى أن العبادة لا تصلح إلا بصـــلاح القلب ونقاء الأخلاق ، فكان لا يقوم إلى الصلاة ، إلا إذا فتش قلبه ، هل فيه غل أو حقد ، أو حسد ، أو نميمة ، أو شهوة صغيرة أو كبيرة ، بل كان يستحى أن ينام وفى قلبه شىء من هذا لأن النوم رحلة الروح إلى الملأ الأعلى .

ويسمو الشعرانى فى أدب النفس ، ويرتفع فى معـــارج الأخلاق ، فيقول : « ومما أنعم الله به على عدم خروجى من بيتى ؛ إلا إذا علمت من نفسى القدرة بإذن الله على هذه الثلاث خصال ، تحمل الأذى عن الناس ، وتحمل الأذى منهم ، وجلب الراحة لهم » .

علوم الشعرانى وكتبه

جال قلم الشعرانى فى كل أفق من آفاق المعرفة العلميـــة والذوقية ، فكتب فى التصوف ، والفقه ، والأصول ، والتفسير ، والحديث ، والنحو ، والطب ، والكيمياء ، والأخلاق ، وغيرها من ألوان العلوم والمعارف .

وقد استغرق بعض كتبه خمسة مجلدات ، ووقع الكثير منها فى مجلدين ، وأكثر هذه المؤلفات لا يزال محفوظاً وموزعاً على دور الكتب فى أرجاء العالم .

وقد أحصى المستشرق — بروكلمان — أكثر من ستين كتاباً محفوظاً متناثرة فى دور العلم العالمية ، ويذكر - على مبارك باشا - أن الكتب التى رآها للشعرانى أكثر من سبعين كتاباً .

يقول المستشرق — فولرز — : « إن الشعرانى كان من الناحية العلمية والنظرية صوفياً من الطراز الأول ، وكان فى الوقت نفسه كاتباً بارزاً أصيلا فى ميدان الفقه وأصوله ، وكان مصلحاً يكاد الإسلام لا يعرف له نظيراً ، وإن كتبه التى تجاوزت السبعين عداً من بينها أربعة وعشرين كتاباً تعتبر ابتكاراً محضاً أصيلا لم يسبق إليه أبداً » .

ويقول العلامة — ماكدونالدر — : « إن الشعرانى كان رجلا دراكاً نفاذاً مخلصاً واسع العقل ، وهو رجل أخلاق تهزه أنفة عالية » .

ويقول المستشرق — نيكلسون — .: « كان مفكراً مبدعاً أصيلا ، أثر تأثيراً واسع المدى فى العالم الإسلامى ، يشهد به إلى يومنا إلحاح القراء إلحاحاً متواصلا فى طلب مؤلفاته » .

لجنة نشر التراث الصوفى

وبعد : فإن لجنة نشر التراث الصوفى ، التى قدمت للعالم الإسلامى من قبل ، أمهات الكتب الصوفية الخالدة : (١) اللمع للسراج الطوسى . (٢) التعرف للكلاباذى (٣) الرعاية للحارث المحاسبى (٤) لطائف الأسرار لمحيى الدين بن عربى .

ليسرها أن تقدم اليوم إلى العالم الإسلامى — الأنوار القدسية فى قواعد الصوفية — لأبى المواهب الإمام العلامة عبد الوهاب الشعرانى ، محققاً محرراً منشوراً للمرة الأولى ، نقلا عن أصح النسخ الخطية المعتمدة .

ومن عجب أن يظل هذا الكتاب القيم محجوباً عن العالم الإسلامى طوال هذه السنين ، مع ما بين دفتيه من علم ومعرفة وهدى ونور .

وقواعد الصوفية من أجل ما كتب الشعرانى ، ومن أدق ما انفرج

قلبه ، فهو يمثل الذروة الذوقية التى وصل إليها ، والقمة العلمية التى ارتقاها ، فقد كتبه فى أواخر حياته ، فجاء صورة كاملة لمجاهداته وأذواقه وعلومه .

وقد وضع الشعرانى هذا الكتاب ، بعد كتابه « الأنوار القدسية فى بيان العهود المحمدية » ليكون الدستور الكامل لسالك الطريق إلى الله ، والمنهج الأعلى لرواد الكمالات الإيمانية .

فهو بحق كتاب التربية الصوفية ، الذى رسم فى دقة فنية آداب الطريق وواجباته ومندوباته وأسراره وأذواقه ومثله ، وعقباته ومزالقه ومعارجه وفتوحاته .

والكتاب فوق هـــذا كله معرضاً وأفقاً لآراء كبار رجال التربية الصوفية ، فقد حشد فيه الشعرانى مجموعة طيبة كريمة من أقوال الأئمة الأعلام : السيد إبراهيم الدسوقى ، والسيد على وفا ، والسيد المرسى ، والسيد الشناوى ، والسيد الأقصرى ، والسيد الكتانى ، والسيد على المرصفى .

فحفظ بذلك زبدة عالية من أقوال هؤلاء الأقطاب الذين تحققـــوا بالتصوف ذوقاً وسلوكاً .

وقد قسمنا الكتاب إلى جزأين ، نقدم اليوم الجزء الأول منه ونقدم بإذن الله الجزء الثانى قريباً .

واللجنة تسأل الله أن يمدها دائماً بتوفيقه وهداه حتى تواصل رسالتها فى نشر التراث الصوفى العالى ، إنه سبحانه ولى التوفيق ؟

طه عبد الباقى سرور　　　　السيد محمد عيد الشافعى

٢٥ شوال عام ١٣٨١ هـ
٣١ مارس عام ١٩٦٢ م

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم ، الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله سيد المتأدبين ، وسيد السالكين ، اللهم فصل وسلم عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين ، وعلى آلهم وصحبهم أجمعين . وبعد :

فهذه رسالة عظيمة لم ينسج أحد فيما أظن على منوالها ولا نصح نفسه وإخوانه بمثالها ، سميتها : رسالة الأنوار القدسية فى بيان قواعد الصوفية : ورتبتها على مقدمة وثلاثة أبواب وخاتمة . فالمقدمة فى بيان عقيدة القوم[1] وبيان سندهم بتلقين الذكر وإلباس الخرقة وآداب الذكر .

والباب الأول فى ذكر نبذة فى آداب المريد فى نفسه ، والباب الثانى فى ذكر نبذة من آداب المريد مع شيخه ، والباب الثالث فى ذكر نبذة من آداب المريد مع إخوانه وأصحاب شيخه ، والخاتمة فى بيان آداب لا تختص بالشيخ والمريد بل هى عامة مع جميع الخلق .

وقد ضمنت كل باب ما تقر به أعين الناظرين من قول السلف والخلف إلى عصرنا هذا ، فأكرم بها من رسالة كلها نصح وأدب لا أظن أن فيها كلمة واحدة يرمى بها ، وأعيذها بالله تعالى من شر كل عدو أو حاسد يدس فيها ما ليس من كلامى لينفر الناس من مطالعتها ، كما وقع لى ذلك فى كتاب

---

(١) الصوفية

« العهود » وفى مقدمة كتاب « كشف الغمة عن جميع الأمة » فإن بعض الحسدة لما رأى إقبال الناس على هذين الكتابين غار من ذلك فاستعار له نسخة من كل كتاب ودس فيها ما ليس من كلامى وسلكه فى غضونها حتى كأنه المؤلف ؟ ثم أعطى ذلك لبعض المتهورين فى دينهم وقال : اطلع العلماء على هـذا الكلام المخالف لظاهر الشريعة الذى ألفه فلان ! ؟ فلا يعلم عدد من استغابنى إلا الله تعالى ، مع إنى بحمد الله سنى محمدى ، وما ألفت شيئاً من الكتب إلا بعد تبحرى فى علوم الشريعة وإطلاعى على مذاهب المجتهدين وأدلتهم ، فكيف أخالفهم ، وأعرف بعض جماعة يظنون إننى أعتقد ما دسوه فى كتبى من العقائد الزائفة إلى وقتى هذا ، وما منهم أحد يجالسنى قط ، فالله يغفر لهم أجمعين ، فإياك أن تصغى لقولهم فإنى برىء من جميع ما دسوه ، وبينى وبينهم يوم القيامة .

وكان من الباعث لى على تأليف هـــذه الرسالة طلب النصح لنفسى ولإخوانى حيث تحاسنا[١] بحلاس الأشياخ ومشينا على مراسمهم الظاهرة ، وظن كل واحد منا نفسه أنه صار من أشياخ الطريق ، فوضعت هذه الرسالة كالميزان التى يوزن بها المحق والمبطل ، فمن وافق حاله ما فيها فليحمد الله ، وإلا فليستغفر من دعاويه الكاذبة .

وقد بلغنا أن الذئب الذى اتهم بأنه أكل يوسف عليه الصـــلاة والسلام ، كان من حلفه أنه قال : « وألا أكون من مشايخ القرن العاشر من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ما أكلت يوسف ؟ » فكيف يصح لأحدنا دعوى الطريق وهو فى النصف الثانى من القرن العاشر الذى استعاذ الذئب أن يكون واحداً من أشباهنا فيه !! ؟ .

---

(١) لبسنا .

وقد أدركنا بحمد الله جملة من أشياخ الطريق أول هـــذا القرن ، وكانوا على قدم عظيم فى العبادة والنسك والورع والخشية وكف الجوارح الظاهرة والباطنة عن الآثام حتى لا تجد أحدهم قط يعمل شيئاً يكتبه كاتب الشمال ، وكان للطريق حرمة وهيبة ، وكان الأمراء والملوك يتبركون بأهلها ويقبلون بطون أقدامهم ، لما يشهدونه من صفاتهم الحسنة ، فلما ذهبوا زالت حرمة الطريق وأهلها ، وصار الناس يسخرون بأحـــدهم ويقولون لبعضهم : ما دريتم ما جرى ؟ فلان الآخر عمل شيخاً !! ؟ كأنهم لا يسلمون له ما يدعيه لما هو عليه من محبة الدنيا وشهواتها والتلذذ بمطاعمها وملابسها ومناكحها ، والسعى على تحصيلها ، حتى أنى قلت لبعض التجار لم لا تجتمع بالشيخ الفلانى فقال : إن كان شيخاً فأنا الآخر شيخ ؟ ، فإنه يحب الدنيا كما أحبها ، ويسعى فى تحصيلها كما أسعى ، بل هو أشد منى سعياً على الدنيا ، لأنه يسافر إلى الروم[1] فى طلبها وأنا لم أسافر ، وربما أكل الدنيا بصلاحه وأنا لم أكلها بصلاحى ، فأنا أحسن حالا منه فأردت أن أجيب عنه فرأيت الحس يكذبنى .

وقد رأيت بعينى السلطان الغورى ، وهو يقبل يد سيدى محمد بن عنان ، ورأيت السلطان طومان باى الذى تولى بعده يقبل بطن رجله ، وطلعت مرة مع سيدى الشيخ أبى الحسن الغمرى للسلطان الغورى فى شفاعة ، فقام للشيخ وعضده من تحت أبطه وقال : يا سيدى عزتنى فى هذا النهار ، فإنى ومملكتى كلها لا نفى حق طريقك .

وكان آخر الأشياخ الذين أدركناهم ، سيدى الشيخ على المرصفى رضى الله عنه ، فلما توفى فى جمادى الأول سنة ثلاثين وتسعماية ، انحل نظام

---

(١) بلاد الروم .

الطريق فى مصر وقراها ، وجلس كثير للشيخة بأنفسهم من غير إذن من أشياخهم ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

وأعلم يا أخى أن جميع ما ذكرته لك فى هـذه الرسالة من أخلاق المريدين ، إنما هو كالقطرة من البحر ، فليعرض كل من نظر فيها أحواله على ما ذكرته من الآداب فيها ، فإن وجد نفسه متخلقاً بهـا فليحمد الله تعالى ، وإن وجد نفسه عارياً عنها ، فليأخذ فى أسباب التخلق بالسلوك على يد شيخ ناصح .

وإن كان قد جلس للمشيخة فليعزل نفسه منها نصيحة لنفسه ولإخوانه ، فإن من جلس للمشيخة بغير إذن من شيخه ضل وأضل ، وإنما لم نذكر شيئاً من أخلاق الكُمّل فى هذه الرسالة لعزة وجودها وعزة المتخلق بها ، فلذلك ذكرنا أخلاق المريدين فقط لأنهـا هى الطريق المسلوكة الآن ، وهيهات أن يصل أحدنا الآن إلى مقام مريد ، فالحمد لله رب العالمين ، ولنشرع فى مقدمة الرسالة ؛ فأقول وبالله التوفيق .

مقدمة : تشتمل على جملة من عقائد القوم وبيان موافقتها لعقائد أهل السنة والجماعة وعلى بيان سند القوم فى تلقينهم الذكر وعلى سـنـدهم فى إلباسهم الخرقة للمريد وعلى بيان جملة من أداب الذكر .

اعلم يا أخى أن القوم أجمعوا على أن الله تعالى إله واحد لا ثانى له ، منزه عن الصاحبة والولد ، مالك لا شريك له ، صانع لا مدبر معه ، موجود بذاته من غير افتقار إلى موجد يوجده ، بل كل موجود مفتقر إليه فى وجوده ، فالعالم كله موجود به ، وهو تعالى موجود بذاته ، لا افتتاح لوجوده ، ولا نهاية لبقائه ، بل وجوده مطلق مستمر قائم بنفسه ، ليس بجوهر فيقدر له المكان ، ولا بعرض فيستحيل عليه البقاء ،

ولا بجسم فتكون له الجهة والتلقاء ، مقــدس عن الجهة والأقطار ، مرئى بالقلوب والأبصار ، استوى تعالى على عرشه كما قاله ، وعلى المعنى الذى أراده ، كما أن العرش وما حواه به استوى له الآخرة والأولى ، ليس له مثل معقول ، ولا دلت عليه العقول ، لا يحده زمان ، ولا يقله مكان ، وهو الآن على ما عليه كان ، خالق المتمكن والمكان ، وأنشأ الزمان ، وقال : أنا الواحد الحى الذى لا يؤده حفظ المخلوقات ولا يرجع إليه صفة لم يكن عليها من صفة المصنوعات ، تعالى أن تحله الحوادث أو يحلها ، أو تكون قبله أو يكون قبلها ، بل يقال : كان ولا شىء معه ، لأن القبل والبعد من صيغ الزمان الذى أبدعه ، فلا نطلق عليه تعالى ما لم يطلقه على نفسه فإنه أطلق على نفسه : الأول والآخر ، لا القبل والبعد .

فهو القيوم الذى لا ينام ، والقهار الذى لا يرام ، ليس كمثله شىء وهو السميع البصير ، خالق العرش وجعله حد الاستواء ، وأنشأ الكرسى وأوسعه الأرض والسماء ، اخترع اللوح والقلم الأعلى ، واجراه كاتباً فى خلقه إلى يوم الفصل والقضاء ، أبدع العالم كله على غير مثال سبق ، وخلق الخلق ، وخلق ما خلق .

أنزل الأرواح فى الأشباح أمناً ، وجعل هذه الأشباح المنزلة إليها الأرواح فى الأرض خلفاً ، وسخر لها ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه ، فلا تتحرك ذرة إلا عنه ، خالق الكل من غير حاجة إليه ولا موجب أوجب ذلك عليه ، لكن علمه بذلك سبق ، فلا بد أن يخلق ما خلق .

فهو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو على كل شىء قدير ، أحاط بكل شىء علماً ، وأحصى كل شىء عدداً ، يعلم السر وأخفى ، يعلم خائنة

الأعين وما تخفى الصدور ، كيف لا يعلم شيئاً خلقه ، « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » ، علم الأشياء قبل وجودها ثم أوجدها على حد ما علمها ، فلم يزل عالماً بالأشياء لم يتجدد له علم عند تجدد الأشياء بعلمه ، أتقن الأشياء وأحكمها ، يعلم الكليات والجزئيات على الإطلاق فهو عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون ، فعال لما يريد ، فهو المريد ، للكائنات فى عالم الأرض والسموات لم تتعلق قدرته تعالى بإيجاد شىء حتى أراده ، كما أنه لم يرده سبحانه حتى علمه ، إذ يستحيل أن يريد سبحانه وتعالى ما لم يعلم ، أو يفعل المختار المتمكن من ذلك الفعل ما لا يريده كما يستحيل أن توجد هذه الحقائق من غير حىّ ، كما يستحيل أن تقوم هذه الصفات بغير ذات موصوفة بها .

فما فى الوجود طاعة ولا عصيان ، ولا ربح ولا خسران ، ولا عبد ولا حر ، ولا برد ولا حــــر ، ولا حياة ولا موت ، ولا حصول ولا فوت ، ولا نهار ولا ليل ، ولا اعتدال ولا ميل ، ولا بر ولا بحر ، ولا شفع ولا وتر ، ولا جوهر ولا عرض ، ولا صحة ولا مرض ، ولا فرح ولا ترح ، ولا روح ولا شبح ، ولا ظلمة ولا ضياء ، ولا أرض ولا سماء ولا تركيب ولا تحليل ، ولا كثير ولا قليل ، ولا غداة ولا أصيل ، ولا بياض ولا سواد ، ولا سهاد ولا رقاد ، ولا ظاهر ولا باطن ، ولا متحرك ولا ساكن ، ولا يابس ولا رطب ، ولا قشر ولا لب ، ولا شىء من جميع المتضادات والمختلفات والمتماثلات ، إلا وهو مراد للحق تعالى وكيف لا يكون مراداً له وهو أوجده فكيف يوجد المختار ما لا يريد ، لا راد لأمره ، ولا معقب لحكمه ، يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ، ويعز من يشاء ، ويذل من يشاء ، ويضل من يشاء ، ويهدى من يشاء ، ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن .

لو اجتمع الخلائق كلهم على أن يريدوا شيئا لم يرد الله تعالى لهم أن يريدوه ما أرادوه ، أو أن يفعلوا شيئاً لم يرد الله إيجاده وأرادوه ما فعلوه ولا استطاعوه ولا أقدرهم عليه ، فالكفر والإيمان والطاعة والعصيان ، من مشيئته وحكمته وإرادته ، ولم يزل سبحانه وتعالى موصوفاً بهـــذه الإرادة أزلا والعالم معدوم ، ثم أوجد العالم من غير تفكر ولا تدبر ، بل أوجده عن العلم السابق ، وتعيين الإرادة المنزهة الأزلية القاضية على العالم بما أوجدته عليه من زمان ومكان وأكوان وألوان ، فلا مريد فى الوجود على الحقيقة سواه ، إذ هو القائل سبحانه : « وما تشاءون إلا أن يشاء الله » وأنه تعالى كما علم ما حكم وأراد فخص وقدر ، فأوجد ، كذلك سمع ورأى ما تحرك وسكن ، أو نطق فى الورى ، من العالم الأسفل والأعلى ، لا يحجب سمعه البعد ، فهو القريب ، ولا يحجب بصره القرب ، فهو البعيد ، يسمع كلام النفس فى النفس ، وصوت المماسة الخفية عند اللمس يرى السواد فى الظلماء ، والماء فى الماء ، لا يحجبه الامتزاج ، ولا الظلمات ، ولا النور ، وهو السميع البصير .

تكلم سبحانه ، لا عن صمت متقدم ولا سكوت متوهم بكلام قديم أزلى كسائر صفاته من علمه وإرادته وقدرته ، كلم به موسى عليه الصلاة والسلام سماه التنزيل والزبور والتوراة والإنجيل والفرقان ، من غير تشبيه ولا تكييف ، إذ كلامه تعالى من غير لهاة ولا لسان ، كما أن سمعه من غـــير أصمخة ولا أجفان ، كما أن إرادته من غير قلب ولا جنان ، كما أن علمه من غير اضطرار ولا نظر فى برهان ، كما أن حياته من غير بخار تجويف قلب حدث عن امتزاج الأركان ، كما أن ذاته لا تقبل الزيادة ولا النقصان .

فسبحانه سبحانه من بعيد دان ، عظيم السلطان عميم الإحسان ، جسيم الإمتنان ، كل ما سواه فهو عن وجوده فائض ، وفضله وعدله الباسط ،

والقابض ، أكمل صنع العالم وأبدعه حين أوجده واخترعه ، لا شريك له فى ملكه ولا مدبر معه فيه ، إن أنعم فنعّم فذلك فضله ، وإن أبلى فعذب فذلك عدله ، لم يتصرف فى ملك غيره فينسب إلى الجور والحيف ، ولا يتوجه عليه لسواه حكم فيتصف بالجزع لذلك والخوف ، كل ماسواه فهو تحت سلطان قهره ، ومتصرف عن إرادته وأمره ، فهو الملهم نفوس المكلفين للتقوى والفجور ، أى لتعمل بالتقوى وتجتنب الفجور ، فهو المتجاوز عن سيئات من شاء هنا وفى يوم النشور ، لا يحكم عدله فى فضله ولا فضله فى عدله ، لقدم صفاته كلها ، وتنزهها عن الحدوث .

أخرج العالم قبضتين ، وأوجد لهم منزلتين ، فقال : هؤلاء للجنة ولا أبالى وهؤلاء للنار ولا أبالى ، ولم يعترض عليه معترض هناك إذ لا موجود كان ثمّ سواه ، فالكل تحت تصريف أسمائه ، فقبضة تحت أسماء بلائه وقبضة تحت أسماء آلائه ، لو أراد سبحانه أن يكون العالم كله سعيداً لكان ، أو شقياً لما كان فى ذلك من شان ، لكنه سبحانه لم يرد ذلك فكان كما أراد فنهم الشقى والسعيد ، هنا وفى يوم المعاد ، فلا سبيل إلى تبدل ما حكم عليه القديم وقد قال تعالى فى حديث فرض الصلاة : هى خمس وهى خمسون ، ما يبدل القول لدىّ وما أنا بظلام للعبيد لتصرفى فى ملكى وإنفاذ مشيئتى فى ملكى » .

وذلك لحقيقة عميت عنها البصائر ولم تعبر عليها الأفكار ولا الضمائر إلا بوهب إلهى ، وجود رحمانى ، لمن اعتنى الله به من عباده ، وسبق له ذلك فى حضرة إشهاده ، فعلم حين أعلم أن الألوهية أعطت هذا التقسيم وأنها من دقائق القديم ، فسبحان من لا فاعل سواه ، ولا موجود بذاته إلا إياه ، والله « خلقكم وما تعملون » « ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون » « قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين » .

وكما شهدنا لله تعالى بالوحدانية وما يستحقه من الصفات العلية ، كذلك نشهد لسيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم بالرسالة إلى جميع الناس كافة بشيراً ونذيرا وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيرا ، وأنه صلى الله عليه وسلم ، بلغ جميع ما أنزل إليه من ربه وأدى أمانته ، ونصح أمته ، وقد ثبت أنه صلى الله عليه وسلم ، وقف فى حجة الوداع ، على كل من حضره من الأتباع ، فخطب وذكر ، وخوف وأنذر ، ووعد وأوعد ، وأمطر وأرعد ، وما خص بذلك التذكير أحداً دون أحد عن أذن الواحد الصمد ، ثم قال :

ألا هل بلغت ؟ فقالوا جميعاً : قد بلغت يا رسول الله ، فقال صلى الله عليه وسلم : اللهم أشهد ؟ : ونؤمن بكل ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مما علمنا وبما لم نعلم ، فما علمنا وتحققنا مما جاء به وقرر ، أن الموت عن أجل مسمى عنـــد الله إذا جاء لا يؤخر فنحن مؤمنون بهذا إيماناً لا ريب فيه ولا شك كما آمنا وأقررنا وصدقنا أن سؤال منكر ونكير فى القبر حق ، وأن عذاب القبر حق ، والبعث من القبور حق ، والعــــرض على الله تعالى حق ، والحوض حق ، والميزان حق ، وتطاير الصحف حق ، والصراط حق ، والجنة والنار حق ، وفريقاً فى الجنة وفريقاً فى السعير حق ، وأن كرب ذلك اليوم على طائفة حق ، وطائفة أخرى لا يحزنهم الفزع الأكبر حق ، وأن شفاعة الأنبياء والملائكة وصالحى المؤمنين حق ، وشفاعة أرحم الراحمين حق ، فتشفع أسماء الحنان والرحمة ، عند أسماء الجبروت والنقمة .

وكذلك نؤمن بأن إيمان أهل النار كفرعون وغيره غير مقبول ولا نافع ، وأن جماعة من أهل الكبائر من الموحدين يدخلون جهنم ، ثم يخرجون

بالشفاعة حق ، وأن كل ما جاءت به الكتب والرسل من عند الله تعالى ، عُلِمَ أو جُهِلَ حق .

وكذلك نؤمن بأن التأبيد للمؤمنين فى النعيم المقيم حق ، والتأبيد للكافرين والمنافقين والمشركين والمجرمين حق ، فهذه عقيدة القوم رضى الله عنهم أجمعين ، وعقيدة عليها حيينا وعليها نموت ، كما هو رجاؤنا فى الله عز وجل ، فنسأل الله من فضله أن ينفعنا بهذا الإيمان ويثبتنا عليه عند الانتقال إلى الدار الحيوان ، ويحلنا دار الكرامة والرضوان ، ويحول بيننا وبين دار سرابيل أهلها القطران ، ويجعلنا من العصابة التى تأخذ كتبها بالأيمان ، وممن ينقلب من الحوض وهو ريان ، ويرجح له الميزان ، ويثبت منه على الصراط القدمان ، أنه المنعم المحسان أمين اللهم أمين .

فأمعن يا أخى النظر فى هذه العقيدة فإنها عظيمة ، وأن حفظتها عن ظهر قلب كان أولى ، والله يتولى هداك .

سند التلقين الصوفى

وأما بيان مستند القوم في تلقينهم كلمة : لا إله إلا الله ، للمريدين ، وبيان ما قاله الأشـــياخ فى آداب الذكر ، وبيان عزة التلقين ، وبيان فوائد تتعلق بالذكر ، فأعلم رحمك الله : أنه ورد تلقين رســـول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه كلمة « لا إله إلا الله » جماعة وفرادى وتسلسلت السلسلة من كل منها لجماعة ، مع اتصال سندهم .

فروى الإمام أحمد والبزار والطبرانى وغيرهم باسناد حسن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان يوماً مجتمعاً مع أصحابه فقال : هل فيكم غريب ؟ يعنى أهل الكتاب ، قالوا : لا يا رسول الله ، فأمر بغلق الباب ، وقال : ارفعوا أيديكم وقولوا لا إله إلا الله ،

قال شداد بن أوس : فرفعنا أيدينا ساعة وقلنا : لا إله إلا الله ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم إنك بعثتنى بهذه الكلمة وأمرتنى بها ، ووعدتنى عليها الجنة ، وإنك لا تخلف الميعاد ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا أبشروا فان الله تعالى قد غفر لكم » .

فهذا دليل الأشياخ فى تلقينهم الذكر لجماعة معاً ، وأما دليل تلقينهم الذكر فرادى ، فلم أره فى شىء من كتب المحـــدثين التى اطلعت عليها ولكن روى سيدى يوسف العجمى شيخ السلسلة فى رسالته بسنده المتصل عن على بن أبى طالب رضى الله عنه ، قال : قلت يا رسول الله ، دلنى على أقرب الطرق إلى الله عز وجل وأسهلها على العباد ، وأفضلها عند

الله تعالى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا على ، عليك بمداومة ذكر الله عز وجل ، سرا وجهراً » فقال على رضى الله عنه : كل الناس ذاكرون يا رسول الله ، وإنما أريد أن تخصنى بشىء ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مه يا على ، « أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلى ، لا إله إلا الله ، ولو أن السموات السبع ، والأرضين السبع ، فى كفة و لا إله إلا الله فى كفة ، لرجحت لا إله إلا الله » قلت :

ويشهد لهذا الحديث ما رواه ابن حبان والحاكم وغيره مرفوعاً ، أن موسى عليه الصلاة والسلام ، قال : « يا رب علمنى شيئاً أذكرك به وأدعوك به ، قال : يا موسى قل لا إله إلا الله ، قال : يا رب كل عبادك يقولون هـذا ؟ قال : قل : لا إله إلا الله ، قال : يا رب إنما أريد شـيئاً تخصنى به ، قال : يا موسى لو أن السموات السبع ، والأرضين السـبع ، فى كفة ولا إله إلا الله فى كفة مالت بهم لا إله إلا الله » .

وهو نظير سؤال على لرسول الله صلى الله عليه وسلم على حد سواء ، وفى الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يا على لا تقوم الساعة وعلى وجه الأرض من يقول الله » قال سيدى يوسف ثم أن علياً رضى الله عنه طلب التلقين من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : كيف أذكر ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أغمض عينيك وأسمع منى ثلاث مرات ، ثم قل أنت ، لا إله إلا الله ثلاث مرات ، وأنا أسمع ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات لا إله إلا الله ، مغمضاً عينيه رافعاً صـوته وعلى رضى الله عنه يسمع ، ثم قال على رضى الله عنه : لا إله إلا الله ثلاث مرات مغمضاً عينيه ، رافعاً صوته والنبى صلى الله عليه وسلم يسمع » .

قلت : ولم أجد هذه الكيفية التى علمها رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلى رضى الله عنه فى شىء من الأصول ، والله أعلم .

قال سيدى يوسف العجمى رحمه الله : وإنما أمر صلى الله عليه وسلم بغلق الباب لما أراد أن يلقن جماعة من أصحابه كما تقدم وقال : هل فيكم غريب ، يعنى أهل الكتاب ، لينبه على أن طريق القوم مبنية على الستر ، بخلاف الشريعة المطهرة فلا ينبغى لأحد من أهل الطريق أن يتكلم بالحقيقة عند من لا يؤمن بها ، خوفاً أن ينكرها فيمقت ! !

قلت : ومن هنا أنكر بعض المحدثين كون الحسن البصرى تلقن كلمة لا إله إلا الله من على بن أبى طالب رضى الله عنه ، لعزة ثبوت ذلك من طريق مشهورة ، بل أنكر بعضهم اجتماع الحسن البصرى بعلى ابن أبى طالب رضى الله عنه ، فضلا عن أخذه عنه الطريق . والحق أنه اجتمع به ولقنه الذكر وألبسه الخرقة .

وروى الحافظ بن حجر وتلميذه الحافظ جلال الدين السيوطى رحمهما الله تعالى ، وقالا : إن إسناده صحيح ، ورجاله ثقات أن الحسن البصرى كان يقول سمعت عليا رضى الله عنه يقول ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أمتى كالمطر لا يدرى أوله خير أم آخره » وفى رواية أخرى عن الحسن البصرى قال : سمعت علياً بالمدينة وقد سمع صوتاً فقال : ما هذا ؟ فقالوا : قتل عثمان بن عفان ! ! فقال : « اللهم إنى أشهدك أنى لم أرض ولم أبالى » وفى مسند الحافظ بن مبدى عن الحسن البصرى قال : « صافحت على بن أبى طالب رضى الله عنه » قال الجلال السيوطى رحمه الله : « فقد ثبت عندى وعند جماعة من الحفاظ ثبوت رواية الحسن عن على بن أبى طالب رضى الله عنه » .

قال الجلال السيوطى وكذلك هى عبارة شيخنا الحافظ بن حجر قال : ويؤيد هذا وجوه ، الأول أن المثبت مقدم على النافى ، الثانى أن الحافظ ذكر أن الحسن البصرى كان يصلى خلف عثمان بن عفان رضى الله عنه ، فلما قتل كان يصلى خلف على رضى الله عنهما ، حين قدم على المدينة ، وكان يجتمع بعلى رضى الله عنه فى كل يوم خمس مرات ، وأطال الشيخ جلال الدين فى ذلك فى جزء له ألفه فى بيان صحة لبس الخرقة ، القادرية ، والرفاعية ، والسهروردية ، فراجعه والله أعلم .

قلت فعلم أن سند التلقين ولبس الخرقة كان السلف يتناولونها فيما بينهم من غير ثبوت من طريق المحدثين ، إحساناً للظن بسلفهم ، حتى جاء الحافظ بن حجر ، والجلال السيوطى ، ومن وافقهما فصححوا سماع الحسن من على رضى الله عنه ، وأوصلوا السند بهما ، فلا تستغرب يا أخى توقف بعض المحدثين فى اتصال السند بلبس الخرقة فإنه معذور فى ذلك ، لعسر استخراج ذلك من كتب المحدثين على غالب الصوفية ، فرحم الله الحافظ بن حجر والجلال السيوطى ، فى تبيينهما اتصال السند بذلك .

وسيأتى إن شاء الله تعالى فى الكلام على سند لبس الخرقة أن الشيخ محى الدين بن العربى ، لم يطلع على اتصال سندها من طريق النقل الظاهر فأخذها من طريق الخضر عليه السلام ، لما اجتمع به حتى اعتمد عليه فى السند ، والحمد لله رب العالمين .

إذا علمت صحة سند القوم ، واتصاله بالتلقين ، من النبى صلى الله عليه وسلم ، لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه ، فكذلك لقن رضى الله عنه الحسن البصرى ، والحسن البصرى لقن حبيباً العجمى ، وحبيب العجمى لقن داود الطائى ، وداود الطائى لقن معروفاً الكرخى ، ومعروف

الكرخى لقن السرى السقطى ، والسرى لقن ، أبا القاسم الجنيد ، والجنيد لقن القاضى رويم ، ورويم لقن محمد بن خفيف الشيرازى ، وابن خفيف لقن أبا العباس النهاوندى ، والنهاوندى لقن الشيخ فرج الزنجانى ، والزنجانى لقن القاضى وجيه الدين ، والقاضى وجيه الدين لقن أبا النجيب السهروردى ، والشيخ أبو النجيب لقن الشيخ شهاب الدين السهروردى والشيخ شهاب الدين ، لقن الشيخ نجيب الدين برغوش السيرازى ، وابن برغوش لقن الشيخ عبد الصمد النطنّرى ، والشيخ عبد الصمد ، لقن الشيخ حسن الشمسيرى ، والشمسيرى لقن الشيخ نجم الدين ، والشيخ نجم الدين لقن الشيخ محمود الأصفهانى ، والشيخ محمود ، لقن الشيخ يوسف العجمى الكورانى ، والشيخ يوسف لقن الشيخ حسن التسترى ، المدفون فى قنطرة الموسكى ، بمصر المحروسة ، والشيخ حسن لقن الشيخ أحمد بن سليمان الزاهد ، والزاهد لقن الشيخ مدين ، والشيخ مدين لقن الشيخ محمد ولد أخته ، وسيدى محمد لقن الشيخ محمد السروى ، والشيخ على المرصفى ، وهما توبا ولقنا العبد الفقير إلى الله تعالى ، عبد الوهاب بن أحمد الشعرانى ، مؤلف هذه الرسالة .

ثم أنى تلقنت على سيدى محمود الشناوى ، تلميذ هذين الشيخين الآخرين ، وتوبنى وأذن لى فى تلقين الذكر وتربية المريدين ، تشبهاً وتبركا بطريق القوم ، ولى طريق أخرى أقرب سنداً من هذه ، وهو أننى تلقنت على شيخ مشايخ الإسلام زكريا الأنصارى ، وتلقن هو على سيدى محمد الغمرى ، تلميذ سيدى أحمد الزاهد ، رفيق سيدى مدين ، فبينى وبين الشيخ الزاهد رجلان فقط ، فإنا مساو من هذا الطريق لسيدى محمد السرودى ، شيخ شيخى الشيخ محمد الشناوى ، لكن لم يأذن لى فى تربية المريدين ، سوى شيخى الشيخ محمد الشناوى رحمه الله تعالى .

ولى طريق أخرى بينى وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلان فقط ، وذلك أنى أخذت عن سيدى على الخواص ، وهو أخذ عن الشيخ سيدى إبراهيم المتبولى ، وهو أخذ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقظة ومشافهة ، بالكيفية المعروفة بين القوم ، فى عالم الروحانيات ، ثم أن سيدى عليا الخواص لم يمت حتى أخذ عن النبى صلى الله عليه وسلم من غير واسطة ، كما أخذ شيخه سيدى إبراهيم المتبولى ، فبينى وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل واحد ، وهذه طريق انفردت بها فى مصر الآن ، كما أوضحت ذلك فى كتاب المنن والأخلاق ، وفى العهود المحمدية ، والله أعلم .

ولما لقننى شيخى الشيخ محمد الشناوى رحمه الله أنشد هذا البيت :

أهيم بليلى ما حييت وإن أمت   أوكل بليلى من يهيم بها بعدى

ثم قال لى : قد جرت سنة الأشياخ أنهم يذكرون للمريد سند التلقين بعد تلقينه ، وسند إلباسهم الخرقة للمريد قبل إلباسه ، وأخبرنى أيضا ، أن ثم جماعة ببلاد اليمن لهم سند بتلقين الصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم فيلقنون المريد ذلك ، ويشغلونه بالصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يزال يكثر منها حتى يصير يجتمع بالنبى صلى الله عليه وسلم يقظة ومشافهة ، ويسأله عن وقائعه كما يسأل المريد شيخه من الصوفية ، وأن مريدهم يترقى بذلك فى أيام قلائل ، ويستغنى عن جميع الأشياخ ، بتربيته صلى الله عليه وسلم له :

قال : وعلامة صدقه فى تلك الطريق اجتماعه بالنبى صلى الله عليه وسلم كما ذكرنا ، فإن لم يحصل له به جمعية فهو بطال ، قال : وممن وصل بذلك الشيخ أحمد الزواوى الدمنهورى ، وكان ورده فى الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم كل يوم خمسين ألف صلاة ، بلفظ « اللهم صلى على سيدنا محمد النبى الأمى وعلى آله وصحبه وسلم » وممن وصل من هذه الطريق أيضاً

الشيخ نور الدين الشنوانى ، منشىء المجلس المتعلق بالصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم ، بجامع الأزهر رضى الله عنه ، وكذلك ممن وصل من هـــذه الطريق الشيخ محمد بن داود المنزلاوى ، والشيخ محمد العدل الطناجى ، والشيخ جلال الدين السيوطى ، وجماعة ذكرناهم فى مقدمة كتاب « العهود المحمدية » من المتقدمين والمتأخرين رضى الله عنهم أجمعين .

وأخذتها أنا بحمد الله عن الشيخ نور الدين الشنوانى وقال : إن من شرطها أكل الحلال ، وعدم الاشتغال بشىء آخر معها سوى ما أذن له فيه شرعا ، فالحمد لله رب العالمين .

آداب الذكر

وأما بيان آداب الذكر وبيان ثمرة التلقين فاعلم يا أخى : أن كل عبادة خلت عن الأدب فهى قليلة الجدوى ، وأجمع الأشياخ أن العبد يصل بعبادته إلى حصول الثواب ودخول الجنة ، ولا يصل إلى حضرة ربه ، إلا أن صحبه الأدب فى تلك العبادة ، ومعلوم أن مقصود القوم ، القرب من حضرة الله الخاصة ، ومجالسته فيها من غير حجاب ، وأما الثواب فحكمه حكم علف الدواب ، قال تعالى : « أنا جليس[1] من ذكرنى » يعنى ذكرنى على وجه الأدب والحضور ، والمراد بالمجالسة انكشاف الحجب للعبد ، انه بين يدى ربه عز وجل ، وهو تعالى يراه ، فمتى دام على العبد هذا الشهود فهو جليس الله تعالى ، فإن غاب عن ذلك المشهد ، خرج من حضرته فأفهم ، فليس المراد بحضرة الحق تعالى مكاناً مخصوصاً فى الأرض والسماء ، كما قد يتوهم ، فإن الحق تعالى لا تحويه السموات تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، فلا يزال العبد يكثر من الذكر باللفظ حتى يصير الحق تعالى مشهوده ، وهناك وضح الفتح لأن الذكر لله حقيقة ، هو استصحاب شهود العبد أنه بين يدى ربه ، والذكر باللسان إنما هو وسيلة إليه ، فإذا حصل له الشهود استغنى فى طلب الحضور عن ذكر اللسان ، فلا يذكر باللفظ إلا فى محل يقتدى به فيه لا غير ، لأن حضرة شهود الحق تعالى حضرة بهت وخرس ، يستغنى صاحبها عن الذكر ، إذ هو بمنزلة الدليل ، فإذا حصلت الجمعية بالمدلول ، استغنى العبد عن الدليل .

---

(١) من حديث قدسى .

وأجمعـــوا على أنه لا ينبغى لشيخ أن يلقن المريد تلقين السلوك ، ولذلك المريد علاقة دنيوية ، لأنه يعرضه بذلك للخيانة ، وأجمعوا على أن عمدة الطريق الإكثار من ذكر الله عز وجل ، حتى لا يكون للمريد شغل إلا به وحده ، وما أذن فيه ، وقالوا : إن الذكر منشور الولاية ، أى مرسوم من الله للعبد بالولاية ، كمراسيم ملوك الدنيا بالوظائف ، ولله المثل الأعلى فمن وفـّق لدوام ذكر الله تعـالى فقد أعطى المرسوم بأنه ولىّ الله عز وجل ، ومن يسلب عن الذكر فقد عزل عن الولاية .

وأجمعوا على أن الفتح فى الليل ، أقرب منه فى النهار ، وقالوا كل من لم يذكر الله من غروب الشمس إلى الصباح فى مجلس واحد ، ما عدا وقت الصلاة فلا يجىء منه شىء فى الطريق .

وقالوا : من لم يحصل له من الذكر حال التوى ، وحضور مع الله ، فليس له قطع المجلس ، لأن من لم يحضر ، فكأنه لم يذكر .

وقالوا : الذكر سيف المريدين به يقاتلون أعداءهم من الجن والإنس وبه يدفعون الآفات التى تطرقهم .

وقالوا : إن البلاء إذا نزل بقوم وفيهم ذكر حاد عنهم البلاء ، وكان ذو النون المصرى يقول : « من ذكر الله تعالى حفظه الله من كل شىء » وكان الكتانى يقول : « من شرط الذكر أن يصحبه الإجلال لله والتعظيم له وإلا لم يفلح صاحبه فى مقامات الرجال » وكان يقول : والله لولا أنه تعالى فرض علىّ ذكره لما تجرأت أن أذكره إجلالا له ، مثلى يذكر الحق تعالى ولم يغسل فمه بألف توبة مما سواه قبل ذكره » .

وأجمعوا على أن الذكر إذا تمكن من القلب ، صار الشيطان يصرع

إذا دنا من الذاكر كما يصرع الإنسان إذا دنا منه الشيطان ، فيجتمع عليه الشياطين فيقولون : ما باله ، فيقال : إنه دنا من ذاكر فصرع وقد عد الأشياخ للذكر ألف أدب ثم قالوا : « ويجمع هذه الآداب كلها عشرون أدباً من لم يتحقق بها فبعيد عليه الفتح ، خمسة منها سابقة على الذكر ، وإثنى عشر حال الذكر ، وثلاثة بعد الفراغ من الذكر .

فأما الخمسة السابقة ، فأولها التوبة النصوح ، وهى أن يتوب من كل ما لا يعنيه من قول أو فعل أو إرادة ، وكان ذو النون المصرى يقول : « من ادعى التوبة وهو يميل إلى شهوة من شهوات الدنيا فهو كاذب » .

الثانى : الغسل أو الوضوء كلما أراد الذكر ، وتعطير ثيابه وفمه بالبخور والماورد .

الثالث : السكون والسكوت ليحصل له الصدق فى الذكر ، وذلك أن يشغل قلبه بالله : الله : الله : بالفكر دون اللفظ ، حتى لا يبقى خاطر مع الله الله ، ثم يوافق اللسان القلب ، بقول « لا إله إلا الله » يفعل ذلك كلما أراد الذكر .

الرابع : أن يستمد عند شروعه فى الذكر بهمة شيخه ، بأن يشخصه بين عينيه ويستمد من همته ، ليكون رفيقه فى السير .

الخامس أن يرى استمداده من شيخه هو استمداده حقيقة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأنه واسطة بينه وبينه .

والإثنى عشر التى تكون حال الذكر ، فالأول الجلوس على مكان طاهر كجلوسه فى الصلاة فى التشهد الأول .

الثانى : أن يضع راحتيه على فخذيه ، واستحبوا جلوسه للقبلة إن كان يذكر وحده ، وإن كانوا جماعة تحلقوا .

الثالث : تطيب مجلس الذكر بالرائحة الطيبة .

الرابع : أن يكون ملبسه حلالا .

الخامس : اختيار الموضع المظلم من خلوة أو سرداب .

السادس : تغميض العينين ، وذلك أن الذاكر إذا غمض عينيه تسد عليه طرق الحواس الظاهرة شيئاً فشيئاً ، وسدها يكون سبباً لفتح حواس القلب .

السابع : أن يخيل شخص شيخه بين عينيه ما دام ذاكراً ، وهذا عندهم من آكد الآداب لأن المريد يترقى منه إلى الأدب مع الله والمراقبة له .

الثامن : الصدق فى الذكر بأن يستوى عنده السر والعلانية فيه .

التاسع : الإخلاص وتصفية العمل من كل شوب ، وبالصدق والإخلاص يصل العبد إلى مقام الصديقية .

العاشر : أن يختار من صيغ الذكر لفظة « لا إله إلا الله » فإن لها أثراً عظيماً عند القوم لا يوجد فى غيرها من سائر الأذكار ، فإن فنيت شهواته وأهويته كلها فحينئذ يصلح أن يذكر الله تعالى بلفظ الجلالة فقط من غير نفى ، وما دام يشهد شيئاً من الأكوان فذكر الله تعالى بالنفى والإثبات واجب عليه فى اصطلاحهم .

الحادى عشر : إحضار معنى الذكر بقلبه على اختلاف درجات المشاهد فى الذاكرين ، بشرط أن يعرض على شيخه كل شىء يرقى إليه من الأذواق ليعلمه طريق الأدب فيه .

الثانى عشر : تفرغ القلوب عن كل موجود حال الذكر سوى الله بقول : لا إله : فإن الحق تعالى غيور لا يحب أن يرى فى قلب الذاكر غيره إلا بإذنه ، ولولا أن للشيخ مدخلا عظيما فى تأديب المريد ما ساغ للمريد أن يخيل شخصه بين عينيه لا فى قلبه ، وإنما شرطوا نفى كل موجود من الكون من القلب ليتمكن له تأثير قول : لا إله إلا الله : بالقلب ، ثم يسرى ذلك المعنى إلى سائر الجسد ، وأنشدوا :

أتانى هواها قبل أن أعرف الهوى   فصادف قلباً فارغاً فتمكنا

وأجمعوا على أنه يجب على المريد أن يذكر بقوة تامة ، بحيث لا يبقى منه متسع ويهتز من فوق رأسه إلى أصبع قدميه ، وهى حالة يستدلون بها على أنه صاحب همة ، فيرجى له الفتح عن قريب إن شاء الله تعالى .

وأجمعوا على أنه يجب على المريد الجهر بالذكر بقوة تامة ، وأن ذكر السر والهوينا لا يفيده رقياً ، قالوا : ويجب عليه فى طريق سرعة الفتح أن يصعد لا إله إلا الله من فوق السرة من النفس التى بين الجنبين ويوصل لا إله إلا الله بالقلب اللحمى الكائن بين عظم الصدر والمعدة ، ويميل رأسه إلى الجانب الأيسر مع حضور القلب المعنوى فيه .

قالوا : ويكون الجهر فى الذكر برفق خوفاً أن يتربى له فتاق فى بطنه فيتعطل جهـــره بالكلية ، قالوا وليحذر الذاكر من اللحن فى : لا إله إلا الله : فإنها من القرآن فيمد على لام النفى بقدر الحاجة ، وتحقق الهمزة المكسورة بعدها ولا يمد عليها أصلا ، ويمد على اللام التى بعدها مداً طبيعياً ، وينطق بالهاء بعدها مفتوحة بغير مد بالكلية ، ثم ينطق بالهمزة من حرف الاستثناء مكسورة مخففة بغير مدّ أيضاً ، ولا يمد على لام الألف بعدها مداً ثم ينطق بالجلالة فيمد على اللام ، ويقف على حرف

الهاء بالسكون إن وقف ، وكذلك ينبغي اجتناب المد على حرف الهاء من إله ، فيتولد منه ألف وذلك تحريف للقرآن وكذا النطق بالهاء من الجلالة ، مضمومة ممدودة حتى ينشأ منها واو .

قال سيدى على بن ميمون شيخ سيدى محمد بن عراق رضى الله عنه : « وهذا اللحن كله قد أخذته فقراء العجم والروم ، وأتباع السنة المحمدية والسلف هو المطلوب .

وقال سيدى يوسف العجمى رحمه الله : « وما ذكروه من آداب الذكر محله فى الذاكر الواعى المختار ، أما المسلوب الاختيار فهو مع ما يرد عليه من الأسرار ، فقد يجرى على لسانه : الله ، الله ، الله ، الله ، أو هو هو هو ، أو لا لا لا أو آه آه آه أو عا عا عا أو آ آ آ أو ه ه ه أو ها ها ها أو صوت بغير حرف أو تخبيط ، وأدبه عند ذلك التسليم للوارد فإذا انقضى الوارد فأدبه السكون من غير تقول » قالوا وهذه الآداب تلزم الذاكر باللسان ، أما الذاكر بقلبه فلا يلزمه شىء من ذلك ، والله أعلم .

وأما الثلاثة آداب التى بعد الذكر فأولها ، أن يسكت بعد سكون وتخشع ويحضر مع قلبه مترقباً لوارد الذكر فلعله يرد عليه وارد فيعمر وجوده فى تلك اللحظة ، أكثر مما تعمره المجاهدة والرياضة مدة ثلاثين سنة ، فربما ورد عليه وارد الزهد فيصير زاهداً ، أو وارد تحمل الأذى من الخلق فيصير صابراً ، أو وارد الخوف من الله فيصير خائفاً ، وهكذا .

قال الإمام الغزالى : « ولهذه السكتة آداب أحدها : استحضار العبد أن الله تعالى مطلع عليه ، وأنه بين يدى الله تعالى ، ثانيها : جمع الحواس بحيث لا يتحرك منه شعرة ، كحال الهرة عند اصطياد الفأرة ، ثالثها : نفى

الخواطر كلها وأجراء معنى : الله الله : على القلب قال : وهذه الآداب لا يثمر للذاكر المراقبة إلا بها .

الثانى : أن يذم نفسه مراراً بقدر ثلاثة أنفاس إلى سبعة أنفاس وأكثر ، حتى يدور الوارد فى جميع عوالمه فتنور بصيرته ، وتقطع عنه خواطر النفس والشيطان ، وتكشف عنه الحجب ، وهذا كالمجمع على وجوبه عندهم .

الثالث : منع شربه الماء البارد عقيب الذكر فإن الذكر يورث حرقة وهيجاناً وشوقاً إلى المذكور الذى هو المطلوب الأعظم من الذكر ، وشرب الماء يطفى تلك الحرارة فليحرص الذاكر على هذه الثلاثة آداب ، فإن نتيجة الذكر إنما تظهر بها والله أعلم .

وأما بيان ثمرة التلقين ، فأعلم أن للتلقين ثمرة عامة وثمرة خاصة ، ولكل منهما رجال ، فالثمرة العامة الدخول بالتلقين فى سلسلة القوم فيصير كأنه حلقة من حلق السلسلة الحديد ، فإذا تحرك فى أمر تحرك معه سائر السلسلة ، فإن كل ولى بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كأنه واحد من حلق السلسلة ، بخلاف من لم يتلقن ، فإن حكمة حكم الحلقة المنفصلة إذا تحرك فى أمر يدهمه لا يتحرك معه أحد لعدم ارتباطه بأحد .

وسمعت سيدى على المرصفى رضى الله تعالى عنه يقول : « حكم تلقين الشيخ للمريد حكم النواة التى تغرس فى أرض يابسة ينتظر ريها بالمطر ، فرادها واستمدادها وانعلافها وخروج ورقها ، راجع إلى شدة شربها وخفته ، بحسب الرى لا إلى غرس الشيخ فللشيخ البذر وللحق تعالى الإنبات ، وربما غرس شيخ غرساً فى المريد ومات ، وكان خروج الثمرة على يد شيخ آخر بعده ، إما لضعف همة المريد أو عدم توالى معانى الذكر على

قلبه ولسانه ، فإنهم قالوا : إن توالى الذكر بعد التلقين كتوالى المطر على النواة بعد غرسها : وذلك لأنه يسرع بالفتح والإنتاج .

فعلم أنه لا يكفى المريد بعد التلقين أن يحضر مع الفقراء مجلس الذكر صباحاً ومساء فقط كما عليه غالب المريدين فى هذا الزمان فإن حكم ثمرة ذلك الذكر ، كمن يقطر على النواة قطرة ماء أول النهار وقطرة ماء آخره ، مع تحال الشمس والريح بينهما ، ومثل ذلك لا يروى أرض النواة بل ربما لم يصل إلى النواة منه طراوة ، فيطول زمن فتحه ، وربما مات ولم يفتح عليه بشيء ، وربما لام هذا المريد الشيخ على تلقينه ، وقال ولو فى نفسه : ما كان لى حاجة بهذا التلقين لأنه لم يحصل لى به فائدة ، وغاب عنه أن وظيفة الشيخ إنما هو غرس النواة ، وعلى المريد كثرة الذكر ، والأعمال المرضية ، ثم إن أبطأ فتح المريد فذلك إلى الله لا إلى الشيخ ، فحكم هذا المريد البارد الهمة كحكم القطن الذى يقدح فيه الزناد ، فإن كان جافا علق فيه القبس وإلا طفى كل قبس نزل فيه من شرر النار فافهم .

ثم إذا تلقن المريد وحصل منه معصية أو سوء أدب فالواجب عليه إعادة التلقين ليخرج الشيطان من مدينة جسده وقلبه إذ التلقين يخرج الشيطان ، وسوء الأدب يدخله .

وسمعنا سيدى محمد الشناوى يقول : « حكم المريد إذا وقع فى سوء أدب بعد التلقين ، حكم الحبة إذا سوست وذابت واستحالت إلى طبع العذرة ، فلا يرجى منها بعد ذلك إنبات ولا خروج ورق ، فضلا عن الثمرة ، بل تتلف تلك الحبة التى بزرها الشيخ بالكلية ، وهذا الأمر قد كثر فى مريدى هذا الزمان وما منهم أحد يجدد التلقين على شيخه فعدموا النفع وصاروا أجساداً بلا أرواح كأنهم خشب مسندة ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

وأما ثمرة التلقين الخاصة الذى هو تلقين السلوك بعـــد الدخول

فى سلسلة القوم فصورته : أن الشيخ يتوجه إلى الله تعالى ويفرغ على المريد من قوله له : قل : لا إله إلا الله ، جميع ما قسم له من علوم الشريعة المطهرة فلا يحتاج بعد هذا التلقين إلى مطالعة كتاب من كتب الشريعة حتى يموت ، وقد كان الشيخ أبو القاسم الجنيد رضى الله عنه يقول : « لما لقننى شيخى السرى رحمه الله أفرغ فى جميع ما كان عنده من علوم الشريعة ، وكان يقول : ما نزل من السماء علم وجعل الحق تعالى للخلق إليه سبيلا ، إلا وجعل لى فيه حظاً ونصيبا ، وكان يقول : يحتاج من يتصدر لأخذ العهود وتلقين الذكر وإرشاد المريدين أن يكون متبحراً فى علم الشريعة لأن له فى كل حركة ميزاناً شرعياً » .

ومن قال من المتمشيخين فى هذا الزمان أن هذا الأمر ليس هو بشرط فى التلقين لكونه هو لا يقدر عليه ، قلنا له : قد نسبت أشياخ الطريق من السلف إلى الجهل ، وهذا يقع فيه كثير ممن برز للشيخة بغير حق فيقول عن كل شرط رآه فى مقام من المقامات : هذا ليس بشرط ، خوفا أن يفضح نفسه بين الناس ولو أنه كان متأدباً لقال : هذا الأمر لا نقدر عليه ثم يطلب له شيخاً ببلد له ليوصله إليه ، كما درج عليه الصادقون .

وأما بيان فوائد الذكر وبيان كيفيته وبعض ما ورد فى الحث عليـــه ، فاعلم رحمك الله ، أن فوائد الذكر لا تنحصر لأن الذاكر يصير جليس الله تعالى لا يرى فيه بينه وبين ربه واسطة ، فلا يعلم أحد قدر ما يتحفه الحق تعالى من العلوم والأسرار كلما ذكر ، لأنها حضرة لا يرد عليها أحد ويفارقها بغير مدد ، فيقال لمن ادعى أنه حضر بقلبه فى ذكره مع ربه : ماذا أتحفك وأعطاك فى هـــذا المجلس فإن قال : ما أعطانى شيئاً ؟ قلنا له : وأنت الآخر لم تحضر معه شيئاً ، فاتخذ شيئاً يزيل عنك الموانع المانعة لك عن الحضور ، فإن لم يتخذ له شيخاً قلنا له :

أكثر من الذكر ولو بغير حضور ، وكذلك قال صاحب الحكم : « لا تترك الذكر لعدم حضورك مع الله تعالى فيه ، لأن غفلتك عن وجود ذكره أشد من غفلتك فى وجود ذكره ، فعسى أن يرفعك من ذكر مع وجود غفلة إلى ذكر مع وجود يقظة ، إلى ذكر مع وجود حضور ، ومن ذكر مع وجود حضـــور ، إلى ذكر مع غيبة ، عما سوى المذكور ، وما ذلك على الله بعزيز » .

وأجمع القوم على أن الذكر مفتاح الغيب ، وجاذب الخير ، وأنيس المستوحش ، ومنشور الولاية ، فلا ينبغى تركه ، ولو مع الغفلة ، ولو لم يكن من شرف الذكر إلا أنه لا يتوقت بوقت لكان ذلك كفاية فى شرفه قال تعالى : « الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم » قالوا : وما ثم أسرع من فتح الذكر ، وهو جامع لشتات صاحبه ، وإذا غلب الذكر على الذاكر ، امتزج بروح الذاكر حب اسم المذكور ، حتى أن بعض الذاكرين وقع على رأسه حجر فقطر الدم على الأرض وكتب : « الله الله » .

واعلم يا أخى أنه لا يجد أنس الذكر إلا من ذاق وحشة الغفلة ، فأما المستغرق فلا يجد أنساً ولا وحشة ، ولا يخاف من سبع أوحية ، وبعـــد ذكر ما نبهناك عليه من فائدة الذكر ، فلنورد إليك شيئاً من فضـله لأن القلب يقوى بالاطلاع على الدليل ، فروى الشيخان وغيرهما مرفوعاً : « ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم ، وأرفعها فى درجاتكم ، وخير لكم من إنفاق الذهب والورق ، وخـير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم ، قالوا : بلى ، قال : ذكر الله » .

وروى الشيخان مرفوعاً : يقول الله عز وجل : « أنا عند ظن عبدى

بى ، وأنا معه إذا ذكرنى ، وفى رواية « أنا مع عبـــدى إذا ذكرنى وتحركت بى شفتاه » .

وكان معاذ بن جبل رضى الله عنه يقول : « آخر كلام فارقت عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن قلت : أى الأعمال أحب إلى الله تعالى ، قال : « أن تموت ولسانك رطب من ذكر الله » .

وفى الصحيح مرفوعاً « أن لكل شىء صقالة ، وأن صقالة القلوب ذكر الله ، وما من شىء أنجى من عذاب الله من ذكر الله قالوا : ولا الجهاد فى سبيل الله ؟ قال : ولا أن يضرب بسيفه حتى ينقطع » .

وروى ابن حبـان فى صحيحه مرفوعاً : « ليذكرن الله قوم فى الدنيا على الفرش الممهدة يدخلهم الله الدرجات العلى » وروى الشيخان مرفوعاً : « مثل الذى يذكر الله والذى لا يذكر الله ، مثل الحى والميت » وروى الإمام أحمد والطبرانى « أن رجلا قال : يا رسول الله ، أى المجاهدين أعظم أجراً قال : أكثرهم ذكراً لله ، ثم ذكر الصلاة والزكاة والحج والصدقة ، كل ذلك ورسول الله صلى الله عليـــه وسلم يقول : أكثرهم لله ذكرا ، فقال : أبو بكر لعمر . يا أبا حفص ، ذهب الذاكرون بكل خير ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أجل » .

وروى الطبرانى مرفوعاً « ليس يتحسر أهل الجنة إلا على ساعة مرّت بهم لم يذكروا الله فيها » وروى الطبرانى أيضاً مرفوعاً : « من لم يذكر الله فقد برىء من الإيمان » وقال الشيخ أبو المواهب « من نسى الله تعالى فقد كفر به ، حديث الطبرانى « يقول الله عز وجل : يا ابن آدم إنك إذا ذكرتنى شكرتنى ، وإذا نسيتنى كفرتنى » .

قال : وهذا النسيان يطلق على نسيان غفلة الجهل بالله والإشراك به ،

وعلى نسيان غفلة الإعراض عن الحق ، وطريقه مذموم ، فإن قيل : فأيها أنفع ، الذكر منفرداً ، أو جماعة ؟ فالجــواب : الذكر منفرداً أنفع لأصحاب الخلوة ، والذكر جماعة ، أنفع لمن لا خلوة له ، فإن قلت : فأيما أنفع الذكر جهراً أو سراً ؟ فالجواب : الذكر جهراً أنفع لمن غلبت عليه القسوة من أصحاب البداية ، والذكر سراً أنفع لمن غلبت عليه الجمعية من أصحاب السلوك ، فإن قلت : فهل الاجتماع على الذكر أفضل أم هو بدعة كما يزعمه بعضهم ؟ قلنا : هو مستحب يحبه الله ورسوله ، وأى عبادة أفضل من عبادة قوم يجتمعون على ذكر الله ، ويجالسونه بذكرهم ، فإن قلت : فما الدليل على أن الاجتماع على الذكر أفضل ؟ فالجواب : أن من الدليل على ذلك ، ما رواه مسلم والترمذى مرفوعاً « لا يقعد قوم يذكرون الله تعالى إلا حفتهم الملائكة ، وغشيتهم الرحمة ؛ ونزلت عليهم السكينة ، وذكرهم الله فيمن عنده » .

وروى البخارى مرفوعاً « أن لله ملائكة يطوفون فى الطريق ، يلتمسون أهل الذكر فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله عز وجل ، تنادوا : هلموا إلى حاجتكم ، قال : فيحفونهم بأجنحتهم إلى سماء الدنيا » الحديث .

وروى الإمام أحمــد بإسناد حسن مرفوعاً « ما من قوم اجتمعوا يذكرون الله عز وجل ، لا يريدون بذلك إلا وجهه ، إلا ناداهم مناد من السماء : أن قوموا مغفوراً لكم ، قد بُدلت سيئاتكم حسنات » .

وروى الترمذى بإسناد حسن مرفوعاً : « ما من قوم اجتمعوا يذكرون الله عز وجل ، لا يريدون بذلك إلا وجهه ، إلا ناداهم مناد من السماء : إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا ، قالوا : وما رياض الجنة يا رسول الله ؟ قال : حلق الذكر » .

وروى ابن حيان فى صحيحه مرفوعاً ، يقول الله عز وجل « سيعلم أهل الجمع من أهل الكرم ، فقيل : من أهل الكرم يا رسول الله ؟ قال : أهل مجالس الذكر فى المساجد ، فاذكر الله حتى يقولوا مجنون » .

وروى أبو داود مرفوعاً : « لأن أقعد مع قوم يذكرون الله تعالى من صلاة الغد حتى تطلع الشمس ، أحبّ إلى من أن أعتق أربعة من ولد إسماعيل ، ولأن أقعد مع قوم يذكرون الله تعالى من صلاة العصر إلى أن تغرب الشمس ، أحبّ إلى من أن أعتق أربعة » .

قال علماؤنا : وتخصيص الرقبة بولد أسماعيل لأن كل رقبة من ولد إسماعيل باثنى عشر رقبة من سائر الرقاب ، وروى الإمام أحمد باسناد حسن ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : « قلت يا رسول الله ، ما غنيمة مجالس الذكر ؟ قال : غنيمة مجالس الذكر الجنة » قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام : وهذا الحديث وأمثاله ملحق بدرجة الأمر ، لأن كل فعل مدحه الشارع ، أو مدح فاعله لأجله أو وعد عليه بخير عاجل أو آجل ، فهو مأمور به ، لكنه رضى الله عنه تردد بين الإيجاب والندب ، والأحاديث فى ذلك كثيرة .

وأجمع العلماء سلفاً وخلفاً ، على استحباب ذكر الله تعالى جماعة فى المساجد وغيرها ، من غير نكير ، إلا أن شوش ذكرهم بالذكر على نائم أو مصل أو قارىء ، أو نحو ذلك ، مما هو مقرر فى كتب الفقه .

وقد شبه الإمام الغزالى ، ذكر الإنسان وحده ، وذكر الجماعة ، بأذان المنفرد وآذان الجماعة ، قال : « فكما أن أصوات المؤذنين جماعة ، تقطع جرم الهواء أكثر من صوت مؤذن واحد ، كذلك ذكر الجماعة على قلب واحد أكثر تأثيراً فى رفع الحجاب من شخص واحد » وأما

من حيث الثواب فلكل واحد ثواب نفسه وثواب سماع رفيقه ، ووجه كون الذكر جماعة أكثر تأثيراً فى رفع الحجب الكثيفة ، كون الحق تعالى شبه القلوب بالحجارة ، ومعلوم أن الحجر الكبير لا ينكسر إلا بقوة جماعة مجتمعين على قلب واحد ، لأن قوة الجماعة أشد من قوة الشخص الواحد ، ومن هنا اشترطوا فى الذكر ، أن يكون بقوة تامة ، واستدلوا بقوله تعالى « ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة » فكما أن الحجر لا ينكسر إلا بقوة ، كذلك الذكر لا يؤثر فى جمع شتات قلب صاحبه إلا بقوة .

فإن قيل أيما أفضل ذكر لا إله إلا الله ، أو زيادة محمد رسول الله ؟ فالجواب : الأفضل فى ذكر السالكين ، ذكر لا إله إلا الله ، دون محمد رسول الله ، حتى يحصل لهم الجمعية مع الله تعالى بقلوبهم ، فإذا حصلت ، فذكر محمد رسول الله مع ذلك أفضل .

وبيان ذلك أن محمداً رسول الله إقرار ، والإقرار يكفى فى العمر مرة واحدة ، والمقصود من تكرار التوحيد كثرة الجلاء لحجب النفوس ، على أن قول العبد لا إله إلا الله ، امتثال لقول رسول الله « قل لا إله إلا الله » هو عين إثبات رسالته ، ولهذا اقتصر فى بعض الروايات على قول لا إله إلا الله فقال : أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فإذا قالوها فقد عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام ، وحسابهم على الله » .

فلم يقل فى هذه الرواية وأن محمداً رسول الله لتضمن هذه الشهادة ، الشهادة له صلى الله عليه وسلم بالرسالة ، فإن قيـــل فأيما أفضل الذكر أو تلاوة القرآن ؟ من حيث أنه ذكر وتلاوة ، فالجواب : الذكر أفضل

للمريد ، وتلاوة القرآن أفضل للكامل ، الذى عرف عظمة الله تعالى ، ومرادنا بالذكر والقرآن مالم يقيده الشارع بوقت ، فإن وقت ذلك كان الذكر أفضل فى موضعه ، والتلاوة فى موضعها أفضل .

وكان الشيخ عز الدين بن عبد السلام يقول : « تارة يكون القرآن أفضـــل ، وتارة يكون الذكر أفضل » وكان يقول : « اختلاف العلماء فى أيما أفضل ، قول العبد : الله الله الله : أو لا إله إلا الله : فذهب قوم من الصوفية إلى أن ذكر الجلالة أفضل للمبتدىء ، وذهب جمهور الصوفية والمحدثين والفقهاء ، إلى أن لا إله إلا الله أفضل للمبتدىء والمنتهى ، وذهب قوم إلى أن لا إله إلا الله ، ذكر المبتدى ، وقول الله الله فقط ، ذكر المنتهى ولكل من المذاهب الثلاثة وجه .

وأما سند القوم بإلباسهم الخرقة للمريد فروينا عن الحافظ ضياء الدين المقدسى ، والحافظ بن مبدى ، وحافظ العصر الشيخ جلال الدين السيوطى أن الحسن البصرى وأويسا القرنى كانا يلبسان الخرقة لأصحابهما ، وكان الحسن البصرى يخبر ، بأنه لبس الخرقة من يد على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وأويس القرنى يخبر بأنه لبسها من يد عمر بن الخطاب ، ومن يد على بن أبى طالب ، وهما لبساها من يد رسول الله صلى الله عليه وسلم ورسول الله صلى الله عليه وسلم لبسها من يد جبريل عليه السلام ، بأمر من ربه عز وجل .

واعلم يا أخى أن بعض المحدثين لم يزل يطعن فى صحة ســـند لبس الخرقة من حيث اتصال سندها فى كل عصر ، حتى جاء الشيخ جلال الدين السيوطى رحمه الله فصحح تبعاً لجماعة من الحفاظ طريق ســـندها ، وسماع الحسن البصرى من على رضى الله عنـــه ، كما مرّ بيانه فى سند

تلقين النوم ، حتى أن الشيخ الكامل الراسخ محي الدين بن العربي رضى الله عنه ، كان يلبس الخرقة للمريد ويقول : « هذا بسبب التبرك بفعل السلف ولم أجد فى ذلك دليلا » ، وذكر فى الباب الخامس والعشرين من الفتوحات ما نصه «كنت لا أقول بلباس الخرقة التى يفعلها الصوفيـــة وما كنت أعرف الخرقة إلا الصحبة والأدب لا غير » ، قال : ولهذا لا يوجد إلباسها متصلا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولـكن لما رأيت الخضر عليه الصلاة والسلام بمكة يلبسها للأولياء ، قلت بها من ذلك الوقت ، فلبستها من يده تجاه الحجر الأسود ، وألبستها للناس بعد ذلك ، وكذلك لبستها من يد عيسى عليه السلام فى بعض الوقائع ، قال : والسر فى إلباسها أن الشيخ إذا أراد أن يكمل فقيراً والشيخ فى وقت غلبة حاله عليه ، ينزع ذلك الثوب الذى عليه الثلا ويلبسه للمريد الذى يريد تـكملته ، فيسرى فيه ذلك الحال فيكمل حاله فى الأخلاق إذ ذاك ، فهـــذا هو اللباس المعروف بين العارفين ، كالخلعة من الملك .

وأما من ألبسها بغير حال فإنما ذلك من باب التشبه والتبرك لا غير ، إذا علمت ذلك فأقول وبالله التوفيق :

ذكر الشيخ المرسى أبو العباس رحمه الله « يجب على من يلبس المريدين الخرقة من طريق السلوك أن يعين رجال سنده إليها لأنها حينئذ رواية ، والرواية يجب تعيين رجال سندها ، وأما أصحاب الجذبات الإلهيّة فلا يجب عليهم تعيين مشايخهم إن ألبسوا المريد الخرقة لأنها هداية من الله ، وفتحهم من عين المنّة لا واسطة فيه » ، إذا علمت ذلك فقد لبست الخرقة المباركة من سيدنا ومولانا شيخ الإسلام زكريا الأنصارى المدفون تجاه وجـــه الإمام الشافعى ، فى شباك الشيخ نجم الدين الخوشانى وأرخى لى العـذبة وذلك فى المحرم سنة أربع عشرة وتسعماية ، وهو لبسها من يد سيدى

الشيخ محمد الغمرى المدفون بالمحلة الكبرى ، وهو لبسها من يد سيدى أحمد الزاهد ، وهو لبسها من يد سيدى حسن التسترى ، وهو لبسها من يد سيدى يوسف العجمى ، وهو لبسها من يد سيدى الشيخ محمود الأصفهانى ، وهو لبسها من يد الشيخ عبد الصمد النطنزى ، وهو لبسها من يد الشيخ نجيب الدين على بن برغوش ، وهو لبسها من يد الشيخ شهاب الدين السهروردى ، وهو لبسها من يد عمّه إلى النجيب السهروردى ، وهو لبسها من يد عمّه القاضى وجيه الدين ، وهو لبسها من يد أبيه محمد الشهير بعموية ، وهو لبسها من يد الشيخ أحمد الدينورى ، وهو لبسها من يد أبى القاسم الجنيد ، وهو لبسها من يد أبى جعفر الحداد ، وهو لبسها من يد أبى عمر والأصطخرى ، وهو لبسها من يد شقيق البلخى ، وهو لبسها من يد إبراهيم بن أدهم ، وهو لبسها من يد موسى ابن يزيد الراعى ، وهو لبسها من أويس القرنى ، وهو لبسها من يد عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب ، حين أمرهما النبى صلى الله عليه وسلم بالاجتماع به .

ولبسها الإمام عمرو الإمام على رضى الله عنهما من يد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم لبسها من يد جبريل ، كما مر أول الكلام ، وجبريل عليه السلام لبسها من الحق جل وعلا ، كما رأيته فى رسالة الشيخ عبد الرحمن القوصى تلميذ أبى عبد الله القرشىّ ، وروى بسنده المتصل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه رأى ليلة الإسراء صندوقاً من نور ففتحه جبريل فإذا فيه خروق حمر وخضر وسود ، فقال يا جبريل ما هذا ؟ فقال : هذه خرق ، تكون لخواص أمتك انتهى ، ولم أجد ذلك لغيره ، فالحمد لله رب العالمين .

إنتهت المقدمة ولنشرع فى أبواب الكتاب فنقول :

الباب الأول
آداب المريد

فى ذكر نبذة من آداب المريد فى نفسه وذكر ما قاله الأشياخ فى ذلك . فأقول وبالله التوفيق :

إعلم يا أخى أن جميع آداب المريد يعسر حصرها وضبطها فى عبارة على وجـــه التفصيل ، ولكن نذكر لك طرفاً صالحاً من ذلك على أن وظيفة الشيخ أنه يستخرج للمريد ما هو كامن فيه لا غير ، فإن الله تعالى قد بث فى كل روح جميع ما يتعلق بصاحبها من المحامد والمذام ، فما أمره شيخه أو نهاه عنه إلا وهو كامن فى روحه ، وليس مع الشيخ شىء يعطيه للمريد خارجاً عنه ، فإن حكم المريد فى ابتداء أمره ، حكم النواة الكامن فيها النخلة التى هى هنا عبارة عن الصدق فى الطريق أو الكذب فيها ، فإن كان صادقاً تفرعت ثمرة صدقه وأثمرت حتى تشرف على جميع جيرانه ويأكلون من ثمرتها ، بل تنتشر إلى جميع أهل بلده أو إقليمه وينتفعون بها ، ويظهر صدقه وصلاحه للخاص والعام ، حتى أنه لو أراد كتمان صلاحه عنهم لا يقدر ، وإن كان المريد كاذباً فى محبته للطريق تفرعت شجرة كذبه ونصبه ونفاقه حتى تشرف على جميع جيرانه وبلده وإقليمه ويظهر لهم كذبه ونفاقه ورياؤه ، حتى لو أراد أن يتظاهر بصـــورة الصادق لا يقدر على ذلك ، لأن أفعاله الرذيلة تكذب دعواه ، ويفتضح وترفضه الطريق ، حتى تلحقه بفسقه العوام عقوبة له على كذبه على طريق الله عز وجل ، وربما أعطاه الله تعالى رائحة من الصدق ثم سلبها منه .

فقال الناس كلهم فيه : فلان سلب عن طريق الفقراء ، وما بقى فيه رائحة من روائح أهلها ، فيصير يرخى له عذبة ويربى له شعرة ، ويلبس الصوف ، ويتحلى بحلاس الفقراء والناس يرونه عرياناً من الأدب لا يكاد سلبُه يخفى على أحد من الناس .

فابن أمرك يا أخى على الصدق فى طلب طريق أهل الله تعالى وإلا رفضك الطريق ولو على طول ، والله يتولى هداك ، إذا علمت ذلك فأقول وبالله التوفيق : من شأن المريد أن يصدق فى محبّة الشيخ لأنه دليله فى السلوك به فى الغيب كدليل الحجاج فى الليالى المظلمة ومن لازم المحبة الطاعة ، ومن لازم عدم المحبة المخالفة ، ومن خالف دليله تاه وانقطع سيره وهلك .

ومحك الصدق فى محبّة الشيخ أن لا يصرفه عنه صارف ولا ترده السيوف والمتالف ، وقد ادعى بعضهم الصدق فى محبة الشيخ وإخوانه فى الطريق وأنه لا يصرفه عنهم صارف ولو هجروه بغير حق وشاع ذلك بين الخاص والعام فقام يوماً وأنشد على رءوس الفقراء :

لو عذبونى كل يوم وليلة   على غير ذنب سرنى ورضيت

فقال له شخص من حذاق المريدين : تكذب ! ؟ فتشوش وجاس وظهر أثر ذلك فى وجهه ، فأجمع الفقراء على كذبه وقالوا له : كيف تقول ما قلت ؟ وتتكدر من قول بعض الناس لك تكذب ! ؟ وإذا كنت لا تحتمل نقطة واحدة فكيف تحتمل التعذيب كل يوم وليلة على غير ذنب ! ؟ فاستغفر المدعى واعترف بكذبه .

فاصدق يا أخى فى محبة الشيخ تنل كل خير والله يتولى هداك ، ومن

شأنه أن لا يدخل فى عهد شيخ حتى يتوب من سائر الذنوب الظاهرة والباطنة ، كالغيبة ، وشرب الخمر ، والحسد ، والحقد ، ونحو ذلك ، كما أنه ينبغى له أن يرضى سائر الخصوم فى العرض والمال ، فإن حضرة الطريق هى حضرة الله عز وجل ، ومن لم يتطهر من سائر الذنوب باطناً وظاهراً ، لا يصح له دخولها ، فحكمه حكم من دخل الصلاة وفى بدنه أو ملبوسه نجاسة ، لا يعفى عنها أو لبعد لم يصبها الماء فإن صلاته باطلة ولو كان شيخه من أكبر الأولياء لا يقدر يسير به فى طريق أهل الله خطوة إلا أن طهره قبل ذلك .

وهذا الباب قد أغفله غالب الناس فيأخذون العهد على المريد وعليه الذنوب الظاهرة والباطنة ، فضلا عن حقوق العباد فى المال والعرض ، فلا يصح له نتاج فى الطريق ، وسمعت سيدى على الخواص رحمه الله يقول : « طريق أهل الله تعالى كدخول الجنة ، فكما لا يصح لأحد من أهل الجنة دخولها وعليه حق لآدمى ، كما ورد فى الصحيح ، فكذلك دخول طريق الله عز وجل » انتهى .

ثم ضابط التوبة الرجوع عما كان مذموماً فى الشرائع إلى ما كان محموداً فيه ، كل تائب بحسب مرتبته ، فإنه ربما كان ما يحمد عليه إنسان يستغفر منه إنسان آخر ، من باب « حسنات الأبرار سيئات المقربين » فاعلم أن من كان مصراً على ارتكاب المخالفات ، وأكل الشهوات ، وملازمة المحرمات ، فبينه وبين الطريق كما بين السماء والأرض ، ثم لا يخفى أن النفس من شأنها الدعاوى الكاذبة ، فربما ادعت الصدق فى التوبة وهى كاذبة ، فلا يقبل فى ذلك إلا بشهادة شيخه له بالصدق فى كل مقام ادّعاه فى التوبة ، حتى يصل إلى مقام يتوب كلما غفل عن شهود ربه طرفة عين ، ثم يترقى فى مقامات التعظيم لله تعالى أبد الآبدين ،

ودهر الداهرين لا يقف فى التعظيم على مقام ، ولا قرار ، وهـذا غاية ما قالوه فى التوبة .

فهى التوبة عن الكبائر ، ثم الصغائر ، ثم المكروهات ، ثم من خلاف الأولى ، ثم من رؤية الحسنات ، ثم من رؤية أنه صار معدوداً من فقراء الزمان والله أعلم .

ومن شأنه ملازمة المجاهدة لنفسه فلا يصطلح معها أبداً ، وقد كان الشيخ أبو على الدقاق رحمه الله يقول : « من زين ظاهره بالمجاهدة ، زين الله باطنه بالمشاهدة ، ومن لم يجاهد نفسه فى بدايته لا يشم من الطريق رائحة ، لأن من خصائص طريق أهل الله تعالى أن العبـد إذا لم يعط الطريق كله لا تعطه الطريق بعضها .

وكان أبو عثمان المغربى رحمه الله يقول : « من ظن أنه يفتح عليه بشيء من هذه الطريق بغير مجاهدة ، فقد رام المحال » وكان أبو علىّ الدقاق يقول : « من لم يكن له فى بدايته قومة لم يكن له فى نهايته جلسة » . وكان الحسن العرار يقول : بنيت طريق القـــوم على ثلاثة أشياء ، أن لا يأكل مريدها إلا عند الفاقة ، ولا ينام إلا عند الغلبة ، ولا يتكلم إلا عند الضرورة الشرعية ، وكان سيدى إبراهيم بن أدهم رحمه الله يقول : « لا ينال الرجل درجة الصالحين حتى يكون فيه ست خصال : المجاهدة للنفس والذل لها ، والسهر ومحبة التقلل من الدنيا ، والفرح بأدبارها ، وقصر الأمل » وكان الشبلى رحمه الله ، يضرب نفسه بقضبان الخيزران إذا جاءه النوم حتى ربما فنيت الحزمة كلها قبـــل الفجر ، وكان كثيراً ما يكتحل بالملح حتى لا يأخـــذه النوم ، وكان كثيراً ما يضرب يديه

ورجليه فى الحائط ، إذا لم يجـد شيئاً يضرب به نفسه ، وكان يقول : ما هالنى شىء إلا وركبته » .

قلت وهذه الأمور لا ينبغى لأحد الاعتراض على أربابها لأنهـا من باب ارتكاب أخف المفسدتين عندهم ، فهم يرون احتمال شدة الألم أخف عليهم من احتمال الغفلة عن الله بنوم أو غيره ، عكس ما عليـــه غيرهم والله أعلم .

ومن شأنه أن لا يتكلم ولا يسكت إلا بضرورة أو لحاجة شرعية وسد باب الكلام اللغو جملة ، وقد عدوا قلة الكلام من أحـــد أركان الرياضة وكان بشر بن الحارث يقول : « إذا أعجبك الكلام فاسكت وإذا أعجبك السكوت فتكلم ، فإن فى الكلام حظ النفس ، وإظهـــار صفات المدح » .

وقد كان الإمام أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، يضع كثيراً الحجر(١) فى فيه حتى يقل كلامه ، فكان كلما أراد أن يتكلم لغواً تذكر بالحجر ، وقيل أنه وضع الحجر فى فيه كذا سنة ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هل يكب الناس فى النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم » والحمد لله رب العالمين . ومن شأنه كثرة الجوع بطريقه الشرعى ، وهو معظم أركان الطريق ، فكما أن الشارع جعل معظم الحج عرفة ، كذلك أهل الله جعلوا الجوع هو الطريق .

---

(١) يريد الحصى الصغير .

أركان الطريق

وأركان الطريق أربعـــة أشياء : الجوع ، والعزلة ، والسهر ، وقلة الكلام ، وإذا جاع المريد تبعه الأركان الثلاثة بالخاصية ، إذ الجوعان من شأنه أن يقل كلامه ، ويكثر سهره ، ويحب العزلة عن الناس وأنشدوا :

بيت الولاية قسمت أركانه ساداتنا فيه من الأبدال
ما بين صمت واعتزال دائماً والجوع والسهر النزيه الغالى

وكان أبوالقاسم القشيرى رحمـــه الله تعالى يقول : « إنما أساس باب الطريق الجوع لأنهـــم لم يجدوا ينابيع الحكمة تحصل لهم إلا به » وقد كانوا يتدرجون فى تقليل الأكل شيئاً فشيئاً حتى وصلوا إلى أكل لقمة واحدة كل يوم وليلة ، وبعضهم وصل إلى تمرة أو لوزة أو زبيبة ، وكان أبو عثمان المغربى رحمه الله تعالى ، يأكل كل ستة أشهـــر أكلة واحدة[1] ، قال الشيخ محي الدين فى الفتوحات المكية : « وقد بلغنا أن الله تعالى لما خلق النفس قال لها : من أنا ؟ فقالت له : فمن أنا ؟ فأسكنها فى بحر الجوع أربعة آلاف سنة ، ثم قال لها : من أنا ؟ فقالت أنت ربى » .

وكان سهل بن عبد الله التسترى لا يأكل إلا بعد خمسة عشر يوماً ، وكان إذا دخل رمضـان لا يأكل حتى يرى هلال شوال ، وكان يفطر كل ليلة من رمضان على الماء فقط ليخرج من الوصال فى الصوم ويقول :

---

(١) هذا مقام الصفوة من المجاهدين الروحانيين ، وليس نهجاً عاماً للسالـكين .

« لما خلق الله الدنيا جعل فى الجوع العلم والحكمة ، وجعل فى الشبع الجهل والمعصية » وكان رحمه الله تعالى إذا جاع قوى ، وإذا شبع ضعف .

وكان أبو سليمان الدارانى يقول : « مفتاح الدنيا الشبع ، ومفتاح الآخرة الجوع » يعنى أعمالها ، وكان يحيى بن معاذ يقول : « الشبع نار ، والشهوة مثل الحطب ، يتولد منه الإحراق ولا ينطفىء ناره حتى يحرق صاحبها » وكان سهل بن عبد الله يقول : « من أراد أن يأكل فى كل يوم مرتين ، فليبن له معلفاً » وكان مالك بن دينار رحمه الله يقول : « من أراد أن يفر الشيطان من ظله فليقهر شهوته » وأقاويل السلف فى ذلك كثيرة والله أعلم .

ومن شأنه معانقة الأدب على الدوام مع الله تعالى ومع أوليائه وإخوانه فلا يسامح نفسه قط فى سوء أدب ، وكان أبو على الدقاق رحمه الله يقول : « يصل العبد بعبادته إلى الجنة ولا يصل إلى حضرة ربه إلا بالأدب فى العبادة ، ومن لم يراع الأدب فى طاعته فهو محجوب عن ربه بسبعين حجاب » وكان رحمه الله لا يستند إلى شىء قط من مخدة أو جدار إلا لضرورة ويقول : « إن ذلك من سوء الأدب » وكان عبد الله بن الجلا يقول : « من لا أدب له فلا شريعة له ، ولا إيمان ، ولا توحيد » أى كاملا ، وكان ابن عطاء يقول : « لا يكون المريد أديباً حتى يستحى من الله تعالى أن يمد رجله بين يديه فى ليل أو نهار » وكان الحريرى يقول : « ما مدت رجلى فى الخلوة منذ عشرين سنة » وكان يقول : « الأدب الشرعى مع الله تعالى فى كل أمر أولى لكل عاقل ، ولم يرد فى الشرع التصريح بعين ذلك الأدب فى عين ذلك الأمر » .

وكان يقول : « إذا كان من يعاشر ملوك الدنيا بغير أدب يعرّض

نفسه للقتل فكيف من يسيء أدبه مع الحق تعالى ويجترى على محارمه ، ؟
وكان يقول : « ترك الأدب موجب للطرد فمن أساء الأدب على البساط رُد إلى الباب ومن أساء الأدب على الباب ، رد إلى سياسة الدوابّ » وكان الإمام الشافعي رضى الله عنـــه يقول : « قال لى الإمام مالك رحمه الله : يا محمد اجعل علمك ملحاً وأدبك دقيقاً » وكان عبد الرحمن ابن القاسم رحمه الله يقول : « صحبت الإمام مالكا رحمه الله عشرين سنة ، فكان منها ثمانية عشر سنة فى تعليم الأدب ، وسنتان فى تعليم العلم ، فليتنى جعلت العشرين كلها أدباً » .

وكان الشبلى رحمه الله تعالى يقول : « من علامة أهل حضرة الله أن لا يقع أحدهم فى سوء أدب ولو انبساطاً ، فواردات الحق تعالى فى السر أو فى العـلانية فإن حضرة الحق تعالى حضرة أدب وبهت وجلال وخوف ، فلا يناسبها الإنبساط لعدم المجانسة بل لو قدر أن وليّاً مكث فى الحضرة عمر نوح ، فلا يزداد إلا هيبة على مر الأيام والدهور ، وذلك لعـدم تكرار تجليات الحق تعالى ، فكل تجل ورد على العبد فهو جدير لا يعطى صاحب تلك الحضرة إلا الأدب والهيبة فافهم » .

وكان أبو الحسين النورى رحمه الله يقول : « من لم يتأدب للوقت فهو مقت » وكان ذو النون المصرى رحمه الله يقول : « من ترخص بترك الأدب رجع من حيث جاء » وكان سيدى محمد الشناوى رحمه الله يقول : « حكم المريد عند دخوله فى الطريق حكم الجديد النقوة ، وحكمه عند وقوعه فى سوء أدب بعد ذلك حكم النصف الذى خرج زغل فهو يرمى به ولا يقبله أحد » والله تعالى أعلم .

إحذر نفسك

ومن شأنه مخالفة هوى نفسه فلا يوافقها قط فيما تهواه ، وقد أجمع الأشياخ على أن رأس مال المريد مخالفة نفسه ، ومن أطلق عنان نفسه فيما تهواه ، فقد أهلكها ، وكان أبو حفص رحمه الله يقول : « من لم يتهم نفسه على دوام الحالات ، ولم يخالفها فى جميع شهواتها ، ولم يجرها إلى مكروهها فى سائر الأوقات ، فهو معذور فى سائر الحالات » وكان أبو بكر الطمسنانى يقـــول : « أعظم حجاب بينك وبين ربك موافقة نفسك » وكان ابن عطاء يقول : « من طلب عوضاً من الله على عبادته استحق الطرد والمقت » وكان ابن شيبان يقول : « ما أكل عبد شهوة إلا حجب عن شهود ربه ، قال : ولقد مكثت عشرين سنة ، أشتهى أكلة عدس فلم يتفق لى أكلها ، ثم أنى أكلتها وخرجت فأخذنى أعوان السلطان وقالوا : هذا كسر جرار الخمر مع جماعة السلطان بالأمس ، فضربونى مائة خشبة ، ثم مرّ علىّ أستاذى أبو عثمان المغربى فقال : ماذا صنعت حتى وقع لك هـذا ؟ فقلت : أكلت شهوة ! ؟ فقال الشيخ : أطلقوه فأطلقونى ، وقال لى : نجوت إن شاء الله مجانا » .

وكان السرى السقطى رحمه الله يقول لى : « أكثر من أربعين سنة ونفسى تطالبنى أن أغمس جزرة فى دبس فلم أطعمها ذلك ، وكان يقول : من صدق فى ترك شهوة ، كفاه الله تعالى موتها » وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : « يا داود حذر وأنذر قومك ، أكل الشهوات ، فإن القـــلوب المتعلقة بشهوات الدنيا عقولها محجوبة عنى » وفى رواية

« يا داود أن أهون ما أنا صانع بعبدى إذا آثر هواه على طاعتى أن أحرمه لذيذ مناجاتى » .

وكان إبراهيم الخواص رحمه الله يقول : « من اتباع الهوى أن يعبد العبد ربه لطلب ثواب أو خوفاً من عقاب فلا يزداد صاحب هذا القصد على مرور الزمان إلا أدبارا » ، وفى بعض الكتب الإلهية يقــــول الله عز وجل : « ومن أظلم ممن عبدنى لجنة أو نار ، لو لم أخلق ألم أكن أهلا لأن أطاع » ؟

قلت ومن اتباع الهوى إيثار النوم على قيام الليل فى مثل ليالى الصيف ، وذلك دليل على عدم محبة الله عز وجل ، ومن لا يحب الله فهو عدو الله لأن الله تعالى قد أوحى إلى داود عليه السلام : « يا داود كذب من ادعى محبتى فإذا جنه الليل نام عنى » فشهد الحق على أن من ينام من غير غلبة بأنه كاذب فى محبته .

دليل التوبة الصادقة

وكان إبراهيم بن أدهم رضى الله عنه يقول : « من علامة صـــدق العبد فى التوبة عن ذنب أن يجد فى قلبه بعدها لذة لا يقدر قدرها ، فمن لم يجد فى قلبه لذة بعدها فهو كاذب فى تركها ، ولعله يرجع إلى الذنب عن قريب » .

ومن شأنه أن يلازم على عدم الإخلال بأركان الطريق وشروطها ، ومتى انهدم ركن منها أو شرط تبعه الباقى ، وقد تقـــدم أن أركان الطريق أربعة : الجوع ، العزلة ، الصمت ، والسهر ، وما زاد على هذه الأربعة فهو من التوابع ، وقالوا : من ضيع الأصول حرم الوصول ، فاعلم ذلك .

كيف يختار المريد شيخه ؟؟

ومن شأنه أن لا يتتلمذ إلا لشيخ قد تضلع من علوم الشريعـــة ، وذلك ليكفيه عن الاجتماع على غيره ، وقد أخبرنى شيخنا الشيخ محمد الشناوى رحمه الله ، أنه قال يوماً لشيخه سيدى محمد السروى : « مرادى أن أزور الشيخ فلان ؟ فعبس الشيخ فى وجهه وقال : يا محمد إذا كنت لا أكفيك فكيف اتخذتنى شيخاً لك ؟! قال : فمن ذلك اليوم ، ما زرت غيره حتى مات ، فعُلم أن من جرى عليه المقدور ودخل فى عهدة شيخ لم يتضلع من علوم الشريعة فلا حرج عليه فى الاجتماع بغيره ، كما هو حال أكثر مشايخ هذا الزمان ، وعلى ذلك يحمل كلام أبى القاسم القشيرى رحمه الله فى قوله : « ويقبح على المريد أن ينتسب إلى مذهب أحد غير شيخه ، بل يقلد شيخه فقط ، فإنه بيقين محمول على شيخ قد تبحر فى علوم الشريعة فلا يقبح على المريد الانتساب إلى غيره بل ذلك واجب عليه .

الصوفى فقيه

وقد كان الإمام أحمد بن حنبل مع جلالة قدره إذا توقف فى مسألة يقول لأبى حمزة البغدادى رضى الله عنه : « ما تقول فى هذه المسألة يا صوفى ؟ : » فمهما قال له اعتمده ، وكفى بذلك منقبة لمشايخ الصوفية ، وكذلك بلغنا عن القاضى أحمد بن شريح أنه كان يعترف بفضل أبى القاسم الجنيد ويجلس فى حلقته ويقول إذا سئل عن كلامه : « إنى لم أفهم منه شيئاً ، ولكن صولة الكلام ليست بصولة مبطل » .

وقد كان الشيخ أبو القاسم الجنيد رحمه الله يقول : لو علمت أن لله تعالى علماً تحت أديم السماء أشرف من هذا العلم الذى بأيدى الصوفية لسعيت إليه ، وكان يقول : « ما نزل علم من السماء وجعل الله تعالى للخلق إليه سبيلا إلا وجعل لى فيه حظاً ونصيبا » وكان أبو القاسم القشيرى رحمه الله يقول : « قد درج أشياخ الطريق كلهم على أن أحداً منهم لم يتصدر قط للطريق إلا بعد تبحره فى علوم الشريعة ووصوله إلى مقام الكشف الذى يستغنى به عن الاستدلال ، وما انتسب مريد إلى غيرهم وقرأ عليه العلوم دونهم إلا لجهله بمقامهم ، فإن حجج القوم أظهر من حجج غيرهم لتأيدها بالكشف ، ولم يكن منهم أحد فى عصر من الأعصار إلا وعلماء ذلك الزمان يتواضعون له ويعملون بإشارته ، ويطلبون منه تفريج كربهم فى الشدائد ، ولولا شهود العلماء من الصوفية أموراً تؤذن بعلو مقامهم عليهم ، لكان الأمر بالعكس » وقد بسطنا الكلام على ذلك فى قواعد الصوفية الكبرى والله أعلم .

هل للمريد أن يتخذ أكثر من شيخ ؟؟..

ومن شأنه أن لا يكون له إلا شيخ واحد ، فلا يجعل له قط شيخين لأن مبنى طريق القوم على التوحيد الخالص ، وقد ذكر الشيخ محيي الدين فى الباب الأحد والثمانين ومائة من الفتوحات المكية ما نصه :

« إعلم أنه لا يجوز لمريد أن يتخذ له إلا شيخاً واحداً لأن ذلك أعون له فى الطريق ، وما رأينا مريداً قط أفلح على يد شيخين ، فكما أنه لم يكن وجود العالم بين إلهين ولا المكلف بين رسولين ، ولا امرأة بين زوجين ، فكذلك المريد لا يكون بين شيخين » ، هذا كله فى مريد تقيد بشيخ بقصد سلوكه الطريق ، وأما من لم يتقيد فهو متبرك بالشيخ فقط ، فمثل ذلك لا يمنع من الاجتماع بأحد .

وقد كان سيدى على المرصفى رحمه الله يقول : « من ابتلى بصحبة شيخين فأكثر ، فليجعل شيخه الحقيق فى حاشية قلبه ، بجانب محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأنه نائب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نصح أمته وإرشادهم إلى طرق الهدى » وقد كان أبو يزيد البسطامى رضى الله عنه يقول : « من لم يكن له أستاذ واحد فهو مشرك فى الطريق ، والمشرك شيخه الشيطان » وكان أبو على الدقاق رضى الله عنه يقول : « إنما كان الإنسان لا يقدر على سلوك طريق القوم بغير شيخ لأنها طريق سلوك فى الغيب ، أو غيب الغيب ، والشجرة إذا نبتت بنفسها من غير غارس لا ينتفع أحد بثمرها ولو أورقت بل ربما لا تثمر أبداً ، وانظر يا أخى إلى سيد المرسلين على الإطلاق كيف كان جبريل عليه السلام واسطة بينه وبين الله تعالى فى الوحى تعرف أن اتخاذ الشيخ واجب لا يستغنى المريد عنه .

قال أبو يزيد : « ولقد أخذت طريقى عن شيخى نفساً بنفس » ثم لا يخفى أن السلف الصالح من الصحابة والتابعين وتابع التابعين ، إنما لم يكونوا يتقيدون بشيخ واحد بل هم كان أحدهم يأخذ عن مائة شيخ لأنهم رضى الله عنهم كانوا مطهرين من الأدناس والرعونات ، فكان كل واحد منهم كاملا لا يحتاج إلى من يسلكه ، فلما كثرت الأمراض واحتاجوا إلى علاجها أمرهم الشيوخ بالتقييد على شيخ واحد لئلا يتبدد حال المريد وتطول عليه الطريق ، فاعلم ذلك .

ومن شأنه أن يجعل رأس ماله حذف العلائق الدنيوية فإن من كان له علاقة دنيوية فقلّ أن يفلح ، لأن تلك العلاقة تجره إلى وراء ، ومن هنا قالوا : « من شرط التائب بعــــده عن إخوان السوء ، الذين كانوا أصحابه فى المعاصى قبل أن يتوب منها ، لأن القرب منهم ربما جره إلى الرجوع إلى فعل ما كان تاب منه » .

وكان الإمام القشيرى رحمه الله يقول : « يجب على المريد أن يكون عمله دائماً فى فراغ القلب من الشواغل ، ومن أعظمها الخروج عما بيده من المال ، لأنه يميل به عن طريق الاستقامة لضعفه ، فليس له أن يمسك المال إلا بعد كماله فى الطريق ، قال : وقد أعجز الشيوخ عن أن يسيروا بمريد ومعه علاقة ، فسيرهم به ضعيف ربما يفنى العمر ولم يصلوا به إلى مقام الكمال الذى يريده .

الفقه فى الدين مفتاح الطريق

ومن هنا قالوا للمريد تفقه فى دينك أولا ثم تعال ادخل الطريق[١] وذلك ليقل التفاته إلى غير الطريق ، فربما شرع فى مجلس ذكر مثلا فصار درسه يدعوه إلى مطالعته ، والحضور مع الطلبة ، وكثرة الجدال ، وذلك يفرق عن المعنى المقصود فى الطريق ، من دوام المراقبة لله تعالى وحـــده ، على أن غالب دقائق العلوم يدخلها حظوظ النفس ، ومبنى الطريق كلها على مخالفة النفس والله أعلم .

ومن شأنه أن يكون له شاهد من حاله فى كل مقام ادعاه أو تظاهر به فإن ادعى المحبة لله كان لونه يميل إلى الاصفرار ، وإن ادعى الزهد فى الدنيا ، كان مجانباً للأشرار ، وإن ادعى الجوع كان جسمه مائلا إلى الإضمار ، قال الشريف الأحمدى : « وقد كنا فى مجمع من الفقراء فى تربة البهنسا نزور الصالحين ، وإذا شاب قد أقبل علينا مضمر ، ولونه أصفر ، وعليه لوائح الصلاح ، فأنشد منشد الفقراء لما رآه :

من الشوق مضنى ما يزال مسقها ۝ له عند تغريب النجـــوم أنين

فصاح الشاب وضرب بيده عموداً فانفلق لحرك شوق كل من كان هناك » .

فعلم أن كل فقير[٢] لم يعان الجوع والمجاهدة لازمه الجمود وكثافة

---

(١) اشترط رجال التربية الصوفية على مريديهم دائماً الإحاطة بالعلم الدينى ، لأن التصوف والعلم قرينان لا يفترقان وقد قال صلى الله عليـــه وسلم « من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين » .

(٢) كلمة فقير : يراد بها الفقير إلى الله سبحانه . وتستعمل صفة للصوفى .

الحجاب ولو سمع القرآن لا يكاد يتعظ بشيء من زواجره لغلظ حجابه ، والله أعلم .

الأخذ بالأحوط

ومن شأنه أن يأخذ بالأحوط فى دينه ويخرج من خلاف العلماء إلى وفاقهم ما أمكن ، مبادرة على وقوع عباداته صحيحة على جميع المذاهب أو أكثرها ، فإن رخص الشريعة إنما جعلت للضعفاء وأصحاب الضرورات والأشغال ، وأما القوم فليس لهم شغل إلا مؤاخذة نفوسهم بالعزائم ، ولذلك قالوا : إذا انحط الفقير عن درج الحقيقة إلى رخص الشريعة فقد فسخ عهده مع الله تعالى ونقضه ، ومن شأنه أن يخفى أحواله التى تكون بينه وبين الله تعالى ما أمكن ، حتى يرسخ فى مقام مراعاة الله تعالى وحده دون أحد من خلقه ، فلا يكاد أحد يأخذ من الفقير الصادق مقاماً ، ولا يعرف له حالا من شدة كتمانه ، وقد ورد فقير على سيدى محمد الشربينى فأنشد بين يديه :

وكم من فتى يرمى مرامى بعيدة　　　وهو بين أطناب الخيام مقيم

فصاح الشيخ وقام وقبض على ذلك المنشد وصار يقول : « من أين علمت ذلك ؟ »

وقد أجمع أهل الطريق على أنه إن لم يكن المريد غير ملاحظ للحق فى الباعث على أعماله لا يجىء منه شيء ، وأجمعوا أيضاً على أن كل مريد أحب الظهور أن يطلع الناس على كمالاته فهو مقطوع به لا سيما أن صار الناس يتبركون به فإنه يهلك بالكلية .

ومن شأنه أن يوطن نفســـه على تحمل الشدائد فى الطريق ، وأنه لا ينصرف عنها إلى غيرها إذا أصابته الأسقام والآلام ، والفاقات والبلايا المتلاحقة ، وأنه لا يترخص عند هجوم الفاقات والضرورات أبداً وكثيراً ما يحصـــل للمريد نفرة الخلق منه إذا دخل طريق القوم ويتسلطون على عرضه بالبهتان والزور فيأتيه الشيطان ويقول له : كنت غنياً عن طلب هذه الطريق ، وكم سنة لك وأنت فى راحة من الناس ، ولا يذكرونك إلا بخير ، ولا يقعون فى إثم بسببك ؟ فيفسخ ذلك المريد عهده ويرجع عن الطريق ، فيحصل له التمزيق ، فلا يصير يصلح للطريق ولا لغيرها ، فليثبت المريد على الطريق ولا يتزلزل بالحق بالمحن فيها فإن ذلك من الشيطان والله أعلم .

ملازمة الشيخ

ومن شأنه إن كان له شيخ أن يلازمه وإن جاهد على أن تكون خلوته تجاه باب الشيخ ليقع بصره عليه كلما خرج فذلك دليل على سعادته ، فربما صيرته نظرة من النظرات ذهباً إبريزاً أغنته عن المجاهدة ، كما وقع لسيدى يوسف العجمى ، أنه خرج يوماً من الخلوة فلم يجد أحـداً من الفقراء يقع بصره عليـــه ، فوقع بصره على كلب على باب المسجد ، فانقادت إليه جميع الكلاب فى مصر وصارت تمشى معـه حيث مشى !؟ ، وتقف معه حيث وقف !؟ ، وصار الناس ينذرون البقر وغيرها للكلاب ، فأرسل الشيخ وراء ذلك الكلب وقال له : اخسأ فتفرقت عنـه الكلاب لوقته وقال : « لو أن تلك النظرة وقعت على آدمى لصار إماماً يقتدى به » .

قالوا : وينبغى له أن لا يسافر قبل أن تقبله الطريق فإن السفر للمريد سم قاتل ، وكان الإمام القشيرى رحمه الله يقول : « إذا أراد الله بمريد خيراً ثبته فى موضع إرادته وأدام عليه طريق مجاهداته وإذا أراد به شراً رده إلى حالته قبل التوبة وأشغله بالدنيا عنه » وكان يقول أيضاً : « الخير كل الخير فى العكوف على عتبة الشيخ ، وإذا أراد الله بعبد شراً شتته فى مطاوح غريبة ، قبل أن يتمكن فى أمور ربه ، وغاية أمره فى سياحته حجاب يحصلها خالية عن الآداب المطلوب فيها أو زيادة مواضع يرتحل إليها أو لقاء أشياخ من غير أن يتقيد بأحد منهم بالتربية » فمثل هذا لا يكلف المشى على مراسم الطريق لأن الله تعالى لم يرد يرقيه إلى مقامات الرجال إذ لو أراد له ذلك لقيده على خدمة شيخ يبايعه على السمع والطاعة فى المبسط والمكره والله أعلم .

معالجة النفس

ومن شأنه مكايدة خواطره ومعالجة أخلاقه ونفى الغفلة عن قلبه بمداومة الذكر ، إما لكثرة تلاوة القرآن والصلاة ، فلا يعول المريد الصادق عليه لأن القرآن إنما هو ورد الكمال ، وكذلك الصلاة ، وأما المريد فإنما عمله الدائم فى تنظيف ظاهره وباطنه عن الصفات التى تمنعه من دخول حضرة الله عز وجل كالغضب وعز النفس والكبر والعجب والحسد ونحو ذلك ، فإذا تطهر المريد من هذه الصفات فهنالك يصلح له تلاوة القرآن ومجالسة الحق جل وعلا ، والوقوف بين يديه فى الصلاة وغيرها ، هذا ما درج عليه السلف الصالح .

ذكر الله جلاء القلب

سمعت سيدى على المرصفى رحمه الله يقول : « قد عجز الشيوخ فلم يجدوا للمريد دواءً أسرع فى جلاء قلبه من مداومة ذكر الله عز وجل فحكم الذاكر كمن يجلى النحاس المصدىء بالحصا وحكم غير الذاكر من سائر العبادات كمن يجلى النحاس بالصابون ، فهو وإن كان ساعيا فى الجلا بالصابون لكن يحتاج ذلك إلى طول زمن وقد أنشد سيدى عمر فى كلمة التوحيد :

تهذب أخلاق الندامى فيهتدى ... بها لطريق العزم من لا له عزم

ويكرم من لم يعرف الجود كفّه ... ويحلم عند الغيظ من لا له حلم

إلى آخر ما قال والله أعلم . ومن شأنه : إذا كان مقيما فى زاوية أو سوق أن يجعل رأس ماله الاحتمال والصفح عن كل من أتى إليه بمكروه بطيبة نفس ، ويتلقى كل ما يستقبله من أهل الزاوية أو السوق وغيرهم بالرضى والتسليم فإن لم يستطع فبالصبر لا أنزل من ذلك ، فإن لم يصبر على جفاء الإخوان لا يصلح للطريق فليخرج إلى العامّة ويترك طريق القوم .

وسمعت سيدى على المرصفى رحمه الله يقول : كان أبو يزيد لا يقيم إلا فى موضع ينكر الناس عليه فيه ويؤذونه ويحتقرونه ليروض نفسه بذلك وكلما عظموه وشكروه كلما هرب من مخالطتهم » ولعل ذلك كان فى بدايته رضى الله عنه .

ومن شأنه إذا لم يجد أحداً يتأدب به فى بلده من الشيوخ يهاجر

من بلده إلى من هو منصوب لإرشاد المريدين فى ذلك الزمان ولو كان بينه وبينه مسيرة سنة وأكثر لا سيما إن كان مبتلياً بحب حـــدث أو امرأة أو جاه ، فإنه يجب عليه السفر جزماً ليخلصه من تلك الورطة فإن كل ما يتوصل به إلى الواجب فهو واجب .

هل يتخذ المريد له شيخا آخر بعد وفاة شيخه الأول ؟؟

ومن الواجب عليه إذا مات شيخه أن يتخذ له شيخاً يربيـــه زيادة على ما رباه به الشيخ الأول ، فإن الطريق لا قرار لها ولما مات الشيخ محمد السروى شيخ شيخى الشيخ محمد الشناوى وكان شيخه قد أذن له فى إرشاد المريدين وتلقينهم اجتمع بسيدى على المرصفى وتلقن عليه وقال له سيدى على :

« أنت بحمد الله قد بلغت مبلغ الرجال فلا تحتاج إلى تلقين ، فقال : لا أحبّ أن أمكث ساعة واحدة بلا أستـاذ مع أننى من جملة من كان تلقن عليه وأذن لى فى الإرشاد ثم قال لى : « يا ولدى تلقن أنت الآخر على شيخ شيخك ليكون أنا وإياك من جملة تلامذة سيدى على » ففعلت ، وهـذا الأمر لا يقع إلا من الصادقين فى الطريق أما غير الصادقين فلا تسمح نفوسهم بعد الإذن لهم من شيوخهم أن يتلقنوا على أحد وذلك من أكبر علامات الخذلان وهو من أول دليل على أن شيخهم غشهم فى الإذن لهم فإن الفقـــير الذى صح الإذن له لا يكون له نفس ولا يوافقها فى حظ فهو يربى الناس ويرشدهم ويرى نفسه دونهم مع رضى الله عنه .

امتحان المريد

ومن شأنه إذا سافر إلى شيخ ليأخذ عنه الطريق فقابله الشيخ بالجفاء والتعبيس فى وجهه أن يصبر ولا يتزلزل ، بل يجلس مطروح النفس على بابه حتى يرحمه شيخه ولو مكث على ذلك الجفاء سنة وأكثر لا يبرح عنه ، فإن الطريق عزيزة عند أهلها لا يجوز لهم الترخص فيها لكل من ورد عليهم ، وإنما يمتحنونه السنة وأكثر قبل أن يجيبوه للأخذ عنهم وقالوا : كل مريد لم يمتحنه شيخه قبل الأخذ لا يفلح فى الغالب لأنه يدخل الطريق بغير أدب ولا تعظيم لها فرفضته الطريق ولو على طول بخلاف من دخلها مع التعظيم وشدة الشوق ، وفى القرآن « يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن » الآية . وحكم المريد إذا جاء مهاجراً إلى أن يطلب الطريق كذلك بجامع أن كلا منهما دلالة على الهدى وقد أخبر شيخنا الشيخ محمد الشناوى الأحمدى رحمه الله تعالى : « أنه لما طلب الطريق سافر من بلاد الغربية إلى فارس كور ليأخذ الطريق عن الشيخ أبى الحمايل فلم يلتفت إليه الشيخ ولا بشّ فى وجهه ولا تذكره فى وقت عشاء ولا غداء فمكث على ذلك الحال خمسة شهور فلما رأى الشيخ شدة رغبته أدناه وقربه وقال له : يا محمد أنا أحب الخير لك ولغيرك ، وإنما أردت امتحانك بما وقع ، لتدخل الطريق بالتعظيم لها ولأهلها » .

وكان شيخنا يقول : « والله لو زاد الشيخ فى الجفاء سنين عديدة لصبرت له ولم أبرح عن بابه .

وكان الشيخ أبو الخمايل رحمه الله يقول : « لقنت الذكر لنحو عشرة آلاف نفس فما عرفنى وصح معى غير ابن الشناوى » فانظر يا أخى فعل الصادقين واقتد بهم والله يتولى هداك .

ومن شأنه أن لا يلتفت بقلبه إلى شىء خرج عنه من أمور الدنيا إذا دخل فى الطريق بل الواجب عليه أن يربط الدنيا كلها فى صرة ويرميها فى بحر الإياس وليتساوى عنده الذهب والتراب فى عدم الترجيح والميل فيكون الذهب عنده كالتراب ، وذلك حتى لا ينافس أهل الدنيا ولا يزاحمهم على تلك الجيفة فمن نافسهم وزاحمهم نجسته كلاب الدنيا ، بعضه وخربشته والهبهبة عليه وأشغلوا فكره وكدروا وقته فانقطع عن السير .

وكان أبو القاسم القشيرى رحمه الله يقول : « كل مريد بقى فى قلبه ميل لشىء من عرض الدنيا وشهواتها فاسم الإرادة له مجـــاز لا حقيقة وقبيح بالمريد أن يخرج من رأس فتنته فى دينه ثم يرجع إليها بعد ذلك ويكون أسير دينار ودرهم أو دار ووظيفة بل الواجب على المريد أن يكون وجود الدنيا وعدمها عنده سواء وذلك حتى لا يضايق أحداً عليها ولو مجوسياً ؟ وإيضاح ذلك أن رزق الله تعالى الذى قسمه لعبده لا يعرفه عبده إلا بأكله أو شربه أو لبسه مثلا وأما قبل ذلك فلا علم له به حتى يزاحم عليه ، وبتقدير علمه بأنه رزقه فلا ينبغى له منازعة أحد فيه لأنه لا يقدر أحد أن يأخذه منه ولا يأكل منه لقمة ، وأيضاً فأهل المنازعة على الدنيا إنما هو من شدة الحرص ، فصاحبه يحرص أن يكون كل شىء له دون غيره ولا ينبغى ذلك من فقير إنما يقع ذلك من أبناء الدنيا فإن أحدهم كالأعمى الذى يصدم الحيطان فكل شىء أحس به قبض عليه ومن كان كذلك فهو لا يصلح للطريق ، فإياك يا أخى والالتفات لشىء من الدنيا التى تشغلك عن الله ثم إياك إن طلبت ، أن تكون من القوم والله يتولى هداك .

الأشياء التى تقطع المريد

ومن شأنه أن يغض بصره عن رؤية الصور المستحسنة ما أمكن فإن النظر إليها كالسهم الذى يصيبه فى قلبه فيقتله لا سيا إن نظر بشهوة فإنه كالسهم المسموم الذى يذيب جسم الإنسان فى لحة ، وكان أبو القاسم القشيرى رحمه الله يقول : « من أكبر القواطع على المريد مصاحبة الأحداث والنسوان والمساكنة إليهم بميل القلب ومن ابتلاه الله بشىء من ذلك فبإجماع القوم : ذلك عبد أهانه الله وخذله بل عن مصالح نفسه شغله ! ولو بألف ألف كرامة أهّله ، ولو لم يكن إلا أنه شغل قلبه بمخلوق فأدخل فيه الشيطان وحرم دخول محبّة الحق قلبه ، قال : وأقبح من ذلك كله تهوين مثل ذلك على القلب » وهذا الواسطى رحمه الله يقول : « إذا أراد الله هوان عبد ألقاه إلى هؤلاء الاتنان والجيف يريد بهم الشباب المرد الذين تميل النفوس الغوية إليهم » .

وكان فتح الموصلى رحمه الله يقول : صحبت ثلاثين شيخاً كانوا يعدون من الأبدال ، وكلهم أوصونى عند فراقى إياهم وقالوا لى : اتق معاشرة الأحداث » قال القشيرى رحمه الله « ومن ارتقى عن حالة الفسق من المريدين ، وأشار إلى أن ذلك من باب محبة الأرواح لا الأشباح ، قلنا له « هذا من دسائس النفوس والشياطين فربما خيل الشيطان إلى أحدهم أن ذلك لا يضر وأن كل جميل فى الوجود إنما جماله من جمال الحق تعالى ، وقلنا له : إن الذى ادعيت إنك تشهد جماله هو الذى حرّم عليك ذلك الشهود .

وقد سئل سيدى الشيخ على الموازينى الشاذلى عن النظر إلى الأمرد الجميل هل يجوز ذلك للسالك فقال :

ما دام عند الإنسان الفرق بين الصّور الجميلة وغير الجميلة فهو فى محو الطبيعة والشهوة فلا يجوز له النظر إلى الصور الجميلة المحرمة شرعاً .

فإذا صار يشهد جمال الخنفساء والضفدعة كجمال أحسن الصور الإنسانية على حدّ سواء فلا يمنع من رؤية ما ذكر لأنه حينئذ ذهب تمييزه وصار مستغرقاً مع الخالق لا مع المخلوق ، وهذا أمر عزيز الوجود فى غالب مريدى هذا الزمان فالحذر أولى بكل عاقل .

وسمعت سيدى محمد الشناوى يقول : « لا ينبغى لمريد أن يجالس الأمرد الجميل ولا يسكن هو وإياه فى خلوة واحدة ما أمكن فليحذر العاقل من مجالسة الأحداث إلا فى حلقة الذكر أو الدرس بحضرة الشيخ أو الإخوان الصالحين مثلا لكن مع غض البصر ، قال :

وقد بلغنا أن الفقراء الماضين كان أحدهم لا يعرف بطلوع لحية الأمرد إلا أن أعلمه الناس بذلك ، ووقع ذلك لسيدى محمد بن عنان مع الشيخ مازن بذلك وقال : « خدمت الشيخ نحو عشر سنين فطلعت لحيتى وكملت ولم يشعر بذلك حتى أخبره الناس بذلك فنظر إلى وجهى من ذلك الوقت » .

هل يصح إعطاء العهد للنساء ؟؟

قد صنف سيدى محمد الغمرى كتاباً سماه « العنوان فى تحريم معاشرة الشباب والنسوان » وحط فيه على المطاوعة أشد الحط وكذلك على الفقراء الأحمدية الذين يأخذون العهد على النسوان ويصير أحدهم يختلى بهن فى غيبة أزواجهن وتقول له : يا أبى ويقول لها : يا بنتى وقال : إن ذلك خارج عن قواعد الشريعة ، وإن من استحل ذلك أخطأ ، واستدل بقوله تعالى للصحابة فى حق زوجات النبى صلى الله عليه وسلم « وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهنّ » وقال : كيف يدعى جاهل وجاهلة ونفوسهما عاقفة على محبة الحرام كالذّباب على العسل إن مثل ذلك لا يضره ويضر الصحابة فليحذر الفقير من ذلك والحمد لله رب العالمين .

ومن شأنه أن لا يقنع بحكايات أهل الطريق دون منازلة مقاماتهم ويصير يحكى المقامات حتى كأنه نزلها ، فإن ذلك من أكبر القواطع على المريد وهو من النفاق والخيانة فى الطريق ، ثم بتقدير أنه يحفظ مثل رسالة « القشيرى ، أو عوارف المعارف » عن ظهر قلب فهو صاحب علم لا صاحب سلوك فلا ينتج على يديه أحد إذا تصدر للمشيخة ، وهذا الأمر قد وقع فيه جماعة كثيرة من أهل عصرنا فالتبس على غالب الناس أمرهم وعدوهم من أهل الطريق لجهل الناس بمراتب أهل الطريق ، وأعرف شخصاً جاءنى من مدة يطلب الطريق إلى الله تعالى ، فرددته مراراً فقال استخرت الله

تعالى ، وما انشرح صدرى إلا أنى آخذ عنك الطريق ، فلم أقبله لعلمى بأنه لا فتوح له على يدى بقرائن وعلامات أعرفها ، ففارقنى وادعى أن بعض الشيوخ الماضين جاءه فى المنام ولقنه وأذن له أن يسلك الناس ، فجمع له بعض العوام وجلس مجلس الشيوخ الصادقين ، وصار بعض من يجتمع به يقول : ما فى البلد شيخ إلا شيخنا ! ؟ مع أنه لم يذق من مقامات الطريق شيئاً ، وقد أرشدته مرات إلى أنه لم يأخذ الطريق عن أحد فلم يفعل ، فالله يغفر له .. آمين .

متى يتصدر المريد للإرشاد ؟

ومن شأنه أن لا يتصدر لإلقاء درس فى علم الظاهر والباطن حتى يشهد له شيخه بالإخلاص فيه ، وكذلك لا يجعل له مريد ، فلو أن كل مريد تصدر لإلقاء درس ، أو لتعليم الطريق قبل خمود نار بشريته ، والإذن له من شيخه ، فقد قطع به وضل وأضل ، وحجبت عنه الحقائق وعدم الخلق الانتفاع به .

وذلك لأن محبة الجاه والصيت الحسن قد أضلته فصارت مرآته منطمسة النور ، فلا يعرف الحق من الباطل ، ولا يدرك أحوال الطريق بذاتها ، ومثاله مثال من جلس فى بيت مظلم ، وأخذ يتفكر فيما فيه من الأمتعة والهيئات فإنه بيقين يعجـــز عن إدراك كنهه وحقيقته ، فإذا دخل له مصباح أدرك جميع ما فيه من غـــير تفكر . فعلم أن كل شيخ جعل مريده واعظاً أو إماماً أو مدرساً فقد غشه إلا أن يكون له حال قاهر

تحفظ مريده من الآفات ، وهذا عزيز فى فقراء هذا الزمان ! ؟ وربما رأى الشيخ أن ذلك المريد لا يجىء منه شىء فى الطريق فتركه ، وما يهواه من المباحات أدباً مع الله الذى لم يقسم له أن يكون من أهل الطريق لا غشاً لذلك المريد والله أعلم .

بين الشريعة والحقيقة

ومن شأنه أن يحافظ على آداب الشريعة والمشى على ظاهرها ما أمكن فإن الترقى كله فى امتثال أمر الشارع ، وأما علم الحقيقة فحكمه حكم من يقول : السماء فوقنا والأرض تحتنا والنار حارة الثلج بارد ، ولكن يجب عليه أن لا يدع الشريعة تعترض عليه فى شىء من أحواله ، وهذا أمر قد أغفله غالب من شم رائحة التوحيد من أهل هذا الزمان ! ؟ فيصير يتعدى حدود الله فى مأكله وملبسه وكلامه وفعله ويقول : إن الله تعالى قد خلق ذلك لى ! ؟ وبعضهم ترك التوبة من سائر الذنوب وقال : ليس لى فعل حتى أتوب منه فهلك مع الهالكين وهو لا يشعر ! ؟ وبعضهم صار يأكل حراماً ويفطر فى بيوت المكاسين فى مثل شهر رمضان ويقول : الكل لله تعالى ليس لأحد معه ملك وأنا عبده ، والعبد يأكل من مال سيده ! ؟ وهذا كله زندقة لرفضه الشرائع ، ولو أنه كان يؤمن بها لما تجرأ على ذلك .

الولائم مهلكة

وكان سيدى إبراهيم المتولى لا يذهب بأحد من جماعته قط إلى وليمة عند أحد من الولاة ، ويقول : ارجعوا لا تهلكو مثلى ، وكذلك أدركت جماعة من شيوخ الطريق كانوا يتورعون عن الأكل من طعام كل متهور فى مكسه ، وكانوا ينكرون على من يرونه يأكل من مثل ذلك لا سيما سيدى الشيخ على المرصفى رضى الله عنه ، كان يرسل يزجر كل فقير أكل عند أمير ، وكان للطريق وأهلها حرمة فى زمنه رضى الله عنه ، فلما مات انحلت عرى الطريق ، وتهدمت قواعدها فى مصر وقراها ، وصار بعض المشايخ ومن نسب إلى العلم يجلسون على موائد الظلمة المكاسين والكُشَّاف ومشايخ العرب وأعوانهم ، وبعضهم سداه ولحمته من طعامهم ولباسهم ، وكذلك أولاده وعياله ، وبعضهم صار يسأل هؤلاء الظلمة ، فإذا لم يعطوه ما طلب منهم غضب عليهم ، ومزق أعراضهم فى المجالس ، ولو أن هؤلاء شموا رائحة من الطريق لم يستحل أحد منهم مقدار سمسمة من مال هؤلاء فى أوقات الضرورات ، فضلا عن أوقات الاختيار ووجود السعة فى الرزق ، من جوالى أو سموح أو زراعة أو غير ذلك وقد رأيت من عمل له عرساً فى زاوية ، وصار يرسل قاصده للولاة فيساعدونه بالعسل والأرز والبسّلة ، ومن لم يعطه شيئاً يغضب عليه ، مع أنه لابس عمامة صوف ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

تربية النفس

ومن شأنه مجاهدة نفسه دائماً فى ترك الشهوات ، فقد قالوا : من وافق شهوته عُـدم صفوته ، وقد أوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام : يا داود حذر وأنذر قومك أكل الشهوات ، فإن قلوب أهل الشهوات ، عنى محجوبة ، يعنى من جهتهم ، اللهم إلا أن يجاهد العبد نفسه إلى الغاية ، فإن الحق تعالى ربما تفضل عليه بعدم الحجاب عنه مع أكل الشهوات المباحة ، نعيما معجـــلا مما له فى الآخرة ، من غير نقص من نعيمه الأخروى ، صدقة من صدقات الحق تعالى على العبد ، وقد عدوا من فسق العارفين تبسطهم فى الدنيا وشهواتها ، حال كمالهم لأن بذلك تضل أتباعهم ويكون وزرهم عليهم ، والله أعلم .

عاقبة نقض العهد

ومن شأنه حفظ عهده مع الله تعالى ، على ملازمة التوبة من كل ذنب فإن نقض العهد من أعظم الذنوب ، وهو معدود من أنواع الردة عن بعض دينـه ، فيوشك أن يرتد عن دينه كله وقد ورد « المعاصى بريد الكفر » أى مقدمته وفى الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم : يرى أقواماً من أمته يوم القيامة ، قد أخذ بهم ذات الشمال فيقول يا رب : أمتى ؟ فيقال : إنك لا تدرى ما أحدثوا بعدك ، إنهم ارتدوا على أدبارهم القهقرى ، فيقول صلى الله عليه وسلم : سحقاً سحقاً ، قال بعض العلماء : وهؤلاء لم يرتدوا عن أصل الدين ، وإنما ارتدوا عن فعل شىء من فروعه ، بدليل إنه صلى الله عليه وسلم يشفع فيهم ، إذا سكن الغضب الإلهى وموافقة له .

ألخير فى الاتباع والشر فى الابتداع

قال الإمام أبو القاسم القشيرى رحمه الله : « لا ينبغى لمريد أن يعاهد الله تعالى على فعل شىء مما لم يكلفه الله تعالى به ، فإن فى مكروهات الشريعة ما يغنى عن ذلك » .

ثم إنه قد لا يعانُ على ما عاهد ربه عليه من ذلك ، لعدم دخوله تحت شرعه الأصلى فإنه تعالى ما ضمن المعونة ، إلا لمن هو تحت أمره المشروع على ألسنة رسله ، وفى القرآن العظيم « رهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله ، فما رعوها حق رعايتها » فالخير كله فى قدم الاتّباع والشر فى الابتداع .

ومن شأنه أن يكون قصير الأمل وذلك حتى يجدّ فى الطاعات ويجتنب المخالفات ، فإن من كان طويل الأمل لازمه التسويف بالخيرات ، والوقوع فى المخالفات ، وتقول له نفسه : إذا قرب أجلك فتب إلى الله تعالى عن جميع المخالفات السابقة ، وكأنك لم تذنب قط ، فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له » ! ؟ وهذا من أكبر خداع النفس ، والواقع فيه أكثر من الكثير .

ومن هنا قالوا : إن الفقير ابن وقته ، لا نظر له إلى ماض ، ولا آت ، لأن نظره إليهما تفويت للوقت الحاصل ، وقد قالوا : كل من نظر إلى عمله بالتسويف ، خسر عمره وفاته الزرع ، فخسر الدنيا والآخرة والله غفور رحيم .

مقام التجرد

ومن شأنه أن لا يكون له التفات إلى معلوم وظيفة ، أو خـــراج رزقه ، أو أجرة بيت ، ولا يعلق خاطره بشيء من ذلك ، ويجب عليه فى الطريق مجاهدة نفســه ، حتى يصير لا التفات له إلى شيء دون الله تعالى . ومن لا يجاهـــد نفسه كذلك فلا يجيء منه شيء فى الطريق ، إذ لا التفات إلى مضَاد للرقى .

وفى كلام سيدى أحمد الرفاعى رحمه الله : « متلفت لا يصل ، ومتسلل لا يفلح ، ومن لم ير فى نفسه النقصان ، فكل أوقاته نقصان » .

وكان أبو القاسم القشيرى رحمه الله يقول : « ظلمة الركون إلى المعلوم ، تطفىء نور الوقت » .

وسمعت سيدى على المرصفى رحمه الله يقول : « من جلس بين فقراء الزاوية ، والتفت إلى معلوم دنيوى ، وقف عن السير ، وأفسد ضعفاء فقراء الزاوية ، وكان عليه وزر ذلك ، فيجب عليه الخروج من الزاوية ، فإن وقفها أو ما يهدى إليها إنما هو بالإصالة لمن ترك الدنيا ، واشتغل بعبادة الله عز وجل ، فلمحبّة الواقف أو المهدى فى الله تعالى وقف أو أهدى ، حتى لا يلتفت إلى الفقير لغير ما هو بصدده ، وكل فقير أكل من ذلك مع عدم اشتغاله بالله ، فقد أكل حراماً بشرط الواقف فإنه لو رآه غير مشتغل بالله لم يوقف عليه شيئاً ، بل كان يقول له : اخرج واحترف مع السوقة والله أعلم .

شرف الهمة

ومن شأنه أن لا يقبل وقفاً من امرأة ، ولا شيخ قد طعن فى السن ، من أرباب الصنايع ، ولو أتوه به من غير ســـؤال ، لأن من شرط الطريق أن لا يصح لأحد دخولها إلا إن كان شريف الهمّة ، ومن رضى أن يكون تحت منة امرأة أو عاجز عن الكسب ، فهو دنىء الهمّة ، ومرتبته دون مرتبة تلك المرأة ، أو العاجز ، فهو بعيد عن الطريق .

وسمعت سيدى على المرصفى رحمه الله يقول : « إذا رأيتم المريد يقرأ على قبور الموتى ، ويأخذ من النساء على ذلك معلوماً ، فانفضوا أيديكم منه ، ومن ترخص وعمل برخصة الشريعـة فى ذلك ، من غير حاجة ، فهـــو من أبناء الدنيا ، وأبناء الدنيا لا يفلحون فى طريق الآخرة » قال : وليس لشيخ أن يأخذ على هذا المريد عهداً ، ولا أن يلقنه ذكراً فإن فعل ذلك ، فهو كالاستهزاء بالطريق ، قال القشيرى رحمه الله : « وقد تعددت وصايا جميع الأشياخ فى سائر الأقطار إلى مريديهم أن لا يأخذوا وقفاً من النسوان ، فإن فى ذلك من المفاسـد ما لا يخفى ، أقل ما فى ذلك ، أن المريد يصير يميل إلى من أحسن إليه بحكم الطبع والشهوة ، فيتلف قلبه بالكلية ، والله غفور رحيم .

النهى عن مجالسة الغافلين

ومن شأنه التباعد عن مجالسة أبناء الدنيا من التجار والمباشرين ونحوهم ، فإن مجالستهم سم قاتل للمريد ، لضعفه ولكثرة غفلتهم عن الله تعالى ، واشتغالهم بأمور الدنيا ، من مطعم وملبس ومنكح ، وغير ذلك فيسرق طبع المريد منهم محبة العلائق الدنيوية ، والمريد إنما عمله على حذف العلائق ، وإن قدر أنهم ينتفعون بالفقير ، فهو نقص له ، قال تعالى : « ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا ، واتبع هواه وكان أمره فرطا » .

وما رأينا أحداً من المريدين خالط أبناء الدنيا إلا مات قلبه ، وعدم الميل إلى مجالس الذكر والخير ، وسهر الليالى ، ولم يصر له داعية إلى مثل ذلك ، وكان سيدى محمد الغمرى رضى الله عنه إذا رأى مريداً يكثر الجلوس على باب المسجد مع أبناء الدنيا ، يخرجه من زاويته ، ويقول : « إنما جعلت الزاوية للعبادة وكفّ البصر عن رؤية الشهوات ، فمن جلس على باب الزاوية فلا فرق بينه وبين الجالس فى السوق » ووالله إنى لأتأثر على الفقير إذا رأيته قد تصرّمت حباله عن مجالس الخير ، أكثر مما يتأثر هو على فوات ذلك ، وأتكدر من جلوس الفقير على باب الزاوية لعلمى بأن ذلك يشتت القلب ويميته فالله يغفر لنا ولجميع من لم يقبل من الإخوان نصحنا ، إنه غفور رحيم .

المريد الطالب للعلم

ومن شأنه إذا كان مجاوراً ، أن لا يطلب التخصيص عن إخوانه بشيء من الخبز والعسل مثلا ، ولو قدّر أن النقيب أعطاه شيئاً زائداً من وراء إخوانه، فمن الأدب رده ، حتى لا يتميز عن إخوانه ، فيدخل فى كراهة الحق تعالى له ، فعُلم من باب أولى أنه لا يجوز له أن يشارك الفقراء فى الأخذ من الخبز والعسل مثلا ، وعنده شيء من ذلك استرباحاً بل يتخير ، إما أن لا يتخصص ومن ورائهم بشيء واما أن يأكل ما تخصص به حتى يفرغ ، فإذا فرغ شارك الفقراء بعد ذلك ، فكن يا أخى شريف النفس ، عالى الهمة ، فإن طلب التخصيص يدل على خسة الأصل ، ودناءة الهمة ، والله أعلم .

آفات القلوب

ومن شأنه التباعد عن فعل كل شيء يميت قلبه ككثره اللغو والغفلة فإن ذلك مجرب لموت القلب ، وليس عمل الفقير إلا بتحصيل حياة قلبه عن كل شيء يشغله عن الله تعالى ، لأن قلب الإنسان كقلب الطاحون ، فإذا فسد فسدت وإذا كان لها قلبان امتنعت عن الدوران .

دعاء يقال قبل صلاة الصبح

وقد رتبت للفقراء فى الزاوية أن يقولوا : كل يوم قبل صلاة الصبح أربعين مرة : يا حى يا قيوم لا إله إلا أنت : لما بلغنا أن أبا محمد

الكتانى أحد مشايخ الطريق ، رأى النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام ، فقال : يا رسول الله ، ادع الله لى أن لا يميت قلبى ، فقال : يا أبا محمد قل كل يوم أربعين مرة : « يا حى يا قيوم لا إله إلا أنت ، يحي قلبك » .

لا ذكر بعد المشاهدة

ومن شأنه إذا افتتح مجلس الذكر وحده أن لا يسكت حتى يحصل له الغيْبةُ عن الأكوان كلها ، فإن الذكر إنما شرع للحضور مع الحق جل وعلا ، ومادام المريد يشهد شيئاً من الأكوان فهو لم يدخل حضرة الحق ثم إذا دخل الحضرة ، وحضر قلبه مع الحق تعالى ، فليسكت حينئذ لأنه لا معنى للذكر اللفظى ، مع شهود الحق تعالى ، بل لو أراد الحاضر أن يذكر الله بلسانه لم يقدر على النطق ، لأنها حضرة هيبة وجلال ، وبهت وخرس ، ومن هنا رمز بعضهم إلى ذلك بقوله :

ألا بذكر الله تزداد الذنوب وتنطمس البصائر والقلوب !؟[1]

أى لأن من أدب أهل الحضرة الصمت عن العبارات باللسان فمن لم يصمت وقع فى سوء الأدب ، وفى مواقف البصرى يقول الله عز وجل : « إذا لم ترنى فالزم اسمى فإذا رأيتنى فاصمت ، لأنى ما شرعت لك أن تذكر اسمى إلا وسيلة للحضور معى ، فإن اسمى لا يفارقنى » ، وقد سمعت سيدى على المرصفى رحمه الله يقول : « لا يفتح على المريد بشىء من المواهب ، وهو يستحضر فى ذهنه شيئاً من الكون ، إذ الفتح لا يكون إلا لمن شهد الحق تعالى بقلبه ، وغاب عما سواه »

(١) المراد بالذكر هنا ، هو الذكر فى مقام الحضور والمشاهدة لأنه فى هذه الحالة يعتبره الصوفية من الذنوب .

فعلم أنه لا ينبغى للمريد قطع مجلس الذكر ، قبل أن تحصل له الغيبة عن الأكوان ، لأن من قطعه قبل هـــذه الغيبة ، فكأنه لم يذكر الله شيئاً من حيث الثمرة التى هى الرقى ، وإن كتب له بذلك حسنات ، ومن هنا قال الشبلى رحمه الله : « من ذكر الله تعالى على الحقيقة نسى فى جنبه كل شىء » وكان الجنيد يقول : « من شهد الخلق لم ير الحق ، ومن شهد الحق لم ير الخلق ، إلا أن يكون من الكُمَّل » .

وكان الزفى رحمه الله يقول : « كل ذكر لا يمتد زمانه فهو كالطعام الذى لا يسد جوعة الآكل » وكان يقول : « من الأدب أن لا يسكت الذاكر ما دام يستلذ بالذكر ، فإذا حصل له ملل ، فمن الأدب السكوت » كما أنه يكره له بعد الشبع أن يأكل ، وبعد الشبع المذهب للخشوع أن يصلى إلا بعد هضم ذلك ، بكثرة الذكر ، وذلك لأن جوارحه تصير عاصية عن كمال الإقبال على الله عز وجل ، فهى كعبادة المكره على حد سواء ، فكما لا يقبل إســـلام الذمى مكرهاً ، كذلك لا تقبل عبادة العابد مكرهاً .

هل ينوع المريد أوراده؟

ومن هنا نوع الشارع صلى الله عليه وسلم ، الأوراد للعبد ، فمن ملّ عن ورد انتقل إلى ورد آخر ولو مفضولا ، ولو لم يكن عند العبد ملل ، لم ينوع له الأوراد ، بل كل يأمره بذكر واحـــد على الدوام كالملائكة ، فافهم .

متى تطوى مقامات الطريق للمريد ؟ ؟

وكان سيدى على المرصفى رحمه الله يقول : « إذا ذكر المريد ربه بشدة وعزم ، طويت له مقامات الطريق بسرعة من غير بطء ، فربما قطع فى ساعة ما لا يقطعه غيره فى شهر وأكثر ، وكان يقول : « السالك من طريق الذكر ، كالطائر المُجِد إلى حضرات القرب ، والسالك من غير طريق الذكر كالزمِن(١) الذى يزحف تارة ويسكن أخرى ، مع بعد المقصد فربما قطع مثل هذا عمره كله ولم يصل إلى مقصوده » وكان الجنيد رضى الله عنه إذا سأله فقير أن يدعو له يقول : « أسأل الله أن يدلك عليه يا أخى من أقرب الطرق وذلك لينطفىء عنه نيران البعد والجفا ، وينملى بشهود حضرة الحق جل وعلا ، ولو قبل موته بلحظة ، وكان سيدى على المرصفى رحمه الله يقول : « من أدب الجماعة إذا كانوا يذكرون مع الشيخ أن لا يتعدوا إشارته ، فإذا أشار عليهم بالسكوت ، فمن الأدب أن لا يتمادى أحدهم فى الذكر ، ما دام إحساسه باقياً ، فإن تمادى مع عدم الغَيْبة عن الحاضرين ، فذكره نفاق مغموس بسوء أدب ، فإن الشيخ لا يقول لهم اسكتوا ، إلا بعد استئذان الحق تعالى فى ذلك على الوجه المعروف عند القوم ، ومخالفة إذن الحق خروج عن الأدب ، موجبة للعطب » والله أعلم .

---

(١) الزمن : الشيخ الكبير الضعيف المقعد .

تجنب المظاهر

ومن شأنه أن لا يكون له التفات قط إلى الاعتناء بظاهره ، من ملبس وغيره إلا بقـــدر الضرورة ، فمن نظر إلى ظاهره انقطع عن السير .

وقد رأى سيدى أحمد بن الرفاعى رحمه الله فقيراً هنـــدم ثوبه ، وصف طباق عمامته على المناسب ، فقال : يا ولدى هـذا خروج عن طريق الإرادة ، ومن كلامهم :

إذا رأيتم المريد فى زيه لبق　　فاعلموا أنه عن الاستقامة زلق

ويستحب أن يكون قميصه لا ينزل عن كعبـــه ، وأن يكون نظيفاً واسع الأكمام وسطاً ، وأن يكون موطا أو مصبوغاً ، كله أخضر أو أزرق أو أسود أو نحوها ، ولا ينبغى له لبس الثوب الأبيض إلا يوم الجمعة ، لا سيما إن كان يخدم نفسه ، أو غيره ، فى البيت والزاوية مثلا ، وذلك لان المريد يجب عليه أن يقلل من علائق الدنيا ، ومن الإلتفات إليها ، وإلى التزين بملابسها ، والأبيض يحوجـــه كل قليل إلى غسله بالصابون ونحوه ، وذلك يحتاج إلى دراهم يشتريه بها ، والدراهم تحتاج إلى الحرف والصنائع ، أو سؤال الناس بحاله ، أو بمقاله ، فيأكل بدينه ، فكأنما عبد الله تعالى بعبادة ، أكل بها ولبس ، لأنه لولا العبادة التى يراه الناس عليها ما أكرموه ، وكل ذلك يقطع عن السير ويفتح باب التوجـــه إلى الدنيا .

وبالجملة فكل شيء تهواه نفس المريد في الدنيا يقطعه عن الله عز وجل فيجب على المريد الصبر على وسخ الثياب وتخريقها ، حتى يزول وسخ قلبه فإذا زال فهناك يؤمر بنظافة الثياب وتبييضها ، ليشاكل بذلك باطنه من باب التحدث بالنعمة ، لا لغرض نفسانيّ ، فعـلم أن كل مريد اشتغل عن إصلاح حاله بنظافة ثيابه ، ولبس الأصواف الرفيعة وغيرها لا يفلح فى طريق القوم ، ولو كان شيخه من أكبر الأولياء .

ووالله لقـــد لبست فى بداية أمرى المرقعات ، وشراميط الكيمان ، وتعمَّمت بالحبال وجلود قصاصات النعال الجديدة ، وكان الناس يأتونى بالثياب الفاخرة والأطعمة اللذيذه ، فأردها خوفاً من أن تشغلنى عن الله عز وجل ، فكيف بمريد يجتهد فى تحصيلها ؟؟

وقد بلغنا عن الشبلى رحمه الله أنه كان إذا أعجبه شيء من ثيابه ، يذهب إلى التَّنُّور فيحرقه ، فيقال له : هلا تصدقت به ؟ فيقول : « ما أشغل قلبي فهو كذلك يشغل قلب غيرى » وأجاب اليافعى رحمه الله عن مثل ذلك ، بأنه من باب ارتكاب أخف المفسدتين عند القوم ، فإن زوال الدنيا كلها أهون عندهم من غفلتهم عن الله تعالى ، كما لو غص بلقمة ، ولم يجد ما يسيغها به ، فله أن يسيغها بخمر صيانة للجسم عن الهلاك ، فكذلك الحكم فيمن خاف على هلاك دينه يقدمه على هلاك دنياه .

قال الأشياخ : وإن كان ولا بد من الملابس الحسنة ، فليلبس الوسط لا رقيقاً يصف البشرة ، ولا غليظاً كالخيش ، وكذلك لا ينبغى له أن يلبس ثياب أهل الرعونات ، كالثياب التى فيها خطوط صفراء أو حمراء أو خضراء عملا بالعرف فى ذلك ، وقالوا : إن مثلها لا يوجد من مال حلال ، والحرام يوقف المريد عن السير ، وإنما لبس صلى الله عليه وسلم البرود التى فيها خطوط صفر وحمر بياناً للجواز ، وكانت من حلال بإجماع .

قالوا : والحكمة فى موافقة المريد للفقراء فى اللباس ، طلب التشبه بهم ، فإنه كلما تشبه بهم قوى فى الطريق ، وقالوا من تشبه بهم فى الأحوال الظاهرة ، يرجى له حصول التشبه بهم فى الأحوال الباطنة ، حتى أن المريد الصادق ربما يسرق جميع صفات القوم فى مدة يسيرة .

قال الشيخ نجم الدين البكرى : « وكان السلف الصالح يستحبون أن يكون قميص أحدهم ذا جيب ، ويكرهون السروال الواسع العباب ، بحيث لو شمره لطلع إلى الفخذ ، وجاوز الركبة ، وكذلك كانوا يكرهون للمريد أن يجعل علماً على ثوبه من غير لونه بلا حاجة شرعية ، كأن يتحرق ولم يجد خرقة من لونه ، وما رقع السلف الصالح ثيابهم إلا اضطراراً ، فكانوا لا يجدون من الحلال ثوباً كاملا ، إلا فى النادر ، فلذلك كان أحدهم يرقع ثوبه من الشراميط الحلال ، فيصير ثوبهم ذا ألوان مختلفة ، فهذا سبب لبسهم المرقعات ، والله أعلم .

ومن شأنه إذا دخل فى عهد طريق القوم ، أن يغير هيئة لباسه ، المخالف لهيئة لباس الفقراء عادة من لبسه الفلاحين أو الجند أو المباشرين فقد قالوا : لابد للمريد من فعل ثلاثة أمور ، تغيير الخلاس ، يعنى الثياب ، والجلاس يعنى الذين يشغلونه عن الله ، والأنفاس ، فيصير يحذر من تضييع نفس واحد من أنفاسه ، فى غير طاعة ، وفى غير رواية والانعباس ، وهو أن يعبس وجهه لكل من يريد أن يشغله عن ربه ، حتى ينفر الناس من مجالسته » .

وقد حث القوم المريد على التشبيه بالقوم فى مراسمهم الظاهرة ، لكى ينتقل إلى مراسمهم الباطنة ، وفى كلام العلماء : « المروءة هى التخلق بخلق أمثاله فى زمانه ومكانه » ، وجعلوا تغيير الهيئة له مخلا بالمروءة ، كما لو لبس

القاضي ثوب فلاح وعمامته مثلا ، وفى المثل السائر « كل كلما تشتهى نفسك — يعنى من الحلال — والبس ما يلبسه أبناء جنسك » والله أعلم .

ومن شأنه أن يكون ذا نهضة ونشاط على الدوام ، فلا يرمى بنفسه إلى الكسل وقتاً من الأوقات ، فليحذر أن يصلى النافلة قاعداً ، مع القدرة على القيام ، أو يتناول حاجة وهو قاعد ، أو يزحف إلى الحاجة حتى يصل إليها ، إذا كانت قريبة منه ، أو يرسله شيخه فى حاجة إلى السوق مثلا فيقول : أنظر هل بقى حاجة أخرى ! ؟ ليكون خروجى للسوق مرة واحدة ونحو ذلك على وجه الكسل لا على وجه الخوف من فتنة الخروج ، وكل من فعل شيئاً مما ذكرناه فهو عاجز لا يصلح للطريق .

ومن الكسل أيضاً طلبه دابة يركبها إذا أرسله شيخه فى حاجة ، مع قدرته على المشى إليها ، وحمل تلك الحاجة على ظهره ، أو فى يده عادة بل يرى الشرف له إذا خدم الفقراء وتعب فى حوائجهم فينبغى للشيخ إذا رأى المريد يميل إلى الرخص والراحة ، أن لا يتعب نفسه فيه ، ويأمره بالحرفة والصنائع ، فإن كلا ميسر لما خلق له ، والله أعلم .

ومن شأنه أن يكون كثير الإطراق فى الأرض إذا جلس أو مشى ويقلل من الإلتفات وفضول النظر ، وإن أرخى الطيلسان دائماً على وجهه بقدر ما ينظر مواقع قدمه فقط ، كان أعون له ، قالوا : وهذا دأب المريد ما لم ينظر إلى الأمور بعين الاعتبار ، فإذا صار ينظرها بتلك العين فلا يؤمر بالإطراق إلا على وجه الحياء من الله لاغير ، وقد كان أنس بن مالك لا يفارق البرنس صيفاً ولا شتاء ويقول : إنه يكف البصر عن فضول النظر .

وكان السلف الصالح إذا سئل أحدهم عن صفة جليسه لا يعرفها ، فكيف بصفة شيخه ؟ وما قام أحد بهذا الأدب مثل ما قام به النقشبندية ببلاد الهند والعجم ، بمجرد ما يأخذ المريد عن شيخ ، لا يعود ينظر الى وجهه حتى يموت ، وفى ذلك سر خفى ، وهو أن الشيخ ربما تجلى للمريد بالعظمة التى فى باطنه لله عز وجل ، فلا يطيقها المريد فيموت ! ؟ كما وقع ذلك لأبى يزيد البسطامى مع مريد .

كان يقول : مرادى أرى الله عز وجل : فقال له يوماً : إنك لا تطيق رؤية الله ، إلا بعد أن تطيق رؤيتى فى اليقظة من حيث التجلى القلبى ، فقال له المريد : بلى أطيق ذلك ، فخرج عليه أبو يزيد يوماً على غفلة ، فبمجرد ما وقع بصر المريد عليه مات لوقتـــه ! ! فقيل له فى ذلك ، فقال : إنى تجليت له بما انطوى عليه باطنى من عظمة الله عز وجل فصعق ! !

وكذلك وقع للشيخ عبد المجيد شقيق سيدى عبد العال ، مع سيدى أحمد البدوى رضى الله عنـه ، فقال له عبد المجيد يوماً : يا سيدى : مقصودى ترفع اللثامين حتى أرى وجهك ، فقال : يا عبد المجيد كل نظرة تقتل ! ؟ فقال : نفسى بذلك طيبه ، فرفع سيدى أحمد اللثام عن وجهه ، فخرّ سيدى عبد المجيد ميتاً لوقته ! ؟ .

هكذا حكى لى شيخنا الشيخ محمد الشناوى ، وحكى الشيخ محي الدين ابن العربى : أن الشيخ أبا يعزى المغربى ، كان لا يقع بصر أحد عليه إلا عمى لوقته ، قال : وممن رآه فعمى الشيخ أبو مدين ، وكان أبو يعزى هذا من أكابر الوارثين رضى الله عنـــه ، ثم لما عمى أبو مدين أمره الشيخ أبو يعزى بأن يمسح عينيه بشىء من ثيابه ، ففعل الشيخ أبو يعزى فرد الله عليه بصره ، وكان الجنيد رضى الله عنه يقول : صحبت السرى

إلى أن مات ، فما عرفت هل لحيته بيضاء أو سوداء ؟ وأخبرنى الشيخ شهاب الدين المشهور بمازن الأزهرى : أنه خدم سيدى محمد بن عنان سنين ، فلم ير له وجها ، وكذلك الشيخ لم يعلم بطلوع لحية الشيخ مازن إلا من الناس كما مرّ قريباً : والله أعلم .

الطريق لا تقبل الشركة

ومن شأنه أن يكون لهجاً بذكر الله عز وجل ، فى سائر أوقاته ولا يجيب قط من عدله عنه إلى غيره ، إلا بطريق شرعىّ فإن الطريق لا تقبل الشركة معها ، وكل من لم يعطها كله لا تعطه بعضها ، فلا يزال المريد يلهج بذكر اسم الله ، حتى يحصل له الحضور الدائم مع الله ، فهناك يستغنى عن ذكر اللسان بالشهود القلبىّ ، وما دام لم يحصل له الحضور الدائم ، فهو مأمور بذكر اللسان ، وقد تقدم أن حكم الذكر فى الجلاء للقلب المصدىء ، كحكم الحصى للنحاس المصدىء ، وحكم غير الذكر من سائر العبادات كحكم الصابون للنحاس ، فياطول تعب صاحبه ويا بعد وصوله ، وبالجملة فكل شىء أشركه المريد مع الذكر ، قطعه عن سرعة السير وأبطأ فتحه بقدره كثرة وقلة والله أعلم .

ومن شأنه القيام بالإمامة والآذان إذا بلغ ، وطلبها أصحابه منه ، ولا يتعلل بالحياء فإنه حياء طبيعى لا شرعى .

وكذلك من شأنه غسله لثياب إخوانه إذا اتّسخت ، واستأذن شيخه فى ذلك ، كما سيأتى فى الباب الثالث إن شاء الله تعالى :

وكذلك من شأنه أن يصلح السراج ، وينظف المستراحات ، ويهيء ماء الوضوء لنفسه وللإخوان ، وكذلك من أدبه اتخاذ المشط والمقص

والسواك والخلال ، والإبرة ومحك الظهر والرأس ، واتخاذ السجادة أو القطيفة لمسح الأعضاء بعد الوضوء للصلاة عليهما إذا لم يجد مكاناً طاهراً ، وكل شيء يذبّ الشارع اليه فتهيئة أسبابه من السنّة ، وكذلك من أدبه استعمال الحنك اليمين فى مضغ الطعام ، فلا يمضغ على اليسار إلا لحاجة ، واستعمال الطيب فى الأبط ، ووضع الطعام على السفرة دون الأرض ، تعظيماً للنعمة وخوفاً من أن يقع الفتات على الأرض والله أعلم .

ومن شأنه تخفيف الثياب لدخول الخلا والبداءة فى التشمير للاستنجاء بالكم الايسر ، وفى التشمير لأمر آخر كوضع السفرة أو رفعها أو استعمال شيء طاهر بالكم الأيمن ، ويخلع سراويله بحيث يتمكن من الجلوس ويكون ذلك بحيث لا يراه أحد ، ويجعلها تحت القميص تحت إبطه الأيسر ، وإذا أراد أن يدخل بيت الخلا يضرب برجله الأرض ، أو بيده الحائط ، ثلاث مرات حتى يتنحنح ، يعنى بذلك : هل هنا أحد ؟ فيجيبه الآخر من داخل بالتنحنح ، ولا يطرق الباب على غفلة فربما انفتح الباب فظهرت عورة الجالس فيه ، وإذا كان فى الصحراء وقضى حاجته فينبغى له أن يدفن ذلك لا أن يدوس عليه أو يسجد فينجسه ، والله أعلم .

ومن شأنه أن يحذر كل الحذر من الاهتمام بظهور شأنه وانتشار صيته فى بلاده مثل ما انتشر صيت شيخه مثلا ، ومن قصد بذكره وعبادته ذلك فجزاؤه العقوبة بإخماد الذكر وقلة انتفاع الناس به عكس من طلب الخفا ، فإن جزاءه الظهور قهراً عليه لينفع الناس .

وكان سيدى على بن وفا رحمه الله يقول : يا مريد الله ، لا تهتم بإظهار شأنك اهتماماً يحملك على الإستعانة بالخلق ، فإنك إن كنت على نور وحق ، فسوف يظهرك الله وكفى بالله ولياً ، وكفى بالله نصيراً ، وإن ،

كنت على ظلمة وباطل ، فلا تتسبب فى إظهار شأنك وإشاعة صلاحك ، فإنك لا تتمتع بذلك - إن تمتعت به - إلا قليلا ، ثم الله أشد بأساً وأشد تنكيلا فاعلم ذلك .

ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة

ومن شأنه أن يكون دائم الإيثار لأصحابه فى سائر الشهوات على نفسه وقد أجمع الأشياخ على أن المريد إذا كان شأنه الإيثار واحتمال الأذى ، فلا بد من رفعته على جميع أقرانه ، إما فى الدنيا وإما فى الآخرة وإما فيهما معاً .

وكان سيدى على بن وفا رحمه الله يقول : لا يسود أحد على أقرانه إلا إن آثرهم على نفسه ، ولم يشاركهم فى شىء مما استشرفت اليه نفوسهم ، وكان يقول : من شأن المريد ، أن لا يتأثر على شىء فاته من الدنيا ، ومتى تأثرت منه شعرة إذا دخل اللصوص وأخـــذوا جميع ما فيها فهو كاذب فى الطريق ، إذ الصادق ينشرح لكل شىء فاته من الدنيا فضلا عن التأثر عليه ، والله أعلم .

ومن شأنه التباعد عن كل من لا يراه يعمل بعمله وبعلمه لئلا يسرق طباعه مثله فيهلك ، فإن جليس السوء أضر على جليسه من أبليس فإن أبليس إذا وسوس للمؤمن عرف المؤمن أنه عدو مضل مبين ، وإذا أطاع وسواسه عرف أنه عصى ربه عز وجل فيأخذ فى التوبة من ذنبه وكثرة الاستغفار عنه ولا هكذا إخوان السوء لأنه يلبس الحق بالباطل على وفق غرضه وهواه ، ولا يكاد يعتذر عن ذنب وربما احتج بالقضاء والقدر ، وجادل بالباطل ، ومن خالط مثل هذا ضل سعيه ، وقد قالوا : ستون من مردة الشيطان ، لا يفسدون ما يفسده قرين السوء فى لحظة .

فكن يا أخى فطناً ولا تجالس إلا من رأيته يعمل بعلمه ، واحذر من الاغترار بمن لا يراعى ذلك من الفقراء ، فقد كان سيدى إبراهيم المتبولى إذا خرج من زاويتـــه مريد ليتعلم العلم فى الجامع الأزهر يقول له : إذا دخلت الجامع فاسأل عن علمائه فكل من مدحـــه الناس بالورع والزهد وقلة التردّد إلى الأكابر فاقرأ عليه ، وإياك أن تقرأ على من لا يتورع فى مأكله أو ملبسه فإنك تصير مثله على طول ، وإذا تعلمت العلم فاطلب طريق العمل به على يد الصوفية فإنهم يقربون عليك الطريق ، وإذا قال لك فقيه بعد ذلك : ماذا استفدته بعدنا من صحبتك للصوفيّة ؟ فقل له : استفدت منهم حسن العمل بما تعلمته منكم .

المريد الصادق

فلو أن الفقهاء عادة يعتنون بالعمل بعلمهم كما يعتنى به الصوفية لكانوا هم الصوفية ، ولم يحوجوا طالباً إلى غيرهم ، كما كان عليه السلف الصالح من العلماء ، فإن حقيقة الصوفى هو عالم عمل بعلمه على وجه الإخلاص لا غير ، وكان الإمام الشافعى رحمه الله مع جلالته يجالس الصوفية ، فقيل له : ماذا استفدت من مجالسة هؤلاء ؟ فقال : استفدت منهم شيئين ، قولهم : الوقت سيف إن لم تقطعه قطعك ، وقولهم : إن لم تشغل نفسك بالخير ، شغلتك بالشر .

وكذلك كان الإمام أحمد رحمه الله يجالس أبا حمزة البغدادى الصوفى ، وكان إذا أشكل عليه شيء يقول : ما تقول فى هـذا يا صوفى : ؟ وكفى

بذلك منقبة للقوم ، فلولا أن عندهم مزيد خصوصية ، ما احتاج إليهم مثل الإمام أحمـــد ، وحكى ابن أيمن فى رسالة الإمام أحمد كان يمنع الناس عن اجتماعهم بالصوفية ويقول : وهل مع أحد منهم شيء زائد على ما معنا ؟ حتى نزل عليه منهم جماعة فى الليل ، من دور قاعته[1] فسألوه عن مسائل فى الشريعة فأعجزوه ، ثم طاروا فى الهواء ثم قالوا له : طر معنا فلم يستطع ؟ فمن ذلك اليوم صار يحث الناس على الإجتماع بالصوفية ويقول : إنهم زادوا علينا فى العمل بما علموا .

ومن شأنه أن لا يلتفت إلى مال خرج عنه قبل دخوله فى الطريق ، ولا إلى دار ولا ضيعة ولا سبب من الأسباب ، فإن الالتفات إلى ذلك من أضر شيء على المريد الضعيف ، وربما انتكس إلى حالة أقبح مما كان عليه قبل دخوله فى الطريق ، وقد كان الجنيـــد رضى الله عنه يقول : لو أقبل صادقاً على الله تعالى ألف عام ، ثم أدبر عنه لحظة كان ما فاته فى تلك اللحظة أكثر مما ناله قبل ذلك .

وإيضاح ذلك أن كل لحظة متضمنة لجميع الأمداد السابقة ، ويزيد عليها بمدد الوقت ، فإن جود الحق تعالى لم يزل فياضاً على الدوام ، والله أعلم .

ومن شأنه أن يكون مجتهداً فى طاعة ربه لا سيما أول بدايته فإنهم قالوا : من لم يكن مجتهداً فى بدايته ، لا يفلح له مريد فى نهايته ، وذلك لأنه إذا نام نام مريده غالباً ، وإذا صام صام مريده كذلك ، وإذا تناول الشهوات تناولها مريده كذلك ، وهكذا فى سائر الأخلاق ، وإيضاح ذلك

---

(١) دور قاعته يعني الدهليز .

أن استمداد المريد الصادق إنما هو من شيخه ، فكل حالة كان شيخه فيها استمد منها المريد ، حتى إن الشيخ لو غفل عن ربه فلا بد من غفلة مريده قهراً عليه ، فلا أحد أتعب قلباً ولا بدناً ممن نصب نفسه إماماً للمريدين ، لكن ذلك أغلبي لا كلي ، فقد يغفل المريد عن ربه حال حضور شيخه معه .

وكان سيدى إبراهيم الدسوقى يقول : لا بد للمريد من المجاهدة مع الإخلاص ، فإنه إذا صدق فى معاملة الله تعالى فى السرائر ، جعله على الأسرة والحظائر ، وكان يقول : من خلص النظر الى ورا ، وسلم من الانتكاس بين الورى ، وكان يقول : من لم يكن عفيفاً ، نظيفاً ، شريفاً ، فليس هو من أولادى ، ولو كان ولدى لصُلبى ، ومن كان ملازماً للطريقة والديانة ، والصيانة ، والزهد ، والورع وقلة الطمع ، فهو ولدى وإن كان من أقصى البلاد ، وكان يقول : يجب على المريد الضعيف الحال ، أن يأخذ من العلم ما يجب عليه تأدية فرضه ونفله ، ولا ينبغى له أن يشتغل بشىء زائد على ذلك من الفصاحة والبلاغة حتى ينتهى سيره ، ويعرف ربه ، وهناك يصير لا يشغله عن ربه شاغل ، فإن قرأ فى علم النحو كان مع الله ، أو فى علم الكلام كان مع الله ، أو فى علم الأحكام كان مع الله ، كشفاً وشهوداً ، بخلاف من لم يبلغه بسيره ، فكل شىء اشتغل به فى الوجود ربما يشغله عن الله ، حتى الكلام المباح .

وكان يقول : من آكد ما يجب على المريد مطالعته ، لما كان فيه مناقب الصالحين وآثارهم من العلم والعمل ، وكثرة الذكر ليلا ونهاراً ، لأن ذلك يجذبه إلى اللحوق بهم ، والله أعلم .

ومن شأنه أن لا يكون عنده منافسة لأحد ، ولا جدال فى شريعة

ولا حقيقة ، ولا منافسة فى تصحيح أعمال غيره ، لأن ذلك من وظيفة الأشياخ ، وأما المريد فإن اشتغل بذلك ، قطعه عن السير وأورث عنده الرئاسة والعجب ، فهلك من حيث لا يشعر ، بل الواجب عليـــه أن يكون عمّـالا فى طريق الترقى ، لا يمّل منها كسلا ليلا ولا نهاراً ، وللجدال أقوام وللتسليم أقوام .

وكان ســـيدى إبراهيم الدسوقى رحمه الله يقول : من شرط المريد الصادق ، أن يكون خارجاً عن حظوظ نفسه كلها ، لا التفات له إلى حظ من الحظوظ من مال أو جاه أو نسبة إلى صلاح يرضى بالتلف والضيق ، ويفرح بالخمول وعدم الشهرة ، كما هو شأن الصادقين لأن الفلاح والنجاح لا يصحّ إلا لمن ترك حظوظ نفسه وقابل الأذى بالإحسان ، والشر بالاحتمال ، وكان يقول : من شرط المريد الصادق أن لا يكون له فعل ردىء ، ولا يصرفه عن طريق القوم صارف ، ولا يرده عنها السيوف والمتالف .

وكان يقول : من شرط المريد أن لا يكون عنـــده دعوى صادقة فكيف بالكاذبة ، ولا يكون بينه وبين الأحداث والنساء الأجانب ودّ ولا إخاء ، إنما ذلك للأشياخ .

وكان يقول : من شأن المريد أن يكون عمّـالا ببدنه وقلبه ، ليس عنده شقشقة بالكلام فى الطريق ، ولا يتكلم فيهـا حتى ولو تخلق بأخلاقها ، حتى يأذن له شيخه ، قال : وغالب مريدى زماننا هـــذا قد قنعوا من الطريق بكلمات تلقفوها من بطون الكتب ، أو من أشياخهم فمن سمعهم ظن أنهم من القوم فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

ومن شأنه أن يفتش على الحل فى اللقمة ، وســاتر العوْرة ، وما دام

لسانه يذوق الحرام والشبهات فأعماله لا يفى نورها بظلمة تلك اللقمة ، ومعلوم أن عمل المريد دائماً ، إنما هو فيما يستنير به قلبه ليفرق بين الهدى والضلال ، وكان سيدى إبراهيم الدسوقى رضى الله عنه يقول : من شأن المريد الصادق أن لا يلتفت بقلبه ، إلى تزكية الناس له ، بل الواجب عليه أن يفتش نفسه عن كل شىء زكاه الناس به ، فربما كتب الشيخ للمريد أجازة أيام الاستقامة ، ثم ان المريد غير وبدل ، فماذا تنفعه تلك الإجازة وهو قد غير وبدل فى أحوال أهل الطريق ؟ بحيث لو أنه عرض على الشيخ ما ارتكبه من الزلات بعد الإجازة لرجع عن إجازته وحكم على نفسه بالخطأ فى ذلك ، فليفتش المريد نفسه بعد الإجازة ولا يقنع بكتابه درج يكون عنده فإن ذلك غرور .

وكان يقول : إذا اشتغل المريد بإعراب الكلام العادى واستقامته وسلامته من اللحن ، فقد تورع منه فى الطريق إنما ينبغى له الأعراب والاستعانة فى الأعمال الصالحة ، لكن لا بأس بأن يتعلم من النحو ما يحفظه عن اللحن فى القرآن والحديث والله أعلم .

ومن شأنه أن يكون ذا صبر شديد على ملازمة السهر ، والجوع ، والعزلة عن الناس ببدنه وقلبه ، فقد قال سيدى إبراهيم الدسوقى : إن الطريق إلى الله تعالى تفنى الجلاد وتفتت الأكباد ، وتضعف الأجساد ، وتدفع للسهاد ، وتسقم القلب ، وتذيب الفؤاد ، وكان يقول : من أعظم مايؤمن به المريد المحبة والتسليم للشيخ ، وإلقاء عصى المعاندة والمخالفة ، والسكون تحت مراد شيخه وأمره ، فإذا كان كل يوم يزداد محبة فى شيخه وفى التسليم له ، سلم من القطع فإن عوارض الطريق وعقبات الالتفاتات والإدارات هى التى تقطع الإمداد وتحجب المريد عن المراد والله أعلم .

ومن شأنه : أن يفر ممن يرمى أهل الطريق بزور ، أو بهتان ، أو رياء ، أو نفاق ، فإن كل من تجرأ على أهل الطريق أبغضه الله ومقته ، فلا يفلح بعد ذلك أبدا ، ولو كان على عبادة الثقلين سوى ذلك ، فإن قلت : فكيف يصح لنا أن نعرف محبة الله تعالى لعبد من عبيده ؟ فالجواب أننا نعرف محبة الله تعالى له ، بتقربه إليه بالطاعات وكثرة النوافل ، فإذا رأينا من يفعل ذلك ، وجب علينا محبته وحرم علينا بغضه ، وليس لنا أن نشق قلبه حتى نعرف أنه مخلص أو مرائى ، لأن ذلك إلى الله تعالى لا إلينا ، وكان سيدى إبراهيم الدسوقى يقول : من علامة كذب المريد فى دعواه كمال الصدق فى محبة ربه ، نومه فى الأسحار ، وفوات شربه من دن الدنو ، وخمر الخمار ، وكان يقول : لا يصح لمريد القرب من حضرة ربه إلا إن ترك كلما سوّاه من مقام ودرجات ، وخوارق وكرامات ، وكان يقول : كل مريد قبل فتوى إبليس فى أن الله تعالى لا يعاقبه على ترك فعل السنن والأوراد ، تعس وانتكس وفاته المراد ، فإن الشيطان إنما يأمر المريد برخص الشريعة ، يستدرجه إلى البغى والغى ، فإذا عمل المريد بالرُّخَص بعد أن كان يعمل بالعزائم ، نقل بعد ذلك الى فعل المحظورات ويقول له : إن هذا الفعل مقدر عليك قبل أن تخلق ، فأى شيء كنت أنت ؟ ويوسوس له بأنك صرت من الموحدين الخالصين ، لا ترى لك فعلا مع الله تعالى ، فيهلك مع الهالكين ، لأنه لا يصير يتوب ، ولا يستغفر من ذنب .

وكان يقول : من شرط المريد أن يكون من أبعد الناس عن الآثام كثير السهر والقيام ، كلما زاد فى خدمة سيده زاده قرباً وإحساناً .

وكان يقول : إياك يا مريد أن تدعى كمال محبتك لله تعالى ، ثم تعصى

ربك عز وجل ، فإنك إذا عصيته ربما قال لك لسان حضرته أفٍّ عليك أمَا تستحى منى ؟ أين دعواك الصدق فى طلب القرب منى ؟ أين غسلك ثيابك المدنسة لمجالستى ؟ كم تنقل قدمك إلى الآثام ؟ كم تنام وأحبابى قد صفوا الأقدام ، أنت وعزتى وجلالى مدّعٍ كذاب ، والسلام .

وكان يقول : الله تعالى خصم كل مريد شهر نفسه بطريقنا ، ولم يقم بحقها ، واستهزأ بها .

وكان يقول : من خان لا كان ، ومن لم يتعظ بكلامنا ، فلا يمشى فى ركابنا ، ولا يلم بنا ، فإننا لا نحب من أولادنا إلا الشاطر المليح الشمائل ، وذلك ليصلح قلبه لوضع سرنا فيـــه ، فيا أولادى إن كنتم صادقين فى الإرادة فلا تدنسوا طريقى ولا تلعبوا فى تحقيقى ، ولا تلبسوا على أنفسكم فى الصدق ، وأخلصوا تخلصُوا ، وكما وفينا لكم بحق التربية والنصح ، فوفوا لنا بالاستماع والاتعاظ ، وما آمركم إلا بما أمركم به ربكم ، ونبيكم صلى الله عليه وسلم .

إياك والادعاء

وكان يقول : من علامة المريد الصادق ، أن لا يقول قط أنا أفعل كذا ، من العبادات العظيمة ، فإن الله تعالى يعجز المدعين وإن كانوا على أعمال الثقلين هبطوا وأصحاب مبركه سقطوا .

وكان يقول : إذا غفل المريد الصادق عن مناقشة نفسه ، وعن حملها على الرياء والنفاق هلك من الهالكين ، فكيف بالمريد الكاذب ؟

وكان يقول : من علامة المريد الصادق ، أن تطوى له مقامات الطريق البعيدة ، على غيره من شدة عزمه ، لأن حلاوة القرب من حضرة ربه تنسيه طول التعب .

وكان يقول : من علامة المريد الصادق ، أن تنقلب له الأضداد ، فيصير من كان من الصالحين يسبه يحبه ، ومن كان يقاطعه يواصله ، ومن كان لايشتهيه يثنى عليه ، ولا عبرة بعداوة المنافقين ، لأنهم أعداء للأنبياء والمرسلين ، والله أعلم .

سر الطريق فى أورادها

ومن شأنه أن لا يطيع الملل من قراءة الأوراد التى أمره بها شيخه فإن كل شيخ قد جعل الله مدده ، وسره وسر طريقته فى أوراده ، التى يأمر بها المريد ، فمن ترك ورده ، فقد نكث عهد شيخه ، وأجمعوا على أنه ما قطع مريد ورده إلا انقطعت عنه الأمداد فى ذلك اليوم ، وإيضاح ذلك ، أن طريق القوم طريق تصديق وتحقيق ، وجهد وعمل ، وغض بصر وطهارة قلب ، ويد وفرج ولسان ، ومن خالف شيئاً من أفعالها رفضته الطريق كرهاً عليه .

وقد كان سيدى إبراهيم الدسوقى رضى الله عنه يقول : يجب على المريد أن يجمع همّة العزم ، ليعرف الطريق بالذوق لا بالوصف والقلم .

وكان يقول لمريده : إن كنت ياولدى صادقاً ، فتجرد من قالبك إلى قلبك ، والزم الصمت عن الاشتغال بكل ما لا فائدة فيه من الجدال ،

وزخارف الأقوال ، وصمم العـــزم ، واركب جواد الطريق ثم يقول : آه آه آه ما أحلى هـذه الطريق ، ما أسناها ، ما أمرها ، ما أقتلها ، ما أحياها ، ما أحلاها ، ما أصعبها ، ما أكبرها ، ما أكثر مصايدها ، ما أكثر مددها ، ما أعجب واردها ، ما أعمق بحرها ، ما أكثر سباعها ، ووحوشها ، ما أكثر عقاربها وحياتها ؟!.

وكان يقول : كيف يدعى أحدكم محبـــة ليلى ، وهو ليلا ونهاراً مع عذالها ، ولوامها والمنكرين على أهلها ، والمعترضين عليها بالجهل ، والخائنين لعهودهم ، إنمـا تبرز ليلى لمن تهتك فى حبها ، ولم يسمع كلام المنكرين على أهلها ، فإن ليلى لا تحب من يحب سواها إلا بإذنها ، بل لا تحب من تخطر محبة سواها فى قلبه ، وإنما تحب من كان بحبها سكران ، وبشرابها ثملان ، ولهان ، ذهلان ، عرقان ، نشوان ،هيمان ، لو اجتمع الثقلان أن يلوُوا قلبه بها ، أو يحلوا عقدة عهدها ، ما استطاعوا وكان يقول : من شرط المريد الصادق أن لا يكثر من مجالسة أرباب المحال ، وزخارف الأقوال ، ولقلقلة اللسان ، وإنمـا يجالس من أخذته الطريق ودققه التمزيق ، وتفرق عنه كل صديق ، وذاب قلبه وجسمه من تجرع مراراتها ، ثم يقول : من شك فى قولى بأن مجالسة هؤلاء يميت قلبه ، فليمتحن نفسه بالأنس بالله تعالى ، إذا ذكر الله مجلس ذكر ، وإذا قرأ شيئاً فى أحكام الشرع ، أو النحو أو غير ذلك مع خلو قلبه عن الذكر ، فإنه بيقين يجد الأنس فى ذكر الله تعالى أكثر من الأنس الموجود فى غيره ، وما كان فيه الأنس أكثر ، فهو أقرب إلى حضرة شهود الله تعالى ، لأن الأنس من علامة القرب والرضى ، وتركه من علامة البعد والله أعلم .

ومن شأنه أن يوبخ نفسه ، ويحثها على السير فى الطريق ، كلما وقفت مع

حظ من حظوظها ، ويقدم حذف العلائق على كل عمل ، فإنهم قالوا : مثال من خزن عنده درهما ، مثال من ربط رجله بخيط دارج ومثال من خزن نصفا ومثال من ربط نفسه بحبل الغسيل ، ومثال من خزن ديناراً مثال من ربط نفسه بحبل البئر ، ومَنْ زاد فى الدنيا زاد فى الحبال ، وينبغى له كلما تعب من عبادة أن يقول لنفسه أصبرى : فإن الراحة أمامك ، وإنما أريد بتعبك إكرامَك .

وقد كان سيدى إبراهيم الدسوقى رحمه الله يقول : من شرط المريد الصادق أن يكون سائراً فى المقامات ليلا ونهارا ، غدواً واصالا ، لا مقيل له ولا هدوء ، وجواده قد فرغ من اللجم ، وامتلأ من الشجاعة والعزم ، قد شق بطنه السرى ، وأسقمها البرى ، لا يفند همته مفند ، ولا يهوله مُهلك ، ولا ترده ضربات الصوارم ، ولا يفشله شيطان غوى ، ولا مارد حتى كل من خاصمه فى محبوبه عاد مخصوما لا يهدى ولا ينام ، ولا يضحى بل الدهر كله عنده سواء ، حتى يدخل خيام ليلى ويضع خده على أطناب تلك الخيام ، ويسمع الخطاب فهناك ينتعش ويطيب ، ويقال له : استرح يا طول ما قطعت برارى ، وقفارا وجبالا وبحارا ، وظلاما ونارا ، يا طول ما تعبت ، وتغيبت ، يا طول ما رجع غيرك من الطريق ، وجئت فأكرم الله مثواك ، ولا خيب مسعاك ، أنت اليوم عندنا ضيف مكين أمين ، وضيافتنا لا ينقضى أمدها ، بل هى باقية أبد الآبدين ، والله أعلم .

كيف يكون المريد ؟

ومن شأنه أن لا يكون عنده حسد ، ولا غيبة ، ولا بغى ، ولا مخادعة ، ولا مكابرة ، ولا مماراة ، ولا مالقة ، ولا مكاذبه ، ولا مصاقلة ، ولا كبر ولا عجب ، ولا ترفه ولا افتخار ، ولا شطح ولا حظوظ نفس ، ولا تصدر فى مجالس ، ولا رؤية نفس على أحـــد من المسلمين ، ولا جدال ، ولا امتحان ، ولا تنقيص لأحد من أهل الطريق ، ولا من تزيق بالزيق ، ومن ادعى الصدق فى الإرادة وعنده خصلة واحدة مما ذكرنا ، فهو غير صادق ، ولا يجىء منه شىء فى الطريق ، لأن هذه الصفات توقف صاحبها عن السير ، بل تطرده عن حضرة الله عز وجل إلى حضرة الشياطين ، لأنها صفاتهم والله أعلم .

ومن شأنه أن يسد عنه باب مراعاة تعظيمه من المخلوقين ، ولا يلتفت إلى أحد من الخلق أقبل عليه أو أدبر عنه ، إلا بطريقه الشرعى ، لأن من شرط المريد الصادق ، أن يحب العزلة عن الناس ، ولا يطلب له مقاماً عند أحد منهم ، فما له ولهم ، فلا ينبغى له حضور المجالس التى فيها لغو ، أو مداهنـــة ، أو جدال ، أو عجب أو رياء ، ولو كانت مجالس علم وقد قلت السلامة من هذه الأمور فى طلبة العلم ، فعليك يا أخى بالوحدة إلا فى حضور الجماعات ، ومجالس العلم السالمة مما ذكر .

وقد كان سيدى إبراهيم الدسوقى رضى الله عنه يقول : يا ولدى إياك وحضور مجالس العلم التى يغلب على الظن أنه لا إخلاص عنـد أهلها ، فإنها تورث ظلمة فى قلبك ، وعليك بالعزلة عنهم بعد أن تعرف ما أمرك

الله تعالى بتعليمه ، فإنك يا ولدى فى القرن السابع إلى العجائب والغرايب ، وقد صار غالب أهله يجعلون سلوك طريق القوم خارجاً عن الشريعة ، وحقيقة المحبة تدعى فى الطريقة ، وصاروا يرون من سوء حالهم أن باب العطا قد أغلق على القوم ، كما أغلق عليهم ، وذلك لجهلهم بما عليه أهل الطريق من المجاهدات لنفوسهم ليلا ونهارا ، حتى تقطعت أكبادهم فى طلبها وتمزقت أبدانهم من تعبها ونصبها ، ولو أن أحداً منهم ذاق حال القوم لعذرهم فى صياحهم ، وشق أثوابهم ، وكان يقول : والله ليس مطلوب المريد الصادق إلا هو : يعنى بذلك زيادة المعرفة وإلا فالحق تعالى معروف لجميع المسلمين معلوم الوجود لهم .

وفى كلام سيدى على الخواص : لا يصلح لأحد طلب الحق تعالى لأن الطلب لا يكون إلا لمفقود ، والحق تعالى موجود عند سائر الطوائف ، حتى عند من قال بالتعطيل ، لأنه لم يعطل وجود الحق وإنما عطل صفة من صفاته لا غير كقوله : إن اسمه تعالى الحى يعنى عن الاسم الباقى لأن الحى من كانت حياته لا تفنى ، هكذا قال الشيخ : والحق أن ثم من يقول ما ثم إلا فروج تدفع ، وأرض تبلع ، والله أعلم .

وكان سيدى إبراهيم الدسوقى رحمه الله يقول : من شرط المريد الصادق أن لا يمل من شهود رؤية التقصير فى سائر أحواله ، فإن رؤية التقصير تفتح له باب المزيد فى الدرجة وقد يعطى المولى من هو قاصر مالا يعطيه لأهل المحابر .

كيف يختار المريد أستاذه فى الشريعة ؟

ومن شأنه أن لا يقرأ علم الشريعة إلا على من عُـرف بالزهد والورع ، وإن أذن له شيخه فى القراءة عليه كان أعون له وأقرب لغرضه .

وقد كان سيدى إبراهيم الدسوقى رحمه الله يقول: لو كان المريد يأتى إلى الطريق من باب الإخلاص فى العلم والعمل ، ويفعل الأوامر الشرعيه امتثالا لأمر الله تعالى لا لعلة ثواب ولا غيره ، كما كان عليه السلف الصالح ، لاستغنى عن القوم ولـكنه أتى الطريق بعلل وآفات فى علمه وعمله فلم يمكن من دخول حضرة الله عز وجل فلذلك ، احتاج إلى حكيم يزيل علله وأمراضه ليؤهله لدخول حضرة الله عز وجل ، فإنها حضرة محرمة على أهل الدعاوى والرعونات ، وكان رضى الله عنه يقول : إذا لم يقدر المريد على اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أقواله وأفعاله ، فليتبع خلق شيخه لا أنزل من ذلك ، فإن لم يتبع خلق شيخه هلك ، ومن استهزأ بالطريق وأهلها استهزأت به الطريق ورفضته قهراً عليه .

والمراد باستهزائه بالطريق عدم مشيه على قواعد أهلها ، وكان رضى الله عنه يقول : قوت المريد الصادق فى بدايته الجوع ، ومطره الدموع ، ووطره الرجوع ، يصوم حتى يرق ويلين ، وتدخل الرقة قلبه ، وأما من شبع ونام ولغى فى الكلام وترخص ، وقال ما على فاعل ذلك ملام ، فلا يجىء منه شىء والسلام .

وكان يقول : ما بُنيت طريق المريدين إلا على التيار ، والنار ، والبحر ،

الهدار ، والجوع والاصفرار ، ما هى بالتشدق ولا بالفشار ، ثم يقول آه آه آه ما رأيت أحداً من أولادى اقتفى آثار الرجال ، ولا صلح أن يكون محلا للأسرار ، وكان يقول خلوة المريد الصادق سجادته ، وخلوته سره وسريرته ، وكان يقول : من شرط المريد الصادق أن لا يؤذيه ، ولا يتحدث فيما لا يعنيه ، ولا يشمت قط بمصيبة إذا بلى صبر ، وإذا قدر غفر ، يعمر الأرض بجسده ، والسماء بقلبه ، طريقه الكظم والبذل والإيثار . والله أعلم .

ومن شأنه أن يقلل من النوم ما أمكن لا سيما وقت الأسحار ، فإن النوم ليس فيه فائدة دنيوية ، ولا أخروية بالأصالة ، وإنما كثرته خسران لأنه أخو الموت .

وقد كان سيدى إبراهيم الدسوقى رحمه الله يقول : كيف يدعى المريد الصادق فى الحب للطريق ، وهو ينام وقت الغنائم ، ووقت فتح الخزائن ، ووقت نشر العلوم ، وإظهار المكتوم ؟ أما يستحي الكذاب من الدعاوى ! ؟ همته راقدة ، وعزيمته خامدة ، وهو مع ذلك يدعى الصدق ! ؟

ثم يقول : والله ما صدق مريد فى محبة الطريق إلا نبعت الحكمة من قلبه ، وصار يبرىء الأكمه والأبرص ، ويحيي الموتى بإذن الله تعالى .

وكان يقول : من شرط المريد الصادق أن يثبت فى طلب الطريق حتى ينبت ، وتنبسق أغصانه ، وهناك يأمن من الرجوع عنها ، وكان يقول : يا ولد قلبي ، إن طلبت أن تكون صادقاً معى ، فتجنب معاشرة أهل الجدال بغير علم ، ولا تتخذ لك منهم صاحباً فيصدك عن طريق العلماء العاملين ، واجعل صاحبك كل عالم يطالب نفسه بالعمل بكل ما علم ثم لا يعد نفسه من العلماء ، فان مثل هذا يلق الحكمة والله أعلم .

ومن شأنه أن يكون حمالا للأذى ، مواظباً على النسك والعبادة ليلا ونهارا ، لا يحيد ولا يميل حتى يسكن من حب الله عز وجل ، فإذا سكن من حبه فهناك لا يلتفت لسواه فى الدارين إلا بإذنه .

وكان سيدى ابراهيم الدسوقى رحمه الله يقول : يا ولدى إن كنت صادقاً فى إرادتك ، وصفاء معاملتك ، وطهارة سريرتك ، فإياك أن تدعى أنك شممت للطريق رائحة ، ولا ترى نفسك إلا عاصياً مفلساً ، فكم تلف من غرور النفس مريد ؟

وكان يقول : يا ولدى إن طلبت أن تكون مريدى حقاً فقم قياماً دائماً ، وجاهد جهاداً ملازماً ، ولا تمل ولا تولى ، ولا ترخص لنفسك فى ترك العبادة وقتاً واحداً بحجة العجز عنها ، فإن الناقد بصير ، وكان إذا رأى من لبس لبس القوم وخالفهم فى الأخلاق ، ينبهه على ذلك .

ويقول : ليس كل من تزيا بزى القوم يكون صادقاً فى طلب طريقهم ، فإن الزى أمرٌ ظاهر ، والقوم عملهم قلبى باطنى وما رأينا أحداً قط لبس جبة بيضاء وأرخى له عذبة وكتب له أجازة صار شيخاً بذلك أبدا .

وكان يقول : اذا لم يكن قلب المريد شفافاً ، أى صافيا من الكدورات ، لا يظهر لفتيلة قلبه نور ، ولو عمل بجميع أعمال الصالحين ، ومن هنا شرطوا التوبة للمريد من سائر الزلات ، ليستنير قلبه ، ثم إذا استنار وظهر نوره للخاص والعام ، فمن الأدب ستر نفسه ، يحجب الناس عن شهود ذلك النور ليخرج من الدنيا برأس ماله كاملا من غير نقص .

وكان يقول : كل مريد كان له سريرة سيئة يفتضح بها فى الدنيا والآخرة لو انكشفت لا يجىء منه شىء فى الطريق — يا فضيحة من تزيا بزى الفقراء وخالف طريقهم .

وكان يقول : يا ولدى إن طلبت أن تكون صادقاً فى إرادتك فالبس قميص الفقراء النظيف الشريف الظريف ، فما الأمر بلبس الثياب ولا بسكنى العتاب والزوايا والخوانق ، ولبس العبا والمرقعات ، ولا بلبس القبا والأزرق وحف الشوارب ، ولا بلبس الصوف ، والنعل المخصوف .

وكان يقول : من شأن المريد أن لا يكون فى صحيفته شىء من الزلات ، بل تطوى صحيفته كل يوم مضمخة معنبرة ممسكة معطـــرة بأعمالها الزكية ، وشيمه المرضية ، والله أعلم .

ومن شأنه أن تكون أعماله على وفق الشريعة المطهرة نصاً أو استنباطاً سالمة عن الشطح عند ظاهر الشريعة فإن الشريعة هى الحد القاطع ، والسيف اللامع لعصمتها بخلاف ما يدعى أنه باطن الشريعة مما يخفى على العلماء ، وجه استنباطه من الكتاب والسنة فإنه غير معصوم .

وكان سيدى إبراهيم الدسوقى رضى الله عنـــه يقول : من أحب أن يكون صادقاً فى إرادته ، وجميع أعماله وأقواله ، فليحبس نفسه فى قمقم الشريعة وليختم عليها بخاتم الحقيقة ، وليقتلها بسيف المجاهـــدة ، وتجرع المرارات .

وقد رأيت فى يوم كتابتى لهذا الموضع علماً من أعلام النبوة مشافهة ينهض همة المريد ويقوى إيمانه بالعمل بالشريعة ، فأحببت كتابته هنا ، وذلك أن شخصاً أتانى برأس خروف شواها وأكل جلدها ، فرأى فيها مكتوباً بالخط الإلهى فوق الحاجبين والأنف ما هذا صورته :

« لا إله إلا الله محمد رسول الله ، أرسله بالهدى ودين الحق ، يهدى به من يشاء من عباده » .

ورأيت قوله : من يشاء مكرراً فى الكتابة الإلهية وذلك لحكمة فإن الله تعالى لا يسهو ، فلو قدر إنه لم يكن لنا دليل على صحة شريعة محمد صلى الله عليه وسلم ورسالته وإنما هدى من الله تعالى إلا هذه الكتابة الإلهية فى داخل الرأس تحت الجلد لكفانا ذلك فى الدليل على صحة شرعه صلى الله عليه وسلم .

وحروف الكتابة هى خلوّ بين أنثى وذكر من الشقين لا كهيئة الكتابة التى هى بالمداد ، ولا كالعروق البيض والسود فى العظم ، فتبارك الله رب العالمين .

وكان شهودنا لهذه الكتابة فى ثانى عشر جمادى الآخرة سنة إحدى وستين وتسعماية ، وكل من كان عنده شك فى رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ورأى هذه الكتابة زال شكه ، إلا من سبقت له الشقاوة .

فالزم يا أخى اتباع السنة المحمدية على القطع بصحتها وبصحة ما وعدت وتوعدت به من الثواب والعقاب ، والله تعالى أعلم .

ومن شأنه الصبر على الجوع بل نسيان الأكل بالكلية اشتغالا بربه عز وجل .

وقد كان الشبلى يقول : مكثت سنين أيام بدايتى وأنا لا آكل إلا يوم الجمعة من طعام أبى القاسم الجنيد ، فكنت لا أتذكر إلا حين أحضر عنده يوم الجمعة ، وما لم أحضر لا يخطر الأكل على بالى .

وكان سيدى إبراهيم الدسوقى رحمه الله يقول : قاعدة الطريق للمريد ومحكمها ومجلاها هى الجوع ، وذلك لأنه يغسل من الجسد مواضع إبليس ، فمن أراد السعادة فعليه بالجوع الشرعى ، ولا يأكل إلا على فاقة ، ومن طلب شربة بلا حمية أخطأ طريق الدواء ، وقد تقدم أن الجوع أحد أركان الطريق ، عند الأبدال هى أربعة : الجوع ، والسهر ، والعزلة ، والصمت .

ومن جاع استتبعه الثلاثة أركان بخلاف العكس فى الثلاثة ، فإن من جاع ضاق صَدْره من الناس ، فأحب العزلة ، وثقل عليه كلام اللغو ، وقل نومه ، بدليل أن المريض إذا برأ من مرضه يمكث أياماً لا يأخذه نوم حتى أنهم يجعلون له دواءً للنوم من المرطبات فإنه كان جوعاناً مدة المرض ، وذلك يزيل رطوبات البدن التى تجلب النوم فافهم .

فمن شبع وأراد الصمت أو السهر أو العزلة فى طاعة الله تعالى مع عدم الخواطر المشغلة عن كمال الإقبال فلا يقدر على ذلك والله أعلم .

ألا بذكر الله تطمئن القلوب

ومن شأنه أن لا يكثر من مطالعة كتب القوم وغيرها بل يشتغل بذكر ربه عز وجل فإنه هو الجلاء لقلبه .

وقد كان سيدى الشيخ أبو السعود بن أبي العشاير يقول : كتاب المريد هو قلبه .

وكان يقول : الأصول التى يبنى عليها المريد أمره أربعة أشياء : اشتغال اللسان بذكر الله عز وجل مع حضور القلب ، وجبر القلب على جمعه لمراقبة الله عز وجل ، ومخالفة النفس والهوى من أجله تعالى ، وتصفية اللقمة لعبوديته من الشبهة ، وهذه الرابعة هى القطب ، وبها تزكو الجوارح ، ويصفو القلب . فالمريد الحاذق يعطى نفسه حظها الشرعى من الأكل ويمنعها ما يطغيها ، فإن النفس أمانة الله تعالى عند العبد ، وظلمها بالجوع المفرط أو غيره كظلم الغير على حد سواء بل هو عند بعضهم أشد ، لما صح عندهم من تغليظ العذاب على من قتل نفسه زيادة على عذاب من قتل غيره . قال : والإكسير الذى يقلب عين طينة العبد ذهباً خالصاً هو الإكثار من ذكر الله تعالى مع الإخلاص .

قلت : وإيضاح ذلك أن الحق تعالى لا يقرِّب إلى حضرته إلا من استحيا منه حق الحياء ، ولا يصح له أن يستحي كذلك إلا إن حصل له الكشف ورفع الحجاب ، ولا يصح له الكشف إلا بملازمة الذكر ، وهذه طريق يصل بها المريد بسرعة ، والله أعلم .

ومن شأنه أن يكون عنده شوق للطريق وأهلها لا يمله ولا يطفىء لهيب قلبه ، وقد كان سيدى على بن وفا رحمه الله يقول : من شرط المريد أن يكون باطنه بيت الاحتراق على الدوام ، قال : ويشهد لذلك ما قاله الأطباء : من أن برد الرحم سبب فى عدم الحمل ؟ .

وكذلك المريد متى لم يجد لوعة الوجد ، وحرقة الطلب والشوق ، إلى المقصود لا يتولد فيه من فيض أستاذه حرارة يظهر منها نتاج ، فهو مثل الوقود البارد لا يؤثر فيه القبس إلا دخانا كالدعاوى والرعونات الحاصلة للنفس الدخيلة بين القوم بغير حق وحرقة وشوق وطلب وجد إذ هى كالصحيفة الرطبة التى لا تثبت عليها كتابة أو كحراق مبلول لا يحرق ولا يعلق فيه قبس .

وكان يقول : إياك أن تحسد من اصطفاه الله تعالى عليك من أقرانك وجعله من أهل الطريق دونك وانقادت إليه الأمراء والأكابر دونك وتقول : أنا تربيت وإياه ونحن نعرف بعضنا كما يقع فيه كثير من أهل الرعونات بل الواجب عليك أن تكون تلميذاً له وتتبرك به كما يتبرك به غيرك حيث تعين ذلك عليك بطريقه الشرعى فمن حسد من رفعه الله عليه ربما مسخ الله صورة قلبه كما مسخ إبليس من الصورة الملكية إلى الصورة الشيطانية حين حسد آدم عليه السلام وتكبر عليه وقال : أنا خير منه .

قال : وفى ذلك تحذير عظيم لمن يحسد أحداً ممن رفعه الله عليه من أقرانه ويتكبر عليه ولا يخضع ولا يأتم به وقد أجمع الأشياخ على أنه يجب على الشيخ إذا رأى مريده قد فاقه وعلى عن مقامه أن يكون تلميذاً له ويدخل تحت حكمه كما تقدم ، لأن الصادق ليس قصده رياسة على العباد وإنما قصده القرب من حضرة الله عز وجل فإذا رأى من هو أقرب

منه إليها فالواجب عليه أن يكون تلميذاً له كما وقع لسيدى يوسف العجمى وغيره فربُّوا جماعة فبرعوا عليهم فعادوا وأخذوا عنهم رضى الله عنهم أجمعين .

الإنسان الخالص

وكان يقول : ما ظهرت السيادة فى أحد إلا ويجعل الله تعالى له أتباعا يهتدون به لما عنده من الصلاح والتدبير لتابعه وكان يقول : ما دمت أيها المريد صاحب صفات كريمة فأنت إنسان باق على أصل إنسانيتك لم تنسخ ولم تمسخ فإن نسخت منك الكرائم بالذمائم والعياذ بالله تعالى فقد نسخت منك صفتك الإنسانية بالصورة الشيطانية وصرت شيطاناً ملعوناً .

وإن خلطت فى التخلق بالصفات لم تكن إنساناً خالصاً ولا ، شيطاناً خالصاً ، وفى ذلك يتفاوت المتفاوتون والحكم للأغلب .

ومن شأنه أن لا يسامح نفسه فى الاشتغال بشىء من الأكوان فإن فى ذلك الحجاب عن الرحمن ومن فعل ذلك ذلّ وهان كما أن من شغل قلبه بالرحمن عزّ وخضعت له الأذقان وتأمل قوله تعالى : يا عبدى خلقت كل شىء من أجلك وخلقتك من أجلى فلا تشتغل بما خلق لك عما خلقتك له .

وانظر يا أخى إلى الرجل إذا عشق امرأة ينكحها ، أو حمارة يركبها ، وصار يخدمها ويمتهن نفسه فى خدمتها ، كيف تمتهنه القلوب بعقولها وإن عظمه الناس من الظاهر رغباً ورهباً ؟

وانظـــر إلى الرجل الشحاذ إذا شغل قلبه بربه ، وامتهن نفسه فى مرضاته ، كيف تعظمه العقول والقلوب ، وإن أعرضت عنه لهواً وتكبراً فافهم ؟

وكان سيدى على بن وفا رحمه الله يقول : إياك أيها المريد والميل إلى صحبة أبناء الدنيا المعرضين عن طريق شيخك فإن كل مريد تجمل بصحبة أبناء الدنيا فكأنه نادَى على نفســـه بأنه ممن أهانه ربه ومن يهن الله فما له من مكرم وفى القرآن العظيم فأعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا أى واقبل بكليتك علينا وعلى من يريدنا تسلم وتغنم والله أعلم .

وكان يقول : كلما أغفل قلبك عن ربك فهو عدو لربك فأعرض عنه وتبرأ منه إلى ربك وتوجه بقلبك وجسدك إلى خالقك تكن أوّاهاً حليما فتأمل فيما قلته لك فإن صديق العدو عدو ومن شأنه أن يرفع همته عن طلب الأجر على أعماله وعباداته ، فقد كان سيدى على بن وفا يقول : من طلب أجراً على عمله فهو امرأة وإن كان له لحية فإن الرجال للمنن القدسية والنساء للزينة الحسيه فأيما امرأة تعلقت همتها بالمنن القدسية فهى رجل وأيما ذكر تعلقت همته بالزينة الحسية فهو امرأة وكان يقول : ما دمت أيها المريد مع الاضداد فأنت فى غلبة فإذا خلصت منهم فقد استرحت من هذه الغلبة .

وكان يقول : اثبت أيها المريد تنبت فما نبتت قط عروق شجرة قطعت عمرها فى التنقل من مغرس إلى مغرس وكان يقول : اقتل أيها المريد نفسك بالتجرد عن صـــفاتها الردية يبدلك الله تعالى مكانها نفساً زكية ثم إن جملت كذلك هـذه النفس الزكية بالتجرد عن الدعاوى الغوية فهى خير زكاة وأقرب رحما .

ومن شأنه أن يصبر على ما يقع له فى الطريق من الامتحانات ، فإنه لابد لكل صادق من ذلك شاء أم أبى إذ لا يصطفيه الحق تعالى وهو

يميل إلى أحد سواه ، فإذا قام عليه الخلق بالإنكار والرمى بالزور والبهتان نفرت نفسه منهم ضرورة وتجردت إلى محبة الحق تعالى .

وقد كان سيدى على بن وفا رحمه الله يقول : إذا قال المريد الصادق عند رميه بالبهتان وظهور براءته من الريب وما أبرىء نفسى ، قال الملك : ائتونى به أستخلصه لنفسى ، وإذا قال المريد الكاذب عند رميه بالبهتان : أنا منزه عن مثل ذلك وصار يزكى نفسه ، قيل له : أنت لا تصلح لتقريب الملوك ، ارجع إلى سياسة الدواب وعمل الحزف ؟ .

وكان يقول إذا قبل المريد النصيحة أمِنَ من الفضيحة .

وكان يقول : أيها المريد إياك ومخالطة أهل الحجاب الغافلين عن ذكر الله عز وجل فإنهم يحجبونك عن ربك .

وكان يقول : مشاهدة الغافلين عن ذكر الله تعالى عقوبة يعاقب الله تعالى بها المريد وليست بعقوبة على أئمة الهدى من أطباء القلوب لأن قلوبهم قد حيت حياة ثانية .

وكان يقول : إياك أيها المريد أن تشغل قلبك بشىء من الملاذ الفانية فإنها كالشعر النابت فى القلب ، وإذا نبتت شعرة واحدة فى القلب مات صاحبه لوقته ، ولذلك جعل الله تعالى محل الشعر ظاهر جلد الإنسان دون باطنه ، ومن هنا تفهم إن كنت تفهم حكمة دخول المؤمنين الجنة جرداً مرداً مكحلين متعاضدين على قلب رجل واحد أى لأنه لو نبت على أجسادهم الشعر لماتوا لأنهم كلهم قلوب جسماً وروحاً لا حجاب لهم عن ربهم فافهم .

وكان يقول : جاهد نفسك أيها المريد بالرياضة لها فى هذه الدار فإنها

مركبك على الصراط ، فإن تركت رياضتها هنا وقع لك على الصراط ما يقع لمن ركب الدابة الحرون التى تضربها ـ فتتشمص ـ وتتأخر بك إلى وراء وتزوغ بك يميناً وشمالا ، فكيف حالك إذا ركبت من هذه صفته على صراط أدق من الشعر وأحدّ من السيف ؟ وكان يتأوه كثيراً ويقول : آه آه آه لم أجد إلى الآن مريداً صادقاً على حكم المطابقة ، ولو وجدته لكنت أنا هو ، ومن شأنه أن يكون ناهض الهمة ، خفيفاً فى أمر الطهارة بسرعة ، فلا يزيد على الغسلات الشرعية ، فإن ذلك من وساوس الشيطان .

كن نظيف الباطن والظاهر

كان سيدى على بن وفا رحمه الله يقول : إياك أيها المريد الصادق أن تشتغل بطهارة ثيابك وبذلك تنسى طهارة قلبك كما عليه طائفة الموسوسين ، فإن ذلك يشغلك عن تدقيق النظر فى تطهر قلبك فتضيع الوقت وتكتسب المقت وعليك بالطهارة الحقيقية وهى أن تلجأ إلى الله تعالى وتتضرع إليه أن يطهرك بصلاته الطيبات ، ويزكيك بتحياته المباركات ، ويطيبك للموت ويطيب الموت لك ويجعل فيه راحة قلبك وروحك وأن يحيى روحك بمعرفته ومشاهدته ، وها أنت قد وجـــدت البحر المحيط العذب الصافى فتطهر منه ، وقل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى .

وكان سيدى أبو الحسن الشاذلى رحمه الله يقول : إذا كثرت عليك أيها المريد الخواطر والوساوس فتوجه بقلبك إلى شيخك ، فإن لم تُـزل فتوجه إلى ربك ، وقل : « سبحان الملك القدوس « إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز » ويخاطب بذلك الوساوس .

وكان يقول : إذا ثقل الذكر على لسانك وكثر اللغو فى مقالك فاعلم أن ذلك من عظيم أوزارك أو لكون نفاق فى قلبك فتب إلى الله من ذنوبك واعتصم بالله يكفيك ويصلح حالك .

وكان يقول : إذا انتصر المريد لنفسه وأجاب عنها فاعلموا أن الله تعالى لم يرد أن يؤهله لأن يكون من أهل حضرته .

وكان يقول : إذا رأيتم المريد يتهاون فى قرارة تكبيرة الإحرام فاعلموا أنه لا يجىء منه شىء فى الطريق .

وكان يقول : لا تؤخر أيها المريد طاعة وقت لوقت آخر فربما عوقبت بفواتها أو بفوات غيرها أو مثلها جزاء لما كفر من نعمة ذلك الوقت فإن لكل وقت سهماً من الإقبال على الله تعالى من عبده بحكم الربوبية .

وكان رضى الله عنه يقول : من أراد عز الدارين فليدخل فى هـذا المذهب الذى نحن فيه يومين فقال له قائل : وكيف ذلك ؟ قال : يفرق الأصنام التى هى الألوهية المذمومة عن قلبه أول يوم ويرح من الدنيا بدنه فى ثانى يوم ثم يكن كيف شاء فإن الله تعالى لن يدعه بلا مـدد يده به ولو لم يكن له شيخ .

وكان يقول : حصول العز للمريد على قدر تركه هواهُ فمن ترك نصف أهويته حصـل له نصف العز وكذلك القول فى الثلث والربع والخمس والسدس وغيرها فمن طلب العز الكامل فليترك جميع الأهوية .

وكان يقول : من أدب المريد الصادق أن لا يمد رجليه بحضرة الناس عبثاً وإنما يمدهما للاستراحة من التعب ومثل ذلك لا يؤاخذ به المريد إن شاء الله تعالى .

ومن شأنه إن دخل فى الطريق وهو متزوج أن لا يطلق أو عازب أن لا يتزوج إلا بإذن الشيخ ، وذلك لأن طريق القوم ليست بالرهبانية ولا بأكل الشعير غير منخول وإنما الطريق حفظ المريد أوقاته عن الضياع فى اللهو والغفلة ، وعدم الملل من العبادات ، فإن طريق القوم جهاد لا صلح فيه .

قال سيدى على الخواص رحمه الله : وإنما لم يأمر القوم المريد فى بداية أمره أن يطلق زوجته أو يترك حرفته أو وظيفته ، لأنه فى مقام التأليف فلذلك لم يأمروه بما يشق على نفسه عادة ، وأخذ يعمل على حذف العلائق شيئاً بعد شىء ، حتى ينكشف حجابه ويكون هو الخارج عن أمور الدنيا بانشراح صدر لما يرى لنفسه فى ذلك من الحظ والمصلحة .

وكان سيدى أبو الحسن الشاذلى رحمه الله يقول : من علامة المريد كثرة العمل على الصدق والإخلاص وعدم طلب العوض على عبادته من الله ، فإن عبد الأجرة لا قيمة له ، ولا يمكنه المؤجر من الدخول على حرمه فى غيبته وبمجرد ما يأخذ أجرته يفارق السيد ويذهب ، ولا هكذا عبد الرق :

وكان يقول : إن الله تعالى لا يعطى الكرامات لمن طلبها أو حدّث بها نفسه ، ولو أن القوم أحبوا أن يعرفوا ما عرفوا .

وكان يقول : متى أقبل المريد على الوقوف مع مراعاته من الخلق قبل بلوغه درجات الكمال سقط من عين رعاية الله عز وجل ومتى أصغى إلى مجرد مدح الناس له تلذذ أهلِكَ مع الهالكين .

وكان يقول : إذا غفل المريد عن ذكر الله نفساً واحداً صحبُه الشيطان فهو له قرين ، إذ الشيطان بالمرصاد لمن أقبل على الله عز وجل

فهو واقف تجاه قلبه فمتى رأى الغفلة دخلت قلبه دخل ، ومتى رأى الذكر دخل قلبه خرج ، فمن لم يداوم على ذكر الله تعالى فهو ملعبة للشيطان ، وإذا كان الشيطان يدنس قلب المريد وينجسه إذا دخل فى النهار مرة واحدة ، فكيف بقلب باض الشيطان فيه وفرّخ أو كان مريد طول نهاره يدخل فيه الشيطان ويخرج ، فضلا عن كونه مستقراً فيه ؟

ومن شأنه أن لا يتقلق من تنكرات الأحوال عليه أول دخوله فى الطريق ، فكثيراً ما تتحول الدنيا من يد المريد أول دخوله فى الطريق فربما قال : ولو فى نفسه ما كان لى حاجة باتباع طريق الفقراء ، فينتقص عهده فلا يفلح بعد ذلك .

وكان الشيخ أبو الحسن الشاذلى رحمه الله يقول : إذا ضيق الله عليك أيها المريد وسد عليك أبواب الرزق ، وقسى عليك قلوب عباده فاعلم أنه يريد أن يواليك فاثبت ولا تضجر :

وكان يقول : بصيرة المريد كالبصر أدنى شيء يقع فيها يعطل النظر :

وكان يقول : كل مريد ادّعى فتح بصيرته وعنده بقية طمع فيما بأيدى الناس فهو كاذب ، فإن من فتح الله عين بصيرته لا يصح أن يعلق قلبه بمخلوق ، لأنه يجد الخلق كلهم فقراء لا يملكون شيئاً مع الله تعالى :

وكان يقول : لا يترقى مريد قط إلا إن صحت محبة الله له ، ولا يحبه الله حتى يبغض الدنيا وأهلها ويزهد فى نعيم الدارين وفى كل شيء يشغله عن مشاهدة ربه :

فعلم أن كل مريد أحب الدنيا فالله يكرهه على حسب محبته لها كثرة وقلة ، وكل مريد أحب نعيم الآخرة سوى شهود الحق ، واقتصر على

طلب ذلك النعيم بقلبه حجب عن الله عز وجل ، فإن نهاية الدار الآخرة أن فيها الأكل والشرب واللباس والنكاح وغير ذلك كعلف الدابة حقيقة ، فليقدر العبد نفسه دابة ، فإنه يجد سيده لا ينساه فهو حاصل له ، وطلب الحاصل تضييع للوقت ، إنما الشأن أن يطلب مجالسة ربه عز وجل في الدنيا والآخرة ، فهذا هو النعيم المطلوب للعارفين فى الدارين .

فلولا مشاهدته تعالى فى العبادات ما أحبوها ، ولولا مشاهدته فى الجنة ما أحبوها ، فهى محبوبة لما فيها من المشاهدة لا لغيرها .

متى يكون المريد صادقا ؟

وكان يقول : لا يصح لعبد مجالسة الحق جل وعلا فى الدنيا والآخرة وهو يميل إلى شيء من الكونين ، فإنه لا يجالس الله إلا عبد الله ، وأما غيره فهو مجالس لما أحب من الأكوان لا يرقى عن ذلك .

وكان يقول : حيث أطلقنا نعم الدنيا فالمراد بها المال ، والطعام ، والكلام ، والمنام . فالمال يطغى ، والطعام يقسى ، والكلام يلهى ، والمنام ينسى .

وكان يقول : أبق لك أيها المريد شيئاً من الدنيا يكفيك عن سؤال الناس ، وعن أكل الصدقات ، ولا تسرف فى ترك الدنيا بالكلية فربما تغشاك ظلمتها وتنحل أعضاؤك لها قهراً فترجع لمعانقتها بعد الخروج منها ، إما بالهمة ، أو بالفكرة ، أو بالإرادة ، أو بالحركة .

وكان يقول : خصلتان إذا فعلهما العبد صار عن قريب إماماً يقتدى به الناس ، وهما : الإعراض عن الدنيا ، واحتمال الأذى من الإخوان مع الإيثار .

وكان يقول : كل مريد تهاون بارتكاب معصية واحدة لا يجيء منه شيء فى الطريق ، وربما ردّته تلك المعصية إلى حالة أنزل مما كان فيه قبل دخوله الطريق .

وكان يقول : لا يكون المريد صادقاً حتى يترك المعاصى جملة وتفصيلا ويترك الميل إلى الدنيا صورة وتمثيلا .

وكان يقول : من أضر شيء على المريد الإكثار من الأعمال الصالحة ليحمد على ذلك فلا يزداد بكثرتها إلا طرداً ومقتاً ، وهذا أمر يخفى على كثير من المريدين ، قال : ومن هنا أوجبوا اصطلاحاً على المريد الإسرار بأعماله حسب الطاقة حتى يقوى ويتمكن .

وكان يقول : ربما فعل المريد أمراً يحمد عليه ولا يقصده فيظن أنه مخلص فيه والحال أنه من وجه آخر مرائى ، وذلك كأن يرد مثلا ما يعطيه له الناس تعففاً ، فيحمده الناس على ذلك ، فيصغى إلى مدحهم فيرجع عمله إلى الرياء ، ولو لم يقصد ذلك أولا .

وكان يقول : من ادعى أنه خلص من محبة الحمد على الطاعات فليمتحن نفسه بما لو ذمه الناس ، فإن تغير للذم فهو يتغير للمدح .

إياك والاعتراض

وكان يقول من أضر شيء على المريد الصادق اعتراضـــه على أحوال الرجال ، ومن ابتلاه الله تعالى بذلك فلا بد أن يموت قبل أجله ثلاث موتات ، موتة بالذل ، وموتة بالفقر ، وموتة بالحاجـة إلى الناس ، ثم لا يجد من يرحمه منهم .

وكان يقول : إذا كان المريد الصادق يعمل على الوفاق ، ولا يسلم من النفاق ، فكيف بالكاذب الذى يعمل على الخلاف ؟

وكان سيدى أبوالعباس المرسى رحمه الله يقول : من علامة حب المريد للدنيا أن يخاف من مذمة أهلها ، ولو أنه كان زاهداً فيها لما تأثر من ذم أهلها :

ومن شأنه أن يكون ورعاً عن الحرام والشبهات فى مأكله ، وملبسه ، ومنطقه ، وسمعه ، وبصره ، ويده ، ورجله ، وقلبه ، وفرجه ، وعمدة ذلك كله الورع فى اللقمة ، لأن الأعمال تنشأ من جوارح العبـد على صورة اللقمة فى الحل والحرمة ، فلو أراد من أكل الحلال أن لا يعصى لما قدر ، ولو أراد آكل الحرام أن يطيع لما قدر .

وقد كان إبراهيم بن أدهم يقول : أطب مطعمك ، ولا عليك بعد ذلك أن لا تصوم النهار ولا تقوم الليل : يعنى نفلا ، وليحذر المريد أن يتورع رياءً وسمعة فإنه لا يزداد بذلك إلا مقتاً .

وكان سيدى أبوالعباس المرسى يقول : ورع المريد المنقطع ينشأ من

سوء الظن بالمسلمين ، وورع المريد الصادق ينشأ من النور الذى فى قلبه .

وكان يقول : والله ما رأيت المريد إلا فى دفع همته عن ما بأيدى الخلق . قال : ولقد رأيت يوماً كلباً وأنا مريد ومعى شيء من الخبز ، فوضعته بين يديه فلم يلتفت إليه ، فإذا بقائل يقول لى فى سرى : أفٍّ لمن يكون الكلب أزهد منه !!!.

وكان يقول : إياكم أيها المريدون أن تقعوا فى حق أحد من أقران شيخكم ، فإن لحوم الأولياء سم ولو لم يأخذوكم ، وإياكم ثم إياكم من الإستهانة بغيبة أحد إذا لم تبلغه تلك الغيبة ، بل خافوا منها أكثر مما تخافون إذا بلغه فإن وليه الله حينئذ .

ومن شأنه أن لا ينظر إلى زلاته السابقة قبل دخوله فى الطريق ، ويقول فى نفسه : بعيد على مثلى أن يفتح عليه ويصير صالحاً فإن ذلك من أكبر القواطع ، ومن أعون الأمور لابليس .

وكان سيدى أبو العباس المرسى رحمه الله يقول : لا ينبغى للمريد أن ينظر إلى زلاته السابقة ويقنط من حصول الفتح ، فإن كثيراً من أهل الطريق تقدم لهم زلات ثم تابوا وصاروا من الأولياء .

وكان يقول : من أتى الطريق بانكسار خاطر كان أسرع فتحاً ممن أتاها وهو قائم الصدر بما تقدم له من الطاعات ، ولذلك بدأ الإمام القشيرى فى ذكره رجال القوم الجامعين بين الحقيقة والشريعة بالفضيل ابن عياض وإبراهيم بن أدهم لكونهما كان تقدم لهما زمن قطيعة ، فلما أقبلا على الله أقبل الله عليهما ، فبدأ بهما رحمه الله تنشيطاً وتقربة لرجاء المريدين الذين تقدمت لهم الزلات والقطيعات .

وكان يقول : عمل المريد قليلا مع شهود المنة لله تعالى خير من كثير من العمل مع شهوده غير ذلك .

وكان يقول : عليك أيها المريد بالاشتغال بعلم الشريعة وقراءته على العلماء الجامعين بين العلم والعمل ، ولا تكن كالعبّاد والزهاد الذين خرجوا من هذه الدار وقلوبهم فى حجاب عن الأدب فى عباداتهم مع ربهم .

وكان يقول : كل مريد لم يتغلغل فى علوم الشريعة قبل موته ربما مات مصراً على الكبائر ، كدقائق العجب والرياء ، والنفاق ، وهو لا يشعر .

وكان يقول إياكم والاعتراض على من رأيته سميناً ، فإن الحب إذا تمكن من العبد سمن .

وكان الشبلى سميناً جداً ، وإذا قيل له فى ذلك يقول : كلما أتذكر أنا عبد مَنْ ، أزداد سمناً .

ودخل مريد مرة على شيخ سمين فوجده يزهد المريدين فى الدنيا ، وهو كالدب من السِّمَن ، فكاشفه الشيخ . وقال : وعزته تعالى ما سمَّنَنِي الأكل وإنما سمَّننى حبه تعالى .

العبادة والفتح ؟

ومن شأنه أن لا يستبطئ الفتح عليه بل يعبد الله تعالى لوجهه الكريم سواء أفتح عين قلبه ورفع عنه الحجاب أم لا ؟ فإن العبادة من شروط العبودية وقد كان الشيخ محي الدين بن العربى رحمه الله يقول : إياك أن تترك المجاهدة إذا لم تر أمارات الفتح ، بل دم على المجاهدة فإن الفتح بعدها أمر لازم لابد منه ، تطلبه الأعمال وتناله الأنفس ، ولكن للفتح وقت ، لا يتعداه فلا تتهم ربك فإنه لا بد لأعمالك من الثمرة إذا كنت مخلصاً وارفع من نفسك التهمة لربك جملة واحدة ، وفر من أن تكون من أهل التهم . ذكره فى الباب الرابع والمائتين من الفتوحات .

وكان الشيخ داود بن باخلا شيخ سيدى محمد وفا يقول : إحذر أيها المريد أن يكون قصدك من ذكرك ، وعبادتك ، الأجر والثواب ، فإن ذلك حاصل لك لا محالة ، وإنما ينبغى أن تكون همتك فى التلذذ بمناجاته والفوز بمجالسة السلطان لا ينبغى له الاهتمام بما يأكل ويشرب ما دام فى خدمته .

وكان يقول : إقبال المريد بقلبه لحظة مع قول « لا إله إلا الله » خير له من ملء الأرض عبادة مع الغفلة عن الله .

وكان يقول : إذا نظر المريد بقلبه إلى الدنيا نظر شهوة بعد أن خرج منها عوقب بالحجاب ، أو بالحساب ، أو بالعذاب .

وكان يقول : لو علمت نفوس المريدين قدر ما تدعى إليـه لكانت تسابق داعيها إليه .

وكان يقول : ما من وقت جديد إلا وينزل فيه مدد جديد يتلقـاه أصحاب الهمم العوال من المريدين .

مراحل المريد

وكان يقول : المريد أولا يسمع ، وثانياً يفهم ، وثالثاً يعـــلم ، ورابعاً يشهد ، وخامساً يعرف .

وكان يقول للمريد : إن كان لك يا ولدى فى الوصول نية ، فلا يبقى فيك من الخلاف بقية .

وكان يقول : لا يظهر جوهر باطن المريد إلا وجود امتحانه .

وكان يقول : من شرط المريد الصادق أن لا ينقـــل قط قدمه إلى حظ من حظوظ نفسه فإن صدق الإرادة يذهب من القلب كل شهوة .

وكان يقول : المريد الصادق سيره بباطنه ، وظاهره تبع ، والعابد سيره بظاهره ، وباطنه تبع .

وكان يقول : إذا انقاد المريد للشيطان فى معصية فلم يصر عليها بل تاب ورجع فكأنه لم ينقد له .

وكان يقول : إياك أيها المريد أن تطلب أحداً من الخلق لا يؤذيك فإن الله تعالى لولا أراد ستر أوليائه ما سلط عليهم من يؤذيهم ، وينقصهم

فى المجالس ، ويستهزىء بهم ، ثم إنه تعالى لابد أن ينتصر لأوليائه وينتقم من آذاهم ولو لم يطلبوا من الله ذلك .

وكان يقول : رأس مال المريد فى وجود إقباله على أفعال القوم .

وكان يقول : عمل المريد على استنارة قلبه خير له من إكثار العمل .

وكان يقول : لو باشر صريح الحقائق ، قلب المريد الصادق ، لم تسعه الأكوان .

وكان يقول : من أحسن الأنوار نور يرد على قلب المريد لا يتدنس بظلمة الدعوى .

وكان يقول : من أراد من المريدين أن لا يفزع يوم القيامة من النفخ فى الصور فليكابد الليل فى العبادات .

وكان يقول : ما أعز طريق القوم ، وما أعز من يطلبها ، وما أعز من يجد من يدله عليها ، وما أعز من يثبت عليها يبلغ مبلغ الرجال .

وكان يقول : إعمل أيها المريد إعمل على مخالفة نفسك ما استطعت ، حتى تركبها بعد أن كانت راكبة لك ، فإن النفس إذا اعترضت للمريد الصادق أوقفته عن مزيد الأذكار وتحصيل الطاعات ، فكيف إذا اعترضت للكاذب ؟

ومن شأنه أن يلازم الزهد فى الدنيا فأنه أساسه الذى يبنى عليه جميع أحكام الطريق إذ الراغب فى الدنيا لا تفتح له أعمال الآخرة .

أساس الطريق

وقد كان سيدى أحمد بن الرفاعى رحمه الله يقول : أول أساس يضعه المريد الصادق فى الطريق : الزهد فى الدنيا ، فمن لم يزهـــد فى الدنيا لا يصح له بناء شىء بعده .

وكان يقول : لا يكون المريد صادقاً حتى يسأل الله تعالى بتوجه قلب تام أن الله تعالى يحول عنه كلما يشغله عنه من مال وولد ، ويفرح بالفقر إذا أقبل .

وكان يقول : لا يصل أحد إلى صفاء المعاملة مع الله تعالى حتى يترك حظوظ نفسه فى الدنيا والآخرة ، ويعبد الله تعالى امتثالا لأمره ومحبة لمشاهدته .

وكان يقول : من أقبح ما يقع فيه المريد خوضه فى الكلام على الذات والصفات الإلهية ، وإذا كان العارف بالله تعالى سكوته على ذلك أفضل فكيف بالمريد ؟ .

وكان يقول : ملتفت لا يصل ومتسلل لا يفلح ، ومن لم يعرف من نفسه النقصان فكل أوقاته نقصان .

وكان يقول : أكره للمريد دخول الحمام ترفهاً ، ولبس الثياب النقية البيض وأحب له : الجوع ، والعرى ، والفقر ، والذل .

وكان يقول : لا ينبغى للمريد أن يلبس الصوف حتى يفـــرغ من تهذيب أخلاقه .

وكان إذا رأى على مريد جبة يقول له : انزعها يا ولدى حتى تفرغ من جهاد نفسك وإزالة رعوناتها ، إن الصوف لباس الأنبياء ، وحلية الأصفياء ، فمن لم يتخلق بأخلاقهم فليس له أن يلبس كلباسهم ، ولا يتحلى بحليتهم ، فإن ذلك كالاستهزاء بهم ، كما فعل أهل السخريا .

وكان يقول : كل مريد جلس فى لغو ، فقال له أخوه : قم من هذا المجلس ، فلم يسمع إلى قوله ، فاعلموا أنه لا يجيء منه شيء فى الطريق .

وكان يقـــول لتلامذته : عليكم يا أولادى بالاستيقاظ أول الثلث الأخير من الليل ، ولا تفرطوا فى ذلك ، فإنه ما من ليلة من ليالى السنة إلا وينزل فيها نثار من السماء فى الثلث الآخر من الليل ، مشتملة على أمداد إلهيّة تحيي القلوب ، فيتفرق على المستيقظين ، ويحرم منـــه النائمون .

وكان يقول : من شرط المريد الصادق أن لا يكون له نظر فى عيوب إخوانه ، ولا يتجسس ، على أن يحيـــط علماً ، بمن وقع فى زلة ولاث الناس بعرضه .

وكان يقول للمريد : من تتلمذ عليك من إخوانك فتتلمذ له ، يعنى أن تسمع نصحه ولا تخالفه ، فإن مدّ لك يده لتقبلها فقبل رجله ، ومن تقدم عليكم فى البداءة فى الذكر مثلا فقدموه ولا تظنوا به إلا خيراً فربما كان قصده بالبداءة بالذكر تعجيل ، رضى الله عنه ، لا حظ النفس وهذا واجب على المريد أن يظنه بأخيه ، واعلموا أنه ما دام أحدكم يسيء الظن بأحد من الخلق فهو دليل على نجاسة باطنه .

وكان يقول يجب اصطلاحاً على المريد أن يتفقد نفسه فى كل خير

ينبه إخوانه عليه ، ولا يأمر أحداً بخير إلا ويلزم نفسه أن يتخلق هو به قبله ، لئلا تسرقه الرئاسة فيهلك .

وكان يقول للمريد : اصبر على قرصـــة البرغوث والقملة والعقرب ليحصل لك الإدمان على تحمل الأذى من غيرهم ، أو على عقارب القبر إن وقعت المؤاخذة .

ورأى مرة مريداً يقتل قملة أو برغوثاً ، فقال له : كيف تطلب طريق أهل الله تعالى وأنت تشفى غيظك ، تقتل القملة ولا تحتمل قرصتها ؟

ومن شأنه أن يلازم ما أمره به شيخه ، ولا يقيـد بأفعال شيخه كلها ، إلا إذا كان أمره بذلك ، فإن مشاهد الأشياخ لا يدركها المريد ، فليحذر المريد من عدم خروجه لصلاة الجماعة ، أو مجالس الذكر إذا لم يخرج الشيخ لذلك ، فربما كان ذلك من الشيخ لثقل وارد ورد عليه ، فمنعه من القدرة على الخروج والمشى ، بخلاف المريد ، فربما كان ذلك منه نفاقاً وكسلا ، ووالله أنى لأتكلف الخروج لصلاة الصبح حتى أخرج أجرّ رجلى جراً من ثقل واردات الليل ، ولا أتخلف خوفاً على أحـد من الإخوان أن يقتدى بى فى ذلك فيهلك ولا يشعر بذلك .

ومن شأنه أن لا يتبع ما عليه بعض المريدين ممـا أمره به شيخه ، لأن لكل مريد عملا يناسب حاله ، متى خالفه انعكس عليه السير .

ومن شأنه أن يسد على نفسه باب أكل الشهوات وملابستها حتى النوم إلا غلبة ، ولا يرخص لنفسه فى ذلك .

فقد كان سيدى عبد القادر الجيلى رضى الله عنـه يقول : من شرط المريد الصادق أن لا تحكم عليه شهوة ، إنما الشهوة للعوام .

وكان يقول : قاسيت الأهوال فى بدايتى ، وما تركت هولا إلا ركبته ، وكان لباسى جبة صوف ، وعلى رأسى خُريقة ، وكنت أمشى حافياً فى الشوك وغيره ، وكان قوتى قمامات البقل ، وورق الخس ، من شاطىء النهر ، ولم أزل آخذ نفسى بالمجاهدة ، حتى طرقنى من الله تعالى الحال الذى يطرق القوم .

وكان يقول : لقد تظاهرت بالخرس والجنون مراراً لتنفر الناس عنى ولا يشغلونى عن ربى عز وجل وحملت مراراً إلى المارستانا[1] وأقمت فى صحراء بغداد والعراق وخرائبها نحو خمس وعشرين سنة على التجريد والسياحة حتى كنت لا أعرف الخلق ، ولا يعرفونى . قال : ومكثت سنة لا آكل ولا أشرب ولا أنام ، واحتلمت فى ليلة واحدة أربعين مرّة وكانت ليلة باردة ، فكنت أغتسل عقب كل مرة حياء من الله تعالى ؟

ويقول : ربما كان ذلك من الله تعالى امتحاناً لى ، هل أجلس بين يديه جُنُباً مترخصاً أو أعظّم حضرته عن ذلك ، فإن المريد ربما اغتسل فى بعض هذه الاحتلامات إذا وقعت له دون بعض مترخصاً ، ويقول : ليس هذا وقت صلاة .

وكان يقول : جلوس الأشياخ على بساط الظلمة يطفىء نور قلوبهم فكيف بالمريد ؟

وكان بعضهم يرى النبىّ صلى الله عليه وسلم كل ليلة فجلس على بساط شخص من الولاة فانقطعت عنه الرؤية ، وصار يراه صلى الله عليه وسلم بعيداً ، فمشى وراءه زماناً ، وقال :

---

(١) مستشفى المجانين .

يا رسول الله ما ذنبي ؟

فقال : تجلس على بساط الظالمين وتطلب الاجتماع بي ؟ هـذا أمر لا يكون ؟

وكان رضى الله عنـه يقول للمريدين : اجتمعوا على مجلس الذكر ولا تفرقوا ، ولا يقرأ أحدكم وقت مجلس الذكر ، ولا يكتب ، ولا يخبط ، ولا يعمـل شيئاً فى الزاوية من أعمال الدنيا مطلقاً ، إلا لضرورة ، كخياطة ثوب فقير لله تعالى ، ونحو ذلك ، فإن المطلوب من الفقراء تكثير سواد الذاكرين ، والتفرقة عنهم لأمر آخر تضعف قلوب الذاكرين ، وتفتر همتهم .

وكان يقول للمريدين : خافوا ولا تأمنوا ، وفتشوا فى اللقمة وغيرها من أحوالكم ولا تغفلوا .

وكان يقول للمريدين : تطهروا من سائر الزلات إن طلبتم أن تكونوا من مجالس الحق جل وعلا ، وكل من لم يتطهر من ذنوبه بالتوبة الخالصة طهره الله تعالى بالأمراض قبل موته ، إن اعتنى به وإلا طهره بالنار .

وكان يقول : من أراد الآخرة فعليه بالزهد فى نعيم الآخرة ، أى فيعبد الله تعالى امتثالا لأمره وحباً فى مجالسته لا غير .

ومن شأنه أن يحن إلى دخول الليل لأجل قيامه لا لأجل النوم .

فقد كان الشيخ أبو محمد الشنبكى أحد أصحاب سيدى الشيخ عبد القادر الجيلى يقول : شهوة المريد الصادق المجاهدة والمكابدة ، فهو يقول : متى يدخل الليل حتى أسهر ؟ وشهوة المريد الكاذب النوم والكسل .

وكان يقـول : إياك أيها المريد أن تأكل من طعام من ارتد عن

طريق القوم ، ولو ضعفت من الجوع فمن أكل من طعامه قسى قلبه أربعين يوماً .

وكان يقول : ما ابتلى مريد بشيء أشد عليه من الغفلة عن الله عز وجل ولكن إذا أحب الله تعالى عبداً قاده إلى حضرته فى الغفلة والمنام فلم ينقص له أجراً بذلك .

وكان يقول : كل مريد تساهل بالغفلة عن الله ولم يكن أشد عليه من ضرب السيوف ، فهو كاذب فى طريق الإرادة لا يجيء منه شيء لأنه سالك بغير تعظيم الله عز وجل فياطول تعبه من غير ثمرة ، ثم يرجع من حيث جاء .

وكان يقول : كلما علت درجة المريد كانت العقوبة إليه أسرع ، فمن زلّ ولم يعاقب على ذلك فانفضوا يدكم منه فإن الله تعالى لم يقربه من حضرته .

وكان يقول : طريق المريد لزوم الجد حتى يسعد فأما أن يبلغ الفتى مناه وإما أن يموت بداه .

وكان يقول : من جهل المريد أن يسيء فلا يقطع الله عنه الأمداد فيقول فى نفسه : إنه غير مؤاخذ وذلك استدراج لأنه فى زمن الإساءة فى حكم المغضوب عليه ، وقد أجمعوا على أن فقد المريد الأسف والبكاء إذا زل علامة من علامات الخذلان .

شرط المريد الصادق

وكان يقول : من شرط المّريد الصادق أن لا يهدأ له شوق إلا بلقاء الله تعالى واللقاء يكون فى الدنيا والبرزخ بالمشاهدة بالقلب وفى الآخرة بالنظر ، بالعين الظاهرة .

وكان يقول : كفى بالمريد جهلا أن يعجب بأعماله قالوا : وإنما كان عجبه جهلا لأنه يريد أن يعطى بالعجب عيوب نفسه وهى لا تتغطى .

وكان يقول : لا يصدق المريد فى إرادته حتى ينسلخ من صفات نفسه الردية كلها .

وكان يقول : كل مريد تهاون بحضور مجالس ذكر الله كسلا أو لهواً بحديث الدنيا فلا بد أن يكشف الله تعالى عيوبه على لسان نفسه .

وكان يقول : إياكم أيها المريدون ومحاكاة كلام أرباب الأحوال قبل أن تبلغوا مبلغ القوم فإنها تقطعكم عن السير فى الطريق لظنكم أنكم صرتم مثل الأشياخ .

وكان يقول : من علامة تخليطك أيها المريد صحبتك للمخلطين ومن علامة بطالتك صحبتك للبطالين .

وكان يقول : من علامة المريد الصادق ملازمة السنة والفريضة فى اصطلاحنا فالسنة تركه للدنيا . والفريضة دوام ذكر الله تعالى .

وكان يقول : كل مريد أطلق لسانه فى أحد من أهل الله عز وجل ابتلاه الله تعالى بانعقاد لسانه عن النطق بالشهادتين عند الموت .

وكان يقول : خصلتان إذا كانتا فى مريد حرم الوصول سوء الطعمة وإيذاء الخلق .

ومن شأنه إظهار الذلة والانكسار ، ولباس الخليقات الوسخة إذا هجره إخوانه فتحاً لباب الرقة والخير عليه ، وإذا حضر عليه بمجلس الذكر فليجلس بحاشيته ولا يدخل الحلقة ، ولا يفتح مجلس الذكر ولو كان ذلك من عادته قبل أن يهجروه ، إذ الواجب عليه العمل على كسر نفسه وسمعت سيدى عليا المرصفى رحمه الله يقول : من علامة المريد الصادق أن يكون مع إخوانه على نفسه ، ويزداد لهم محبة كلما أطالوا هجره ، لما فى ذلك من مساعدة له على هدم نفسه .

ومن شأنه أن يكون عمالا بروحه أو جسـده على الدوام لا يفتر عن ذلك .

وكان الشيخ نجم الدين البكرى رضى الله عنه يقول : من شأن المريد أن يكون زاده التقوى ، وبضاعته الإفلاس ، وسـفره إلى الآخرة ، ومراحله الأنفاس ، ومنازله القبر ، وصاحبه اليقين ، وتدبيره العجز ، وحركاته السكون ، وبيته الخلوه ، ولباسه الفقر ، ونومه محاسبة العمر ، وركبته وسادته ، ومسجده مجلسه ، إن درس فعلوم الحكمة ، وإن نظر فنظر العبرة ، رفيقه التوفيق ، وسمته حسن الخلق ، ومعلمه القناعة ، وصومه الصمت ، وهمته خوف النار ، وفرحه بالله لا بالجنة ، وصحته اليأس من الخلق ، كما أن مرضه الطمع فيهم ، وواعظه الموت ، والمقابر ، والأيام ، والليالى ، ومطربه الحزن على تفريطه فى أوقات عمره فى غير مرضاة الله ، ونيته الجازمة رفض الدنيا أبداً ما عاش ، وسـلاحه الوضوء ، ومركبه الورع ، وخصمه النفس والشيطان ، وسجنه الدنيا ،

وسجّانه الهوى ، ليله تضرع ، ونهاره استغفار ، وحصنه دينه ، وشعاره شرعه ، ومحـــدثه كتاب ربه ، ورأس ماله حسن الظن بربه ، وحرفته كثرة الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى هداه الله به ، فهو الشيخ الحقيق له ولجميع الأمة ، فهذا هو المريد الصادق .

وكان يقول : من شرط المريد الصادق أن يكون خوفه من رد عمله الصالح عنده أكثر من خوفه من معاصيه الظاهرة .

وكان يقول : من شرط المريد الصادق أن يستوى قلبه مع لسانه فى كل مرة من الذكر ، لا يعقب قلبه فى مرة عقوبة واحـدة وأن تمتلىء عروقه كلها من محبة ذكر الله عز وجل ، ومع ذلك فلا يرى لنفســـه قيمة ، بل يراها لا تصلح لخدمة ربه عز وجل ، إلا بتأهيله لها .

وكان يقول : من شرط المريد الصادق أن لا يكون بينه وبين أبناء الدنيا مصادقة ، ولا مصاحبة ، ولا مجالسة ، إلا بقدر الضرورة الشرعية ، فإن محبة طريق الله تعالى لا تدعه يميل إلى غيرها .

وكان يقـــول : ما أحب طريق الله تعالى صادق إلا صار يبغض الدنيا ، وطلابها ، لكونها تحجبه عن الله ، ويحبّ الموت لأجل لقاء الله .

وكان يقول : من شأن المريد الصادق محبـــة العزلة عن الناس ، واستغناؤه ، الجلوس فى البرارى ، والمواضع الخربة ، حتى يتقوّى ويصير لا يتدنس ، بالأغيار .

ومن شأنه استواء المدح والذم عنده من الناس ، والخير والشر عنده من الله عز وجل ، فيرضى بالقضاء لا بالمقتضا ، وكذلك يرضى عن الله

عز وجل فى استواء المنع والعطاء ، وذلك من علامة إخلاصه وعبادته ربه بلا علة .

وكان يقول : من شرط المريد الصادق أن لا يجـــرى على لسانه إلا ذكر الله أو ذكر الموت . وهول المطلع ، وأحوال أهل الجنة ، وأحوال أهل النار ، لا يكاد أمله يجاوز وقته ، لا يقف مع شىء من أمور الدنيا والآخرة دون الله ، لأنها كلها مناهل فى الطريق ، والمطلوب من ورائها وهو رضى الله عز وجل لاغير ، لا يغفل عن السعى فى كمال تطهيره من نجاسات الدنيا وشهواتها ، ولا عن التجرد عن سائر الزلات والغفلات ، حافظاً للشريعة عاملا بها قولا وعملا واعتقاداً ، لا يزيغ عنها طرفة عين .

وكان يقول : المريد الصادق يحب الخلوة البعيدة عن مرور النـاس كخلاوى السطوح ويحب أن تكون ضيقة حتى لا يصح له مد رجله فيها ويحب أن تكون مظلمة لا يدخلها نور الشمس ، ولا ينبغى له أن يعوّد نفسه قط ببيات طعام عنده ، ولا نقد بل يصبر لصلاة العشاء ، فإن لم يجد من يقبله منـــه أخرجه من خلوته لكل من وجده وذلك أكمل فى استعداده وحصول فتحه .

وكان يقول : من شرط المريد أن لا يفتر عن الذكر ، حتى يقوى ويحصل له منه حال ، فتارة يأخذ من لسانه ومن قلبه وتارة يأخذ قلبه من لسانه ، ويواظب على السنن وركعتى الضحى ، وركعتى سنة الوضوء ، ويستعمل الطيب والبخور ، لمجلس الذكر ما استطاع ، ولا يواظب على أكل الدسم فيظلم قلبه ، بل يستعمل الدسم كل سبعة أيام أو ثلاثة أيام مرة ، ويأكل منه قليلا وليحذر من غرور نفسه ما استطاع ، فإن من شأنها أن تحب الشر وتكره الخير ، وتخالف العقل ، وتوافق الهوى .

صور من أمراض النفس

وكان يقول : النفس إذا جاعت فهى كالطفل الضعيف ، وإذا شبعت كالأسد المفترس ، وإذا غضبت فهى كالملوك الجبابرة ، وإذا اشتهت شيئاً فهى كالبهائم ، وإذا خافت من شيء فهى كالهرة ، وإذا أمنت فهى كالنمر ، وإذا عصت فهى كالشياطين ، وإذا سكنت فهى مثل الجماد .

وكان يقول : ليحذر المريد للصلاح والخير من البكاء تكلفاً بحضرة الناس فإن ذلك كله نفاق ، وهذه الأمور ربما تكون أو بعضها فى بعض الأقوال شراً من شرب الخمر ، فضلا عن بيع الحشيش ، أعاذنا الله من شرور أنفسنا أبداً ما عشنا آمين .

وكان يقول : من شرط المريد الصادق أن يرى نفسه كأنه محل للأرجاس ، ومقامه دائماً تحت أقدام الناس .

وكان يقول : من أعظم أخلاق المريد التحمل لأذى الناس ، وكظم غيظه ما استطاع ، فإن كل من لم يحمل كظم الغيظ فلابد من وقوعه فى ذل الاعتذار .

ومن شأنه أن يجعل قلبه دائماً متوجهاً إلى الله وحده ، دون شيء من أمور الدنيا والآخرة ، ومعلوم أن ذلك لا يصله إلا بعد رياضة تامة ، بحيث لا يصير له التفات إلى حظ من حظوظ الدنيا والآخرة .

فقد كان الشيخ أبو مدين المغربى رضى الله عنه يقول : ليس للقلوب إلا وجهة واحدة ، متى توجه إليها حجب عن غيرها ، فإن توجه للدنيا

حجب عن الآخرة ، وإن توجه للآخرة حجب عن الدنيا ، وإن توجه إلى حضرة الله حجب عن الدارين .

وكان يقول : كل مريد لا يخلع العذار ، لم ترفع له أستار .

وكان يقول : أضر شيء على المريد صحبته للأحداث المبتدئين فى الطريق ، فإنه يتمشيخ عليهم فينقطع عن السير ، لأن تربية المريدين إنما هى للأشياخ الذين خمدت بشريتهم ، وتمت مجاهداتهم ، وأما صحبة الأحداث للفساد فذلك أمر خارج عن طريق القوم جملة واحدة .

وكان يقول : من شرط المريد أن يعرف زيادته ونقصه ، وذلك ليجدّ فى العمل كلما طرقه الكسل .

وكان يقول : طلب المريد لطريق القوم من غير توبة جهل عظيم .

وكان يقول : المريد الصادق مشغول عن محادثة إخوانه من أهل الطريق ، فكيف بأبناء الدنيا ؟

وكان يقول : من شأن المريد أن يكون يقظاً لما يبدو منه فى حق نفسه وغيره ، فلا يشغل أخاه عن ربه عز وجل ، فإن من أشغل مشغولا بربه أدركه المقت فى الوقت .

كيف يصل المريد إلى حضرة الحق ؟

وكان يقول : من أقرب رحلة تكون للمريد إلى حضرة الحق الخاصة دوام الذكر ، فقد أجمعوا على أن من دامت أذكاره صفت أسراره . ومن صفت أسراره كان فى حضرة الله قراره .

ومن هنا يقول بعضهم : منذ ثلاثين سنة لم أخرج من حضرة الله عز وجل .

ومن شأنه إذا رأى أحواله فى الخير تناقصت ، وهمته فى الطريق قد ضعفت ، فليخرج من بين إخوانه ، أو يحذرهم من حاله ، ويحرم عليه أن يجيب عن نفسه ، لأنه يتلفهم بذلك ، ويرجع إصر ذلك عليه .

الشيخ أبو الحجاج الأقصرى ينصح المريد

وقد كان الشيخ أبو الحجاج الأقصرى رضى الله عنه يقول إذا وجد المريد من نفسه عدم الصدق فى طلب الطريق ، فالواجب عليه الخروج من بين الفقراء ، فإن لم يخرج كان إثم فتور عزمهم عليه لنظرهم إليه ، وسرقة الطباع السيئة منهم وكل من زعم أن طبعه لا يسرق كذبناه لأن ذلك لا يكون إلا لمن لا تطرقه غفلة عن الله كالملائكة .

وكان يقول : كل مريد كان عنده حسد لأحد من إخوانه فلا ترجوا له ارتقاءً أبداً إذ الحسود لا يسود .

ثم يقول : والله لقد كنت أجىء أنا وأخى الشيخ أبو الحسن بن الصايغ

بالإسكندرية إلى شيخنا فأرى مقامى يعلو مقامه فأتكدر وأقول : اللهم اعل مقامه فوق مقامى ، وهكذا كان الآخر يقول فى غيبتى .

هكذا درج القوم لا غل بينهم ، ولا حسد ، ولا حقد ، رضى الله عنهم أجمعين .

وكان يقول : المريد الصادق لا يرجع عن الطريق ولو قاسى كل الأهوال .

فقد قالوا : من خطب نفيسا ، خاطر بنفيس .

قال : ولقد حصل عندى مرة فتور وكلال من طول مكابدة الليالى فى الشتاء ، فأعاننى الله تعالى « بأبى جعران » وذلك إننى نظرت إليه وهو يجهد أن يصعد منارة السراج ، لأجل القرب من النار ، فلم يزل يزلق ، ويقع إلى الصبح ، لكونها ملساء فعددت عليه تلك الليلة سبعمائة وقعة وهو لا يرجع .

فقلت فى نفسى : سبعمائة وقعة وهو لا يرجع عن مطلوبه وأنت ترجع من دون ذلك ، ثم خرجت إلى صلاة الصبح ورجعت فوجدته جالساً فوق المنارة بجانب الفتيلة فأخذت من ذلك ما أخذت ، فكان ذلك من جنود الله لى ، فالحمد لله على ذلك .

قال وقد خطب مريد ابنة سلطان فقال السلطان : إنك لا تقدر على مهرها فقال له : وما مهرها ؟ فقال : مائة جوهرة كل جوهرة بعشرة آلاف دينار فقال له : وأين محل تلك الجواهر ؟ فقال : للفقير فى بحر الظلمات ، فأخذ المريد قصعته وذهب إلى ساحل بحر الظلمات ، وصار ينضح منه بقصعته على البر فبلغ ذلك إلى السلطان ، فأرسل وراءه وزوجه ابنته وأمهرها من عنده وجعله وزيراً له لعلو همته .

وكان يقول : إياك أيها المريد أن تطلب الوصول بأعمالك فإن الوصول لا يكون إلا بالأعمال التي خلصت من الرياء وسائر الآفات ، وأى عمل خلص لك من ذلك حتى تطلب به الوصول ؟ فالزم العمل على وجه العبودية ، وإلا فاتك أدب الوقت ومدده .

وكان يقول : المريد الصادق لا يخوض قط فى الذات ، تعظيما لجناب الله عز وجل .

وكان يقول : كل مريد سمعتموه يقول : حقيقتى الله ، أو لا موجود إلا الله ، فعرّفوه بذنبه فإن لم يتب فاقتلوه ، فإنه زنديق .

وكان يقول : من شرط المريد الصادق أن لا يشغل نفسه قط بالمبادرة إلى الإنكار على أحد من إخوانه بل شأنه حمل الناس على أحسن المحامل ، وما دام يرى فى أحد نقصاً فهو ناقص ، وأما الأشياخ فإن رأوا فى المريد نقصاً فإنما ذلك بإلهام من الله تعالى مصلحة له ، لينقذوه من الآفات ، وليس عندهم ازدراء لأحد من العصاة ، لنظرهم المحكم إلى مجارى الأقدار فى الخلق وعلامات حدتهم فى براءتهم من السوء ظاهرة .

ومن شأنه أن لا يزاحم الرجال فى الجلوس بل يجلس خلف الناس إلى أن يلتحى .

وقد كان الشيخ « أبو الحسن بن الصايغ » رفيق سيدى أبو العباس المرسى رضى الله عنه يقول : لا ينبغى للمريد إذا كان جميل الوجه لا لحية له أنْ يجلس قط مع الرجال إلا فى حلقة الشيخ ولا يكتحل بالكحل الأسود ولا يتطيب ، ولا يلبس اللباس الفاخر ، وإنما الأدب أن يلبس الثياب الخشنة ، والمرقعات ، لا سيما إن أقام فى الزاوية .

وكان يقول : إياكم والتساهل بالنظر لشيء من الصور الجميلة فإن كل نظرة تورث فى القلب حسرة وظلمة .

وكان يقول : من شأن المريد الصادق أن لا يمد يده للطعام إلا عند الضرورة ، ولو كان بين يديه طعام كأمثال الجبال ، وإذا أكل لا يأكل إلا بقدر سد الرمق .

وكان يقول : فترة المريد بعد المجاهدة من فساد الابتداء .

وكان يقول : كل مريد انحط من حقيقة العلم إلى ظاهر العلم فقد نقض عهده مع الله تعالى .

وكان يقول : كل مريد رجع عن طـــريق إرادته عذبه الله عذاباً لم يعذب به أحداً من العالمين ، وذلك لعظم ما رجع عنه ومن هنا غفر للكافر إذا أسلم ما سلف من ذنوبه لأنه لم يذق مقام الإقبال على الله عز وجل قبل إسلامه .

وكان يقول : المريد الصادق لا بد أن يترك الدنيا مرتين الأولى يترك مطاعمها ، ونعيمها ، وجميع شهواتها ، الثانية أن يترك جاهها ، وتبجيل الناس له لأجل بركتها وذلك أنه إذا عرف بالزهد فى الدنيا ، عظمه الناس والملوك ضرورة ، فيكون تركه لذلك أعظم من من تركه الأول ، لكن أخذ الدنيا بعد رميها بقصد السير ، لا يكون إلا لمن لا أتباع له ، أما من له أتباع فربما يتبعونه فيهلكون .

ومن شأنه أن لا يتقلق قط من طول مجلس الذكر ، بل يكون اليوم عنده فى الذكر ، كاللمحة وهذا لا يكون إلا لمريد قطع العلائق كلها ، أما من يقرىء الأطفال أو يشتغل بالعلم فبعيد عليه أن لا يتقلق من مجلس

الذكر ، إذا طال لا سيما إن كان ذلك الفقير قد سلك فى تربية الأطفال مسلك المريدين فى التربية ، فإنه ينقطع عن السير بالكلية .

وقد كان الشيخ أبو الحسن بن الصايغ رضى الله عنه يقول : كل مريد اتخذ له مريداً ولو أن يُحفـِّظه القرآن فقد قطع به عن مقام التحقيق ، وطالت عليه الطريق .

وقد كان أحدهم يقرىء الطفل حتى تطلع لحيته لا يعلم بذلك إلا من الناس لغلبة الإطراق ، ومع ذلك كانوا يخافون على أنفسهم من الميل إلى الصبى ، لأجل الإرفاق الذى يحصـل من أهله ، وربما زاد الفقيه فى إكرامه على من كان دونه فى الإرفاق ، فيرجع تعليمه للقرآن إلى طلب الدنيا .

وكان يقول : كل مريد لم يذق ذل المكاسب وذل الحاجة إلى الناس لم ينتج فى الطريق ، أى لأن من لا كسب له يأكل بدينـه ، ومن لا يتأثر برد الناس له إذا سألهم شيئاً فهو عديم المروءة ، وكلاهما لا يصلح للطريق ، وأيضاً فإن من ذاق ذل المكاسب والحاجة للناس يصير يطلب العز ، ولا عز أعظم من عز الفقراء ، لإذعان الملوك لهم ، فضلا عن غيرهم فيدخل الطريق بهمة ليكتسب ذلك العز ، ويستغنى به عن الخلق .

ومن شأنه أن لا يدعى قط أنه صادق فى طلب الطريق ، ولو اجتمع الناس على صدقه .

وقد سئل الحسين بن منصور الحلاج ، رحمه الله عن الصدق فى الطريق وهو مصلوب على الخشبة ، مقطع الأطراف ؟ فقال له : يا أخى أهون الصدق ما ترى ، وسئل مرة عن الصدق فى الطريق ؟ فقال : ماذا أقول

لك فى الطريق ؟ أولها ذبح النفوس ، ثم تلا قوله تعالى « فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم » .

وكان يقول : رعدة المريد من خوف القطيعة أفضل من عبادة الثقلين ، ولو وقعت على يديه .

وكان يقول : من شرط المريد الصادق أن يرى نوم غيره أفضل من عبادته . قال : لقد كنا فى بدايتنا نصلى الصبح بوضوء العشاء سنين عديدة وإذا اتفق أن أحدنا نام فى ليلة ، رأيناه أفضلنا .

وكان رضى الله عنه يهجر المريد إذا بلغه عنه أنه مشى خطوة فى حظ نفسه ، ويقول : إنما ذلك للعوامّ .

وكان يقول : من شرط المريد أن تتبعه الدنيا ، لا أن يتبع الدنيا .

ومن شأنه أن يواظب كل يوم وليلة على قول : يا حى يا قيوم لا إله إلا أنت ، أربعين مرة ، فإنها مجربة لعدم موت القلب ، وذلك من أعون الأمور على حياة قلب المريد ، وهى من تعليم رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى محمد الكتانى لما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام وشكى إليه موت قلبه عن الطاعات ، وقد كان يقول : جربتها فوجدت بركتها .

وكان يقول : جلوس المريد فى مجالس القيل والقال عقوبة ، وقربه من الدنيا معصية ، وركونه إلى أبنائها مذلة . قال بعضهم : وربما تكون كلها معاصى .

وكان يقول : المريد المعجب بنفسه مستدرج ، والمستحسن لأفعاله الردية ممكور به .

وكان يقول : لو زكيتم مريداً حتى جعلتموه صدّيقاً ، وهو يساكن الدنيا بقلبـــه لا يعبأ الله به ، فقيل له : فلو ساكنها بقلبه ينفقها على إخوانه ، فقال لا يعبأ الله به ولو قصد ذلك فطماً له عن الدنيا ، كما تضع الأم للطفل الصبر على ثديها إذا فطمته ليتحكم فى ترك الميل إلى اللبن ، ويتوجه بكليته إلى الطعام ، وكذلك المريد ما لم تنفر نفســه عن الدنيا ، ولو بقصد أن يتصدق ويبر بها الناس ، لا يفلح فى الطريق .

وكان يقول : قال الله تعالى للمريدين فى بعض الهواتف الربانية « من صبر علينا وصل إلينا » .

وكان يقول : من مقْت الله للمريد أن يُذهب عنه حلاوة ذكره ، ويشغل بذلك لسانه من غير حلاوة .

وكان يقول : ذكر المريد بلسانه يورث الدرجات ، وذكره لربه بقلبه يورث القربات .

وكان يقول إذا رأيتم المريد يعظم الفقراء كالأمراء ، فلا بد أن يجعله الله تعالى عن قريب إماماً يقتدى به ، لأن من عظّم الناس لأجل الله عظمه الله بين الناس ، وصاحب العكس بالعكس .

ومن شأنه أن لا يصبر على ذنب ، وذلك كأن يقع فيه ولا يتوب عقبه فوراً . وقيل : حدّ الإصرار أن يؤخر التوبة حتى يدخل عليـه وقت صلاة من الخمس ، هكذا حدّ بعض الأشياخ « الإصرار » .

وقد كان الشيخ مظفر القرميسى رحمه الله يقول : ما استغفر مريد من ذنب وهو ملازم له إلا حرم الله تعالى عليه الصدق فى التوبة والإنابة ، وما ترك مريد حرمة الأشياخ إلا ابتلاه الله تعالى بالدعاوى الكاذبة ،

حتى يفتضح عند الخاص والعام ، وكان يقول : لا شيء أضر على المريد من صحبة الأحداث ، وإذا كان من يصحب الأحـــداث على شروط السلامة تنتهى عاقبته إلى البلاء ، فكيف بمن يصحبهم ، وعنـده ميل طبيعى إليهم ؟ وذلك لأن الشيطان لما رأى أن المريدين لا يتيسر لهم عشرة النساء الأجانب فى الزوايا والمساجد أتاهم بالأحداث ومهد لهم بساط صحبتهم محبة لتعليمهم الخير لا غير ، فلا يزال إبليس يسارقهم وينقص محبة الخير لهم شيئاً فشيئاً إلى أن يصير المريد يحب الأمرد لغـــير الله عز وجل .

ومن شأنه أن لا يسكن بقلبه إلى غير ربه عز وجل .

وقد كان الشيخ أبو القاسم الجنيد رضى الله عنه يقول : من سكن من المريدين إلى غير الله عز وجل ابتلاه الله تعالى بالمحن ، وحجب ذكره تعالى عن قلبه ، وأجراه على لسانه ، فإن تنبه ورجع إلى الله عز وجل كشف عنه المحن وإن دام على السكون إلى غير الله عز وجل نزع الله تعالى الرحمة له من قلوب الخلق وألبسه الله لباس الطمع فيهم فتراه يزداد مطالبة لهم ، وتراهم يزدادون عليه قساوة ، وذلك من أشد العذاب عليه .

وكان يقول : إذا أراد الله لمريد خـيراً أوقعه فى صحبة الصوفية ، ومنعه من صحبة أهل الغفلة عن الله عز وجل .

وكان يقول : كل مريد عنده دقيق ميل إلى الدنيا أوقفه ذلك عن السير ، ولو كان شيخه من أكابر الأولياء فليعمل على إزالة حب الدنيا من قلبه بالكلية .

ومن شأنه النفرة عن كل من يشغله عن الله عز وجل .

فقد كان الشيخ أبوالحسن النورى رحمه الله يقول : كل مريد رأيتموه يخالط غير أبناء حرفته فلا ترجوا له خيراً قط ، لأنه متلاعب بالطريق ، وكذلك من رأيتموه كثير السماع للقصائد ، كثير الانغام بها فلا ترجوا خيره ، لأن الطريق كلها جد ، والمراد بالقصائد التغزلات التى يراد بها صفات الخلق .

أما مثل كلام سيدى « عمر بن الفارض » وأضرابه فلا منع منه ، بل هو مطلوب لأنه يشوق إلى حضرة الله عز وجل وإيضاح ذلك أن القوم لما نزّهوا الله عز وجل عن جعله محلا لتقولاتهم تغزلوا فى المخلوقات. من ليلى ، ولُبنى ، والرباب ، والزيانب ، وغيرهن ليأخذ المريد المعنى من ذلك ، مع الأدب مع الله تعالى ، فإن من أدب الأكابر إذا تعرف الحق إليهم بشىء من الصفات ، أن يستروا ذلك عن الأغيار .

وكان أبو الحسن النورى يقول : لكل شىء عقوبة ، وعقوبة المريد انقطاعه عن الذكر .

وكان يقول : لا يزال المريد بخير ما أحب مناقشة إخوانه له ، فإذا كره ذلك فسد .

وكان يقول : كنت أول دخولى فى الطريق ربما أمكث السنة كاملة لا يخطر على قلبى الطعام ، أو الشراب ، إلا إن حضر .

وكان يقـــول : ليس العجب من مريد يطلب ربه إنما العجب ممن غفل عنه .

وكان يقول : إذا رأيتم المريد كلّ قليل يزداد من أمتعة الدنيا فى داره فهو من علامة إدباره عن ربه فلا تتعبوا أنفسكم فيه ، وذلك كان

دخل فى صحبتكم وله امرأة فصار له امرأتان ، أو وهو بلا حمار فصار له حمار ، أو وهو بلا خادم فصار له خادم ، أو وهو بثوب فصار له ثوبان ، وقِسْ على ذلك .

وكان يقول آفة المريد ثلاث : التزويج ، وكتابة العلوم التى لا تتعلق بالشريعة ، وعشرة الأضداد .

وكان يقول : كل مريد لا يذل فى نفسه حتى يكنس بها المزابل ، لا يجىء منه شىء فى الطريق .

وكان يقول : شربت مرة من ركوة جندى فعادت قساوتها فى قلبى ثلاثين سنة .

ومن شأنه أن يكون مقدس الباطن من سائر الذنوب ، ومتى لم يكن باطنه مقدساً من العيوب ، وأظهر للناس خلاف ذلك ، عوقب بحرمان التقديس فى المستقبل ، وإيضاح ذلك أن معاصى الباطن لا يهتدى غالب المريدين للقوم عنها ، وطاعاتهم ربما لا تفى بالرقى إلى ما أفسدوه بالمعصية وكأنهم لم يطيعوا ، ولم يترقوا ، إن الرقى لا يكون إلا لمن ترك المعاصى جملة .

وقد كان أبو بكر الوراق رحمه الله يقول : من أظهر للناس خلاف ما هو عليه فى باطنه ازداد عيوباً إلى عيوبه ، وكان يكره للمريد السفر إلى أهله ، والسياحات فى البلاد ، ويقول : مفتاح كل خير التربص فى موضع الشيخ حتى يربيه ويفطمه .

وكان يقول : من أكثر من الانتقال من زاوية فيها شيخ إلى زاوية لا يفلح أبداً .

وكان يقول : من علامة صدق المريد ، أن تصير الأذكار غذاه ، والتراب فراشه .

وكان يقول : كنت فى بداية أمرى اكتفى برؤية شيخى من الجمعة إلى الجمعة عن الطعام والشراب .

وكان يقول : من لم تصح مبادىء إرادته فلا بد أن يعطب فى نهايته وذلك بأن يعبد الله فى بدايته إجلالا له ، وقياماً بواجب حقه عليه ، لا بقصد التقريب من حضرته ، فإن ذلك كالعمل بأجرة ، وليس ذلك من شأن أهل الله وهذه الغفلة من أخفى العلل ، فإن صاحبها ربما ترقى إلى قريب من الحضرة الإلهية ، فقالوا له : ارجع فلست من أهلها إنما أهلها من لم يُرِدْ إلا الله .

وكان يقول : إذا سكن قلب المريد لترك حضور مجالس الذكر عاقبه الله تعالى بالخزى فى الدنيا قبل الآخرة ، وكل من قلاها عن حضور مجالس الذكر باللغو مقته الله ، وأمات قلبه ، وكشف عورته بين العباد .

وكان يقول : من علامة مقت المريد ذم الدنيا فى العلانية ومعانقتها فى السر ،

وكان يقول : يجب على المريد إذا خمـــدت نار شوقه للطريق أن يجتمع بمن يهيج شوقه ، وإلا ابتلاه الله تعالى بالجذام والبراص .

وكان يقول : إذا أكل المريد شيئاً بِشَرَهِ نَفْسٍ أعمى الله عين بصيرته .

وكان بشر الحافى رحمه الله يقول : لا تقدموا على حذف العلائق شيئاً فإنى لو أجبت نفسى إلى كل ما طلبت منى من الشهوات لخشيت أن أعمل شرطياً ، أو مكاساً : وإيضاح ذلك أن كل علاقة علقت بالمريد

ردته إلى وراء ، فلا يزال المريد الصادق يحذف العلائق شيئاً بعد شىء إلى أن لا يصير له علاقة تمنعه من دخول حضرة الله عز وجل .

وكان يقول : غنيمة المريد فى هذا الزمان غفلة الناس عنه ، فإن لقاء المريد للناس خُسران .

وكان يقول : كل مريد سمعتموه يقول : بأى شىء آكل رغيفى فهو بطال ، لا يجىء منه شىء فى الطريق .

ومن شأنه أن لا يتساهل بالأكل من طعام من يغش فى معاملته ، أو يأكل بدينه .

فقد كان السرى السقطى رحمه الله يقول : كيف يستنير قلب المريد وهو يأكل من كل شىء وجده لا يسأل عنه ؟

وكان يقول : ما رأيت أسرع من مقت المريد وإحباط عمله من نظره فى عيوب الناس ، وإطلاق لسانه فيهم بالغيبة ، والاستهزاء بهم .

وكان يقول : إذا أنس المريد بربه فى الظلام ، نشر له يوم القيامة الأعلام .

وكان يقول : قد توعرت الطريق فى زماننا هذا على أكثر المريدين فقنعوا باسم الإرادة ، ولم يطالبوا أنفسهم بمكانها ، ففارقوا السهر وافترشوا الرخص ، ومهدوا لأنفسهم التأويلات ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

وكان شقيق البلخى رحمه الله يقول : مثل المريد الصادق مثل رجل غرس نخلا ، وهو يخاف أن تطرح شوكا ، ومثل المريد الكاذب مثل

رجل غرس شوكاً ، وهو يطلب أن يحمل له رطباً .

وكان يقول : من طلب أن يكون من أهل الرئاسة فليؤثر الناس على نفسه ، ويتحمل أذاهم ، ومن طلب الرئاسة بغير هذين الطريقين ، فقد خاب سعيه .

وكان سهل بن عبد الله التسترى رحمه الله يقول : ما عمل مريد بما أمره الله تعالى عند فساد الزمان إلا جعله الله إماماً ُيقتدى به .

وكان يقول : من علامة المريد الصادق انفراده عن الناس حتى لا يكاد يوجد فى مجلس لغو .

وكان يقول : لا ينبغى للمريد أن يسعى فى نظافة ثيابه وينسى نظافة قلبه ، وكانوا إذا قالوا له : إن ثوبك قد اتسخ ، يقول لهم : ليت قلبى فى القلوب مثل ثوبى فى الثياب .

وكان يقول : ما ترك مريد الذكر إلا مات قلبه .

وكان يقول : لا يزال قلب المريد متمزقاً ما دام بحب الدنيا متعلقاً .

وكان يقول : إذا لم يقـــدر المريد على التوبة النصوح فليسأل ربه المغفرة من باب المنة والفضل .

وكان يقول : عليكم أيها المريدون بمجالسة الذاكرين ، فإنهم ملازمون باب الملك .

وفى بعض الهواتف الربانية : من لم يرنى فليلزم اسمى ، فإن اسمى لا يفارقنى .

وكان أحمد بن أبى الحوارى رحمه الله يقول : كل مريد لا يكون فيه

ثلاث خصال فهو كاذب ، وهى : ترك المال ، والطعام ، والمقام ، فلا يأخذ من كل واحد إلا بقدر الضرورة الشرعية ، وهناك يصلح لمجالسة الحق تعالى فى ذكره ، فما كل ذاكر جالس .

وكان يقول : الدنيا مزبلة والمزبلة مأوى الكلاب ، فمن أرادها فليصبر على عضّ كلابها ، وربما كان المحب للدنيا أسوأ حالا من كلابها ، فإن الكلب يأخذ حاجته منها فى بطنه ويترك الباقى ، ومحب الدنيا يحمله .

وكان يقول : ينبغى للمريد كتم أعماله ما استطاع حتى يقوى نور قلبه ، فإن حكم من يظهر عمله من المريدين ، حكم من أخذ نور قلبه فجعله من خارجه ، ولولا اقتـــداء الناس بالأشياخ ما ساغ للأشياخ إظهار شىء من أعمالهم .

وكان يقول : ما ظهر شىء من محاسن عمل مريد إلا من غفلة طرأت عليه ، لأنه ليس من أهل الاقتداء به .

وكان يقول : أعظم أخلاق المريدين حفظ حرمات الإخوان ، وحسن العشرة معهم ، ومجانبة الادّخار للثياب ، والطعام ، والدراهم .

وكان يقول : إذا رأيتم ضوء المريد فى ثوب فلا ترجوا خيره .

جواسيس القلوب

وكان يقول : احذر أيها المريد أن تجالس أحداً من الفقراء بغير أدب ، فإن الفقراء جواسيس القلوب ، وربما دخلوا فى قلبك وخرجوا فعرفوا ما فيه ، وأنت لا تعلم .

ومن شأنه أن يكون خصيما لنفسه ، ما أمكن .

وقد كان الشيخ أبو المواهب الشاذلى رحمه الله يقول : من أراد أن يهجر أحداً من إخوان السوء فليبدأ بنفسه ، وليهجر أخلاقها السيئة ، فإن نفسه أقرب الأقربين إليه ، والأقربون أولى بالمعروف .

وكان يقول : من علامة رياء المريد أن يجيب عن نفسه إذا قيل له : يا مرائى ، أو يا معجبا بعمله ، أو يا متكبر ، ونحو ذلك ، وإنما جاز مثل ذلك للأشياخ لأنهم متبوعون ، فيخافون من تغيير قلوب مريديهم فلا يعتقدون فيهم ، فيحرمون بركة صحبتهم ،

وكان يقول : من طلب من المريدين الشهرة بالصلاح بين الناس لزمه الرياء لأجلهم ، والكراهة لهم بغير حق ، والوقوع فيما يسخط ربه .

وكان يقول : إياك أيها المريد أن تطلب دخول حضرة ربك فى ذكرك ، وصلاتك ، وعندك بقية نفس ، فإن الملك القدوس قد حكم وقضى أن لا يدخل حضرته أحداً من أهل النفوس .

وكان يقول : أول عائق يعرض للمريد اعتماده على أعماله ، وذلك

من غلبة وهمه على وجوده ، وتراكم الخيال فى مرآة عقله ، ولا يخرج مريد عن ذلك إلا بنور الكشف بأن الله تعالى خالق لعمله وحـــده ، وليس له منه إلا نسبة التكليف .

وسمعت سيدى على الخواص رحمه الله يقول : لا يبلغ أحـد مقام الإخلاص فى الأعمال حتى يصير يعرف ما وراء الجدار ، وينظر ما يفعله الناس فى قعور بيوتهم فى بلاد أخَر ، فهناك يعرف يقيناً بنور هـذا الكشف ، أن عمله ليس هو له ، إنما هو محل لبروزه من جوارحـــه حيث كانت الأعراض لا تظهر إلا فى جسم ، والأعمال أعراض فأفهم .

وكان يقول : من علامة صدق المريد فى ترك الدنيا أن يتعسر عليه أسبابها أبداً ما عاش ، وذلك لقوة همته فى دفعها ، فلا يصبح ويمسى إلا فقيراً إلى ربه عز وجل .

وكان يقول : إذا فتح الله تعالى على المريد فتح التعرف فلا يبالى بعد ذلك قل العمل أو كثر .

وكان يقول : لما علم أهل الله تعالى أن كل نبات لا ينبت ولا يثمر إلا بجعله تحت الأرض تعلوه النعال جعلوا نفوسهم تحت النعال لينبتوا ويثمروا فلا يظهرون للناس إلا بعد تمكنهم فى محبة الحق .

وكان يقول : إذا ورد عليك أيها المريد وارد فى ذكر أو غـــيره فاقبله من الحق تعالى ولا تتعشق به فتحجب عن ربك وتقف عن الترقى .

وكان يقول : إحفظ وردك أيها المريد عن النسيان فربما احتجت إليه إذا بلغت مبلغ الرجال ، وربيت المريدين ، وقد زهد فى ذلك بعض الأشياخ فاحتاجوا إليه حال تربيتهم ، فلم يعرفوا كيف التربية .

وكان يقول : من المحال أن ينفتح لقلب المريد باب الملكوت وفيه ميل لشهوة من الشهوات .

وكان يقول : إن لم يدخل نور الكشف القلوب حتى تحرق جميع الشهوات ، وإلا فالقلب محجوب عن الله تعالى ، فإذا أحرق الشهوات فهناك تنكشف للقلب المغيبات ، ويصير يبصر ما مضى وما هو آت مما هو من مقامه ، وتأمل المرآة لما خلت من الأكوان كيف انطبع فيها جميع الأكوان ، ولو كان لها لون لحجب عن رؤية الصور فيها ، وكذلك المرآة إذا قوبلت لا يظهر لأحد بها صورة فى الأخرى .

وكان يقول : الفتح على المريد تارة يكون امتحاناً ، وتارة يكون تثبيتاً . فليبحث المريد عن تمييز ذلك .

أخوة الطريق

وكان يقول ليس للمريد أن يؤاخى أحداً ادعى أنه يحبه إلا بعد أن يمتحنه فى مقاسمته فى ماله ، وعياله ، كما فعل المهاجرون ، فمن ثبت لذلك اتخذه أخاً , وذلك أندر من النادر .

وكان يقول : عليك أيها المريد بتكثير سواد القوم حسب استطاعتك ولو قال لك إبليس بعيد أن مثلك يفتح عليه ، فلا تسمع منه ، فإن من كثر سواد قوم فهو منهم ، ولا تخرج عن ذلك إلا بجعل أعمالك كلها مقاصد لا وسائل لأمر آخر ، فإن من جعل أعماله وسائل ربما انخدع لابليس .

أولياء الله أحياء فى قبورهم

وكان يقول : من أدب المريد إذا زار شيخاً فى قبره أن لا يعتقد أنه ميت لا يسمعه ، بل الأدب أن يعتقد « حياته البرزخية[١] » لينال بركته ، فإن العبد إذا زار ولياً وذكر الله عند قبره ، فلا بد أن ذلك الولى يجلس فى قبره ، ويذكر الله معه كما شهدنا ذلك مراراً ، مع الإمام الشافعى ، ومع ذى النون المصرى ، ومع جماعة من مشايخ القرافة ، فإن لم يشهد ذلك فأقل مراتبه الإيمان بحياتهم المذكورة .

وكان يقول : لا ينبغى لمريد أن يجالس من ينظر محاسن نفسه وكمالها وينكر على القوم ، فإن ذلك من أكبر القواطع على المريد .

وكان كثيراً ما يقول فى مجلسه : قولوا معى : لعنة الله على من ينكر على أوليائه ، فيقول الجماعة كلهم : لعنة الله عليه ، ويرفعون بذلك أصواتهم حتى تصـــير لهم ضجة ، وكان يقول : ما يوقف المريد عن الترقى ، إلا وقوعه فى غيبة أحـد من المسلمين ، ومن ابتلى بوقوعه فى ذلك ، فليقرأ الفاتحة ، وسورة الإخلاص والمعوذتين ، ويهدى ثوابها فى صحائف ذلك الشخص ، فإنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى النوم وأخبرنى بذلك . وقال : إن الغيبة والثواب يقفان بين يدى الله عز وجل يوم القيامة ونرجو أن يكون ذلك بذلك .

وكان يقول : إحذروا أيها المريدون من إشاعة زلة رأيتموها من

---

(١) البرزخ هو نهاية الدنيا وبداية الآخرة .

أخيكم احتقاراً له ، فربما كانت تلك الزّلة التى وقعت منه إنما قدّرها الله تعالى عليه ، لِيَسُدَّ ثُلمة(١) حدثت فى دينه من عُجب أو كبر ، فيكون بها كماله من حيث أثرها ، ويؤيد ذلك قول صاحب الحكم : معصية أورثت ذلا وانكساراً ، خير من طاعة أورثت عزاً واستكباراً .

وكان الشيخ أبو المواهب يقول : من قرأ فقه الأئمة بلا أدب أظلم قلبه ، كما وقع لى ذلك ، فقيل له : وما أدب قراءة كلام الأئمة ؟ فقال : التسليم لأقوالهم ، وعدم التعصب لمذهب دون آخر ، فإن الأئمة أعلم من أمثالنا بيقين ، فما له وللرد على من لا يصلح أن يكون من طلبته ؟

وكان يقول : تسليم المريد للعلماء أسلم ، والاعتقاد فيهم أغنم .

وكان يقول عبادة المريد مع محبته للدنيا شغل قلب وتعب جوارح فهى وإن كثرت قليلة عند الله تعالى ، وإنما هى كثيرة فى وهم صاحبها فقط ، وهى أشباح خالية من الأرواح ، ولهذا ترى كثيراً من أبناء الدنيا يقومون الليل كثيراً ويقرأ أحدهم كل يوم ختما ، وليس لهم مع ذلك نور الزّهاد ، ولا حلاوة العباد ، فإذا كان كثرة العبادة مع محبة الدنيا لا ترقّى صاحبها ، فكيف بمحبة الدنيا مع قلة العمل وارتكاب شىء من المعاصى ؟

وكان يقول : أعلى مجاهدات المريد الزهد فى الجاه الذى حصل من نتائج الطاعات أى آخر مجاهداته .

---

(١) فجوة .

أفضل أوراد المريد ؟

وكان يقول : أفضل أوراد المريد الذكر ، لأن الصلاة وإن كانت عظيمة ، فقد لا تجوز فى بعض الأوقات التى يجوز فيها الذكر ، بخلاف ذكر الله عز وجل لا يُمنع منه فى حالة من الأحوال .

وكان يقول : الذى عندى أن أفضل صيغ ذكر المريد قول « لا إله إلا الله » ما دام له هوى فإن فنيت أهويته كلها ، كان ذكر الجلالة أنفع له .

وكان يقول : من حـــرم الأوراد فى بدايته ، حرم الواردات فى نهايته ، فعليك أيها المريد بالأوراد ولو بلغت المراد .

وكان يقول : إذا أنكر المريد على أرقى منه وجود ما لم يجد هو من الأسرار حرم الوصول إليه وحرم بركة ما وجـــد ، فإن من كان كثير التنكير ، فهو فاقد للتنوير .

وكان يقول : المريد البرّ هو من لا يظهر الذر .

وكان يقول : إحذر أيها المريد أن تكون ممن يعبُد ليعبَد أو ممن يسوّد الجباه للجاه ، فإن ذلك من مقت الله .

وكان يقول : إياك أيها المريد أن تجادل أصحاب الضروس بما تجده فى نفسك من الأمور الذوقيات ، فربما شنوا عليك الغارات ، ولم يرجعوا عما هم عليه ، وربما سبوا الطريق وأهلها .

وكان يقول : ما نكس الرءوس إلا اتباع شهوات النفوس .

وكان يقول : إذا قنع المريد بتعظيم أهل الغفلات له ، حرم الوصول إلى مقام أهل الاختصاص .

وكان يقول : من كان للخلق مُرْضٍ فهو لربه أرضى ، ومن كان على إخوانه يتعالى فلا يقال له تعالى .

وكان يقول : المريد الصادق لا يَزور ولا يُزار ، وربّ امرىء يزار ، حمّله الزائر الأوزار ، فالحاذق يفتش نفسه عند قدوم كل زائر .

ومن شأنه أن لا يتصدر قط لإزالة منكر فى حارته مثلا ، فإن ذلك من أكبر القواطع عليه إلا بعد تعلّم[١] السياسة التامة ، والنية الصالحة ، وتعين ذلك عليه وقد بلغنا أن جماعة من الشباب ، كانوا يعبدون الله تعالى ، ويأكلون من عمل يدهم ، فكان إبليس كلما أراد أن يقترب من أحدهم كاد أن يحترق ، فبينما هم يوماً فى مجلس الذكر ، إذ حرش جماعة من العياق[٢] كانوا بالقرب من هؤلاء الذاكرين ، فوقعوا فى ضرب بعضهم بعضاً بالعصى حتى جرت منهم الدماء ، وكان قصده أن هؤلاء الذاكرين يقولون فى أنفسهم : إن تخليصنا هؤلاء أفضل مما نحن فيه ، لأنه خير متعدى النفع فتركوا مجلس الذكر ، وجاءوا يخلصون بينهم فوقع العياق فيهم بالضرب فاشتغلوا بهم عن الذكر وعن غيره ففرح بذلك إبليس ، وكان جلّ قصده إبطال مجلس الذكر لا غير ، فلا يليق التصدر لإزالة المنكرات ، إلا للأشياخ الذين لهم حال يحميهم من أهل المنكر ومن إبليس .

---

(١) تشير إلى ذلك الآية الكريمة « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » .
(٢) جمع عايق والمراد « جماعة من الفتوات » .

وكان يقول : إن كان ولا بد للمريد من إزالة المنكر فليتوجه إلى الله تعالى بقلبه ويزيل ذلك المنكر الذى رآه ، إما يمنع الزانى من الزنا ، أو يمنع الشاب من شرب الخمر ، ونحو ذلك ، ولا ينسب إلى ساكت قول هكذا كان صورة تغيير المريدين الصادقين المنكر فى قديم الزمان ، وقد خالف قوم فغيروا بيدهم أو لسانهم فسحبوهم لبيت الوالى وضربوهم وحبسوهم فازداد المنكر منكراً .

وقد كان سيدى إبراهيم المتبولى رحمه الله يقول : تغيير المنكر باليد للولاة ومن قاربهم ، وتغييره بالقول للعلماء العاملين ، وتغييره بالقلب لأرباب القول .

وكان رضى الله عنه يقول : من شرط المريد الصادق أن يرى نفسه دائماً فى مقام الطفولية ، ليرضع من ثدى المربِّى ، فإن من كبر استحق الفطام ، ومنعوه الرضاع .

وكان كثيراً ما يقول لمن يراه متكبراً عن سماع النصح : يا ولدى لا تَتَكَبَّرْ تُفْطَمْ .

وكان يقول : لا يجرى ماء الإيمان فى قلب مريد إلا إن نظّف قلبه من محبة الدنيا وشهواتها .

وكان يقول : من سلك من المريدين بالرياضة على طريق أصحاب علم الحرف مقت وانكشف حاله ، وذهبت دنياه وآخرته ، لأنه استعمل أسماء الله تعالى فى طلب أشياء خسيسة ، من مالٍ أو جاه .

وكان يقول : كل مريد أكل من طعام مكّاسٍ ، أو جندى ، أو قاض ، يأخذ الرشوة فى الأحكام ، أو مباشر يتهور فى كسبه ،

أو شيخ عرب ، أو كاشف ، أو والى ، أو غيرهم ، من سائر المتهورين فى مكاسبهم فقد تورّع من فتحه فى الطريق .

وقد أكل بعض المريدين لقمة من طعام قاض ثم تذكر فترك الأكل فأظلم قلبه ثلاثين سنة ، ثم قيل له : بعد مجاهدة ثلاثين سنة الآن قد رجعت إلى حالتك التى كانت قبل أن تأكل من طعام القاض المرتشى وفى هذا القدر كفاية .

فاعرض يا أخى جميع ما ذكرته لك فى هـــذا الباب من صفات المريدين على نفسك فإن رأيتها متخلقة به فأنت مريد صادق ، وإلا فكف عن الدعوى ، والحمد لله رب العالمين .

الباب الثانى

فى بيان نبذة من آداب المريد مع شيخه

إعلم يا أخى ، أن عمدة الأدب مع الشيخ ، هو المحبّة له ، فمن لم يبالغ فى محبّة شيخه بحيث يؤثره على جميع شهواته ، لا يفلح فى الطريق لأن محبة الشيخ ، إنما هى مرتبة إدمان ، يترقى المريد منها إلى مرتبة الحق جلّ وعلا ، ومن لم يحب الواسطة بينه وبين ربه التى من جملتها رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو منافق ، والمنافق فى الدرك الأسفل من النار ، إذا علمت ذلك فليذكر لك بعض صفات المحبين لأشياخهم ، لتعرف صدقك من كذبك .

فأقول وبالله التوفيق : أجمع أهل الطريق على أن من صفات المريد الصادق فى محبة الشيخ أن يكون تائباً من جميع الذنوب ، متطهراً من سائر العيوب .

فمن تلطخ بالذنوب وادعى محبة شيخه فهو كاذب ، وكما أنه لا يحب شيخه فكذلك شيخه لا يحبه ، وإذا لم يحبه شيخه فالحق تعالى كذلك لا يحبه ، قال تعالى « إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين » وقال « إن الله لا يحب المفسدين » « إن الله لا يحب من كان مختالا فخوراً » « إن الله لا يهدى كيد الخائنين » ونحوها من الآيات وأجمعوا على أن من شرط المحب لشيخه أن يصم أذنه عن سماع كلام أحد فى الطريق غير

شيخه ، فلا يقبل عذل عاذل[١] حتى لو قام أهل مصر كلهم فى صعيد واحد ، لم يقدروا على أن ينفروه من شيخه ولو غاب عنه الطعام والشراب أياماً لاستغنى عنها بالنظر إلى شيخه لتخيله فى باله ، وبلغنا عن بعضهم أنه لما دخل هذا المقام سمن وعبل من نظره إلى أستاذه .

قال الشيخ محي الدين بن العربى : ولقد تجسّد لى مرة حبى لشيخى أبى مدين رضى الله عنه ، فكنت لا أقدر أن أنظر إليه ، وكان يخاطبنى وأصغى إليه وأفهم عنه ، قال : ولقد تركنى أياماً لا أشبع طعاماً ، وكانوا كلما قدموا إلى المائدة ، تقف المحبة على حرفها ، وينظر إلىّ ويقول لى بلسان أسمعه بأذنى : تأكل وأنت تشاهدنى ، فأمتنع من الطعام ، ولا أجد جوعاً ، وأمتلىء من الحب ، حتى سمنت وعبّلت من نظرى إليه ، فقام لى ذلك مقام الغذاء ، أذوق ذواقاً ولا أجد جوعاً ، ولا عطشاً ، وكان الحب لا يبرح نصب عينى فى قيامىْ ، وقعودى ، وحركتى وسكونى .

لطائف الحب

وسمعت أخى أفضل الدين رحمه الله يقول : من ألطف سكرات الحب الشغل بالحب عن متعلقه ، كما حكى أن ليلى جاءت إلى مجنونها ، وهو يصيح : ليلى ليلى ، ويأخذ الجليد فيلقيه على فؤاده ، فيذوب من حرارة فؤاده فسلمت ليلى عليه ، وهو فى ذلك الحال وقالت له : أنا محبوبك ،

---

(١) العاذل : هو اللائم .

أنا مطلوبك ، أنا قرة عينك ، أنا ليلى ، فقال : إليك عنى ، فإن حبك شغلنى عنك .

وسمعت سيدى على الخواص رحمه الله يقول : ألطف ما فى الحب ما وجدته فى نفسك من العشق المفرط ، والشوق المقلق ، حتى منعك ذلك النوم ولذة الطعام ولا يدرى ذلك الحب فيمن ؟ ولا يتعين لك محبوب ، فإن من ذلك تترق إلى محبة الله عز وجل المطلقة ، قالوا : ومن أصعب ما فى الحب أن يصير المريد يحب الهجر ، ويتلذذ به إذا علم أن شيخه أحب هجره ، لأن تخليص حظ النفس من حظ الشيخ عَسِرٌ جداً ، وحاصله أن المريد يحب الهجر من حيث كونه محبوباً لشيخه لا من حيثية أخرى ، لأن الحب للشيخ عمدته الوصل لا الهجر .

وسمعت أخى أفضل الدين رحمه الله يقول : حقيقة حب الشيخ أن يحبّ الأشياء من أجله ، ويكرهها من أجله ، كما هو الشأن فى محبة ربنا عز وجل ، ويؤيد ذلك ما ورد فى الحديث « أن عبداً يأتى يوم القيامة بكثير صلاة ، وصيام ، وحج ، وصدقة ، وتشهد له الملائكة بذلك ، فيقول الله عز وجل : أنظروا هل والى لى ولياً ؟ أو عادى لى عدواً ؟

صفات المحبين

وذكر الشيخ محي الدين فى الباب الثامن والسبعين بعـــد المائة من الفتوحات أن جملة أوصاف المحبين ، أن يكون أحدهم مقتولا تالفاً فى محبوبه سائراً إلى حضرته على الدوام ، دائم السهر كامن الغم ، راغباً فى الخروج من كل شيء يشغله عنه من شهوات الدنيا والآخرة ، فهو متبرم من صحبة كل شيء يحجبه عن محبوبه ، كثير التأوه يستريح إلى كلام محبوبه وذكر اسمه ، دائم الموافقة لمحاب محبوبه ، خائف من ترك الحرمة فى إقامة خدمته ، يستقل الكثير من نفسه فى حق محبوبه ، ويستكثر القليل من محبوبه ، يعانق طاعة محبوبه ، ويجانب مخالفته ، خارج له عن نفسه بالكلية ، لا يطلب الدية فى قتله ، يصبر على الضرّاء التى تنفر منها الطباع ، قياماً بما كلفه محبوبه ، دائم الهيام فى محبوبه ، وقد وطن نفسه على محبة كل شيء يريده محبوبه ، ليس له معـــه نفس ، بل كله لمحبوبه ، يعاتب نفسه فى حق محبوبه ، ولا يعاتب قط محبوبه ، غيور على محبوبه من نفسه ، فيود أنه لا يراه مع شهوته لرؤيته ، لا يقبل حبه الزيادة بإحسان المحبوب ، ولا النقص بجفائه له ، ناس حظ نفســـه ، ذاكر حظ محبوبه ، مجهول النعوت كأنه سال ، وليس بسال ، لا يفرق من سكره بين الوصل والهجر ، لا يقول قطً لمحبوبه لم فعلت كذا ؟ أو قلت كذا ؟ سره علانية ، مسرور محزون ، مقامه الخرس ، حاله يترجم عنه ، لسكره من المحبة ، يختار مراضى محبوبه على جميع أغراض نفسه .

قال الشيخ محي الدين : ومن ألطف ما بلغنا عن بعض المحبين أنه دخل

على شيخ فرآه يتكلم فى المحبة فما زال ذلك المحب ينحل ويذوب ويسيل عرقاً حتى تحال جسمه كله على الحصير بين يدى الشيخ وصار بركة ماء ، فدخل بعض أصحاب ذلك المحب على الشيخ فقال له : أين فلان ؟ فقال الشيخ : هو ذا وأشار إلى ذلك الماء ووصف له القصة فتعجب الحاضرون من ذلك .

قال الشيخ محي الدين وهو تحليل غريب واستحالة عجيبة حيث تلطفت كثافته حتى صار ماء ! ! !

لغة العاشقين

واعلم أن من صفات المحبين أنهم يتكلمون بلسان المحبة ، والعشق ، والسكر ، لا بلسان العلم ، والعقل ، والتحقيق ، كما أجاب بذلك الخطاف سليمان عليه الصلاة والسلام .

وذلك أن خَطَّافاً راود خطافةً فى قبة « سليمان عليه السلام » وقال لها : لقد بلغ من حبي لك أن لو قلتِ لى : إهدم القبة على سليمان لفعلت .

فحملت الريح كلامه إلى سليمان ، فقال له : ما حملك على ما قلت وأنت عاجز ؟ فقال : مهلا يا نبيّ الله ، أنا عاشق ، والعشاق إنما يتكلمون بلسان عشقهم ، وسكرهم ، لا بلسان العلم ، والعقل ، فضحك سليمان من قوله ولم يعاقبه .

قلت : وفى هذه القصة عذر عظيم لأهل المحبة فى أشعارهم « لسمنون وسيدى عمر الفارض وأضرابهما » فإنهم تكلموا بلسان العشق والسكر وإلا فأين تعقل قول سيدى عمر فى تائيته ؟ :

فطوفان نوح عند نوحى كأدمعى   وإيقاد نيران الخليـــل كلوعتى
ولولا زفيرى أغرقتنى أدمعى   ولولا دموعى أحرقتنى زفرتى
وحزنى ما يعقوب بث أقله   وكل بلا أيوب بعض بليتى

إلى آخر ما قال ، فاعلم ذلك وإياك والمبادرة إلى الإنكار والله أعلم .

فاعرض يا أخى هـذه الصفات التى ذكرتها لك فى المحبة للشيخ على نفسك ، فإن رأيت نفسك متخلقاً بها فاشكر الله تعالى فإنك سوف تترقى من ذلك إلى محبـة الله عز وجل من طريق السلوك ، فإن محبة الشيوخ واحترامهم من باب احترام الحق تعالى ومحبته .

وقد أنشـــد الشيخ محي الدين فى أول الباب الأحد والثمانين ومائة من الفتوحات :

ما حرمة الشيخ إلا حرمة الله   فقم بهـــا أدباً بالله بالله
هم الأدلاء والقربى تؤيدهم   على الدلالة تأييداً على الله
كالأنبياء تراهم فى محاربهم   لا يسألون من الله سوى الله
فإن بدا منهم حال تولههم   عن الشريعة فاتركهم مع الله
لا تتبعهم ولا تسلك لهم أثراً   فإنهم ذاهلون العقل فى الله
لا تقتدى بالذى زالت شريعته   عنه ولو جاء بالأنبا عن الله

وقوله فى البيت الأول : ما حرمة الشيخ إلا حرمة الله ، أى هى من حرمة الله لأمره تعالى بتوقير الشيوخ ، وليس المراد أننا نعظم الشيخ كما نعظم الله تعالى فافهم .

وسمعت سيدى علياً المرصفى رحمـه الله يقول : المريد يترقى فى محبة

شيخه إلى حد يصير يتلذذ بكلام شيخه له كما يتلذذ بالجماع ، فمن لم يعمل إلى هذه الحالة فما أعطى الشيخ حقه من المحبة .

ثم لا يخفى عليك يا أخى أن الشيوخ رضى الله عنهم نواب الشارع صلى الله عليه وسلم فى إرشاد جميع الناس بل هم الورثة للرسل على الحقيقة ورثوا علوم شرائعهم غير أنهم لا يُشَرِّعون ، فلهم حفظ الشريعة فى العموم ، وما لهم التشريع ، ولهم حفظ القلوب من الميل إلى غير مرضات الله ومراعاة الآداب الخاصة بأهل الحضرة الإلهية وهم من العلماء بالله بمنزلة الطبيب فى العالم ، فإن الطبيب لا يعرف الطبيعة إلا إنما هى مدبرة للبدن الإنسانى خاصة ، بخلاف العلم بعلم الطبيعة فإنه يعلمها مطلقاً وإن لم يكن طبيباً ، وقد يجمع الشيخ الأمرين .

وسمعت سيدى على الخواص رحمه الله يقول : العلماء بوابون حضرات الأسماء والصفات ، وأصحاب الموهب الإلهى بوابون حضرة الذات .

وسمعته مرة أخرى يقول : مرتبة هؤلاء المربين أنهم يعلمون الناس الآداب مع الحق ويجمعون قلوبهم على الله .

وسمعته يقول : علامة الشيخ الذى يجب الأدب معه أن يكون عارفاً بالكتاب والسنة ، قائلا بها فى ظاهره ، متحققاً بها فى سره ، يراعى حدود الله ويوفى بعهد الله لا يتأول فى الورع بل يأخذ بالاحتياط فى سائر أحواله ، يشفق على جميع الأمة ، لا يمقت أحداً من العصاة ، بل يتلطف به ، ويدعوه إلى الخير برحمة ، ورفق جوده مطلق على البر ، والفاجر والشاكر والجاحد كان جميع الخلق عائلته .

ثم اعلم يا أخى أن أحداً من السالكين لم يصل إلى حالة شريفة فى الطريق أبداً إلا بملاقاة الأشياخ ومعانقة الأدب معهم ، والإكثار

من خدمتهم ، ومن ادعى الطريق بلا شيخ كان شيخه أبليس ، فهو وإن وقعت على يديه كرامة فهى استدراج لكرامة الدجال الأعور إذا خرج آخر الزمان .

وقد كان الإمام أبو القاسم الجنيد رحمه الله يقول : من سلك بغير شيخ ضل وأضل ، ومن حرم احترام الأشياخ ابتلاه الله تعالى بالمقت بين العباد وحرم نور الإيمان .

وكان أبو تراب النخشبي رضى الله عنه يقول : إذا ألف القلب الإعراض عن الله صحبته الوقيعة فى أولياء الله .

وكان أبو القاسم القشيرى رحمه الله يقول : لو لم يكن للمريد من الباعث على الأدب إلا قول موسى عليه السلام للخضر : « هل أتبعك على أن تعلمنى مما علمت رشداً » لكفاه ذلك ، فإن موسى عليه السلام لما أراد صحبة الخضر حفظ شرط الأدب فاستأذن أولا فى الصحبة ثم شرط عليه الخضر أن لا يعارضه فى شىء ، ولا يعترض عليه فى حكم من الأحكام ثم لما خالفه موسى تجاوز الخضر عنه المرة الأولى والثانية ، فلما انتهى إلى الثالثة التى هى أول حد الكبيرة قال له « هذا فراق بينى وبينك »

إذا علمت ذلك فأقول وبالله التوفيق : من شأن المريد أن لا يدخل فى صحبة شيخ إلا بعد استخارة وانشراح صدر لصحبته وإلا فربما دخل بغير اعتقاد ولا احترام ، فجره ذلك إلى المقت .

وقد كان سيدى عبد القادر الجيلى رضى الله عنه يقول : من لم يعتقد فى شيخه الكمال لا يفلح على يديه أبداً .

وكان أبو على الدقاق رحمه الله يقول : من دخل فى صحبة شيخ ثم اعترض عليه بعد ذلك فقد نقض عهد الصحبة ووجب عليه تجديد العهد

على أن الأشياخ قد قالوا : إن عقوق الأستاذ قد يترتب عليه استحكام المقت فلا يكاد يصح من ذلك العاق توبة ، وقيام الاستهانة بالشيخ فى باطن ذلك العاق التائب .

وكان أبو سهل الصعلوكى رحمه الله يقول : كان لبعض الأشياخ مجلس يفسر فيه القرآن العظيم فأبدله بمجلس قوال ، فقال مريد بقلبه : كيف يبدل مجلس القرآن بمجلس قوال ؟ فناداه الشيخ : يا فلان ، من قال لشيخه لم لا يفلح ، فقال المريد التوبة .

وكان أبو جعفر الخلدى يقول : من لم يحفظ الأدب مع المشايخ سلط الله عليه الكلاب التى تؤذيه .

قال : وكان الأشياخ كلهم يقولون : جميع ما حل بالحلاج إنما كان من دعوة عمرو بن عثمان المكى عليه . :

وكان أبو على الدقاق يقول لما أخرج أهل بلخ محمد بن الفضل من أجل، كونه كان مذهبه الحديث ، دعى على أهل بلخ ، وقال : اللهم انزع منهم الصدق ، وكانت أكثر بلاد الله تعالى صوفية فما خرج منها بعد دعوته صوفى صادق .

وكان أحمد الأبيوردى رحمه الله يقول : إياكم والعمل على تغيير قلب شيخكم عليكم ، فإن من غير قلب شيخه عليه لحقته العقوبة ولو بعد موت الشيخ .

وزار أبو تراب النخشبى وشقيق البلخى أبا يزيد البسطامى ، فلما قدم خادمه السفرة قالا له كل معنا يا فتى ، فقال لا إنى صائم ، فقال له أبو تراب : كل ولك أجر صوم شهر ، فقال : لا ، فقال له شفيق :

كل ولك أجر صوم سنة ، فقال : لا ، فقال أبو يزيد : دعوا من سقط من عين رعاية الله عز وجل فسرق ذلك الشاب بعد سنة ، فقطعت يده عقوبة له على سوء أدبه مع الأشياخ .

وسمعت الشيخ خطاب المجذوب بنواحي ثغر رشيد يقول : حكم الشيخ حكم من سلك تابع الثور الذى يحرث ويلطف مزاجـــه ويخلقه بأخلاق الصالحين ويجلسه فى حضرة ربه عز وجل فيحتاج مسلك تابع الثور إلى صبر شديد حتى يتلطف من تلك الكثائف ، ومتى يصير تابع الثور ولياً لله عز وجل يهدى الناس إلى شرعه ويعلمهم الأدب مع الله تعالى ؟؟.

وسمعت شيخ الإسلام الشيخ برهان الدين بن أبى شريف رحمه الله يقول : من لم ير خطأ شيخه أحسن من صوابه هو لم ينتفع به .

وكان سهل بن عبد الله يقول : كان رجل مشهور بالولاية بالبصرة . وكان خبازاً فمضى إليه شخص من أصحابى يأخذ عنه فوجده متقنعاً خوفاً من شرر النار ، فقال فى نفسه : لو كان هذا ولياً لله تعالى ما أحرقه شرر النار ، فقال له الشيـــخ : يا ولدى إنك استصغرتنى وما بقيت تنتفع بكلامى ، فرجع إلى سهل وذكر له القصة ، فقال ما استصغر أحد فقيراً إلا حرم فوائده أرجع إليه بالحرمة فرجع إليه فانتفع بزيارته ، وعقد التوبة على أنه لا يعترض على فقير فى حاله حتى يموت ، فعلم أن كل مريد صحب الأشياخ على غير طريق الاحترام حرم فوائدهم وبركات نظرهم ، ثم لا يظهر عليه من آثارهم شىء ولو تكلف هو ذلك بل أفعاله تكذب دعواه ، واعلم يا أخى أنه قل مريد يصدق مع شيخه الصدق الكامل فإنها طريق غيب غير محسوسة لا يسلك فيها إلا بالقلوب وأين من يتخذ قلبه مع قلب شيخه حتى يسير به فى الغيب والأسرار ؟ هـذا

لا يكون إلا لمريد قد قارب مقام الشيخ فى الأدب والانقياد حتى كان الشيخ محيي الدين بن العربى يقول : إذا صدق المريد مع الشيخ كان كل منهما تلميذاً لصاحبه من وجه وشيخاً له من وجه ، قال ويتشيخ إذا مات المريد قبل وصوله إلى المقام الذى كان عينه له أن ينزل إلى مرتبة المريد ويعمل عليه حتى يصل إليه ، فإذا وصل إلى ذلك المقام خلعه على المريد فى قبره فيكمله به ، فيبعث من قبره كاملا ، والحمد لله رب العالمين .

ومن شأنه أن لا يكون عنده دلال على الشيخ خوفاً أن يأمره بأدب فلا يمتثل أمره ، فإن ذلك من علامة عدم إفلاحه ، بل من شأن المريد الصادق أن يجهـــد على أن يكون جلوسه على باب الشيخ رجاء أن يقع بصر الشيخ عليه كلما خرج ، فربما يغمره بنظره إليه أكثر من مجاهدته فياسعادة من كانت خلوته تجاه باب الشيخ .

ومن شأنه إذا تعذر عليه الفتح أن يقيم العذر لشيخه ، ويجعل اللوم على نفسه دون شيخه ، ويقول : النقص منى ، وقد قال تعالى لسيد المرسلين : « إنك لا تهدى من أحببت » فإذا كان سيد المرسلين بهذه المثابة فكيف شيخى ؟ فإن الله غالب على أمره ، ولم يزل أهل كل عصر يعترفون بالقصور عن مقام من تقدمهم من أسلافهم .

وقد قال القشيرى فى أول رسالته التى أملاها فى سنة سبع وثلاثين وأربعمائة :

إعلموا أيها الإخوان أن المتحققين من هذه الطائفة قد انقرض أكثرهم ولم يبق فى زماننا هذا من هذه الطريقة إلا آثارهم ، ثم أنشد :

أما الخيـــام فإنها كخيامهم   وأرى نساء الحى غير نسائهم !!

ثم قال : حصلت الفترة فى الطريقـــة ، لا ، بل اندرست الطريقة

مضى الشيوخ الذين كان لهم اهتداء ، وقل الشباب الذين كان لهم بسيرتهم وسنتهم اقتداء ، وزال الورع وطوى بساطه ، واشتد الطمع وقوى رباطه ، وارتحلت عن القلوب حرمة الشريعة ، حتى عدوا قلة المبالاة بالمعاصى والشهوات أوثق ذريعة إلى آخر ما قالوا ، فإذا كان هذا قول القشيرى فى زمانه ، فماذا يقول القائل فى أهل النصف الثانى من القرن العاشر صاحب الغرائب والعجائب ؟ وقد أدركت أنا بحمد الله تعالى نحواً من سبعين شيخاً وماتوا كلهم بغصصهم ولم يروا مريداً يعجبهم ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

فاعلم أن مقام الشيخ فى هذا الزمان مشاكل حال المريد ومن طلب شيخاً متصفاً بعين ما اتصف به الإمام الجنيد مثلا فكأنه رام المحال فى هذا الزمان ، ولكن حيث ما كان الشيخ أعلم بالطريق من المريد كفاه ذلك ويجب عليه التقيد عليه ، فإن من لا شيخ له لا يفلح أبداً فى الطريق ، كما مر فى الباب الأول .

لا يصح دخول الطريق قبل التوبة

وكان أبو على الدقاق رحمه الله تعالى يقول : إذا لم يكن للمريد أستاذ يأخذ منه طريقه نفساً بنفس وإلا فهو عابد لهواه ، وأجمعوا على أن من لم يتب على يد شيخه أو غيره من جميع الزلات ، سرها وجهرها ، صغيرها وكبيرها ، ويرضى جميع أخصامه لا يفتح له من هذه الطريق بشىء ، وعلى ذلك جروا ، فإن طريق القوم كلها حضرة الله عز وجل ، كحضرة الصلاة ، أو كالجنة ، فكما لا تصح الصلاة مع النجاسة ، ولا دخول

الجنة مع تبعات الخلائق ، فكذلك لا يصح دخول الطريق مع المعاصى والتبعات .

وكان أبو القاسم القشيرى رحمه الله يقول : يجب على المريد أن يصحح عهده بينه وبين الله تعالى أن لا يخالف شيخه فى كل ما يشير به عليه ، فإن الخلاف للمريد ضرر عظيم ، ومن ابتدأ طريقه على مخالفة إشارة أستاذه لم يزل يخالفه فى مستقبل الزمان ، فيجب عليه أن لا يعترض على شيخه بقلبه إذا استعمله فى نزح السراب مثلا ، أو قال له : اعمل سراباتى ؟

وقد كان فتح الشيخ خليل المالكى صاحب المختصر بسبب نزحه سراب بيت الشيخ عبد الله المنوفى رضى الله عنه ، فسمع الشيخ بطلب القنواتية فأتى بالفاس والزنبيل من الليل ، وصار ينزح إلى الظهر ، فما رجع الشيخ عبد الله من الدرس حتى نزح السراب كله ، فدعى له الشيخ فصار علماء المالكية كلهم يرجعون إلى قوله وترجيحه إلى وقتنا هذا .

وقيل : إن القصة المذكورة إنما وقعت للشيخ عبد الله المنوفى مع شيخه .

وكان الشيخ أبو القاسم القشيرى يقول : كل مريد خطر بباله أن له فى الدنيا والآخرة قدراً وقيمة أو على وجه الأرض أحد من المسلمين دونه فى الدرجة ، لم يصح له فى الإرادة قدم ، وذلك لأن المريد إنما يجتهد فى العبادة ليحصل له الذل والمسكنة بين يدى الله عز وجل لا ليحصل لنفسه المنزلة والجاه عند الناس إما فى العاجل ، وإما فى الآجل .

ومن شأنه أن لا يكتم عن شيخه شيئاً من أحواله الظاهرة والباطنة حتى الخواطر التى استقرت عنده ، ومتى كتم عنه شيئاً فقد خانه فى الصحبة ،

وكان عليه تجديد الصحبة إن أرادها ، والمراد بما قلنا الأمور التى يحصل بها الترقى عادة فى الطريق من ذكر علل الأعمال دون الأمور العادية .

وأجمعوا على أنه إذا حصل من المريد مخالفة لإشارة شيخه أو جناية على أحد بغير حق كان عليه أن يُقِـرّ بين يديه بالجناية على الفور ثم يستسلم لما يحكم به عليه شيخه من العقوبات للنفس على تلك الجناية من سفر يكلفه أو خدمة شديدة أو جوع شديد ونحو ذلك ، وأجمعوا على أنه لا يجوز للأشياخ التجاوز عن زلات المريد ، لأن ذلك تضييع لحقوق الله عز وجل وكذلك أجمعوا على أنه لا يجوز للشيخ أن يلقن المريد شيئاً من الأذكار معنى التلقين الخاص إلا بعد تجرد المريد من كل علاقة دنيوية .

ويجب على الشيخ أن يأمر المريد أن يذكر الله تعالى بلسانه بشدة وعزم فإذا تمكن من ذلك يأمره أن يسوى فى الذكر بين قلبه ولسانه ويقول له : أثبت على استدامة هذا الذكر ، كأنك بين يدى ربك أبداً بقلبك ، ولا تجر على لسانك غير الإسم الذى لقنته لك ما أمكنك ، ولا تترك الذكر حتى يحصل لك منه حال وتصير أعضاؤك كلها ذاكرة لا تقبل الغفلة عن الله تعالى ، وتقدم فى الباب الأول أن ثم جماعة من أولياء اليمن يلقنون المريد لفظ الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويأمروه بالاشتغال بها ليلا ونهاراً وتحصل له بذلك سلوك الطريق ، ويكون شيخه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن الجمهور كلهم على تلقين أسماء الله تعالى فقط ، ثم بعد أن يلقنه الذكر يأمره بالجوع على التدريج شيئاً فشيئاً لئلا تقل قواه ، فينقطع عن الذكر ، فإن فى الحديث « إنّ المنْبَتّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى » والمراد بالمنبت الذى حمل دابته فوق طاقتها حتى عجزت واضطجعت فى الأرض ، فهـذا لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى .

وقد كان سيدى الشيخ أبو السعود الجارحى رحمه الله يأمر المريد بأن يتناول غذاءه المعتاد كمية من حب القمح ، ثم يصير ينقص كل يوم قمحة ، وتارة يعادل ذلك بخشب طرى ، فيصير ينقص غذاؤه كل يوم بحسب ما ينقص ثقل الخشب ، وذلك أمر لا يحس به البدن ، ولا يؤثر فيه ضعفاً ، فمن أراد يقلل الأكل على التدريج فليفعل مثل ذلك ، وكانت طريقة شيخنا الشيخ محمد الشناوى رحمه الله الأكل المعتاد مع كثرة الذكر بعزم وهمة .

ويقول : إن الذكر يهضم الطعام ، ويقول : إن فى الحديث أذيبوا طعامكم بذكر الله تعالى ولا تناموا عليه فتقسو قلوبكم .

وكان كثيراً ما يقول : نحن لا نحتاج مع الذكر إلى فجل ولا خلّ ولا شيئاً مما يهضم الطعام لاستغنائنا عن ذلك بالذكر ، ولكن كان أصحابه أصحاب أعمال شاقة من حرث ، وحصاد ، ودراس ، ونحو ذلك ، فلكل حال رجال ، والحمد لله رب العالمين .

ومن شأنه أن لا يفعل مع الشيخ شيئاً يوحش قلب الشيخ منه فإن الله تعالى قد يغضب لغضب الشيخ ويرضى لرضاه ، لأنه قد يكون أعظم حرمة من والد الجسم ، وإيضاح ذلك أن الشيخ لا يأمر المريد إلا بما أمر الله به فمن خالفه فقد خالف الشارع صلى الله عليه وسلم ووقع فى غضب الله بحسب تلك المعصية من كبيرة أو صغيرة ، فياشقاوة من غير قلب شيخه وقتاً من الأوقات ، وعلى المريد إذا لم يجد من يتأدب به فى بلدة أن يسافر إلى من هو منصوب فى وقته لإرشاد المريدين ثم يقيم عنده ولا يبرح عن بابه حتى يفتح عليه ، ثم إن قابله الشيخ بالجفاء وعدم الاحتفال بأمره صبر ، فربما فعل الشيخ معه ذلك ليريه عزة الطريق

ليدخل إليها بالتعظيم ولا يستهين بها ، وربما أمر الناس بصفعه على عنقه وعدم تمكنه من دخول الزاوية ، كما وقع ذلك « لسيدى محمد الغمرى » مع سيدى « أحمد الزاهد » .

وربما لحن الشيخ فى كلامه العادى ليمتحن ذلك المريد إذا كان نحوياً كما وقع لسيدى الشيخ أبو السعود الجارحى مع الشيخ محبّ الدين اللقانى فإنه لما جاءه يطلب الطريق قال له الشيخ :

يظن بى الناس خيراً وإنى أشر الناس إن لم يعف عنى

بنصب الناس وأشر ففارقه ساكتاً وقال : هذا لا يعرف الفاعل من المفعول ، فرأى رؤيا فيها تعظيم الشيخ فجاء يقصها عليه ، فأول ما رآه الشيخ قال : الصواب رفع الناس وأشر ، فقال الشيخ محب الدين : الله أكبر ، فقال : على كل مخالف للأدب كيف تطلب أدب الطـــريق ، وتفر من نصْبه ؟ وتأتى برفعـــة ، فتاب واستغفر فقال له الشيخ : أنا اشتغلت بالنحو زماناً ، وإنما أردت اختبارك .

وكان أبو القاسم القشيرى رحمه الله يقول : يجب على كل من زار شيخاً أن يدخل عليه بالحشمة والحرمة ، فضلا عن شيخ الإنسان ، ثم إن أهّله الشيخ لشىء من الخدمة عدّ ذلك من جزيل النعمة ، وليحذر من أن يقيم ميزان عقله الجائر على من يدخل عليه من الأشياء ، فربما مقته ذلك الشيخ فلا يفلح بعدها أبداً ، بل بعضهم تنصّر ومات على دين النصرانية ، كما حكى .

وسمعت سيدى محمد الشناوى رحمه الله يقول : مما أنعم الله تعالى به علىّ أنى ما دخلت قط على شيخ إلا وميزان عقلى مكسور وأرى نفسى تحت نعاله ، فلا أخرج من عنده إلا بمدد وفائدة .

من أدب الطريق استئذان الشيخ

ومن شأنه أن لا يحج إلا بإذن شيخه ، فإن معرفة الأدب مع رب البيت مقدمة على معرفة أدب البيت ، فمن سافر إلى البيت قبل معرفته بصاحب البيت المعرفة التى يعرفها القوم ، فقد أخطأ طريقهم ولم يحصل له امدادُها ، وبعيدٌ أن يسقط عنه بها حجة الإسلام ، كما أنه فرق عظيم بين حج شيخ الإسلام وبين حج آحاد العوام .

وغاية أمر من يحج بلا إذن شيخه تفرقه قلبه بانتقاله من واد إلى واد ، ولو أنه كان ارتحل بإشارة شيخه خطوة واحدة لكان ذلك أحسن له من ألف سفرة بالجهل .

وقد قال علماؤنا : وللزوج تحليل امرأته من حج تطوع لم يأذن فيه وكذا من الفرض على المذهب ، وأقل مقام طاعة الشيخ أن يكون كالزوج للمرأة ، ويكون يتصرف فى المريد كما يتصرف الرجل فى زوجته ، من حيث التحجير عليها والتربية لها .

وقد بلغنا أن الشيخ يوسف القطورى دخل على سيدى محمد الحنفى الشاذلى رضى الله عنه وهو يخمر طيناً فقال له : سيدى محمد إنزع عمامتك وساعدنا ، فنزع عمامته وخمر الطين ، ثم لم يقل له الشيخ بعـــد ذلك إلبس عمامتك ، فلم يزل من غير عمامة إلى أن مات ، فقيل له فى ذلك فقال : إن الأستاذ لم يأمرنى بلبسها ، بعد أن أمرنى بنزعها ، وليس من الأدب أن أبدأه بالمشاورة على لبسها ، هكذا قال ، وهذا أدب عظيم ، ما بلغنا مثله عن مريد ، وإن كان الأولى مشاورة الشيخ ولبسها ، لأن

العامة سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن شأنه أن يعتقد فى شيخه الكمال ، وذلك بأن يعتقد فيه أنه أعلم منه بطريق الشريعة والحقيقة ، قالوا : لكن لا يبالغ فى كماله بحيث يرفعه إلى مقام العصمة .

وقد قال الإمام القشيرى رحمه الله : لا ينبغى للمريد أن يعتقد فى شيخه وأضرابه العصمة ، إنما الواجب عليه الانقياد لهم فيما يأمرونه به من الخير ويذرهم وأحوالهم مع إحسانه الظن بهم ، ويراعى مع الله حدوده فيما يتوجه عليه هو من الأمور وما وصل إليه مع علم الشريعة يكفيه فى التفرقة بين ما هو محمود ، وبين ما هو مذموم ، فيعمل بما حققه ويَسْتَفْتِهم فيما أشكل عليه قال : ومن أصدق دليل على سعادة المريد قبول قلوب المشايخ له ، وكل من رده قلب شيخ من الأشياخ المتحققين فلا بد أن يرى عاقبة ذلك ولو بعد حين ، ومن خذل بترك احترام الأشياخ فقد أظهر رقم شقاوته ، والله أعلم .

ومن شأنه إذا أقامه الشيخ فى خدمة سفراً وحضراً دون أن يحضر مجالس الذكر أن لا يتكدر فإن الشيخ إنما يستعمله فيما يراه خيراً له من سائر الوجوه ، ومتى تكرر أو رأى أن اشتغاله بغير ذلك أفضل فقد نقض عهد شيخه فإن الشيخ أمين من جهة رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمته ، ومطالب بأن يفعل معهم ما يرقيهم وينهاهم عما يؤخرهم فى المقامات ، فقد يكون ما يطلبه المريد يورثه عجباً ورياء وشهوة ، أو يبتغى به ثناء ، ومدحاً بين الناس فيخسر مع الخاسرين ، وقد بلغنا أن سيدى إبراهيم المواهبى لما جاء إلى سيدى الشيخ أبى المواهب يطلب الطريق إلى مقدمة الأدب مع الله تعالى أمره أن يجلس فى الأصطبل يخدم البغلة ، ويقضى حوائج البيت وقال له : إحذر أن تحضر مع الفقراء قراءة حزب أو علم فأجابه إلى ذلك ، فمكث سنين حتى دنت وفاة الشيخ فتطاول

أكابر أصحابه للإذن لهم فى الخلافة بعده ، فقال ائتونى بإبراهيم فأتوه به ففرش له سجادة وقال له : تكلم على إخوانك فى الطريق فأبدى لهم العجائب والغرائب نظماً ونثراً حتى انبهرت عقول الحاضرين ، فرجع الذين كانوا تطاولوا للإذن وتعجبوا من ذلك ، فكان سيدى إبراهيم الخليفة بعد الشيخ ولم يظهر من أولئك القوم شيء من أحوال الطريق ، فعلم أن معرفة الأمور التى يقع بها الفتح راجعة إلى الشيخ لا إلى المريد .

قال القشيرى : وإذا أمر الشيخ المريد أن يخدم إخوانه كان على المريد أن يخلص نيته فى ذلك ، ويصبر على جفاهم له ، مع شدة خدمته لهم ، وعدم حمدهم له على ذلك ، وينبغى له أن يعتذر لهم ، ويقيم لهم العذر على نفسه ويقول : أنا الظالم الذى لم يعمل على مرادكم حتى حفوتمونى ويقر بالجناية على نفسه ولو علم أنه برىء الساحة ما لم يكن فى ذلك تعزير واحد ، فإن إقراره على نفسه بذلك من غير أن يقع منه ظلم للنفس وذلك حرام .

ومن شأنه أن يلزم الأدب مع الشيخ إذا أسكت الجماعة فى مجلس الذكر فليس له بعد ذلك أن ينفعل فى الذكر لأن الشيخ لا يشير عليهم بالسكوت إلا بقدر استئذانه الحق تعالى بقلبه ومعرفة ما ألقى به إليه من طريق الإلهام من الإذن له فى إسكاتهم أو عدمه ، ويعرف ذلك غالباً بانشراح القلب وانقباضه ، فإن انشرح لإسكاتهم أسكتهم ، وإن انقبض تركهم فى الذكر ، وقد تقدم بسط ذلك فى الباب الأول .

وكان شيخنا سيدى على المرصفى رحمه الله يقول : لما أخذ علىّ شيخى العهد بأنى لا أخالفه ولا أكتم عنه شيئاً من أمرى كنت لا آكل ولا أشرب ، ولا أنام ، ولا أقرب من زوجتى ، حتى أقول بقلبى :

دستور يا سيدى وقال لى : من واظب على ذلك فى حق أستاذه ترقى منه إلى صحة معاملة الله عز وجل لأن الشيخ مرتبة إدمان للمريد يتمرن فيها قبل معاملته لله عز وجل ، فكل أدب لم يحكمه مع شيخه لا يصح له فعله مع ربه عز وجل إلا برعونة نفس ، وليس فى ذلك ترقى .

وكان رضى الله عنه يقول : كل مريد منعه شيخه شيئاً من الدنيا وتكدر لذلك فكذلك ربما يسخط على مقدور الحق تعالى إذا منعه شيئاً كان يطلبه وقس على ذلك سائر الأمور فليحذر المريد من التكدر إذا فرق الشيخ ذهباً أو فاكهة مثلا ونسيه ، فإن ذلك سوء أدب مع الشيخ والله أعلم .

ومن شأنه أن يكون فطناً لما هو من جنس ما يأمره به شيخه ، أو ينهاه عنه ، ولا يحوجه إلى تصريح بأمر أو نهى فيه لا سيما بحضرة من ليس من القوم ، بل يفهم من الرمز والإشارة .

وقد كان خادم الشيخ أبى يزيد البسطامى رحمه الله لا يحتاج معه إلى لفظ إنما كان أبو يزيد يكلمه بالقلب من غير لفظ فيفهم الأمر يفعله . وكذلك وقع لسيدى أبى العباس الغمرى مع خادمه .

وقال لى الشيخ عبد الله الفاعل : مرة كان الشيخ أبو العباس يكلمنى بالباطن من غـــير لفظ فأفهم الأمر وآتيه بما يؤكل أو يشرب أو يلبس على التعيين .

وأخبرنى الشيخ محمد الطنيخى أحد أصحابه قال : قال لى يوماً سيدى أبو العباس يا محمد أريد منك أنك تصير تفهم إشارتى من غير لفظ وتفعل كلما أكلمك فيه بقلبى ، فقلت له : نعم . فدخل علينا ابن السلطان قايد باى فالتهى به الشيخ عنى ثم لم أتجرأ أن أسأله عن ذلك الأمر إلى أن مات .

ومن شأنه أن لا يشرك مع شيخه أحداً فى المحبة من سائر من لم يأمره الله تعالى بمحبته فيجعل محبة الله وسط قلبه ويجعل محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم قريبة من ذلك ، وهكذا على اختلاف مراتب المحبوبين شرعاً ممن تكون محبتهم من الإيمان ، فمثل محبة هؤلاء لا تضر مع محبة الشيخ ، لأمر الحق تعالى المريد بها .

وكان سيـــدى على بن وفا رحمه الله يقول : محبة الأنبياء والأولياء وصالحى المؤمنين لا تضر مع محبة الشيخ ، لأنهـا من جملة الشريعة ، والشريعة نور ، والأنوار تتداخل بخلاف الأمور التى نهت الشريعة عنها فإنها ظلام كثيف لا تتداخل ، فلو وضع فى البيت الواحد ألف سراج شع نورها كلها .

وكان يقول كثيراً : إياكم أن تشركوا فى المحبة مع شيخكم أحداً من المشايخ ، فإن الرجال أمثال الجبال وهم على الأخلاق الإلهية المشار إليها بقوله صلى الله عليـــه وسلم : « تخلقوا بأخلاق الله » ، فكما أن الله تعالى (لا يغفر أن يشرك به) فكذلك محبة الأشياخ لا تسامح أن يشرك بها وكما أن الجبال لا يزحزحها عن أماكنها إلا الشرك بالله تعالى ما دام العالم باقياً ، فكذلك الولى لا يزيل همته عن حفظ مريده من الآفات إلا شرك موضع خالص المحبة من قلبه ، قال تعالى : « تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا أن دعوا للرحمن ولداً » ، وهو أى كلام الشيخ يحتاج إلى تعقب فاطلب يا أخى من نفسك الصدق فى محبة أستاذك تنل به ما تريد ، ولا تطلب منه أن تشغل قلبه بك ، وتهمل أنت أمر نفسك فإن ذلك لا يفيد .

ومن شأنه إذا كان بعيد الدار عن مكان شيخه أن يحافظ على الصلاة

فى زاوية شيخه ما أمكن ، وقد كان لى صاحب إسمـــه الشيخ أبو بكر الديربى ساكناً بجوار الجامع الأزهر فكان يصلى عندى الجمعة ويترك جامع الأزهر ، مع كثرة جماعته ، فقلت له : صلِّ فى جامع الأزهر فإنه أفضل لك ، فقال : إن لى فى ذلك غرض شرعى ، فكنت أتعجب فى صدقه رحمه الله فى اعتقاده ، فإن لم يتيسر للمريد صلاة الجمعة عنـــد أستاذه فليتخيله عنده فى أى مسجد صلى فيـــه ، فإن الحكم دائر مع القلب لا مع الجسم .

ومن شأنه أن يعتقد فى شيخه أنه أعرف بخواطره وعيوبه الباطنة منه لكن من طريق الإلهام لا من باب سوء الظن والكشف الشيطانى .

وإيضاح ذلك أن العامة لا تقيس غيرها إلا بالميزان التى عندها فى الباطن من خير وشر ، والأشياخ قد ترقت عن مثل ذلك ، فلم يكن فى باطنهم شر أبداً حتى يقيسوا عليه حال غيرهم ، ولما علم الله احتياج المريد إلى اطلاعهم على ما فى باطنه من الشرّ ليداووه بما يزيله ، أعطاهم الإلهام الصحيح بدل ذلك الميزان الذى كانوا يحملون عليه أحوال الناس فهو أعرف من المريد بأحواله ، ويؤيد ذلك أن البيطار أعـــرف من صاحب الدابة بعيوبها مع أن صاحبها مخالط لها ليلا ونهاراً ، وهـــذا الاعتقاد قليل فى المريدين حتى كان سيدى على بن وفا رحمه الله يقول وهو فى عام أربع وثمانمائة لم أجد إلى الآن مريداً صادقاً معى ، يعترف لى بأنى أعرف منه بخواطره ، وصفاته الباطنة ، ولو وجدته لأفرغت فيه جميع ما عندى من العلوم والأسرار .

وكان رضى الله عنه يقول : كل الأشياخ يموتون بغصصهم ، ولا يجدون من يحمل أسرارهم ، ولكن من فاته سر أستاذه فليواظب على ورده فإن سره فيه .

وكان سيدى إبراهيم الدسوقى رضى الله عنه يقول : يا مريدى إن صدقت معى وصح عهدك فأنا منك قريب غير بعيد ، وأنا فى ذهنك ، وأنا فى طرفك ، وأنا فى جميع حواسك ، الظاهرة والباطنة ، وإن لم تصدق معى كنت منك بعيداً ، ولا تشهد أنت منى إلا البعد .

وكان رضى الله عنه يقول : إذا صدق المريد مع شيخه ونادى شيخه من مسيرة ألف عام أجابه حياً كان الشيخ أو ميتاً ، فليتوجه الصادق بقلبه إلى شيخه فى كل أمر دهمه فى دار الدنيا ، فإنه يسمع صوت شيخه ويغيثه مما هو فيه ومهما ورد عليه من مشكلات سره ، يطبق عينيه ، ويفتح عين قلبه ، فإنه يرى شيخه جهاراً ، فإذا رآه فليسأله عما شاء وأراد .

وكان يقول : يا ولدى إن كنت صادقاً فلا تصحب غير شيخك واصبر على جفاه فإنه ربما امتحنك بترك ما تحب يريد بك الخير ، وتكون محلا لأسراره ، ومطلعاً لأنواره .

وكان يقول : المريد الصادق مع شيخه ، كالميت مع مُغسله لا كلام ولا حركة ، ولا يقدر ينطق بين يديه من هيبته ، ولا يدخل ، ولا يخرج ، ولا يخالط أحداً ، ولا يشتغل بعلم ، ولا قرآن ، ولا ذكر إلا بإذنه ، لأنه أمين على المريد فيما يرقيه ، ورب عمل فاضل دخلته النفس فصار مفضولا .

ثم يقول : هكذا كانت طريقة الخلف والسلف مع أشياخهم ، فإن الشيخ هو والد السر فى اصطلاحهم ويجب على الولد عدم العقوق لوالده وليس للعقوق ضابط يرجع إليه ، إنما الأمر عام فى سائر الأحوال ، وما جعلوه إلا كالميت بين يدى الغاسل .

فعليك ياولدى بطاعة والدك المذكور وقدمه فى كل أمر لك بأوامر الله على والد الجسم ، فإن والد السر أنفع من والد الجسم ، وذلك لأن والد السر يأخذ الولد كأنه قطعة حديد جامد ، فلا يزال يسبكه ، ويذيبه ، ويقطره ، ويلقى عليه من سر الصنعة سراً حتى يجعله ذهباً إبريزاً .

قال : وقد صحب كثير من الناس الأشياخ بلا أدب فماتوا ولم ينتفعوا منهم بشىء ، وبعضهم مقت آه آه آه من صدور الرجال ومن صحبة الأضداد ومن سماع المريد المحال .

ومن شأنه أن لا يلتفت لشىء من الدنيا بعد أن جمعه الله على شيخه فإن بين يديه جميع ما قسم للمريد من الدنيا والآخرة .

وقد كان سيدى على بن وفا رحمه الله يقول : إن وجدت أستاذك المحقق فقد وجدت حقيقتك ، وإذا وجدت حقيقتك وجدت الله عندها ، وإذا وجدت الله عندها وجدت كل شىء ، فليس كل المراد إلا فى وجد هذا الأستاذ . فافهم تغنم .

وكان يقول : إذا صدق المريد صار عين أستاذه .

وكان يقول : أنت على الصورة التى تشهد أستاذك عليها ، فاشهد ما شئت ، وانظر ماذا ترى إن شهدته منافقاً ، فأنت منافق ، وإن شهدته مخلصاً فأنت مخلص ، لأنه مرآتك ، ولا ترى فى المرآة إلا صورتك لا جرم المرآة .

وكان يقول : ما الأمر إلا أن تجد أستاذك وقد وجدت مرادك ، هنأ الله فؤادك .

وكان يقول : ليس للمريد أن يحكى ما يقع له مع شيخه ، فقد لا يؤمن

من يحكى وقائعه له بكلام أهل الطريق ويضعفه ، وما للسالك مع الهالك .

وكان يقول لا يتعذر عليك أيها المريد العمل بما أمرك به أستاذك إلا لعدم كمال قبولك لذلك ، ونقص استعدادك ، وإنما كلمك أستاذك بذلك ليرقى همتك إلى ما هو أرقى مما أنت فيه .

وكان يقول : لا تطالب أستاذك بشيء ولا بالجواب عن شيء سألته فيه ، وليس ذلك من شأن المريد الصادق مع شيخه .

وكان يقول : مهما رأيتـــه من شيخك من كمال أو نقص فهو صنعة باطنك ، ولشيخك فى نفسه مقام آخر فوق ذلك فإياك أن تظن نقصاناً بأهل الكمال فتقول « وعصى آدم ربه » بل اعرف أن ذلك إنما كان تعليما لك كيف تتدارى إذا وقعت فى الذنب ، وتغيرت أحوالك ، بالكدورة بعد الصفاء .

وكان يقول : من شأن المريد الصادق أن يكون أصدق الناس إلى امتثال أمر شيخه ، فإن كان لم يبادر إلى امتثال أمر شيخه فهو دليل على عدم صدقه ، وصدقه على قدر تخلقه فى الأوائل أو الأواخر ، ومن هنا كان الإمام أبو بكر أسبق إلى تصديق رسول الله صلى الله عليه وسلم من سائر قريش ، لكونه كان أضعف قريش رابطة فيما كانوا عليه مما تضاد طريق الهدى وأقواهم رابطة فيما يقرب من طريق الهدى .

وكان يقول : من أحب من المريدين أن يكون فى حفظ رب العالمين فليخدم شيخه بصدق ، ويبادر إلى طاعته ، ولا يخالفه فيما يشيره عليه ، قال تعالى : « ولسليمان الريح عاصفة تجرى بأمره إلى الأرض التى باركنا فيها وكنا بكل شيء عالمين ، ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملا

دون ذلك وكنا لهم حافظين ، فانظر كيف حفظ الله الشياطين لما كانوا في خدمة أوليائه الصادقين وتحت طاعتهم .

وكان يقول : ما دام المريد تحت حكم أستاذه فترقيه دائم ، فإن خرج عن حكمه ولو اعتماداً على ما حصله منه قبل ذلك من الأقوال والأفعال هلك مع الهالكين كمثل الحجر المرفوع إلى نحو السماء تراه يرتفع ما دامت القوة الرافعة تمده وتصاحبه ، ومتى فترت عليه القوة الرافعة انحط إلى الأرض . والقوة هي نظر أستاذك إليك فافهم تغنم .

وكان سيدي أبو الحسن الشاذلي رحمه الله يربي أولاده بالنظر من غير كلام .

ويقول : إن السلحفاة تربي أولادها بالنظر وكل من توارى عليها من أولادها هلك ، فنحن أولى بذلك من السلحفاة .

ومن شأنه أن لا يقنع بمجرد اعتقاده في الشيخ ، ويتساهل فيما يأمره فيه ، أو ينهاه عنه .

ويقول : نظر سيدي يكفيني ، فإن ذلك جهل بالطريق .

وقد قال بعض الصحابة لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أسألك مرافقتك في الجنة فقال له صلى الله عليه وسلم : « أعني على نفسك بكثرة السجود » فلم يجبه صلى الله عليه وسلم إلى اتكاله عليه دون العمل ، وخرج صلى الله عليه وسلم مرة فقال : « يا فاطمة إنقذي نفسك من النار فإني لا أغني عنك من الله شيئاً » .

وكان سيدي علي بن وفا رحمه الله يقول : لا تطلب من شيخك أن يمنحك الأسرار وأنت لم تتطهر من أعمال الفجار ، فإن من وضع العسل

فى قشور الحنظل تمرّر لمرارة وعائه ، والتبس على الجاهل أن العسل مرّ من أصله .

وكان يقول : المريد الصادق عرش لاستواء رحمانيّة أستاذه عليه ، وقد كتب الله تعالى على نفسه ، أن لا يدخل قلباً دخله سواه ، ولا يظهر لعين رأت غـــيره فى مرآة ، ومعنى دخول الحق القلب ، دخول رضاه ورحمته ، والله أعلم .

ومن شأنه أن يعطى شيخه الأمان من تغيير اعتقاده فيـه ، وذلك بأن يكون محباً لشيخه لا معتقداً فيه ، فإن المحب لا يتغير والمعتقد يتغير إذا تغيرت الصفة التى اعتقده لأجلها ، ولذلك كان الشيخ الكامل لا يعبأ باعتقاد المريد فيه ، ولو بالغ فى الاعتقاد فإن نفس المعتقد إنما تسكت حيث عقلها عقلها النظرى بعقال ظنى مسده من لحى أعراض الأحوال والأعمـال والأقوال والظنون بالتناسخ ، ومعلوم أن الأعراض لا تبقى وكأنك بالعقال وقد انحل أو تمزق ورجع المعقول إلى توحشه وإفساده بخلاف المحبّ ، فإن الشيخ منه فى قرار البحار ، لا يريد إلا ما يريد ، فالمحب قليل ، والمعتقد كثير ، وما قل ونفع ، خـــير مما كثر وألهى ، وكفى باللهو ضرراً .

وكان سيدى على بن وفا يقول : لا يخلو مريد من محبـة شيخه ، ولـكن غالب تلك المحبة لعلة ، والمحبة الصادقة فوق العلل كلها كمحبة الوالدة لولدها .

وكان يقول : إحذر أيها المريد الصادق إذا بعت نفسك لشيخك أن تخفى عنه شيئاً من عيوبك ، فإن البائع إذا بين وصدق بورك له فى بيعه ، وإذا كذب وكتم محقت بركة بيعه ، والمشترى إذا اشترى بعد بيان العيب

لم يبق له أن يرد السلعة ، وإن اشترى من غير بيان كان له الرد ، ومن ثم جاء فى الحديث (من اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه) .

وكان يقول : إجعل نفسك عبداً لله تعالى وكالعبد لشيخك بحكم الواسطة كما جعلت سيدك ونبيك صلى الله عليه وسلم واسطة بينك وبين الله تعالى فإن لسان حال الأستاذ فى كل زمان ينادى على لسان الأفهام ، قال الله تعالى « هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم » وكفى من كان محباً لله ولرسوله وشيخه أن يكون مع من أحب .

وكان يقول أيضاً : لسان حال الأستاذ يقول : لكل مريد صادق تقرب إلى بنوافل امتثال الأوامر حتى أحبك فإذا أحببتك ورأيتك صادقاً فى المحبة ظهرت فيك على قدر استعدادك .

وكان يقول : إن تحقق المريد الصادق بمحبة شيخه كان كله جـــداً وحقاً وإلا فهو باطل وهزل ، فهو بحسب صدقه وكذبه .

ومن شأنه أن لا يرى نفســه يستغنى عن علم شيخه ولو صار من مشايخ الإسلام ، فإن طريق القوم أمر خاص زائد على علوم الظاهر ، ولا يقدر غالب أصحاب العلم الظاهر على إزالة شىء من أمراض الأعمال الباطنة ، وإنما يقولون للسائل عنها : تب إلى الله عنها من غـــير بيان طريق إزالتها بخلاف أصحاب القلوب فإنهم يقولون له : أكثر من ذكر الله عز وجل حتى ينجلى قلبك ، وتذهب رعونات نفسك ، فهناك تدرك الحق والباطل ، وتعرف أنك محجوب عن ربك بسبعين ألف حجاب ، فتطلب حينئذ الشيخ طلباً ضرورياً ليعلمك الآداب الخاصة بالطريق ، وترى نفسك لم تشم من طريق أهل الله تعالى رائحة من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين .

وقد كان الشيخ أبو العباس رحمه الله يقول : ما صحب عالم مشايخ القوم إلا ازداد علمه نوراً إلى نور ، فالعاقل من اتخذ له شيخاً ولم يكتف بما عنده من علم الظاهر ، لأن الشيخ يصل به إلى محل القرب من حضرة الله تعالى ، فيصير يكره المعاصى طبعاً فى تلك الحضرة حتى لو قيل له إعص الله تعالى لا يقدر لارتفاع حجابه .

وقد اتخذ الإمام الغزالى له شيخاً مع كونه كان حجة الإسلام .

وكذلك الشيخ عز الدين بن عبد السلام اتخذ له شيخاً مع كونه لقب بسلطان العلماء ، فغايتك يا أخى فى العلم أن تكون كأحد هذين الشيخين ،

وكان أهل العصر الأول لقلة أمراضهم وعللهم لا يحتاجون إلى شيخ فلما ذهبوا وحدثت الأمراض احتاج الفقيه إلى شيخ ضرورة ، ليسهل عليه طريق العمل بما علم .

الصوفى الحق

فإن حقيقة الصوفى هو عالم عمل بعلمه ، أى على وجه الإخلاص لا غير ، فليس علم التصوف إلا معرفة طريق الوصول إلى العمل بالإخلاص لا غير ، فلو عمل العالم بعلمه على وجه الإخلاص كان هو الصوفى حقاً .

وقد كان سيدى إبراهيم الدسوقى رضى الله عنه يقول : لو أن العالم أتى إلى الصوفية خالصاً من العلل والأمراض لأوصلوه إلى حضرة الله فى لحظة ، ولكنه أتاهم بأمراض وعلل ظاهرة وباطنة من دعوى العلم ، ومحبة

الدنيا وشهواتها ، وباطنه مملوء من الحسد ، والمكر ، والخداع ، والحقد ، والغش وغير ذلك ، فلذلك أمروه بعلاج ذلك ليتطهر منه ، فإنها أخلاق الشياطين .

وقد أوضحنا ذلك فى مقدمة كتابنا المسمى « مشارق الأنوار القدسية فى بيان العهود المحمدية .

ومن شأنه أن يلزم كلياً جمع قلبه على الله تعالى ويترك كلياً تشتيت قلبه عن الله بأن يلزم المأمورات ويترك المنهيات ، فلا يرى إلا فى فعل واجب أو مندوب أو أولى ، ويجتنب الحرام والمكروه وخلاف الأولى وذلك لأن الله عز وجل يرفع الحجاب عنا فى المأمورات ويسدله علينا فى المنهيات ، فلو أردنا أن نحضر بقلوبنا معه فى حرام ، أو مكروه ، أو خلاف الأولى ، لا نقدر ، ولو أردنا أن نحتجب عن شهودنا له فى واجب أو مستحب أو أولى لا نقدر ولا يصح لنا ذلك إلا إن طرأ على المأمور رياء أو عجب ونحو ذلك فإنه حينئـــذ يخرج عن قسم المأمور ، ويصير من قسم المنهى ، فتأمل ذلك فإنه نفيس .

ومن شأنه أن لا يتساهل بهجر شيخه ، فقد قال سيدى محمد وفا رحمه الله : كل مريد هجره أستاذه فلم يتأثر من ذلك ولم يشتق إليه ولم يبادر لتطييب خاطره عليه ، فقد مقته الله ومكر به .

وكان سيدى أبو العباس المرسى رحمه الله يقول : عمدة أحوال المريد صدقه فى محبة أستاذه ، وكل مريد خاف من أحد من الخلق مع وجود أستاذه فهو كاذب فى استناده إليه ، فإن المريد مع شيخه كولد اللبوة فى حجرها ، أفتراها تاركة ولدها لمن يريد اغتياله ، لا والله ،

وكان يقول : لا تطالبوا الشيخ بأن يكون خاطره معكم ، بل طالبوا

أنفسكم بأن يكون الشيخ فى خاطركم ، فعلى مقدار ما يكون عندكم تكونون عنده ، لأن همته مصروفة إلى حضرة الحق تعالى لا إليكم ، فالمريد هو الذى يتعلق بشيخه ، لا أن شيخه يتعلق به .

وكثيراً ما يقع من أصحابى الصادقين أنهم يشهدونى معهم فى البلاد البعيدة كمصر ومكة والمدينة والروم ، ويصيرون يحلفون بالله أنهم رأونى هناك يقظة ومناماً فأعرف بذلك صدق ارتباطهم بى ، فإنى ما علمت أنى رحت إلى تلك البلاد إلا منهم ولو كنت رحت حقيقة لكنت أعلم بذلك ، فمن صدق اعتقادهم تخيلونى عندهم .

وكان سيدى أبو العباس المرسى رحمه الله يقول : لا ينبغى أن يكون بين المريد وأستاذه عورة من حيث الأمراض التى عنده لأن شيخه طبيبه وحال المريد الباطن عورة ، ويجوز كشفها للطبيب لضرورة التداوى ، ولا ينبغى له أن يكلف شيخه بمكاشفته بعيوبه ، لأن الأشياخ منزهون فى كشفهم عن الاطلاع على العورات ، لأنه كشف شيطانى يجب عليهم التوبة منه ، وسؤال الحجاب حتى لا يقع بصرهم على عورة أحد من خلق الله تعالى ، ولولا أن المريد يخبرهم بأحواله الباطنة ما عرفوها منه .

وكان يقول : كل مريد تشوش من أستاذه إذا ناقشه فى أعماله وأحواله فقد جهل وأساء الأدب ونقض العهد ، فإن الواجب فى اصطلاحهم على الشيخ مناقشة المريد ، ومطالبته بحقائق دعاويه ، فإذا بلغ المريد مبلغ الرجال استغنى شيخه عن مطالبته بالبرهان لخروجه حينئذ عن مقام التلبيس .

ورأى مرة مريداً قد زهد فى الدنيا ورأى نفسه بذلك على إخوانه فقال : إسمع يا ولدى إن الذى رأيت نفسك بالزهد فيـــه على إخوانك أصغر قدراً من ذلك لأنه لا يزن عند الله جناح بعوضة ، فكيف تزدرى

المؤمن الذى هو أعظم حرمة من الكعبة بتركه .

وكان يقول إعمل أيها المريد على صحة نسبك من شيخك لتحيط بأنواره ، فلا يدخل حضره إلا وأنت معه .

وكان يقول : احفظ كل ماتسمعه من شيخك ولو لم تفهمه حال السماع فإن قلم قلب شيخك ربما كتب فى قلبك مالا تفهم أنت معناه فى الحال لتفهم معناه فى المستقبل ، فاحتفظ به حتى يجىء أوانه .

وكان يقول : إذا صحّت نسبتك من شيخك كان تأثيره بالأمداد فيك أكثر من تأثير أذكارك وجميع أعمالك .

وكان يقول : قلوب المريدين تحت ظل قلب الأشياخ ، وقد خاب من لم يكن تحت ظل قلب شيخ .

وكان يقول : ما نظر مريد إلى شيخه بعين توقير ووداد إلا كان سالكاً سبيل حق ورشاد .

وكان يقول : عليك أيها المريد بالتقيد بإشارة شيخك ، فلأن تسير قدماً واحداً على أثر قدم شيخك أحسن لك من مائة ألف فرسخ تسيرها بهواك .

وكان يقول : لا ينبغى لمريد أن يفارق شيخه ، ولا خدمته حتى يعاين الطريق ، ذوقاً لا علماً ، فلا يقنع بسمعت ورويت ، وإنما يقول : شهدت ورأيت .

وكان يقول : من أدب المريد مع شيخه أن يرى خدمته مقدمة على خدمة أبيه الطينى المجرد عما يعلّمه له شيخه من الخير ، لأن أباه كدره

وأباه الروحى صفاه ، وأباه الطينى مزجه بالماء والطين ، وأستاذه رقاه إلى أعلى عليين .

وكان يقول : سماعك من شيخك كلمة أدب فى لحظة واحدة أفضل من أدب أبيك لك ومعلمك فى الأدب الظاهر عشرين سنة وذلك لأن العارف يؤدب روحك وغيره يؤدب نفسك ، وإيضاح ذلك أن معلم الروح أعلى من معلم النفس ، وإن كانا حقيقة واحدة عند المحققين ، وأين روح الولى المطهر من الأدناس من روح العاق الملطخ بالأدناس .

ومن شأنه أن يكثر من شكر الله تعالى الذى جمعه على الشيخ ، فإن كل مريد لم يصادق رجلا يربيه خرج من الدنيا وهو متلوث بالذنوب ولو كان على عبادة الثقلين .

وكان سيدى أبو العباس المرسى رحمه الله يقول : لا يصدُق المريد فى محبة شيخه حتى يصير يسمع كلامه من جهاته محيطاً به وليس مراد العارفين بكلامهم للمريد إلا أن يخرجوه من الضيق إلى السعة ، ومن الظلمة إلى النور .

وكان يقول : المريد الصادق لا يطلب من الشيخ أن يقبل عليه كلما أتاه ، فإن الشيخ مشغول بربه عز وجل . وربما يقع له فى بعض الأوقات أنه لا يعرف ولده فضلا عن غيره ، وربما كان فى جملة أهل بلده أو إقليمه فلا يصير له التفات إلى أحد من الخلق ، ولا يلتفت إلا لمن يشاركه فى البلاء ، وأنت أيها المريد ضعيف الحال ، ولو أنك حين شاركته لعذرته حين يذوب جسمك كما يذوب الرصاص على النار .

ومن شأنه أن لا يتعب شيخه فى تربيته بأن يكون سميعاً مطيعاً لكل ما يشير به عليه .

وقد كان الشيخ أبو العباس المرسى رحمه الله يقول : ليس المريد من يفتخر بشيخه ، وإنما المريد من يفتخر شيخه به .

وكان يقول : متى لم يكن المريد يعتقـــد فى شيخه الاعتقاد التام ؟ وإلا لم يفلح على يديه بل تنعكس ظلمة باطنه عليه فيظن أن صفاته هو هى صفات شيخه فلا يهذبه بأخلاقه ولا يؤدبه بإطراقه ولا ينور باطنه بإشراقه .

وكان يقول : كل من لم يصبر على صحبة شيخه ابتلاه الله بخدمة النساء وموت القلب . ؟

وكان الشيخ أبو الحجاج الأقصرى رضى الله عنه يقول : من صدق فى الإرادة مع الشيخ لا يحتـاج إلى الاجتماع بجسمه بل يكفيه التوجه إليه بالقلب لأن صور صحة المعتقدات إذا ظهرت لا تحتاج إلى صور الأشخاص ولـكن إن حصل للمريد الجمع بين الصورتين فهو أكمل .

وكان يقول : من شرط المريد أن لا يصحب شيخه بنفس ولا ملك ولا اختيار ، بل يرى نفسه ملـكاً لشيخه يتصرف فيها كيف يشاء ، وكل من طلب الوصول إلى مقامات الرجال بغير محبة شيخ ومخالفة نفس فقد أخطأ الطريق .

وكان يقول : من خدم شيخه بلا أدب جره ذلك إلى العطب ، ومن خدمه بالأدب فقد حاز عز الدارين وحصل الأرب .

وكان يقول كثيراً : لا ينال المريد الصادق درجة الرجال حتى يبذل الروح ويفنى إرادته تحت مراد شيخه ، ثم ينشد :

ولو قيل لى ُمتْ متُّ سمعاً وطاعة   وقلت لداعى الموت أهلا ومرحباً

وكان يقول : من علامة شقاء المريد : أن يُرزق صحبـــة الشيوخ ولا يحترمهم .

وكان أبو بكر الوراق رحمه الله يقول : كل مريد لا تغنيه رؤية شيخه عن الطعام والشراب أسبوعاً فليس بصادق .

وكان يقول : كل مريد لا ينتفع بأفعال شيخه لا ينتفع بأقواله .

وكان يقول : كل مريد اشتغل بخدمة شيخه ترقى إلى حسن خدمة الله عز وجل ، ومتى فرط فى خدمة شيخه حرم حسن معاملة الحق تعالى فعليكم أيها المريدون بخدمة الأشياخ ، فإنهم كالصياد الذى يصطاد المريدين من أفواه الشياطين ، وكل من بلعه الشيطان فى بطنه شقى إلى الأبد .

وكان يقول : إذا أمرك شيخك بالخلوة فاسمع ولا تطالبه بدليل على ذلك ، وتقول إنما اختلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غار حراء قبل نزول الوحى عليه فلما نزل الوحى عليه لم يبلغنا أنه اختلى ، وقد وجدنا نحن بحمد الله الوحى « من قران وسنة » وما بقى إلا العمل بهما ، فأى فائدة للخلوة ؟ بل اسمع لشيخك فإنه إنما يريد بخلوتك تقوية استعدادك وتهيئته العمل بالكتاب والسنة ، حتى تتلطف كثافتك بالرياضة ، فتصير تفهم أسرار الشرع وترسخ فى مقام الايمان ، فلا يفتنك الشيطان ، لا فى الحياة ، ولا عنـــد الموت ، فالخلوة مرتب عليها العمل بثمرة الوحى وظهور نور الله عز وجل ، وإنما كانت أربعين يوماً لأن مدة الدرّ فى صدفه كذلك ، وكذلك هى عدد أيام توبة نبى الله تعالى داود ، وفيها يكون نتاج النطفة علقة ، ثم مضغة ، ثم صورة .

وكان يقول : عليك أيها المريد بصحبة الشيخ صاحب الحال ، فإن لم

تجـــده فعليك بصاحب المقال ، قال تعالى « فإن لم يصبها وابل فطلّ » وإياك وصحبة من لا حال له ولا مقال .

وسمعت سيدى محمد الشناوى رحمه الله يقول : لا يكمل الفقير إلا إن كان ذا مال وحال ، وقال : من لم يطعه بحاله أو مقاله أطاعه بماله .

وسمعته يقول : أهل العراق حال بلا قال ، وأهل الشام قال بلا حال ، وغالب مشايخ مصر لا حال ولا قال ، فلا تصحب أحداً منهم إلا بعد تفتيش .

وكان أبو محمد الكتانى رحمه الله يقول : إذا مات شيخ الإنسان ولم يجد بعده إلا من هو دون شيخه فى الدرجة ، بحيث لا يكفيه فى طريق سلوكه ، فلا ينبغى له أن يخدمه بل يخدم الله تعالى ، فإنه أولى به .

وكان يقول : ما ثقل مريد على قلب شيخ إلا لعلة بالمريد أخفاها عن الشيخ .

وكان يقول : حضرة الشيوخ صباغة ، فكل من دخل عليهم بشىء من إنكار أو اعتقاد خرج مصبغاً به .

وكان يقول : من الشيوخ من ينتفع به مريده الصادق بعـــد موته أكثر من انتفاعه به حال حياته ، وبعضهم سمع نطق شيخه من قبره ، يأمره وينهاه كأنه يقول : صحبة الشيخ الذى يتنزل لمقام المريد هى النافعة ، فان من لا يتنزل لمريده لا يقدر مريده يسير وراه .

وكان يقول إياك أن تفشى أسرار شيخك ، فى تقريره لكلام القوم لمن لا يؤمن به ولا ذوق له فى الطريق ، فربما مقتك الشيخ بسبب ذلك فلم تفلح بعدها .

وسمعت ورأيت خلقاً من هؤلاء كثيراً فشوا أسرار أشياخهم وشنوا الغارة بتحريفهم كلام شيخهم عن مواضعه وبعضهم قتل ، وقد أخفى رسول الله صلى الله عليه وسلم قراءة القرآن مدة بحضرة من لا يؤمن به حتى قوى الإسلام وأسلم عمر بن الخطاب وغيره .

وسمعت سيدى علياً المرصفى رحمه الله يقول : إياك أيها المريد أن تفشى أسرار شيخك بين إخوانك من أصحابه ، فربما نقضوا عهد شيخهم واجتمعوا بأعدائه وبمن لا يؤمن بكلامه ، وشنوا عليه الغارة ، وصاروا يقولون : ما سمعنا ذلك إلا من أخص أصحابه .

فإياك يا أخى وعثرات اللسان بإظهار عثرات شيخك ، فربما تغيرت أحوال من أفشيتَ سر شيخك لهم ، وجعلوا ما سمعوه منك سلاحاً لوقت العداوة ، فكيف بعثرات اللسان عند من ليس هو من أهل طريقك ؟ ؟

قال : وقد أصيب من هذا الباب خلق كثير لثقتهم بأصدقائهم ، فالعاقل من صحب شيخه كما يصحب الملوك ، وقد أنشدوا فى ذلك :

إذا صحبت الملوك فالبس　　من التوقى أجلَّ ملبس
وادخل إذا دخلت أعمى　　واخرج إذا خرجت أخرس

وقد كان أبو القاسم الجنيد رحمه الله إذا طلب أحد منه الصحبة يقول له : اذهب فاخدم الملوك ، ثم تعال بعد ذلك نصحبك .

من شأن المريد أن لا يقول لشيخه لم ؟!

ومن شأنه أن لا يقول لشيخه قط لم ، فقد أجمع الأشياخ على أن كل مريد قال لشيخه لم ، لا يفلح فى الطريق .

وكان الشيخ عبد الرحمن الجيلى رضى الله عنه يقول : ربما منع المريد من الزيادة فى المقامات لأجل قوله لشيخه لم ؟ فإنه ذنب عند أهل الطريق ولا يشعر به غيرهم ، فإن الطريق كلها أدب وتأديب ، فمن تأدب من حضرة شيخه ، تأدب مع حضرة الله تعالى ، ومن أساء الأدب مع حضرة شيخه ، أساء الأدب مع حضرة الله تعالى ، ولا يكمل شيخ فى مقام التربية حتى يناقش المريد فى الأدب معه أو مع الله تعالى مناقشة الجليس جليسه ، والصاحب صاحبه ، لأن الأشياخ بوابون حضرات الحق تعالى ، فهم يعلمون كل من أراد دخول حضرة من الحضرات آداب تلك الحضرة رضى الله عنهم أجمعين ، فما نفرت نفسه من مناقشة شيخه إلا من أشقاه الله تعالى .

وكان يقول : لا تجالسوا الشيخ إلا بالأدب ، فقد أساء قوم الأدب مع الشيخ فمقتوا ومحى اسمهم من ديوان أهل الإرادة .

وكان يقول : كل أديب لا يؤدبه الصوفية فليس بأديب .

وكان كثيراً ما يقول : عليك بمناقشة نفسك ، والصبر على مناقشة شيخك لك ، فإنه ما يناقشك إلا فى إزالة ما يمنعك من المواهب ، ويحجبك عن شهود ما فيك من العجائب ، فإنه ما ورد عليك وارد ،

ولا ظهر إلا وهو منك ، ولا جلى عليك أمر إلا وأصله منك ، مثال ذلك : النواة إذا زرعت فكل شيء ورد عليها من ورقها وثمرها كان فيها مودعاً بالقوة ، وكذلك أنت أيها المريد لا يرد عليك شيء خارج عنك ، بل كل وارد عليك كان فيك غيباً ، ثم إنه ظهر لك شهادة لتعرف مقدار ما أنعم الله تعالى به عليك من الطاعات فتشكره ، وما فيك من النقائص فتستغفره ، ووراء ما أشرنا إليه رموز ، ولغوز ، في ضمنها كنوز ، يا سعد من لها يحوز .

محتويات الكتاب

الأنوار القدسية

في معرفة قواعد الصوفية

الأنوار القدسية

فى معرفة قواعد الصوفية

تأليف

الإمام العلامة عبد الوهاب الشعراني

الجزء الثاني والاخير

حققه وقدم له

طه عبد الباقي سرور

مكتبة المعارف
بيروت

١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨ م

بيروت ـ لبنان

يطلب من مكتبة المعـــارف

ص. ب. ١٧٦١ ـ بيروت

بسم الله الرحمن الرحيم

وكان يقول : كل مريد رأى نفسه معرضة عن مواددة الشيخ وإخوانه ، فليعلم أنه قد شرع في الأخذ في طرده عن باب الله عز وجل .

ومن شأنه أن لا يرى أنه كافأ أستاذه أبداً ولو خدمه ألف عام ، وأنفق عليه الألوف من المال ، ومن خطر بباله بعد ذلك أنه قابله بشيء فقد خرج عن الطريق ، ونقض العهد ، فقد كان الشيخ داود ابن باخلا السكندري شيخ سيدي محمد وفا يقول : لا يصح من مريد أن يرى أنه يعترض على شيخه لأن ذلك الأمر الذي استفاده منه لا يقابل بالإعراض .

وكان الشيخ ابو الحسن الشاذلي رضي الله عنه يقول : لا تصحبوا الأشياخ إلا بصدق وإذعان وصبر على جفائهم لكم بغير سبب ظاهر ، ولا تأتوهم إلا بهمة وقادة ، فإنه أسرع في قبول الشيخ لكم ، وما قال شيخ قط لمريد جاء يطلب الطريق ، اصبر يوماً أو يومين أو ساعة إلا لما يراه من فتور همة ذلك المريد وسوء أدبه ، ولو أنه رأى عنده أدباً لبادر لأخذ العهد عليه ، ولم يجز الشيخ ان يقول : قف ساعة لأن ذلك يطفىء نار عزم المريد .

وكان سيدي علي بن وفا رحمه الله يقول : يجب على المريد أن يلتي

حيله وأسبابه ، وكل ما اعتمد عليه من معمولاته بين يدي أستاذه حتى يلتقمها حكمه وحكمته ، فلا يبقى له عمدة على علم ولا عمل دونه ، فلا يرى اعتماده بعد الله إلا على فضل شيخه ، ولا وصول خير له إلا بواسطته ، كل ذلك ليسير به الأستاذ الى حضرة ربه في حال نحو نفسه ليلا ، ويخرجه من مواطن تحكم العدو ، الى مقامات حكم الحق جل وعلا ، وهناك لا تزلزله الزلازل وإن اشتدت .

وكان يقول كثيراً : ملازمة المريد للشيخ قد تكون أفضل من سفر المريد الى مكة ، لأن الأستاذ إنما جعل ليرقى المريد إلى معرفة رب البيت الذي هو أعظم من البيت ، وكيف للمريد أن يترك تعظيم بيت وضعه الحق تعالى لمعرفته وأسراره ، ويشتغل ببيت وضعه الحق تعالى للناس ، فإن حضرة الأستاذ هي من حضرة الحق جل وعلا ، التي احتوت على أسرار أئمة الهدى ، لأنه وارث علم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ومن شأنه ان لا يأتي حضرة أستاذه قط إلا بالصدق ، ولو تكرر اتيانه كل يوم الف مرة .

وقد كان سيدي علي بن وفا يقول : ما جاء مريد الى حضرة أستاذه بالصدق إلا كان من أهله وجاز للشيخ كشف الأسرار له ، وان جاء بغير الصدق كان أمره بالعكس .

وكان يقول : إذا اعتقدت في أستاذك أنه مطلع على جميع احوالك فقد عرضت عليه صحيفتك فقرأها ، فهو إما يشكرك ، وإما يستغفر لك ، فيا سعادة من كان له أستاذ .

وكان يقول : إياك أن تقيس حال أستاذك على حالك ، فتهلك ولا

تشعر ، لأن الشيخ إنما يبكي ويتضرع لأجل أتباعه ، حتى يقتدوا به في ذلك ، وربما بكى وتضرع لله تعالى ليشفع فيهم حتى لا يعاجلهم الحق تعالى بالعذاب لأجل إصرارهم على الذنوب ، فتكون شفاعة غيبيّة فيهم .

وكان يقول : من وجد من شيخه ضيقاً وحرجاً ومشقة ، ووجد نفسه نافرة مما يأمره به أو ينهاه عنه ، فليصبر وجوباً إن لم يصل إلى مقام الرضى وانشراح الصدر ، وليسأل الله تعالى كشف الحجاب حتى يطلعه الحق تعالى على مراد شيخه له من حصول الخير في الدنيا والآخرة ، فإنه لو كشف حجابه لذهب عنه الضيق والحرج جملة ، وبادَرَ هو الى ذلك الأمر .

وتأمل يا أخي لو أمرك انسان بحفر كوم عال لا يستنبط منه ماء كيف يثقل عليك ذلك ، فاذا اخبرك من تثق به ان تحت ذلك التراب كنزاً من ذهب ليس دونه موانع ، كيف يخفّ عليك الحفر ونقل التراب ، ولو مكثت في ذلك شهراً وأكثر . فهكذا الحكم فيما يأمرك به أستاذك ، لا يخلو قط من فائدة ، وانما كتم عنك ثمرة العمل خوفاً عليك ان تعمل لأجل غرض دنيوي أو أخروي ، فيحبط عملك أو يفوت كماله ، فأراد منك ان تعمل لله عز وجل امتثالاً لأمره والله اعلم ، ومن شأنه ان لا يحدّث نفسه بمفارقة استاذه إذا صار علمه ينجلي فيه بديهة ، بل يلازمه أبداً ما عاش فإذا كان من شأنه ذلك مع كونه قد صار كأنه هو فكيف يفارقه ؟ وهو يولد عنده بتعليمه المعلومات كالطفل الذي يرضع من ثدي أمّه فلعله يهلك .

وقد كان سيدي علي بن وفا رحمه الله يقول : إلزم الأستاذ فإنه يُظهِرُ سرّ الربوبية ، فربما أوْحَى إليك ربـــك في حجاب قلب شيخك من طريق الإلهام ، فإن قلبه مظهر سر الربوبية ، فعلى المريـد أن يقف عند أمر أستاذه ولا يتعداه ، ولا يلتفت عن أستاذه يميناً ولا شمالاً ، إذ ليس للمريد من يتوجه بقلبـــه إليه غير الأستاذ ، وليس من مرتبته صحة التوجه إلى الحق تعالى لجهله به إلا أن يكون مضطراً .

وكان يقول : من أرشدك إلى ما به تتخلص من غضب ربك عليك، وتحصـل به في رضوانه فقـد شفع فيك عند ربـك من هـذه الدار ، لكن بشرط أن تطيعه وتقبل منه ما يرشدك إليه ، فإن لم تطعه ولم تقبل منه ما أرشدك إليه ، فلا تنفعك شفاعته فيـك ، قال تعالى : في حق أقوام (فما تنفعهم شفاعة الشافعين فما لهم عن التذكرة معرضين ؟؟)

وكان يقول : روح المريد من روح الشيخ وعقل المستفيد من عقـل المفيد ، وكل من أراد الكمال بغير استاذه وهاديه فقد أخطـأ طريق المقصود ، لأن الثمرة لا تكمل إلا بوجود النواة التي هي أصلها وكذلك المريد لا يكمل إلا بوجود أستاذه ، ومن شأنـه إذا قدم أستاذه عليه أحداً من إخوانه أن يخدمه أدباً مع الاستاذ ، وليحذر أن يحسده فتزل قدم بعد ثبوتها وتذوق السوء ، ولكن إن أراد التقدم على الإخوان فليطع شيخه ويتخلق بالصفـات التي يستحق بها التقدم وهناك يقدمه شيخه كذلك على أقرانه فإن الشيخ حاكم عادل بين المريدين ، وهـذا الأمر قلّ أن ينجو منه مريد .

كيف يحتفظ المريد بمحبة اخوانه له ؟

وكان يقول : من أراد ثبات الإخوان على محبته ، القاصي منهم والداني ، وان يثنوا عليه بكل لسان فليقابلهم بالحلم والغفران ، وليتأمل في قوله تعالى (إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد بعده إنه كان حليماً غفوراً) فأخبرك أنه ليس بعد الحليم الغفور من يمسكهما .

وكان يقول : إذا كان أبو جسمك لا يحلّ لك أن تنتسب إلى غيره ، فكيف بأبي الروح الذي هو شيخك ؟ فإن أبا الروح هو الأب الحقيقي .

وكان يقول : كل شيخ اشتغل بارشادك ومناقشتك اكثر من بقيّة إخوانك فالزمه فانه يريد أن يلحقك بمراتب الرجال .

وكان يقول : من صدّق شيخه في كل ما يقول : فهو رجل ، وإن كان أنثى ، ومن كاذبه فهو أنثى وإن كان ذكراً .

وكان يقول : إذا عرفت أن شيخك يعرف الحق ، وأنه واسطة بينك وبينه فهو وجه الحق الذي يواجهك به ، فالزم طاعته تفز بالعز الدائم ، وكن كأنك من الذين عند ربك لا يستكبرون من عبادته ويسبّحونه وله يسجدون .

وكان يقول : إخدم العارف بالحق تُخدَم ، وإياك أن تخالف شيخك على المشاهدة فتلعن وتطرد ، فإن ابليس لعِن وطرد بتركه السجود لكونه كان في حضرة المعاينة ، وكم ترك غيره السجود والصلاة ، لكن لما كان هذا على جهل وحجاب أمهل ولم يعاجل بالعقوبة ، كما وقع

لإبليس ، فانه عجلت عليه العقوبة ، بإخراجه من حضرة الله الخاصة وإن كان قد حلم عليه من حيث الإمهال ، وتأخير الإهــلاك إلى يوم القيامة .

وكان يقول : لا تقوم لشيخك بجزاء ولو خدمته إلى الأبــد ، فإن فضل مرشدك إلى الله تعالى المفيض عليك من أمداده على نحو من فضل النبي صلى الله عليه وسلم على أمته وإن تفاوت المقام .

وكان يقول : مرشدك الى الحق تعالى هو العين التي ينظر الحق بها اليك، باللطف والرحمة ، وهو وجه الحق الذي يقبل بواسطته عليك ، ويرضى لرضاه ويغضب لغضبه ، فاعرف والزم وانظر ماذا ترى .

وكان يقول : لا تطلب أيها المريد أن تحصر شيخك في سجن قيودك وحدودك ، فانك إن لم تعرف أنه محيط بك فأنت تعرف أنه أكبر منك مقاماً ، وكيف ينحصر لك الاكبر الأوسع في الأصغر الأضيق ؟ فشأن المريد أن يكون تحت طاعة استاذه لا أن يطلب من أستاذه أن يطيعه .

وكان يقول : لا يظفر مريد بأستاذ إلا وذلك المريد مخصوص عند الله تعالى ولولا أنه مخصوص عنده مــا جمعه على من يوصله إلى حضرته فسلّم لشيخك أيهــا المريد تسلم وتغنم .

وكان يقول : أستاذك بالنسبة إليك هو فضل الله عليك ورحمته ، فتحققك به خير من جميع ما استفدته منه (وقل بفضل الله ورحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون) .

وكان يقول : إنما كان أستاذك أعلم بأحوالك منك لأنه حقيقة روحك .

وكان يقول : معرفتك بنفسك على قدر معرفتك بأستاذك .

وكان يقول : ما لم يرتفع عنك حكم المغايرة كلها لأستاذك فأنت بالحقيقة لا شك ضائع ، فارجع الى ربك فاسأله أي فلا تقوم بالأدب مع أستاذك إلا إن رأيت من شدة القرب أنك هو ، وهناك يمدك بامداده . إذ حكم المغاير كحكم الفرع المقطوع من الشجرة ، لا يسري فيه شيء من ماء الشجرة وكأنه يقول : من كان لا يرى من أستاذه إلا وجه بشريته فقد غاب سعيه ولا يزيده ما كشفه له من الحق المبين إلا إعراضاً وتكذيباً ، إذ من شأن البشر عدم انقياده لبعضه بعضاً وكراهته لكل من يرأس عليه فتصده تلك الكراهية عن سماع نصحه وارشاده ولو بالقرآن ما لم تحفه العناية . وإلى ذلك الاشارة بنحو قوله تعالى (واني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً) وذلك لأنهم نظروا اليه من وجه بشريته ولو نظروا إلى وجه روحانيته ، وما أرشدهم به من الوحي والخصوصة ، لربما انقادوا اليه .

قال سيدي علي وفا رحمه الله : ومن ثم لا تجد الاستاذ قط يظهر لقوم إلا من حيث يشهدونه وما دام في طور المماثلة لهم لا يكلمهم إلا بلسانهم ، ولا يعاملهم إلا بكيلهم وميزانهم ، ومن هنا قال صلى الله عليه وسلم : « لا تفضلوني على موسى » ثم إنه بعد زوال حجاب البشرية عنهم قال لخواص أصحابه « أنا سيد ولد آدم ولا فخر » ولو

كان موسى حياً ما وسعه الا اتباعي فقبلوا ذلك منه ببشاشة وتصديق خالص ، ولو أنه قال ذلك لمن بشريته قائمة لتوقف وارتاب ، قال : وهكذا كل وليّ في حال ظهور بشريته للناس لا يقبلون منه اكثر كشوفاته الظاهرة الصادقة فضلا عن غيرها ثم انهم يقبلون ذلك منه اذا رأوه من غير وجه بشريته .

وكان يقول : لما كان الحق تعالى لا يغفر أن يشرك به فكذلك الاشياخ لا يغفرون ان يشرك بهم تخلفاً بنظر مسمى أخلاق الله عز وجل ، فاذا رأيت ايها المريد شيخك يتشوش منك إذا اشركت في محبته شيخاً آخر فإياك أن تسيء به الظن بل أشهد أن ذلك من أخلاق الله عز وجل الذي يقول « لا يغفر أن يشرك به » ظهر على لسانه وليه .

وقد تقدم في الباب الأول إجماع الأشياخ على أنه لا يجوز للمريد أن يتخذ له شيخين وقالوا : كما أنه لا يكون للعالم آلهين ولا للمرأة زوجين ، ولا للرجل قلبين ، كذلك لا يكون للانسان شيخين ، واجمعوا على أن كل مريد رأى أن علم شيخه لا يكفيه فليس له أن يتقيد عليه ، وربما كان أحد الشيخين غير محقق فيأمر المريد بما يوافق هواه لغير حكمة فيهلك ، وبالجملة فلم يقع لأحد قط انه سلك الطريق ، ووصل الى مقامات الرجال بين شيخين أبداً .

وكان يقول : أقل أحوال المريد مع شيخه أن يكون له كالأم تؤثر ولدها بالراحات وتحمل عنه المشقات وتحبه على جميع الحالات وتوافقه في كل ما يهواه ، وتحمله على أحسن المحامل ، ولا تكاد تضيف اليه عيباً

ولا نقصاً والشيخ أحق بتلك المراعاة فانه يهتم بأمر المريد عنـــد ربه أعظم من اهتمام أمه به .

وكان يقول : لا تقسْ نفسك في أحوالك الظاهرة من العبـــادات والمجاهدات على حال شيخك ، فان الشيخ ولو قلّت اعماله الظاهرة فهو بباطنه ، وكل يوم من أيام الأستاذ عنـــد ربه كألف سنة مما يعد المريدون عند ربهم .

لا تعترض على شيخك ايها المريد

وكان يقول : إياك أيها المريد أن تقف مع ظاهر شيخك بل اخرق الى شهود قلبه ، وانظر ما هو فيه ، تعرف مقامه . فكل من نظر إلى ظاهر أستاذه فقط لم يحصل له به ابتهاج ، بل لا تزيده تلك النظرة إلا غفلة واستغراقاً في سوء الظن به ، وبسائر الأشياخ ، وذلك لأنه حجب يورث الحجاب عن رؤية الأحباب ، وربما يقول في نفسه أي فرق بيني وبين شيخي وقد أطعت الله مثله فيتلف بالكلية : ومن شأنه أن يرى كل خير أصابه من الله ببركة استاذه فان نور كل مريد من نور أستاذه .

وكان سيدي علي بن وفا رحمه الله يقول : جميع ما تراه فيك من المدد فهو من فيض استاذك وجميع ما تراه فيه من النقص فهو صفتك ، (ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك) فان رأيت شيخك زنديقاً فأنت زنديق في الغيب الأزلي فأنه مرآة الوجود وان رأيته صديقاً فأنت صديق في علم الله . وأما حقيقة الشيخ فـــلا

يعرفها إلا من أشرف على مقامه ، أو كان أعلى مقاماً منه ، وقد قال : مريد مرة للشيخ أبي يزيد رأيتُ وجهك يا سيدي هذه الليلة وجـه خنزير ، فقال صدقت يا ولدي فانني مرآة الوجود ، فرأيت وجهك فيّ فحسبت انك انا فطهّر نفسك يا ولدي من صفات الخنازير ثم انظر إليّ تجدني غير خنزير .

وكان يقول : صورة الاستاذ الناطق مرآة سر المريد الصادق إذا نظر فيها ببصيرته شهدها على صورته الباطنية ، فأول مبادىء امر المريد حينئذ ان يتجلى له طويته بصفات اهل الصلاح والولاية ، فاذا كشف لبصيرته عن استاذه رأى صورة صلاحه وولايته في صفاء مرآة صورة استاذه ، هو الصالح الولي ، فيستمد من بركاته ملاحظاته المتوالية وهممه العالية ، ثم لا يزال يطلب من استاذه الدعوات المنيفـــة والخواطر الشريفة ، ويتودد اليه تودد المتانس حتى ينفخ اسرافيل في صور العناية صورة قلبه روح التخصيص الآدمي ، فهنالك يشهد استاذه هو آدم الزمان ومالك ازمة الأكوان بحلم الأرث لصاحب ذلـــك المقام ، فيعظمه تعظيم الشاب لأبيه المهابْ الى ان تنفر صورة الادمية بعد رفع الحجـاب عن جمال ما خصه من نفحة الروح المحمدية ، وهناك يشهد أستاذه محمديّ المقام فيكون له خادماً ولا يجعل له في سواه ارباً الى ان تغشى سدرة سره الأنوار الرحمانية ، فينظر الى استاذه فلا يرى الا واحداً يتجلى له في كل مشهد على قدر طاقة الشاهد فيصير عدماً بين يدي وجود ومحواً في حضرة الشهود ، فأول امر هذا المريد توفيق وواسطه تصديق وآخره تحقيق . وبعد التحقيق يكون براية السعادة والله اعلم . ومن شأنـه الصبر تحت مناقشة الشيخ له ، ومخالفته لأغراضه فإن ذلك من اقوى دليـل

على ان الشيخ شم منه رائحة الصدق ، ولو انه لم يكن شم منه ذلك لعامله معاملة الاجانب ، من الملاطفة والترحيب ، كما تقدم تقريره مراراً فليثبت هــذا المريد على مخالفــة الشيخ اهويته عمــلا بإشارة استاذه فإنها طريق لا تكون إلا بعد ان يموت المريد كذا كذا الف موتة ، فان كل مخالفة للهوى موتة ، والاهوية لا تحصر .

وكان سيدي علي بن وفا رحمه الله يقول : من ليس له استاذ فليس له مولى ، ومن ليس له مولى فالشيطان به اولى ، والمراد يكون لا مولى له ، ان الحق تعالى يعامله بتعسير الأرزاق ونحو ذلك ، قال تعالى (وان الكافرين لا مولى لهم) وفي الحديث : فكم من لا مطعم له ولا مئوى ، وليس المراد نفي المولى جملة فان ذلك لا يصح في العالم .

وكان يقول : من وافق استاذه في افعاله طابقــه فيما اخبر به من معارفه ، والعكس بالعكس .

وكان يقول : من كان مع استاذه بــلا إياه كان استاذه معه بالله ، وكل من ظن في استاذه انه لا يعرف اسراره ، فهو بعيد عن حضرته ولو جالسه ليلاً ونهاراً في زاويته .

علامات فلاح المريد

وكان يقول : لفلاح المريد ثلاث علامات — ان يحب شيخه بالايثار ، ويتلقى منه كل ما امره به بالقبول ، ويرافقه في كل امر يرومه .

وكان يقول : من تقرب الى استاذه بالخدم تقرب الحق تعالى الى قلبه بأنواع الكرم .

وكان يقول : من آثر استاذه على نفسه ، كشف الله له عن حضرة قدسه ، ومن نزه حضرة استاذه عن النقائص ، منحه الله بالخصائص ، ومن احتجب عنه استاذه طرفة عين فلا يلومن الا نفسه اذا اوبق بوائق البين ، ولا يصل المريد الى هذا المقام الا ان جعل مراد شيخه مراده.

وكان يقول : من لم يستحل مقارع الاستاذ لم يستحل منه عروس الوداد ، تبًا لمريد جمح بطبعه عن الدليل .. لقد ضل والله عن سوء السبيل .

وكان يقول : إياك ان تصغي لقول حاسد او عدو في حق شيخك فيصدك بذلك عن سبيل الله ، فقد سبقت كلمة الله التي لا تتبدل ، وسنة الله التي لا تتحول ، ان لا ينفخ الحق تعالى ، روح العلم الالهي في مخصوص ، من اهل حضرته الا انقسم الخلق فيه قسمين: ملكي ساجد، وشيطان حاسد ، كما وقع في قصة آدم عليه السلام ، فاحرص ايها المريد على ان تكون لأهل الاختصاص خادماً وخاضعاً إما لتسلم او لتغنم او لترحم ، واياك ان تكون لهم مبغضاً او حاسداً فانك اما

تُسلب واما ترجَم واما تحرم .

وكان يقول : قلب شيخك ايها المريد حضرة الله تعالى وحواسه ابوابها ، فمن تقرب الى حواس شيخه ، بالقرب الشرعية الملائمة له فتحت له ابواب تلك الحضرة ، ومن شأنه ان لا يأتي شيخه قط الا بنيّة ان يهتدي بهديه ، ولا يحصل له ذلك الا بأن يرى نفسه على ضلال وغواية عن طريق اهل الهدى ، وهو مضطر الى كشف تلك الغمة عنه والا فمتى رأى نفسه مستغنية عن تأديب شيخه له فلا يقدر على القيام بواجب هذا الأدب ، ولو كان على عبادة الثقلين .

وكان سيدي علي بن وفا رحمه الله يقول : حكم مدد الاستاذ حكم حبة وضعها في ارض قبول تلميذه ثم سقاها بتفهمه وتأييده فمها ظهر من التلميذ او عنه فهو من ثمرات تلك الحبة وثمراتها ونتائجها ، وان كثرت فانما هي ملك لغارس الحبة في ارض محل استحقاقه فكلما ظهر من التلميذ من رشد وصلاح فانما هو في الحقيقة حق لاستاذه ، فليحذر ان يظن في نفسه انه ظفر بشيء لم يظفر به استاذه ، ومن ظن ذلك بنفسه فهو من أجهل الجاهلين باستاذه ، والله اعلم . ومن شأنه ان لا يبدأ شيخه بالسؤال عن شيء مطلقاً الا لضرورة كأن يسأله عن شيء من الاحكام الشرعية أو عن شيء يأكله هو وعياله في ذلك الوقت بخلاف ما ليس بضروري ، فانه لا ينبغي ان يبتدأ الشيخ بالسؤال عنه بل يصبر حتى يبدأه به شيخه ، وان كان يعتقد في شيخه انه لا يعرف خواطره فبئس ما اعتقد . وقال الخضر لموسى عليهما الصلاة والسلام

(فان اتّبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أُحدث لـك منه ذكرا) وايضاح ذلك ان المريد اذا بدأ شيخه بالسؤال فقد احوجه الى الجواب وفي ذلك ترتب حق له على استاذه يصير يطالبه به بالظاهر أو بالباطن وربما كان الجواب عن ذلك يورث المريد الزهو والعجب على الأخوان ، فان قال قائل : ان الأعراب كانت تبـدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسؤال ويقرهم على ذلك فالجواب ، ان رسول الله صلى الله عليـه وسلم كان مشرعاً بوحي من ربه عز وجل والضرورة داعيـة الى سؤاله عن ذلك ، وكلامنا فيما لا ضرورة اليه ، كما تقدمت الاشارة اليـه ، فلو توقف الناس على عدم بدائته بالسؤال لضاعت اكثر احكامه الشرعية بخلاف الشيخ فإنه يُسأل عن امور قـد تقررت في الشريعة لا يخشى ضياعها وكان آمناً على أصحابه من وقوعهم في العجب بعلمهم او الاخلال بشيء من المأمورات أو اجتناب شيء من المنهيات .

وكان سيدي علي بن وفا رحمه الله يقول : لا تغتر ايها المريد بحلاوة كلام شيخك استاذك الك وتظن انك صرت عنده في أعلى مقام .

كيف يدعو الداعي ؟

وإن من سياسة الداعي إلى الله تعالى أن يؤلف الضعفاء بالكلام الحلو والأحسان وتخفيف الأوامر ثم إذا رسخوا في الطريق فله التحكم فيهم كيف شاء فيزجرهم بمرّ الكلام ويمنعهم عن لذيذ الطعام ومن مجالسته على الدوام وله غير ذلك .

وكان الشيخ أبو الحسن الشاذلي رحمه الله يقول : من أراد الترقي على يد شيخه فلا يدخل عليه قط إلا وهو تارك لمعلوماته الدنية [١] ليدله على المعلومات العلية .. أعني بالعلية دقائق العلوم وبالدنيّة ما كان سهل التناول قريباً من الأفهام ، وإلا فالعلوم ليس فيها شيء دني ، وإنما تخفض العلوم او ترفع بالنية لأنها كلها هي علم رسول الله صلى الله عليه وسلم المشار إليه بقوله : (فعلمت علم الأولين والآخرين) .

وكان يقول : إياك أيها المريد أن تستصغر شيئاً من أعمال شيخك فإن ورد الأولياء الأكابر ، إنما هو اسقاط الهوى ، ، ومحبة المولى ، ورد النفس عن الباطل ، في عموم الأوقات ، للمريدين قدم في مثل ذلك.

وكان يقول : أشياخ الناس في كل زمان ، علماء ، وعبّاد ، وزهاد وعارفون بأدب الشخص مع أمثاله ، فأدبه مع العلماء ألا يحدثهم إلا بالعلوم المنقولة والروايات الصحيحة ، فاما أن يفيدهم واما ان يستفيد منهم ، وذلك غاية الربح معهم . وأدبه مع العبـاد والزهاد أن يرغّبهم

---

(١) القريبة .

في الزهد والعبادة ، ويحلّي لهم ما استمدروه منها . فاذا أقبلوا عليه، فليفتح لهم شيئاً من معرفة طريق العارفين، التي هو فيها ليرفع همتهم عن الاعتماد على أعمالهم واستبعادهم أنهم يدخلون النار . وأدبه مع العارفين ، أن يحفظ لسانه وقلبه ، قياما بواجب حقهم وإن لم يآخذوه هم بذلك .

ومن شأنه أن يلزم الأدب مع شيخه ولا يطلب منه قط كرامة ، ولا وقوع خارقة ولا كشفا ولا غير ذلك فمن طلب من شيخه كرامة ، حتى يتبعه فهو إلى الآن لم يؤمن بكون أستاذه من أهل العلم بطريق أهل الله .

وقد كان الشيخ أبو العباس المرسي رحمه الله يقول : احذر أيها المريد أن تطلب من شيخك كرامة ، حتى تتبعه في أمره لك بالمعروف ونهيه لك عن المنكر ـ فإن ذلك سوء أدب وهو دليل شكّك في دين الاسلام ، لان من دعاك إليه شيخك ، ليس هو شرعه ، وإنما هو شرع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهو تابع لا متبوع . ولولا أن رحمة الله تعالى سبقت غضبه ، لكان كل من خالف أمر داعيه إلى خير ، هلك من وقته .
وكان يقول : إياك أن تظن أيها المريد أن استاذك لا نور له قياساً على حالك أنت فتحرم فوائده ، عقوبة لك ، فلو كشف لك عن نوره لاضاء ما بين السماء والارض.

وكان يقول :

إياك ان تستغرب من شيخك نطقه بالمغيبات فإن القلب إذا انجلى أخبر صاحبه بما مضى وبما هو آت وليس ذلك من الغيب الممنوع منه فإن هذا ما نطق به حتى شهده بنور قلبه فهو عنده من قسم الشهادة لا من قسم الغيب . ثم إن ذلك الغيب لا يكون قط مخالفاً للشرع بين اظهرنا

وانما يكون مؤيداً له فافهم .

وكان يقول كثيراً : إياك ايها المريد ان تستقلّ بمقام شيخك حين ترى المعرضين عن الله تعالى لا يقيمون له وزناً ، فأن الولي في كل عصر لم تزل الناس لا يلقون اليه بالاً ثم اذا مات ندموا على عدم اعتقادهم فيه حين يرون عدم تخلق احد بأخلاقه الشريفة ، ويزول عنهم حجاب الحسد الذي كان منسدلاً عليهم ليقضي الله امراً كان مفعولاً .

وكان يقول : من اين يعرف المعرضون عن حضرة الله اولياء الله حتى يعدوهم وقد قال ابو تراب النخشبي الاولياء كالعرائس المخبأة في خدورها فاياكم والانكار على شيء من احوالهم وأنتم معرضون عن الله فان القلب اذا أعرض عن الله صحبته الوقيعة في أولياء الله ومن وقع فيهم هلك فاياكم ثم اياكم .

وكان الشيخ ابو العباس يقول : اعمل ايها المريد على ان تتحد بشيخك فيكون ما عنده من المعارف عندك على حد سواء ويكون تميزه عليك انما هو بالاضافة لا غير ، قال : وقد قال لي الشيخ ابو الحسن الشاذلي يوماً يا ابا العباس ما صحبتك الا لتكون انت انا وانا انت .

وكان يقول : عليك ايها المريد بالعكوف على أعتاب شيخك ولو طردك فلا تبرح وسارقه في القرب منه فان الاشياخ لا يكرهون احداً من المسلمين لحظ نفس وانما يقع ذلك منهم تأديباً

وكان يقول : لو علم المريد ما انطوى في شيخه من الاسرار لخضع له ولم يستطع البعد عنه لحظة ، ولكان يطوي الطريق البعيدة من شدة عزمه وهمته .

قال الشيخ ابو العباس : ولقد كنت ساكناً بباب البحر من مصر وكنت كل يوم اذهب الى اسكندرية وارجع ضحوة النهار اقرأ على الشيخ أبي الحسن كتاب ختم الاولياء للحكيم الترمذي رحمه الله .

وكان يقول : معرفة المريد بمقام شيخه اصعب من معرفة الله عز وجل فان الله تعالى معروف للخلق بكماله وجلاله وقدرته ولا هكذا المخلوق، ومتى يعرف الانسان علو مقام مخلوق مثله ياكل كما ياكل ويشرب كما يشرب .

وكان يقول : ينبغي للمريد اذا سمع شيئاً من استاذه وخاف نسيانه ان يستودعه الله تعالى فانه لا تضيع عنده الودائع فينبغي فعل ذلك للعالم اذا خاف نسيانه شيئاً من أحكام الشريعة لينفع به الناس .

وكان يقول : ما توقف مريد في فهم كلام شيخه الا لجهله وشدة حجابه فالواجب عليه العمل على جلاء مرآة قلبه ولا يقول لمعلمه أوضح لي الجواب عن ذلك فانه لا فائدة فيه في طريق القوم ، لأنهم لا يقنعون بالعلم وانما يطلبون الذوق بالباطن ليطابقوا بين اللسان والقلب ويخرجوا من صنعة النفاق .

وكان يقول : عليكم بمعانقة الادب مع استاذكم ولو باسطكم فان قلوب الاولياء كقلوب الملوك تنقلب من الحلم الى الغضب والانتقام في لمحة ، فاذا ضاق ذرع الولي هلك من يؤذيه في الوقت ، واذا اتسع حمل الاذى من الثقلين . ومن شأنه ان لا يقيم ميزان عقله على كلام شيخه حتى لو قال له لا تحضر مجلس فلان العالم او الواعظ فلا ينبغي له حضوره وذلك لان شيخه أمين عليه في كل شيء يرقيه او يوقفه او يؤخره ، وغير شيخه

لم يلتزم ذلك معه فربما علمه ما يضره ويورثه الاعجاب بنفسه ، مثلا فيهلكه ، لا سيما ان كان اعذب لفظاً من شيخه . والنفس من شأنها الخيانة فتفرح بحضور مواضع البحث والجدال ومغالبة الخصوم ولا تقوى على العمل بما تسمع بخلاف مجلس الشيخ فـــان غايته تضييق على المريدين ومناقشة لهم ومخالفة لما تهواه نفوسهم فربما نفرت نفس المريد الضعيف الحال من ذلك .

وكان يقول : للشيخ ان يخرج المريد من ورده الى ورد آخر فاذا نهاه عن ورد بـادر الى امتثال أمره وليس له الاعتراض عليه بباطنه . ويقول ان الورد خير فكيف ينهاني عن فعله فربما رأى الشيخ في ذلك الورد ضرراً على المريد بدخول علة فادحة في الاخلاص مثلا ، ورب عمل جاء الشرع بأفضليته فدخلته النفس فصار مفضولاً ولا يشعر المريد بذلك .

وكان الامام ابو بكر الصديق رضي الله عنه لا يجهر في قراءته بالليل ، وكان عمر رضي الله عنه يجهر فأخبرا بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لابي بكر لمَ لمْ تجهر فقال قد اسمعت من اناجي وقال لعمر لم تجهر فقـــال اوقظ الوسنان واطرد الشيطان فقال صلى الله عليه وسلم لابي بكر ارفع قليلا وقال لعمر اخفض قليلا .. وذلك ليخرجهما عن مرادهما لمراده لانهما كانا في مقام التعليم والتربية لهما .

وكان يقول : اذا سألك استاذك عن شيء من أحوالك الباطنة فأجبه على الفور من غير تفكر فان الشيخ انما يريد ان يعلم مقامك الثابت لك وتفكرك انما تريد به الجواب بما هو أعلى من مقامك فيحصل بذلـــك التلبيس على شيخك وتقع في الغش لنفسك . وكل شيء نطق به الانسان فوراً فهو مقامه الحقيقي واذا نطق القوم ظهرت مراتبهم وقــد وقع ان

مريداً حج بغير اذن سيدي ابي العبــاس المرسي رحمه الله فقال له الشيخ لما رجع كيف كان حجك في هذه السنة ؟ فقال كان المــاء كثيراً والحشيش كثيراً والبقساط كثيراً ، فقال له الشيخ بالله العجب اسألــك عن الحج وكيف كان أدبك فيه مع الله تعــالى فتجيبني بالعلف ! وصار الشيخ يتبسم متعجباً ويقول قد عرفنا مقامك يا أخي .

وكان كثيراً ما يقول : اذا ضحك الشيخ في وجه احدكم فاحذروه ولا تجالسوه الا بالادب فانه قد يكون سيفاً ونقمة في حــال كونه غيثاً ورحمــة .

وكان يقول : لا تفرّط قط في كلام غرسه شيخك في قلبك فربما لم يثمر الا بعد موت الشيخ ، لان زرعهــم لا يخيب ان شاء الله تعالى فاحتفظ يا ولدي على كل كلام تسمعه من الشيخ ، ولو لم تجــد له ثمرة عقيب سماعه والله اعلم . ومن شأنه ان يفتح لأخوانه باب الأدب مــع الشيخ ويغلق عليهم باب سوء الادب معه فــلا يكون مقداماً لأخوانه في سوء الادب مع الشيخ مطلقاً ، وان وقع انه اساء ادبه معه فليبادر وجوباً الى كشف رأسه والتوبيخ لنفسه ليرتدع غيره . ولو تأمل المريد بعين الانصاف لوجد نفسه ظالماً على الشيخ وانه لا يتشوش من المريد الا فعله شيئاً ينقص دينه . ومن اعظم ما يقع فيه المريد من سوء الادب مع الشيخ عدم حضوره مجلس الذكر الذي رتبه للمريدين صباحاً ومساء فــان مدد كل شيخ يكون في ورده ، ومن ترك ورد شيخه حرم مدده ولكن ان كان للمريد عذر في تخلفه عن المجلس فليذكره للشيخ فان ظهر له صدق عذره والا ناقشه وبين له عدم صدقه ليتوب عن مثــل ذلك . ومن علامة صدقه الندم على فوات ذلك المجلس حتي تضيق عليه

الدنيا بما رحبت ، ويترك غداه وعشاه ذلــك اليوم لشدة الاسف ولا يصير له وجهة الى الناس ولا الى ضحك ولا لعب نظيرَ من مات له ذلك اليوم ولد عزيز فلا يزال في تشويش حتى يرضى عنه شيخه ، فاذا رضي عنه الشيخ فذلك عنوان على ان الله تعالى قبل عذره في تركه ذكره ذلك المجلس . واعلم يا أخي انه يتأكد على جيران الشيخ حضور ورده كل يوم وهم اولى بذلــك من الاباعد الذين يسمعون الذكر وهم جالسون في بيوتهم ولا يذكرون الله تعالى لا في بيوتهم ولا في الزاوية . بل الذي ينبغي لجماعة الشيخ وجيرانه ان يكونوا هم الجالبين الناس الى حضور ذكر الله عز وجل ، فانها حضرة الله التي لا يشابهـــا شيء من حضرات اعظم الملوك الدنيا آه آه آه من صحبة من اغفل الله قلبه عن ذكره واتبع هوى نفسه وكان امره فرطاً .

قال سيدي علي المرصفي رحمه الله : ولا ينبغي للمريد ان يتعلل في حضور مجالس الذكر بالاشتغال بالعلم فـان شيخه لو رآه مخلصاً في علمه لمــا قال له اتركه واذكر الله ابداً لأن من كان مخلصاً في علمه فهو جليس الله كالذاكر لله على حد سواء فما امره بحضور مجلس الذكر لمــا رأى عنده من الرياضة وحب الشهوة فاراد له كثرة الذكر لينجلي قلبه ويرفع حجابه فيدرك وقوعه في الرياء والعجب ونحو ذلك فيستغفر منه ويتوب ، وقد كان الامام الشافعي رضي الله عنه يقول : طلب العلم افضل من صلاة النافلة ، قال بعض العارفين ومراده العلم الذي لا يدخله رياء ولا سمعة حتى لا يعارض النصوص التي جاءت في عذاب الذين يراءون بعلمهم .

وكان سيدي يوسف العجمي رحمه الله يقول : ينبغي لكـــل مريد تخلف عن مجلس ذكر بغير عذر او غير ذلك من مجالس الخير ان يوبخ

نفسه بحضرة اخوانه ويقول : مثلا يا فوزكم ، حضرتم المجلس وجالستم ربكم عز وجل ، ويا شقاوتي تخلفت عنه ! فلعل ذلك التوبيخ يكون جابراً لذلك الخلل . ولا ينبغي لمريد ان يسامح نفسه في ترك التوبيخ ابداً لأن في ذلك استهانة بفوات مجالسة الله عز وجل وباعثاً للاخوان على عدم احتفالهم . وفي الحديث : من لم يكثر ذكر الله فقد بريء من الايمان . وفي القرآن في صفة المنافقين ولا يذكرون الله الا قليلا . وبالجملة فمتى كان المتخلف عن حضور مجلس الذكر لو عرض عليه في حضوره ذلك المجلس الف دينار مثلاً لم يتخلف فهو كاذب في تخلفه عن الذكر لضرورة فان ذكر الله تعالى ومجالسته لا يعادلها شيء من الدنيا والآخرة . ولعل اكثر المتعللين بالضرورات لو وعد احدهم بدينار واحد كلما يحضر المجلس لأزال ضروراته كلها قبل وقت المجلس خوفاً على فوات ذلك الدينار ، فلا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم . ومن شأنه انه يمتثل امر شيخه ونهيه اذا قال له لا تمد رجليك الا لضرورة او لا تقرأ القرآن بعوض من الدنيا وان كان ذلك جائزاً بالشرع لان الشيخ انما يأمره بالترقي — وقراءة القرآن بالعوض لا ترقي فيها عند القوم ، وكل مريد فتح ذلك الباب في زاوية شيخه فقد اساء الادب في حق شيخه وحق اخوانه وربما عوقب على ذلك بالامراض التي يصرف فيها اكثر مما جمعه من القرآن . وكذلك من شأن المريد انما يسد في وظيفة كل من غاب من اخوانه في الزاوية بغير معلوم احتساباً لوجه الله عز وجل . قالوا ويحرم على المريد ان يخذل كلمة الشيخ في الزاوية بالباطل ، كأن يريد الشيخ اخراج احد منها لمصلحة فيعارضه بنفسه وباخوانه ويقولون بأي ذنب تخرجه وفي ذلك خراب امر الزاوية ، بل الواجب عليهم ان يشدوا عضده في ذلك ، ثم اذا

حصل له التأديب يشفعون في رجوعه بأذن الشيخ . وسمعت الشيخ سيدي علي المرصفي يقول : من شرط ادب المريد مع الشيخ ان يعـــادي من عاداه ويوالي من والاه فقـد ورد في الحديث الحسن ان الله تعالى يأمر ببعض العباد الى النار فتقول الملائكة يا رب انه كان كثير الصـلاة والصيام والحج ويذكرون شيئاً من القربات فيقول الله عز وجل : قد كان كذلك ولكنه كان لا يوالي من والاني ولا يعادي من عـــاداني فتقول الملائكة سحقاً سحقاً . وكذلك لا ينبغي للمريد ان يفتح بـــاب اللوث لشيخه اذا دخل الزاوية هدية من فاكهة أو غيرها ولم يعطه شيئاً منها ويقول : ان الشيخ قد مسح الخشب على الهدية الفلانية وتخصص بها أو اعطى منها موالح الرقبة الذين يخـاف منهم دون الفقراء اللينين الجانب ونحو ذلك ، بل الواجب عليه حمل الشيخ على أحـن المحامـــل ويقول سيدي ما حرمنا منها الا رحمة بنا ولعلها من وجه شبهة او تحتها حملة فله الفضل الذي منعنا الأكل منها . ثم من الواجب على كبار الزاوية ان يزجروا كل من لاث الشيخ بسبب من الأسباب الدنيوية وان لم يزجروه بغى بعضهم على بعض من باب اولى وعمّهم المقت اجمعين . ومن شأنه ان يعتقد كال شيخه جزماً لينتفي عنه التردد فلو ان جميع اهل مصره مثلاً فهموا شيئاً وفهم اشيـــاخ الطريق شيئـاً وجب على المريد تقديم ما فهمه اشياخ الطريق . وكان الشيخ نجـم الدين الكبرى يقول : طريق القوم هي الصراط المستقيم وهو اجل الطرق واسناها اذ الطرق تشرف بشرف غاياتها وغاية طريق القوم معرفة الحق تعالى والادب معه في جميع ما شرعه على لسان محمد صلى الله عليه وسلم ، فالدال على هذا الطريق سيد الادلاء لانه وارث علم رسول الله صلى الله عليه وسلم وعامل بشريعته

فهو الحقيق بأن يلقب بشيخ الاسلام وبالوارث وبالاستاذ. ومن شأنه ان يسمع اشارة شيخه له بالسكوت اذا كان يقرأ في كلام القوم ، ثم حضر من لا يؤمن به من المحجوبين عنه ، وليس له بعد الاشارة ان يقرأ ويجادل ذالك المحجوب . وقد أجمعوا على انه اذا دخل عليهم منازع في أذواقهم وعلومهم فمن الأدب قطع الكلام لان علومهم كعلوم الانبياء لا تقبل منازعة . وفي الحديث عن النبي لا ينبغي التنازع . ومن شأن القوم ان لا يتعدوا علوم شريعة النبي الصريحة ولا يتدينوا برأي لا يشهد له ظاهر الشريعة كما قال أبو القاسم الجنيد رضي الله عنه : علمنا هذا مشيد بالكتاب والسنة انتهى ، وانما لم يذكر الاجماع والقياس لان الاجماع والقياس انما يثبتان وتقوم دلالتها بموافقتها للكتاب والسنة والله أعلم .

وإيضاح ما ذكرناه من ذم التنازع كما قاله الشيخ نجم الدين الكبري ان علوم القوم خارجة عن تمخض استبداد مدارك العقول من حيث كون العقل ناظرة وباحثة لا من حيث كونها قابلة فهي مبنية على الكشف الموافق للشريعة في باطن الامر ، لان الشريعة المطهرة جاءت كذلك فترى غالب احكامها لا يصل العقل الى ادراك حكمته ببادىء الرأي بل لا بد للشخص من معلم يوقفه على خفايا الحكم والله اعلم . ومن كان يخبر عما يعاين ويشاهد فلا يجوز لاحد ان ينازعه فيما أتى به الا بنص صريح او اجماع وانما عليه التسليم والتصديق ان كان مريداً . واذا كان المريد لا يعتقد صدق ما يقول له الشيخ فتى يفلح .

وقد كان الشبلي رحمه الله يقول : لاينبغي للمريد ان يتكلم الا فيما يشاهده ويعاينه من العلم ، والصمت عليه واجب والفكر عليه مكروه لانه ربما أخرجه عن المقصود فهو غاش ساعٍ في هلاكه مكثّف لحجابه وطرده

عن باب حضرة ربه الخاصة ، قال : والاولى بالشيخ اذا رأي المريد يجنح الى استعمال عقله في النظريات ولا يرجع الى رأي شيخه ان يطرده عن منزله وإلا خيف عليه ان يفسد بقية أصحابه إذ المريد الصادق ليس له نظر الى غير ما يقوله شيخه ابداً والله أعلم .

ومن شأنه إذا سقطت حرمة استاذه من قلبه ان يخبر استاذه بذلك ليداويه من هذ المرض العضال ، أما بطرده عن صحبه ، واما باستعمال ما يزيل عنه الحجب التي طرأت عليه بواسطة وقوعه في معصية او نحوها ، واذا طرده فليكن ذلك بالقلب دون اللفظ إلا بسياسة تامة فان المنكر على الشيخ من أكبر الأعداء وليس له ان يحتمله خوفاً من افساد بقية الفقراء .

واكثر من يقع في هـذا المرض الذين يجالسون الشيخ كثيراً ، ولذلك قالوا لا بد للشيخ من ثلاث مجالس ، مجلس للعامة ومجلس للخاصة ومجلس يعاتبه فيه كل مريد على انفراده ، ثم لا يجالس كل نوع إلا غباً يوماً بعد يومين او بعد أيام ، مصلحة للمريد لا تكبراً وقياماً للناموس الطبيعي . وشرطه في مجلس العامة أن لا يترك أحداً من المريدين يحضر معهم فيه ، ومتى سامحهم في الحضور فقد غشهم ، قالوا ويكون مجلسه للعامة في ذكر ترغيبهم في الصلاة والصوم والصدقة ، وبيان ثمرة ذلك ، ولا يخرج بهم الى ذكر شيء من الأحوال والكرامات ، وما كان عليه الأكابر لأنهم لا يقدرون على المشي عليه . وشرطه في مجلس الخاصة أن لا يخرج عن نتائج الاذكار والخلوات والرياضات ، وبيان الطريق الموصلة الى ذلك . وشرطه مع في مجلس الانفراد مع الواحد من أصحابه زجره وتقريعه وتوبيخه وتصغير أعماله الصالحة في عينه ، ويقول له حالك يا ولدي ناقص عن مقام الصادقين وينبهه على دناءة همته ، فعلم انه لا ينبغي للمريد أن

يطلب من الشيخ أن يأذن له في الجلوس معه كلما أراد، فان الشيخ وان لم يكن عنده أحد من الخلق فهو حاضر بقلبه مع ربه لا يسعه أن يلتفت الى أحد سواه كما قال صلى الله عليـــه وسلم : لي وقت لا يسعني فيه غير ربي فافهم .

وقـد تقدم في الباب انه لا ينبغي المريد أن يكلف الشيخ بالجواب إذا ذكر له واقعة وقعت له أو سؤالاً في معنى أحوال الطريق بـــل يرضى عن الشيخ إذا لم يجبه على ذلك ، ولكن قال الأشيـاخ ينبغي له إذا لم يجبه عن سؤاله أن يعطيه من الأعمال ما يكشف حجابه عما سأل ليرقيه إلى ما هو أعلى وأشرف مما طلبه اذا كان أهلاً لذلك ، فان من سبق علمه منزلتـه ربمـا اكتفى بالعلم وادعى مقـام شيخه من غـــير ذوق والله أعلم .

ومن شأنه ان ينشرح إذا منعه شيخه من الجلوس مع اخوانه او مع تلامذة شيخ آخر فان المضرة بذلك سريعة المريدين ، لا سيا ان كان المريد ضعيف الاعتقاد في شيخه ويخاف عليه التزلزل بل ولو كان ثابتـاً يخاف عليه من الرياء والوقوع في تزكية نفسه عند جماعة ذلك الشيخ ، إذ النفس تشتاق لذكر مناقبها عند من لا يعرفها إلا من يشاء الله . وبالجملة فليس للمريدين الاجتماع ببعضهم بعضاً سواء كانوا جماعة شيخ واحد أو جماعـة شيـــخ آخر فان آفات ذلك كثيرة ، وليس لهم الاجتماع إلا في مجلس الورد أو بحضرة الشيـــخ وكل شيخ سامح مريده في الجلوس في مجالس القيل والقال فقد غشه ، إلا ان يسبق لذلك المريد الشقاوة بأن صار الشيخ ينهاه عن مثل ذلك فلم يسمع ، فحينئذ للشيخ ان يسكت عنه إذا أدّى اجتهاده الى ان السكوت عنه أنفع لدينه من حيث قلة صـــدور

المخالفة منه . أما غيره فعلى الشيخ النصح وعلى المريد السمع ، وقد كثرت خيانة المريدين المشايخ ولم يحصلوا من طريق الارادة سوى الاسم فقط فليوطن الشيخ نفسه على عدم نفع اكثر تلامذته به ، كما درج عليه أكثر الأشياخ ، الماضون ، فربما لقن الشيخ الألف نفس وأكثر فلا يفلح منهم إلا واحد .

وسمعت سيدي علي المرصفي رحمه الله يقول : ليحذر الشيخ في هذا الزمان من غالب المريدين أشد الحذر فان أكثرهم غير صادق ويفارقون شيخهم ولو على طول ويجتمعون بأعدائه ثم يصيرون ويقعون فيه عندهم ويقولون لمن قال لهم كيف فارقتم شيخكم ما كل ما يعلم يقال ولو وجدناه على شيء ما فارقناه فيزكون نفوسهم ويجرحون شيخهم ، قال : وما حدثنا إلا بما رأيناه وقع من بعض أصحابنا والنصح من الايمان قلت : وايضاح ذلك ان جميع بني آدم تحت أسر القدرة الالهية فيتغيرون مع الانفاس وما خرج عن ذلك إلا المعصوم ، فالعاقل من لم يعول على أحد لان ذلك الاحد لايقدر على حفظ نفسه من التغيير بل تتغير قهراً عليه والله أعلم .

ومن شأنه ان يصحب الشيخ للتربية فقط دون علة أخرى من أكل وشرب ووظيفة ونحو ذلك . ومن دخل في صحبة شيخ بعلة من هذه العلل أو غيرها لا يفلح أبداً ما دامت تلك العلة فيه ، واذا تفرس الشيخ من المريد أنه أشرك في صحبته للتربية علة أخرى من أكل أو غيره وجب عليه ان يخرجه عن ذلك ويأمره بالأكل من عمل يده وكثرة الذكر منفرداً حتى يربي له يقيناً ، فان تربية اليقين للمريد مقدمة على

الاشتغال مع الجماعة بالذكر وغيره ، ومن هنا عدم اكثر المجاورين عند الشيخ الانتفاع بالشيخ لكونهم عبيد بطونهم .

وكان الشيخ محيي الدين بن العربي رحمه الله يقول : من المحال ان يتربى للمريد يقين مع كون الشيخ ينفق عليه ويهيء له ما يأكل ويلبس وكل مريد تفرس الشيخ فيه الميل الى ذلك وجب في اصطلاحهم على الشيخ أن يخرجه ويأمره بالجلوس في الخرابات والمواضع التي يقل مرور الناس فيها ولا يعرفه فيها أحد ، وكل موضع عرفوه فيه يتحول منه ويقول له : عليك بالتجريد والاشتغال بالله تعالى على الصفاء . وليمده الشيخ بالهمة فان فقدها فبالسياسة ، واذا جلس المريد في موضع لا يمر فيه أحد وجاع فلا بد أن الله تعالى يفتح عليه اما بالصبر واليقين وإما بشيء يأكله حتى يفاجيه اليقين الكامل فاذا فاجأه اليقين الكامل وعرف الشيخ منه أنه تساوى عنده الجلوس في الزاوية والجلوس في البرية على حد سواء فهناك يصلح ان يجلس عنده في الزاوية والله أعلم . ومن شأنه ان يلزم الادب مع شيخه ولا يتجسس له قط على حال ولا حركة ولا سكون ولا يتعشق الى ذلك ولا يقف له على نوم ولا طعام ولا شراب ولا غسل من جنابة ، وكل مريد تجسس على مثل ذلك حصل له المقت لان غالب المريدين ضعفاء الحال . واذا اطلع على شيء ربما نقصت حرمة شيخه في قلبه لجهله باحوال الكمل ومعرفة مشاهدهم . قالوا وليس للشيخ ان يسامح المريد في تجسسه على حاله بل الواجب عليه اصطلاحا هجره وزجره مصلحة له . وقد قالوا : خصلتان اذا فعلهما المريد اتلف كل شيء رباه له الشيخ وهما كثرة الاكل والاطلاع على نوم الشيخ او أكله او جماعه فليحذر المريد الصادق من مثل ذلك . ومن شأنه ان يزيد في

الاعتقاد في شيخه كلما استتر بين الناس فان الصادقين هكذا يكونون كلما طال عمرهم ازدادوا خفاء . وقد قال الرازي رحمه الله : قد جرت سنة الله تعالى في الكمّـــل من أوليائه ان يسترهم عن من ليس من اضرابهم حتى لا يكاد يعرفهم احد من أهل الظاهر . وفي الحديث ان الله تعـــالى يقول ان أوليائي تحت قبابي لا يعرفهم غيري قلت يحتمل ان يعرف حقيقتهم غيره تعالى او لا يعرفهم قبل كونهم اوليـــاء بالفعل غيره او لا يعرفهم بعد كونهم تحت قبابه غيره ويحتمل غير ذلك والله تعالى اعلم . قال وسبب اختفاء الكمل من الواصلين قلة صدق الطالبين فان غالب المريدين صار طلبهم للطريق مخلوطاً بالحظوظ النفسانية وأهواء المضلة عن سواء السبيل لا سيما وقد ظهر أقوام كثير ادعوا معرفة الطريق وليسوا باهل لذلك فقاس الناس الصادقين على غير الصادقين ، وراج أمرُ الكذابين عند الامراء والاكابر وتعطل أمر العارفين وصار جلاس الكاذبين يرجح على جلاس الصادقين ، وصرت تقول لغالب الناس فلان من أولياء الله عز وجل فلا يصدقك ويقول كل هؤلاء مصابون مراءون .

ومن ثم قال الرازي رحمه الله : يجب على المريد الصادق ان لا يبادر لصحبة كل أحد بل يتمهل ويتربص وينظر في أحوال مشايخ بلده فكل من رآه زاهداً في الدنيا يحب الخمول ويكره الشهرة وأعمـــاله موافقة للكتاب والسنة لا يكاد يجـــد كاتب الشمال شيئاً يكتبه عليه وأوقاته محفوظة عن الضياع لا تجده إلا في عمل مشروع ، فمثل هذا يجب على المريد ان يتلمذ له ويعكف على خدمته ، لا سيما ان يشهد له بالصدق فقراء عصره وكان جالساً باذن من شيخ صادق والله أعلم . ومن شأنه

ان لا يقنع في طريق فقره بالآباء والجدود كما عليه اولاد غالب المشايخ بل يجب عليه ان يتخذ له شيخاً يربيه فليست المشيخة بالارث انما هي بالجد والاجتهاد .

وكان الرازي رحمه الله يقول : لا ينبغي للشيخ ان يبادر لأخذ العهد على اولاد المشايخ المتشيخين بالآباء والجدود إلا بعد امتحانهم في الصدق في طلب الطريق ودخولهم تحت أمره ونهيه فان غالبهم يرى نفسه افضل من جميع المشايخ الظاهرين في عصره ممن ليس له سلف في المشيخة بل سمعت بعضهم يقول أنا لا أعتقد في أحد الا ان كان أبوه في تابوت ، فبلغ ذلك القول الى شيخ ليس أبوه في تابوت فعمل لابيه ستراً وتابوتاً وهذا كله من خفة العقل . قال الرازي : وقد أخذت العهد على جماعة من اولاد المشايخ القانعين بالزي من غير علم ولا عمل فما نتج منهم احد وعلمت ان التعب معهم ضائع لا سيما اولاد شيخ الانسان فان نفوسهم لا تكاد تنكبس ان يأخذوا الادب عن أحد من مريدي والدهم ابداً ولو بلغ في الطريق اقصى الغــــاية ويقولون ان هذا لم يكتسب الصلاح الا من والدنا ونحن الاصل فاياك يا أخي ان تطلب ان مثل هؤلاء يتلمذون لك وتصير تتحكم فيهم كغيرهم فان ذلك بعيد جداً ، ولكن ان اردت ان تنصحهم فانصحهم على اســــان والدهم من طريق بعيدة فتقول بلغني ان والدكم كان من خلقه كذا وكذا وانه كان ينصحني بكذا وكذا وتقدر صفاتهم الخبيثة وتضيفها لنفسك قلت وقد حمى الله تعالى من ذلك اولاد شيخي الشيخ محمد الشناوي فكان ولده الشيخ عبــد القدوس يحبني اشد المحبة وينقاد لي اشد الانقياد وكذلك ولده الشيخ عبد القدوس الذي هو في زماننا هذا فالله تعالى ينفعنا ببركاتهم فانهم كادوا ان يتجاوزوا مقام

شيخهم سلفهم في الاخلاق المحمدية رضي الله عنهم . قال الرازي وقد جلس جماعة في عصرنا من غير اذن من أشياخهم وصاروا يأخذون العهد على المريدين من غير علم بالطريق فأفسدوا أكثر مما اصلحوا وكان عليهم اثم قطاع الطريق اي طريق القوم وربما كان أعظم من اثم قطاع الطريق عرفاً في بعض الاحوال واحدهم شيطان في زي انسان انتهى . وكان سيدي احمد الزاهد رحمه الله يقول : لا ينبغي ان يسمّى كلا من فقراء القلندرية والحيدرية والملامتية على الاطلاق فقراء اي وليا او صوفيا فقيراً لان اكثرهم خارج عن الشريعة ، قال وكذلك الحكم في أكثر فقراء الاحمدية والرفاعية والبسطامية والادهمية والمسلمية والدسوقية فان افعالهم يكذبها طريق اشياخهم التي كانوا عليها من الصدق والزهد والكرامات والخوارق والتقيد على ظاهر الكتاب والسنة فلا يؤمر مريد بالادب مع هؤلاء بل الأولى له هجر مجالسهم . قال والضابط الذي يعرف به الصادق من غيره ان كل من رأيناه متقيداً بظاهر الكتاب والسنة متأدباً بآداب اهل الطريق على وفق سير المشايخ المنقولة في مثل رسالة القشيري والحلية لأبي نعيم فهو صادق في دعواه المشيخة فيجب علينا التأدب معه كما سيأتي ايضاحه آخر هذا الباب ان شاء الله تعالى . ومن شأنه ان يزداد تعظيماً لشيخه على ممر الايام وذلك دليل على سرعة نتاجه في الطريق وسرعة ادراكه فانه على قدر ما يسقط عنه من حرمة شيخه يطول زمن فتحه .

وسمعت سيدي علي المرصفي رحمه الله يقول : احذروا من مكر الأشياخ بكم فربما طردوكم بالقلب حين لم يتفرسوا فيكم خيراً وربما مزحوا معكم مزاحاً خارجاً عن مزح أهل الطريق فأزالوا حرمتهم من قلوبكم ففارقتموهم وانتم غير معتقدين فيهم . ومن هنا أجمعوا على أنه ليس لمريد

ان يصحب إلا من سكنت عظمته في قلبه وأمن من التزلزل فان السلامة مقدمة على الغنيمة .

وكان سيدي علي المرصفي رحمه الله يقول : حكم المريد قبل اخذ العهد عليه حكم الجديد النقرة وحكمه بعد مفارقته الشيخ بزلة من الزلات حكم النصف الزغل فلا أحد يقربه والله أعلم . ومن شأنه ان يعتقد في طريق شيخه انها على الكتاب والسنة قبل ان يدخل في عهده من طريق التفرس والمخالطة وذلك ليأمن الاعتراض عليه ، فان المريد في بداية أمره حاله ضعيف والانكار على طريق شيخه يوحشه ويورثه الشك في صحة طريقه فلا يفلح على يديه .

قلت وكان لي رفقة من طلبة العلم يحبونني فلما تحول عزمي الى طريق القوم جفوني وصرت كأني مرقت من الدين عندهم فقلت ان طريق القوم ليس فيه ما يخالف ظاهر الشرع فلم يصغوا الى قولي ومكثوا ينفرّونني عنها نحو عشر سنين مع اني بحمد الله ما طلبت طريق القوم الا بعد حفظي المنهاج وكتاب الروض والتوضيح والالفية في النحو والالفية في علم الحديث وتلخيص المفتاح وعدة كتب وشرحتها على الأشياخ . وكذلك وقع للامام اليافعي التميمي رضي الله عنه فحكى في كتابه المنهاج انه مكث خمس عشرة سنة في نزاع فخاطر يدعوه الى الاشتغال بالعلم على طريق العلماء وخاطر يدعوه الى الاشتغال بما عليه الصوفية ، قال وكان الفقهاء يأمرونني بموافقتهم ويقولون طريقنا يتضمن طريق غيرنا وطريق غيرنا لا يتضمن طريقنا ، فقلت في نفسي بتوجه تام اللهم بيّن لي أي الطريقين اقرب اليك ، فبينما انا امشي في شارع من شوارع زبيد اذ لقيني شخص من ارباب الاحوال وقال الى متى تشك في طريق القوم ، اسلك

منها فانها أقرب الطرق الى الله تعالى ، قال فقلت له : اريد البيان ، فقال نعم ، فدخل زاويته وقال ارسلوا لنا خلف العالم الفلاني ممن لا يرى الشيخ اذ ذاك رد السلام اذا سلم فخرج النقيب اليه فقال الشيخ للجماعة لا احد يرد عليه السلام اذا جاء ولا يقوم له ولا يفسح له فقالوا سمعاً وطاعة . فلما حضر قال السلام عليكم فلم يرد احد عليه السلام فقال حرام عليكم فجلس فلم يفسحوا له فقال خالفتم السنة فقال له الشيخ الفقراء في أنفسهم منك شيء فقال وانا في نفسي منهم أشياء واشار باصابع كفه كلها فقال للشيخ : انظر يا يافعي ما اثمرهُ علم هذا . ثم قال للنقيب ارسل وراء الفقير الفلاني وأمرهم ان لا يردوا عليه السلام ولا يقوموا له ولا يفسحوا له ففعلوا معه ذلـــك فصار يبتسم ويقول استغفر الله تعالى ثم وقف عند النعال وأخذ النعال على رأسه وبكى فلم لتفت أحد إليه فقال له الشيخ الفقراء في نفوسهم منك شيء فقال انا أشهد ان لا اله الا الله وان محمداً رسول الله فقال الشيخ لليافعي انظر ما أثمره صحبة الفقراء . قال يافعي ما قبلت بكليتي من ذلك الوقت على طريق القوم الى ان كان ما كان انتهى .

وقد كان الشيخ عز الدين بن عبـــد السلام من أشد المنكرين على الصوفية في بداية أمره ويقول وهل ثم طريق يتقرب بها الى الله تعالى غير ما بأيدينا من العلم فلما اجتمع بالشيخ ابي الحسن الشاذلي وتلمذ له صار يمدح طريق القوم ويقول ان هؤلاء القوم قعدوا على قواعد الشريعة وقعد غيرهم على الرسوم . قال ومن أصدق دليل على قولي هذا انه لا يقع على يد فقيه قط كرامة ولو بلغ في العلم مـــا بلغ الا ان سلك طريقهم في العمل ، اذ الكرامات فرع المعجزات ، وهي دليل على صدق الاتباع للشريعة انتهى .

فعلم ان طالب العلم لو أخلص في طلبه لهذب العلم اخلاقه واستغنى عن الاجتماع بالصوفية وكان هو الصوفي ولكن لما قنع بحفظ النقل ولم يعتن بالاخلاص احتاج الى صحبة من يهذب أخلاقه .

وقد كان الشيخ ابراهيم الدسوقي رحمه الله يقول : اقبل يا ولدي على طريق القوم فانها هي الطريق التي درج عليها السلف الصالح من الصحابة والتابعين لكن بعد معرفتك ما اوجب الشرع عليك معرفته والله تعالى اعلم . ومن شأنه ان لا يجلس بين يدي شيخه دائماً حتى يفرغ قلبه من خطوط نفسه في جميع معلوماته طالباً للزيادة وذلك ليفرغ عليه الشيخ علماً آخر فوق علمه ، وقد كان المشايخ الذين ادركناهم اذا جاءهم فقير يطلب الطريق يقولون له امسح لوحك وتعال فان اللوح اذا كان مكتوباً لايقبل كتابة أخرى ولو قدر ان احداً كتب على تلك الكتابة فلا يصح قراءة الأولى ولا الثانية .

وأنشد سيدي علي بن وفا في ذلك ابياتاً وهي :

يا طالبي لا يغرك انـــك من الابرار	فحضرتي ما يدخل فيها سوى الاحرار
ان رمت تسمع قولي فرغ لقولي سمعك	من كل ما قال غيري في سائر الادوار
واعزم على تجريدك ودك وهمك يا فلان	فـــان انوار نطقي على التوهم نار
اقضي أجل او طارك ولا ترى أهليتك	واخلع نعل معقولك والقي عصى الاخيار
اضرم جميع اوطارك بنار صدق محبتي	وانس الى نور كشفي ان احرق الاعيار
واسعى مجرد مفارق عن كل شيء تألفه	من باطن او ظاهر مقبل بـــلا ادبار
وان بقا فيك بقية وقفت مع لذاتها	وان فنيت جميعك رأيتني اجهـــار
ان كنت خاطب راغب ادخل على شرط الوفا	واعمل فحوله ورجله واهجم على الاخطار

ولا يردك مانع عن ان تجد هذ المنى ولا تهب شيء دونه وان هابه الشطار
وان وجدت محبة وصدق وجد يجذبك فذاك اذن بأنـــك تبقى مع الحضار

الى آخر ما قال فتأمل يا أخي في هذه الابيات فانها جامعة للادب مع الاشياخ والله اعلم .

ومن شانه بل من الواجب عليه ان يبادر الى مصالحة شيخه اذا غضب عليه وان لم يعلمه بذنبه ، ومن تساهل في عدم المبادرة الى صلح استاذه فهو دليل على خذلانه وربما رجع الى حالة أنقص من الحالة التي كان عليهـا قبل صحبة الشيخ فان كانت مدة صحبته عشر سنين مثلا يرجع الى حالته التي كان عليها قبل سوء الادب الى عشر سنين وكأنـــه في العشر سنين يعمل في غير معمل وقس على ذلك . وقد قالوا من أكل لقمة من حرام لم يعد الى حالته اربعين سنة وغضب الشيخ ربما كان من تلك اللقمة ومتى قال لأستاذه قل لي على ذنبي فقد اساء الادب لانه لا تحجير على الشيخ فيما يفعله مع المريد من الامتحانات التي يختبره بها .

وسمعت سيدي علي المرصفي رحمه الله يقول : من لم يكن شيخه عليه اشد من دخول النار فليس له في الصدق قدم وهو دليل على استحكام الخبث في باطنه واقبح من ذلك غضبه هو على شيخه وطلبه من شيخه يبدأه بالصلح لان في ذلـــك غش المريد واستهزاء بالطريق ومن شأن الطالب لشيء الذل والمطلوب منه ذلك الشيء العز والمريد هو الطالب .

وسمعت سيدي محمد الشناوي رحمه الله يقول : اذا كان العاق لوالده الطيني لا يرفع له الى السماء عمل فكيف بوالده الروحي الذي يريد ان يجعله جليساً للحق جل وعلا لا يمنع من دخول حضرته في ليل ولا نهار انتهى.

وسمعت ولدي عبد الرحمن وهو ابن خمس سنين يقول : المريد الصادق اذا غضب شيخه عليه تكاد روحـــه تزهق منه فلا يأكل ولا يشرب ولا يضحك ولا ينام حتى يرضى عنه شيخه واذا غاب عنه شيخه في سفر أو مرض يعد ذلك من جملة شقائه ثم لا يزال عاكفاً على عتبـــة باب شيخه اذا مرض حتى يخرج فيكون ذلـــك اليوم عنده أعظم من العيد ، والمريد الكاذب بالعكس يفرح اذا غـــاب عنه شيخه خوفاً ان يناقشـــه في أحواله ، قال لي وغالب المجاورين الذين عندك في الزاوية يفرحون اذا غبت عنهم انتهى .

فاعجبني اطلاعهُ على هذه الاحوال مع صغر سنه فأسأل الله ان يجعله من خواص اوليـــائه من فضله وكرمه آمين . ومن شأنه ان يشكي خواطره المستقلة للشيخ دون ما لا يستقر ، لا يهاب الشيخَ في ذلك فانه طبيبُه والطبيب لا يجوز للمريض ان يكتم عنه شيئاً من أوجـاعه التي يتعطل بها عن عبادة ربه ويشوش عليه الحضور مع ربه عز وجل اما الخواطر التي لا تستقر فلا ينبغي له ذكرها لأنها مغفورة وتستغرق العمر كله اذ هي سبعون ألف خاطر في اليوم والليلة عدد الملائكة الذين يدخلون البيت المعمور كل يوم فان جبريل ينزل كل يوم نهراً فيغتسل منه ثم ينتفض فيقطر منه سبعون ألف قطرة فيخلق الله تعالى من كل قطره ملكاً ، هكذا قـــال الشيخ محيي الدين بن العربي في الفتوحات المكية . ثم لا يخفى عليك ايهـــا المريد انه لا ينبغي للشيخ التصريح بالخواطر المذمومة على رؤوس الأشهاد الا ان كانوا كلهم من أهل الصدق ، اما اذا كان هناك اخلاط فلا ينبغي التصريح بشيء من ذلك لما يترتب عليه من الآفات اقلهـا الاستهزاء باهل الطريق واساءة الظن بهم . ودليل

القوم في شكواهم الخواطر لاستاذهم ما رواه البغوي في كتاب المصابيح وصححه بعضهم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : جاء ناس الى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا يا رسول الله اننا نجد في نفوسنا ما يتعاظم احدنا ان يتكلم به فقال صلى الله عليه وسلم او قد وجدتموه ؟ قالوا نعم فقال ذلك صريح الايمان انتهى ، فانه يفهم من هذا الحديث انه ينبغي للمريد الصادق وان علت مرتبته ان لا يتخلف عن مجلس شيخه ولو بعدت داره ليزيده من فضله اذ الشيخ باب رحمة الله المريد لانهم ما جاؤوا الى النبي صلى الله عليه وسلم الا من محل بعيد عن مجلس النبي صلى الله عليه وسلم . ويُستفاد من قول الصحابة رضي الله عنهم في الحديث انا نجد في نفوسنا ان تربيتهم كانت كملت وان سؤالهم انما كان في المعارف الالهية والتجليات الربانية التى يخاف من النطق بها الوقوع في الكفر كما اشار اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله لهم ذاك صريح الايمان ، وان سؤالهم لم يكن في شيء من مبادىء السلوك كاصلاح فرائضهم وسننهم لان ذلك لا يتعاظم في نفس المؤمن السؤال عنه . ويستفاد من الحديث ايضاً ان المريد اذا عرض خاطره المحتمل للخير والشرّ بملأ من الناس يكون بالاشارة والكتابة دون التصريح بحقيقة الامر فانهم اخبروه بطريق الاشارة كما تقرر وانه ما منعهم من التعبير عنه الا التعظيم لله عز وجل . ويستفاد من قوله صلى الله عليه وسلم او قد وجدتموه بهمزة الاستفهام ان للاستاذ ان يسأل مريده عن حاله وان كان يعلمه ويُظهر للمريد انه لم يطلع على خواطره خوفاً ان يخجله ويهتك سريرته عنده . ويستفاد ايضاً من قوله صلى الله عليه وسلم للصحابة ذلك صريح الايمان ان للاستاذ ان يمدح المريد اذا لم يخف عليه الوقوع في عجب او نحوه . ويستفاد من الحديث

ايضاً انه ليس للاستاذ ان يستفصح المريد عن حالة تحقق بها وادركها ذوقاً انما الواجب عليه في الطريق ان يصححها له بالجواب ويقره عليها كما يقره على جميع الافعال القلبية اذا وافقت الشرع ، وانه ليس للمريد ان يكتم عن استاذه شيئاً من الامور التي اشكلت عليه في البـــاطن فقد علمت ان طريق شكوى الخـــواطر طريق صحيح على الكتاب والسنة خلافاً لمن أنكره من الجهلة ، لكن يحتاج الشيخ الذي يزنهـــا للمريد الى الاطلاع على محل تلك الخواطر من حضرات الاسماء الالهية فان الجاهل بتلك الحضرات لا يعرف ميزان تلك الخواطر بل هو يخبُط في ضلال . وقد وضع السيد الشريف سيدي علي بن ميمون شيخ سيدي محمد بن عراق وغيره رسالة في بيان موازين الخواطر فراجعها ان شئت والله اعلم يؤول لافعال شيخه التي ربما يفهم أحد من ظاهرها الفساد على احسن الوجوه فان لم يجد تأويلاً فليسلم للشيخ لانه ربما اطلع الشيخ مريده على امور لا حقيقة لها كما يقع من أهل السيميا لان أبدان الأوليـــاء مرايا ولا يرى المريد في المرآة الا وجه نفسه ، على ان الشيخ لايطلع المريد على شيء ممـــا يخالف الظاهر الا لحكمة كما في قصة الخضر مع موسى عليهما السلام . ولم تزل الاشياخ تمتحن المريدين ليظهروا لذلـــك مرتبتهم لهم او لاخوانهم . وقد روي ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوماً لابي بكر مــــا اصبح لآل محمد قوت في هذا اليوم فأتاه بجميع مـــاله ثم قال لعمر بن الخطاب فأتاه بشطر ماله ثم قال لابي بكر ما تركت لأهلك قال الله ورسوله ثم قال لعمر ما تركت لأهلك يا عمر قال شطر مالي فقال صلى الله عليه وسلم بينكما ما بين كلمتيكما قال عمر رضي الله عنه فمن ذلك اليوم علمت اني لا اسبق ابا بكر بشيء انتهى .

وقد كان سيدي احمد بن الرفاعي يقدم ابا الفتح الواسطي في المحبة على ولده صالح فقالت له امرأته كيف تقدم ابن أخيك على ولدك فقال لم أقدمه وانما الله قدمه ، ثم قال له ولولده اذهبا فائتياني بشيء من النجيل فحش ولده حزمة وجاء أبو الفتح بلا شيء فقال لِمَ لم تأت بشيء من الحشيش فقال وجدته كله يسبح الله تعالى فاستحييت من الله تعالى ان اقطع من يسبحه ، فقال لامرأته انظري حال هذا وحال ابنك فاستغفرت .

ووقع لسيدي يوسف العجمي انه كان يقدم فقيراً على جميع أقرانه فحسدوه على ذلك فامتحنه الشيخ يوماً وقال له اذا رأيت امرأة مزينة في الموضع الفلاني فأدخلها علي فاني رأيت انه مكتوب عليّ اني أنام معها هذه الليلة في الخلوة ثم قال لانسان من أصحابه الذين يحسدون ذلك الفقير اياك ان تخبر بذلك احداً ، فقام معها الى الصباح ثم اغضب ذلك الانسان واخرجه من الزاوية وربطه من بيت الوالي وقال هو كثير الفساد ، فقال ما كثير الفساد الا الذي ينام مع بنات الخطا في الخلوة ثم أتى بجماعة الوالي للشيخ فدخل عليه الخلوة فشهد الفقراء كلهم والجيران من نساء ورجال ان هذه المرأة هي ابنة الشيخ فافتضح ذلك الصاحب ثم قال للفقير كيف توافقني على ادخال امرأة لا تعرفها ، فقال يا سيدي اني لم أخدمك على أنك معصوم وانما خدمتك على انك اعلم مني بطريق الله عز وجل . ووقع له مرة اخرى انه ذبح خروفاً ووضعه في قفة وقال لبعض المريدين يا ولدي اني جري عليّ المقدور وذبحت هذا الشخص فاسترني فيه واحمله وادفنه في الكوم الفلاني وإياك ان تخبر بذلك احداً ثم اغضب ذلك المريد وسبه وقال للنقيب اخرج هذا فانه مفسد فأخرجه فأتاه الوالي وقال انه قتل قتيلا ودفنه في الكوم الفلاني فذهبوا

الى الكوم وحفروا فأخرجوا الخروف المذبوح فافتضح ذلك المريد .

وذكر اليافعي رحمه الله ان بعض الاوليـــاء يقدره الله تعالى على قلب الاعيان التي يصح استحالتها فيجعل العسل قطراناً والقطران عسلاً والخمر حلاوة والحشيش حلاوة فيصير الناس ينكرون عليه وبعضهم أخذ حشيشة ليبلعها فقبض شخص على يده فاذا هي مامونية .

وحكى لي خادم سيدي أبي الخير الكلبياني ان شخصاً أتاه وأخبره انه قال المشبخ ان زوجتي حامل وقـــد اشتهت مامونية حموية ولم اجدها فقال له الشيخ ائتني بوعاء فأتاه به فتغوط له فيها مامونية سخنة فقال الخادم وأكلت منها لعدم اعتقادي انها غائط انتهى .

ومثل هذه الامور مما لا يعارض النصوصَ الشرعية الأولى التسليمُ لأربابها ، لأن الحسّ قد ساعدهم لوجود طعم الحلاوة او القطران او العسل . هذا كله في مواجيد الشيخ . اما اذا أمر المريد بأمر فليس له ان يتناوله على غير ظاهره بل يبادر الى فعله من غير تأويل والله اعلم . ومن شأنه ان يبادر لفعل مـــا يأمره به شيخه ولو لم يعلم له ثمرة كما مضى عليه المريدون الصادقون بخلاف ما عليه اكثر مريدي هذا الزمان ، فيقدم المبادرة الى امتثال أمر زوجته مثلاً على امتثال أمر شيخه ولذلك تخلفوا عن الوصول الى مقامات الرجال ، فحكم احدهم من ربط في عنقه صخرات عظيمة مثقوبة بعدد هفواته وأحكم ربطهـــا في عنقه بحبال وثيقة ، وداعيته الى السير ضعيفة ، وشيخه يسحبُه الى قدام بحبل العنكبوت ، وداعيته الى الشهوات تسحبه الى ورائه بالحبال الوثيقة .

وقد كان الشيخ أبو السعود بن أبي العشائر يقول : المريد الصادق هو

الذي لايتعب شيخه فيه لمـــا عنده من النهضة والعزم والله اعلم . ومن شأنه ان يكون غرضه فانياً في اختيار شيخه فمهـا اختاره شيخه كان هو المراد فليحذر المريد أن يتكدر من شيخه اذا عمل المريد له طعاماً ودعاه فلم يحضره ، او عمل له ثوباً فلم يلبسه ، فـــان مال المريدين مكروه للاشياخ في اصطلاحهم ، الا ان صار المريد يرى نفسه وماله لشيخه ، وعلة كراهة اكل طعام المريد على الشيخ كون ذلك يورثه الادلال على الشيخ ويصير له المنة على الشيخ ولو في باطنه فيحرم المريد الفائدة ويصير يستصغر شيخه ويحتقره لقبوله هديته وأكله من طعامه كما سيأتي بسطه ان شاء الله تعالى في هذا الباب والله اعلم . ومن شأنه ان لا يطيع في شيخه عدواً ولا بجالة فضلاً عن كونه لا يصاحبه إلا لضرورة شرعية ، وايضاح ذلك ان شيخه لا يكون مُسلماً الا لأمر شرعي دعاه الى ذلك ، واذا كانت معاداة الشيخ انما هي بوجه شرعي فينبغي للمريد ان يقلد شيخه في ان ذلـــك العدو يسوغ هجره وكراهته شرعاً يعني كراهة افعاله لا ذاته ، وذلـك كما يقلد الناس المجتهد من غير مطالبته بدليل . وكذلك من أدبه ان لا يباعد لشيخه صديقاً ولا يباغضه ولا يصغي قط لقول من يعترض على شيخه في تصدره لنصح العباد كما يقع فيه طائفة من الجهلة فيقولون عن الشيخ الذي لا ينصح الناس ولا يعظهم ولا يرشدهم ولا يربيهم هـذا هو الشيخ الصالح الذي لم يفتح على نفسه باب مشيخة ، وهذا هو من الجهل المبين فان حقيقة المشيخة ان صاحبها يتصدر لنفع ُالعباد في دينهم وذلك واجب فكيف يمدح من ترك الواجب وعصى الله ورسوله .

وقد أجمع الأشياخ على انه لا يجوز لأحد ان يحمل مشايخ الطريق

على ما يتبادر الى أذهان العامة من طلبهم بالوعظ والارشاد الرياسة على الناس حاشاهم رضي الله عنهم من قصد مثل ذلك فعلم انه ينبغي للشيخ ان يبين قصده الصحيح للناس حتى لا يقعوا في غيبته ، وانه يجب على المريد ان يجيب عن شيخه اذا سمع احداً يعترض عليه الا ان نهـــاه شيخه عن ذلك ، وكذلك يجب عليه ادباً ان يحب كل من احبه شيخه ويبعد عن كل من ابعده شيخه جملة واحدة ، لانه ربما تزلزل اعتقاده في شيخه ككلام المعترضين بسماع والمنقصين ممن هو محجوب عن مشاهدة لم تدخل دائرته كما هو حكم غالب النـاس ، لان غايتهم الوقوف في دائرة الغير لا يكادون يبرحون عنها ودائرة الشيخ تبتدىء من بعد نهاية دائرتهم بكثير فالمعترضون على الشيخ معذورون من وجه في انكارهم عليه لانه فعل شيئاً لا تحكم باباحته دائرتهم غير معذورين من الوجه الآخر ، وهو ان فوق علومهم علوم .

وسمعت سيدي علي المرصفي رضي الله عنه يقول : ليس للمريد ان يجالس من يعترض على شيخه ابداً ، لانه ربمـــا أورث عنده شكاً في حال شيخه بكلامه الجافي وميزانه الجائر .

وسمعته مرة أخرى يقول : من ادل دليل على صحة عدم صدق المريد في محبة شيخه ان يسمح بكره احد من أصحابه . او ينقصه او يكشف له عورة ، فان ذلك يسوء الشيخ .. والمحبّ لا يسوء محبوبه بسوء . ثم ان تنقيص صاحب الشيخ يرجع الى تنقيص الشيخ .

وكان يقول : ليس للمريد أن ينقص احـــداً من اصدقاء شيخه ، ولكن ان أمره الشيخ بالتباعد عن أحد من اصدقائه فلا بأس لانه ربما

اشغل احدهما صاحبه عن ربه عز وجل ، ولا يغتر المريد باقبال شيخه على ذلك الصديق لذي نهاه عن القرب منه لان من شأن الشيخ الاقبال على الناس كلهم محبهم ومبغضهم قبول رحمة وشفقة ونصح ، ولا يقطعه ذلك عن الله بخلاف المريد ، ثم ان جميع مـــا ذكرناه انما هو في حق المريد الذي يخاف عليه التزلزل كمـا أومأنا اليه زيغاً ، لا في حق من لا يخاف عليه ذلك لصحة ارتباطه بشيخه ، وإلا فقد :

حكى الشيخ محيي الدين بن العربي رحمه الله انه عادى شخصاً كان يكره شيخه فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم وصـــار يقول له يا رسول الله وهو يعرض لا يكلمه ، فقـال يا رسول الله ما ذنبي فقال كيف تكره فلاناً لاجل بغضه شيخك اما علمت انه يحبني فلم لا أفنيت بغضه في شيخك في محبته لي ، قال الشيخ محيي الدين فمن ذلك اليوم ما كرهت احداً علمت انه يحب الله ورسوله لاجـل ان شيخي يبغضه والله اعلم .

ومن شأنه ان يحذر من العجلة فلا يبادر لفعل ما امره به شيخه الا ان كان عالماً بشروط صحة ذلـك الامر ، كما انه لا يدخل الى الصلاة الا بعد معرفة شروطها ومعرفة كيفية افعالها كلها ويميز بين فرائضها من سننها كما هو مقرر في كتب الفقة فلا تكون المبادرة الا بعـــد معرفة اركان ذلك الامر وشروطه ، قالو واذا كان ارسله شيخه في حاجة وكان مكانها بعيداً فمن الادب ان لا يطلب له شيئاً يركبه الا ان كان عاجزاً عن المشي اليها عادة ، وكذلك لا يطلب للحاجة محملاً الا اذا عجز عن حملها فان اقل مراتب الادب مع الشيخ ان يكون الحكم معه في ذلك كحاجة نفسه او حاجة زوجته واولاده اذا يكوهـــا عليه

فطلبوها منه ، فان مراعاة خاطر شيخه مقدم على حاجة زوجته وغيرها. وقد رأيت من يمشي على نحو المرحلة في هوى نفسه وفي هوى زوجته. واذا قال له شيخه اذهب الى حاجة هي دون ذلك يطلب له حماراً ، فمثل هذا لا يرجى له فلاح .

وقد كان سيدي محمد السروي يرسل شيخنا الشيخ محمد الشناوي في في الحاجة ماشياً من فارس كوره الى طندتا فيذهب ويجيء بالحاجة ماشياً .

واخبرني الشيخ محمد الصبيخي احد أصحاب سيدي ابي العباس الغمري ان سيدي ابا العباس اهدى اليه انسان قفصاً من دجاج وهو في ناحية نبتيت بالشرقية ، فقال مرادنا احد يوصل ذلك القفص الى دارنا بمصر فتوارى عنه سيدي الشيخ علي بن الجمال فحمل القفص على رأسه من نبتيت الى مصر وهي مسافة بعيدة فبلغ ذلك الشيخ سيدي ابا العباس فتكدر لذلك وقال لم أُرِد الامر على ما فعلت ، مع ان سيدي الشيخ علي هذا كان قد طعن في السن وله تلامذة كثيرة فرضي الله عن أهل المروات ، فليحذر المريد من قوله لشيخه هات لي حماراً اركبه حتى اقضي لك حاجتك الا عند العجز الظاهر والله اعلم .

ومن شأنه ان لا يطأ فرش شيخه برجله اذا كان في طريق حاجته بل يطويه او يرفعه ثم يمشي لحاجته داخل بيت الشيخ او خارجه ، وان اراد ان يطوي رجليه ويمشي على فرش الشيخ بركبتيه فلا بأس ، وكذلك لا ينبغي ان يدخل لشيخه قط خلوة ولا بيتاً الا باذنه الخاص فلا يكفيه اذنه العام ، كإن اذن لجماعة بالدخول فدخل معهم الا ان

يكون نقيباً ويعرف بالقرينة انه يحتاج اليه في مد السماط للداخلين او خدمتهم مثلاً ، فهناك يدخل بلا اذن خاص وليحذر من الاعتراض عليه في امره بتقديم الطعام القليل الذي لا دسم فيه للأمراء وتقديم الطعام الكثير اللذيذ للفقراء ، ويقول هؤلاء يستحقون مثل ذلك ، فان ذلك من سوء الأدب مع الشيخ . وكذلك لا يعترض على الشيخ فيما لو فعل هو ذلك فقدم اللذيذ للامراء والقليل للفقراء وان للشيخ مشهداً صحيحاً في جميع افعاله .

وكذلك اذا رسم الشيخ لاحد بشيء من الطعام او الثياب لا ينبغي له الاعتراض عليه ولو في نفسه . ومن سلك ذلك مع الشيخ فلا بد ان يطرده الشيخ بالقلب ولو على طول لان من شرط النقيب ان يكون كاتماً لسر الشيخ لا يخبر احداً بما فعله الشيخ في داره مطلقاً . وكذلك لا ينبغي للمريد ان يبيت مع شيخه في مكان واحد ابداً كما مرّ تقريره في مبحث ان من ادبه ان لا يقول لشيخه دعني أبيت معك لان الشيخ ربما لم يقم يتهجد بالقيام والركوع والسجود ونحو ذلك من الاعمال الظاهرة تلك الليلة فيصغر في عين المريد فيحرم بركة صحبته له فان ورود الأكابر في الليل انما هي امور قلبية في الغالب من مراقبة ونحوها مما كل ذرة منه ترجح على عبادة المريد ألف سنة. اللهم الا ان يريد منه الشيخ ان يبيت معه فلا بأس لا سيا في الاسفار ايام المطر . وقد قالوا لا ينبغي للمريد ان يبحث عن احوال شيخه في الليل فان ذلك غير مشكور لانه كالعورة ، وايضاً فان الأشياخ في النهار مع الخلق في حوائجهم وفي الليل مع ربهم معية محضة لا يشاركه فيها احد .

قالوا : وينبغي ان يكون موضع جلوس المريد دائماً تجـــاه مجلس الشيخ خلف حجاب بحيث لو طلبه الشيخ وجده اي وقت شاء فـــان حاجة المريد كلها عند شيخه فلا براح له عن بابه دنيا وأخرى .

وقد قالوا : متى غاب المريد عن شيخه ساعة ولم يشتق اليه وادعى المحبة لشيخه فهو كاذب ، فكيف بمن يمكث الايام لا يرى شيخه ولا يشتاق اليه ، فان اقل مراتب الشيخ في الاشتياق اليه ان يكون كالزوجة فيحن اليه كما يحن اليها ، وأين منفعة الشيخ من منفعة الزوجة ، واين من يشغله عن الله مثل من يشغله بالله ، لكن ثم من المريدين الصادقين من يكون سبب بعـــده عن الشيخ الهيبة له مع بقـــاء الشوق والمحبة ، فمثل هذا لا يضره البعـــد لانه لا استهانة فيه بالشيخ والله اعلم .

ومن شأنه انه اذا قدم شيخه عليه احداً من اقرانه من غـير ظهور فضيلة لذلك الشخص فمن الادب التسليم لشيخه ، ولا يقول ولو في نفسه هذا لا يستحق التقديم ، فربما فعل الشيخ ذلك امتحاناً لنفس المريد الذي ادعى التواضع لاخوانه ، وانه صار يرى نفســـه أحقرهم وكأنه تحت نعالهم ، لا بياناً لمقام ذلك الشخص ، فعلم ان من ادب المريد ان يقدم على نفسه حتماً كل شخص قدمه شيخه عليه . وقد تقدم في هذا الباب ان من اراد ان يقدمه شيخه فيسلك طريق الاخوان ويؤثرهم على نفسه ويتحمل بعد ذلك اذاهم ، فان الله تعالى قدمه عليهم ان شاء الله تعالى قال تعالى : وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا . فما فرحوا بالامامة حتى بلغوا مقام التحقيق في الصبر بحيث شهـد لهم تعالى به ، وقـــد قالوا : المريد الصادق يكاد يملك قلب شيخه من كثرة الأدب معه ومع

الاخوان لما هو عليه من المروءة والخدمة ، والمريد الكاذب بالعكس فتنفر منه قلوب الناس اجمعين ، وأجمعوا على ان كل مريد نازع الشيخ في شيء فعله فهو ناقض العهد الذي اخذه عليه سابقاً بالسمع والطاعة ، وكان ... حال هذا الكاذب يقول هذا الشيخ لا يعرف شيئاً وهو مغفل وانا أعرف منه وهو عقوق محبط للعمل عند القوم ، فمثل هذا لا هو مريد الشيخ ولا الشيخ يعده من مريديه والله اعلم .

ومن شأنه ان يزيد في احترام اصحاب شيخه الخاصين به واكرامهم ويبجلهم اكثر من اخوانه في العموم ، وكذلك اولاد شيخه ، واذا لطم ولد الشيخ الصغير وجه احد فيشكوه الى ابيه او وصيه او شيخه ولا يلطموه كما لطمهم أدباً مع الشيخ حتى لو مسك ولده وقال الطموه كما اطمكم ، فليس من الأدب لطمه فانه جزء من الشيخ لا سيما ان كان ولد الشيخ شريفاً لانه جزء من رسول الله ﷺ ، وبالجملة فلا ينبغي له التحكم في ولد شيخه مطلقاً ، بل ان كان والده حياً شكوه له فيحكم فيه بما يرى ، وإلا احتملوه رعاية لأستاذهم والله اعلم .

ومن شأنه ان يتجرد لخدمة شيخه اذا دعاه للسفر معه الى بلاد الريف او غيرها ، ولا يعارضه في السفر ليلاً او نهاراً إلا لضرورة او باذنه ، ويتعفف عن اطعمة الناس الذين يعزمون على شيخه جهده ، ولا يأكل في مدة السفر إلا بقدر الحاجة الشرعية ، فان في ذلك فوائد منها قلة حاجته للبول والغائط واخراج الريح لا سيما في المركب او البلد الذي هو قليل الماء ، او الطريق . ومنها عدم تحمل منة الفلاحين في ذبحهم الجدي او العنز او الاوزة او الدجاجة وعينهم فيها لأنها

كانت تسد عنهم مسداً في امر الظلمة النازلين بالبلد من كاشف او ملتزم والفقير يأكل ذلك ويذهب ليس يحمل شيئاً من همهم . ومنها عدم اللوث بالفقراء من الفلاحين ، وقولهم في المجالس ما رأينا أشره نفساً من جماعة الشيخ الفلاني .

ولا يخفى على المريدين ان الناس اليوم قد صاروا في جمرة من نار المظالم لا تنطفىء إلا بموتهم ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

ثم ان كان المكان الذي ينام فيه الشيخ مخوفاً فمن الادب للنقيب ان يبيت سهراناً على وجه المناوبة وهذا ارفق ، وليحذر المريد اذا رده الشيخ عن دخوله معه دار الضيافة ان يتكدر من ذلك فانه ربما امتحنه بذلك ، وكذلك لا ينبغي له التكدر اذا بلغه ان شيخه شكى منه لبعض اخوانه وقال له فلان شره النفس ، فربما كان قصد الشيخ شخصاً آخر من الفقراء قليل الحياء خاف ان يقول له ذلك فيفجُر على الشيخ في بلاد الفلاحين ويبهدل شيخه فأضاف الشره الى غيره ممن رآه وطي الجانب ويحمل مثل ذلك الكلام فكلمه في حكايته المريد لعلمه بثبوت وده فليكن مالح الرقبة على حذر فانه هو المقصود بالكلام . وكذلك اذا قال الشيخ لمريد في نحو القضية السابقة ما انت حولي إلا لأجل بطنك دون المحبة لي لا ينبغي له ان يتكدر بل ينبغي له ان يشكر الله على ذلك الذي حذره من الأكل من طعام الناس دون اخوانه لأنه لا سيما وطعام الفلاحين غالبه للعلل وامراض اقلها ليصير الشيخ يشفع فيهم عند الكاشف او شيخ العرب او عند استاذهم ، وقلّ فلاح يسلم من مثل ذلك . وكذلك لا ينبغي للمريد ان يتكدر من شيخه اذا مشاه في

السفر وركب غيره بل يفرح لذلك لأن شيخه يريد بذلـــك ان يرقي همته الى استحلاء افعال الحق تعالى معه لمخالفة هواه فان من لم يستحل مقارع الاستاذ لم يظفر منه بالوداد والله اعلم .

ومن شأنه ان يحرص على ان لا يدخل عليه محبة لغير شيخه وغير ممن امر الله تعالى بمحبتهم من الانبياء والاولياء وصالح المؤمنـين ، فان احب ما يكون المريد الى شيخه اذا نظر في قلبه فلم ير فيه محبة لغيره من اقرانه ولا مراعاة لسواه ، ولذلك الحكم في نظـر الحق تعـالى الى قلب عبده اذا نظر اليه فلم يره يراعي غـير ربه ولا يميل الى سواه اصطفاه واجتباه وجعله من خواص اهل حضرته ، فالمريد الصادق عمله دائماً في نظافة قلبه من كل دنس وشبهة لان الحق تعالى غيور ومحـل بلوغ العبد الى مقام محبة الله تعالى له كما ذكرنا ان لا يتأثر ممن يؤذيه وينقصه في المجالس لأن تأثير هـذا يدل على مراعاة الخلق دون الحق فآثر نظر العبيد ورجـح مراعاتهم على نظر الحق تعـالى وذلك ابغض ما يكون عند ربه عز وجل لأنه كما كان الذي لا يراعي في قلبه سواه أحب الناس اليه ، فكذلك يكون من يراعي سواه ابغض الخلق اليـه فافهم ، فالله يجعلنا ممن يراعيه آمين آمين .

ومن شأنه ان لا يشاور شيخه على امر ابتداء إلا ان تقـدم منه الاذن قبل ذلك ، واما اذا كان تقدم منه المنع كأن قال له لا تبتدئني قط بكلام الا ان ابتدأتك أنا بالكلام ، فلا ينبغي له ان يبتدئه ولو ابتدأ لا يلزم الشيخ جوابه ، اذ على المريـد السكون بـين يدي الشيخ دائماً كالميت بين يدي الغاسل ، وربمـا كان في الجواب عن ذلـك الأمر

الذي ابتدأ به الشيخ ضرر به او بالشيخ كأن قال لشيخه : خذني معك الى الحج او المكان الفلاني او دعني اجلس بين يديك كلما بدا لي ونحو ذلك ، وقد درج الأشياخ كلهم على عدم تمكينهم المريد من ابتـــداء الكلام مع الشيخ والله اعلم .

ومن شأنه ان لا يتقدم على شيخه في المشي وغيره بل يكون مشيه تبعاً لشيخه في الظاهر والباطن ، فان تقدم عليه لحاجـة فلا بأس كأن يتقدم ليجس له المخاضة او يكشف له عن حفرة في الطريق في الليالي المظلمة ونحو ذلك فان ذلك من جملة ايثار شيخه عليه بالنفـع دون الضر ، قالوا ولا ينبغي له ان يستدبر شيخـــه ابداً إلا باذن ويكون ذلك مع استشعار المريد الخجل والحيساء حتى كأنه يمشي على الجمر فان شيخه أعظم حرمة من الكعبة ، وقد استحب بعض العلماء للانسان اذا فارقها انه يلتفت اليها بوجهه ويمشي القهقهرى حتى يتوارى عنها بجدار او يبعد جداً .

وسمعت سيدي علي المرصفي رحمه الله يقول : لا يعرف مريد مقام شيخه حقيقة إلا ان اشرف على مقام الكمال ، فهناك يعرف ما يدعوه الشيخ اليه ، اما قبل ذلك فلا يكاد يعرف للشيخ مقامـــاً ومن لازم ذلك سوء الأدب معه ومخالفته دائماً امره غالباً والله اعلم .

ومن شأنه ان يرى نوم شيخه أفضل من عبادته هو لسلامة شيخـــه من العلل والامراض فليس نومه تهاوناً بعبادة ربه وانمـا ذلك لمشاهـده بذوقها ، وتقدم قولنا ان نوم العارفين يسمى ورداً ، فيقال فلان في ورد النوم والورد من لازمه الوارد والوارد من لازمـــه الترقي فافهم .

واعلم يا أخي ان كل من ظنّ ان عبادته افضل من نوم استاذه فقد عقه والعاق لا يرفع له الى السماء عمل . وقد ارسل ذو النون المصري شخصاً الى أبي يزيد يقول له الى متى الدعة والراحة وقد سارت القوافل فأرسل ابو يزيد يقول له ليس الرجل من يسافر مع القافلة وانما الرجل من ينام الى الصباح ويصبح امام القافلة ، فقال ذو النون هذه درجة لم تبلغها احوالنا فكان ذو النون كالمريد لأبي يزيد في هذه المسألة . ويعرف من هذه الحكاية ما حكى الامام احمد كان يمدح الامام الشافعي بين اهله كثيراً ، فاتفق ان الامام الشافعي نام عند احمد ليلة واهل احمد يرقبونه فلم يروه قام ولا صلى فقالوا اين ما كنا نسمعه منك في حق هذا فقال الامام احمد انه استنبط في الليلة هذه الضجعة مائة حُكم من القرآن تنتفع بها الأمة لا تزن صلاتي انا طول الليل حكماً واحداً مما استنبطه ، فاستغفر اولاده وعياله في حق الامام الشافعي رضي الله عنه هكذا درج عليه المريدون مع اشياخهم والله اعلم .

ومن شأنه ان لا يتزوج ابداً امرأة رأى شيخه مائلا الى التزوج بها ولا امرأة طلقها شيخه او مات ، ومما يشهد لذلك ما ورد ان عمر رضي الله عنه عرض ابنته على ابي بكر رضي الله عنه ان يتزوجها قال لما تزوجها رسول الله ﷺ عاتب عمر أبا بكر في ذلك فقال ابو بكر انما منعني من ذلك اني سمعت رسول الله ﷺ يذكرها ، وكذلك مما يشهد لما استشهدنا به ان المهاجرين الأولين طلبوا من سلمان الفارسي ان يؤم بهم فقال سلمان رضي الله عنه كيف أؤم قوماً هدانا الله للاسلام على يدهم وأبى ولم يؤم بهم .

وقد قدمنا ان للوارث من الادب ما للموروث وإنْ تفاوت المقام

الله تعالى عنه فعلم ان في الاحسان الى عيال الشيخ محبة الله له وشيخه وذلك أسرع في الفتح .

واعلم ان جميع ما ذكرناه انما هو في حق مريد يرى ان جميع ما بيده لشيخه فلا ينافي ذلك ما قدمناه في هذا الباب من نهي الشيخ ان يأكل من طعام المريد او يأكل منه هدية ، لان ذلك في حق المريد الذي لم يصدق مع الشيخ وحكمه حكم الاجنبي فافهم والله أعلم .

ومن شأنه ان لا يقيم بصره في وجه الشيخ بل يغض بصره عن رؤيته ما امكنه وذلك لامور يذوقها السالكون لا تسطر في كتاب ، ومن أخلاقه ﷺ انه كان لا يثبت بصره في وجه احد ، وكان اذا رأى الهلال صرف وجهه عنه بسرعة ، قال بعضهم ويحتمل ان ذلك انما هو لكون التجلي الالهي في حديث الرؤية شبه به فافهم .

وكان الشبلي يقول : من أدمن النظر الى وجه شيخه فقد خلع ربقة كمال الحياء من عنقه ، وتقدم في هذا الباب ان الشبلي يقول : سئلت عن لحية الجنيد هل كان شيبها اكثر ؟ فقال لم اخفق النظر اليها قط لاني كنت اكلمه وأنا مطرق رأسي لان المقصود سماع الكلام لا رؤية شخصه .

كان سيدي علي المرصفي رحمه الله يقول : لكن ان ثبت المريد في مقام الادب مع الشيخ ، ولم يلزم من كثرة رؤية وجهه استهانة به بل قصد برؤية وجهه الشفا والتحظ فلا بأس ، كما جوز العلماء حمل آيات من القرآن في التعاويذ ، لان القرآن المقصود بها ان يكون حاملها في بركتها لا الاستهانة بها ترميه والله اعلم .

ومن شأنه ان لا يستعظم شيئاً من احواله ان يذكره للشيخ كالزنا والكبر والعجب والنفاق ومحبة الرياء ونحو ذلك من المعاصي المستقبحة شرعاً ، بل يذكرها كلها له ليعرفها بدوائها كما مر تقريره في مبحث الكلام على الخواطر في هذا الباب . وربما كتم المريد عن شيخه شيئاً من هذه الامراض فاستحكم العارض او احتاج الى ان يتعب في ازالته أشد التعب . وكل مقام يدخله المريد من مناهل الطريق له حلاوة لا يقدر قدرها ، فلولا شيخه يرقبه لأقام فيه حتى مات لا ينتقل عنه اذ الشيخ موضوع لتقرب المريد الطريق وطيها للمريد ، فلو كان لكونه خبر الطريق قبله وعرف منها مناهلها وحفرها ومهالكها ، فلما رأى استحلاء المريد لشيء من احوال الطريق يقول له المطلوب امامك ويبين له علل ذلك الامر الذي وقف معه وانه من حظوظ النفس ، وهناك تطلب نفسه الانتقال عنه لان من شأنها طلب الزيادة ما دامت ترى ان وراء مقامها مقاماً .

وكان الشبليّ رحمه الله يقول : دخلت يوماً على الجنيد وهو جالس مع عياله أتواجد وانا سكران من حلاوة احوالي ، فلما صحوت من ذلك قال لي لا يخلو حالك من امرين : إما ان تكون غائباً بحالك ولذته عن الحضرة ، او حاضراً ، فان كنت غائباً عن الله فيها متلذذاً بحالك الفاني فلا يليق بك الطرب لأنك محجوب عن الله ، وان كنت حاضراً فذلك سوء أدب ، فقال الشبلي التوبة يا أستاذ فتاب ، فانظر كيف بين الجنيد له نقض حاله في الحالين وتوبته منه والله اعلم .

ومن شأنه اذا كان مجاوراً عند شيخه على وجه التأديب ان لا يخرج من الزاوية إلا باذن من الشيخ او من النقيب او من فقيه الزاوية لا سيما

الخروج للسوق فانه قد يورثه قلة الحياء وكثرة الكلام والمحاجـــة عن نفسه لسرقة طبعه من اهل السوق .

وقد بلغنا ان فقراء سيدي محمد الغمري في المحلة الكبرى كان يأتي الواحد ابوه او عمه فلا يتجرأ أن يذهب للقائه بقصد ان يسلم عليـــه حتى يشاور النقيب ويقول ان الادب مع شيخي مقـدم على الادب مع أبي الطيني ، ومن هنا قالوا من كان له أبوان لا يفلح في الطريق لانه يصير مذبذباً بين ما يريده هذا وما يريده هذا ، كما يؤخذ ممـا يشمله نوع من وجوه الاشارة بقوله تعالى : لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ، ثم ان ابا التربية لا يدعو الولد دائمـــاً إلا الى الآخرة ، وأبوه الطيني الغالب انـــه لا يدعو ولده إلا الى الأمور الدنيويـة فيقول له : اقرأ بالعجل وتعال نعلمك مباشراً في بلدنا او تخطب بالناس وتأخـذ رزقـة الجامع ونحو ذلك ، هذا غاية نظره منه ، ومنه قراءته القرآن والعـلم مثلاً ولا يذوق شيئاً مما يأمره به الشيخ ، فان كان ابوه الطيني يدعوه الى خير فهو أبوه من الجهتين فيتأكد عليه حقه جزماً .

وكان سيدي ابو السعود الجارحي يقول لمن يريد صحبته : هل لك أب ؟ فيقول له نعم ، فيقول أين هو ؟ فيقول في البلاد مثلاً ، فيقول له اذهب اليه أنا لا أصحب من له أب غيري .

وكان شيخنا الشيخ محمد الشناوي يرخص للولد في موافقة أمـه اذا دعته الى خلاف ما دعاه اليه الشيخ في بعض الاوقات لقلة صبرها وجهلها بما يفعله الشيخ مع ولدها وليس عندها أحسن لابنها من ان الله تعالى يطيل عمره لها في عافية مع اتساع رزقها ، والاقتصار على ذلك خلاف

ما يطلب الشيخ بيقين وأهل الطريق على عدم مراعاة الوالدة في مثل ذلك لبنائها على الجد والاجتهاد ، واذا تعارض عندنا مفسدتان لارتكبنا الأخف منهما ، أو أمران دنيوي وأخروي ، قدمنا الأخروي بشرطه ، وايضاح ذلك ان الأشيخ عجزوا عن كونهم يسيرون بالمريد في الطريق مع اعانة شيئين فأكثر في وقت واحد ، وأجمعوا على وجوب قطع العلائق والالتفات الى الأهل والمال والعيال دون الله تعالى ولو جرى عليه الاشتغال بالله وحده ، ثم اذا ذاق ما ذاق الرجال وكمل حاله وصار لا يشغله شيء في الكونين عن ربه ، فهناك يقولون له التفاتك للدنيا وتصريفها في آمالها المشروعة كما درج عليه كمل الأولياء هو الكمال فعلم انه الواجب على الشيخ منع المريد من كل علاقة ما دام سالكاً وانه لا يبيح له اخذ شيء من الدنيا إلا بعد كماله ورجوعه للحق فانهم لو أمروه بمخالطة الناس واعطائهم حقوقهم لربما عجز عن السير .

وكان سيدي يوسف العجمي رحمه الله يقول : كل ما يشتغل به المريدون الله تعالى من الحظوظ من تجارة او عمل حرفة او اشتغال بعلم الاخلاص فيه حكم من ربط في عنقه حبالاً وثيقة تجره الى ناحية قفاه وشيخه يجره الى امامه بحبل العنكبوت .

وكان يقول : اذا اشتغل المريد بالله وحده سار كما يسير الطائر ، واذا اشتغل بالله وبغيره زحف كما يزحف الزمن مع ضعف عزيمته طالباً وصوله الى البلاد البعيدة والله اعلم .

ومن شأنه ان يفرح اذا نقصه شيخه بين اخوانه وناقشه على النظرة والخطرة ، والنقير والقطمير ، فان ذلك دليل على شدة اعتنائه به

ورجائه له الخير والترقي ، ولولا ذلك لكان أهمله كما أهمل من لم ير فيه خيراً ، فليحذر المريد من موافقة هوى نفسه وتعبيره على الشيخ ويقول ان ذلك دليل على كراهة الشيخ لي ولا ينظر . وقد أجمعوا على ان الشيخ اذا رأى مريده على سوء ادب او غفلة او يلغو في مجلس ولم يزجره ولم ينهره فقد مكر به وسعى في طرده عن صحبته ، وذلك لأن المريد اذا تمادى في الغفلة واللهو وعدم المناقشة حتى استحكمت الغفلة فيه لا يصير يصغي لكلام الشيخ بل تنفر منه نفسُه ويقول ان هذا يأمرني بأمر لا يطاق كما وقع لي ذلك مع جماعة من لزاوية وخرجوا عن طاعتي وصاروا يجالسونني بلا داعية ولا انقياد خوفاً من لوث الناس بهم اذا قطعوا مجالستي بالكلية فلم يزدادوا بذلك إلا مقتاً نسأل الله العافية .

ومن شأنه انه يرى ملازمة شيخه للادب والتربية أحب اليه من السفر والحج الذي اعتقد فريضته على نفسه لاحتمال خطأ اعتقاده بأن يكون جاهلاً بواجبات الحج والسؤال عنها كما على غالب الفلاحين وجهلة العوام ، اما اذا توفرت اسباب الوجوب فمحال من الشيخ منعه ، وان فرضنا انه منعه من ذلك فليس هو شيخ وانما هو عاص لله تجب مخالفته لأن الشيخ الحقيقي أمين على المريد في ترجيح اعماله على بعضها فلا يأمره بتقديم مفضول مثلاً إلا ان يرى في الأفضل علة قادحة في الاخلاص او حصول عجب او كبر بذلك على أقرانه ونحو ذلك ، وقد رأينا كثيراً ممن حج بغير اذن شيخه حصل له في الطريق غاية الندم وصار يتمنى انه لو قدر على الرجوع لرجع ، وموضوع العبادات كلها التقرب الى الله بها مع انشراح القلب ، واما مع السخط والندم فهو فيها الى الاثم

أقرب . ثم لا يخفى ان مشاورة الشيخ انما هو في سفر الحج لا في الحج لا سيما ان كان المريد مع شيخه في مكة ، فان ذلك لا يكاد يكون فيه مشقة ولا سخط لخفة مؤنته وقصر مدته ، فلا يحتاج فيه الى شيخه كما لا يحتاج الى مشاورته في حضور المسجد للجمعة والجماعة وصوم رمضان ونحو ذلك ، لكن لو وقع ان المريد أقيم في عمل قيل انه ارجح من حج النفل مثلا ، فلا بد من مشاورة الشيخ في ذلك ليخبره بأنها ارجح حتى يقدمه .

وكان سيدي يوسف العجمي رحمه الله يقول : انما يصلح السفر للرجال اذا كملوا ، وأما المريد فاقامته في خدمة شيخه ساعة ساعة افضل له من خمسين حجة على الجهل بآداب الحج وشروطه ، وما رأينا قط مريداً فتح عليه من حيث سفره الى مكة وسياحته في الجبال ونحوها بغير اذن شيخه ابداً بل بعضهم حجب هناك لسوء ادبه ولسان حال شيخه يقول له اصبر حتى اعلمك الادب مع الله تعالى في دخول حرمه وبيته ثم سافر على وجه الادب ، فلا ينبغي الاعتراض على شيخ منع مريده الحج الا بعد الاجتماع بالشيخ وسؤاله عن العلة في ذلك فان لحوم الاولياء سم على من اعترض عليهم بغير حق والله اعلم .

ومن شأنه اذا اقام في زاوية شيخه ان يقنع بالخبز الحاف ويلبس الخيش بسد باب الاشتغال بالدنيا مما امكن ، وقد اجمع الاشياخ على ان كل مريد لم يخلص النية في الاقامة عند شيخه للتربية وجلس لعلة اخرى لا يفلح في الطريق ابدا ولو كان شيخه من اكبر الاولياء ولا يزاد على ممر الاوقات الا ادبارا ومقتاً لاستهزائه بالطريق وبالشيخ وتظاهره بمحبة الطريق كذبا وزورا . وقد مضى المريدون الصادقون كلهم على

الاخلاص في محبة الشيخ والطريق ، حتى ان سيدي الشيخ شهاب الدين المرحومي شيخ الشيخ ابو السعود الجارحي رحمه الله اقام عند سيدي الشيخ مدين سبع عشرة سنة لم يذق له طعاما ولا شرب عنده ماء وكان يخرج يشتري له من السوق ما يأكله وما يشربه ويقول لا احب ان أشرك في الاقامة عند شيخي امرا آخر ، فقيل له كل من طعام شيخك بقصد التبرك به لا غير فقال لم ابلغ الى تلك الدرجة انتهى .

وسمعت سيدي علي المرصفي رحمه الله يقول : ما طالت الطريق على المريدين المقيمين عند الشيخ الا بعدم اخلاصهم في صحبته ولو انهم اخلصوا وتركوا العلل لحصل لهم كمال الانقياد للشيخ ووصلوا الى حضرته في مدة يسيرة كما كان يقع للصحابة مع رسول الله ﷺ ولكن لما عدم المريدون الاخلاص الكامل كان امرهم في سلوكهم على التدريج شيئاً فشيئاً ولا يكمل انقيادهم للشيخ الا بعد سنين بل غالب المشايخ الذين ادركناهم ماتوا بغصصهم ولم يفتح على احد من مريديهم ولكن باب الفتح مفتوح ما شاء تعالى .

وكان سيدي ابو السعود الجارحي رحمه الله يقول : كل مريد اقام عند شيخه لاجل وظيفته او خلوته او لاجل ما يحصل له على يديه من حين ترك الخرقة فهو خائن لا يجيء منه شيء ولو مكث عند الشيخ عمر نوح عليه السلام .

وسمعته يقول : ينبغي للشيخ اذا اجتمع به تاجر فطلب الصحبة وأتاه بجمع ماله وقال قد خرجت عنه ان يحفظه عنده ولا يتصرف فيه لان الغالب على مريدي هذا الزمان الكذب فربما تهور المريد في الخروج

عن ماله اول مرة بغير صدق ، ثم لما فترت همته احتاج الى ماله وصار يطالب الشيخ به بالحال والقال كما وقع لي ذلك مع عدة جماعة .

وسمعته مرة اخرى يقول : جلس عندي مرة جماعة وادعوا طلب الطريق وحكّموني في انفسهم فأخرجت عنهم وظائفهم في الزاوية وأعطيتها لاخوانهم فنقضوا العهد وفارقوني وصاروا يرافعون فيّ عند الحكام . وعلمت ان كل من جلس عند شيخه لاجل قراءة سبع أو حضور أو أكل أو شرب او لاكرام الناس له لكونه من جماعة الشيخ فقد تودع من صلاحه للطريق . لان ذلك حكم الاشتغال بالدنيا والحرف ألتي كان تركها ودخل في صحبه الشيخ بعدها .

وسمعت سيدي علي المرصفي رحمه تعالى يقول : لا ينبغي للمريد ان يشتغل بحرفة ولا وظيفة الا باذن شيخه ، ومتى عرّض له بتركها فليس له فعلها . وقد وقع لسيدي محمد الغمري انه اشترى له قطناً وصار يعمل منه عراقي ويخيطها ويتقوت بها ايام مجاورته عند سيدي احمد الزاهد فنهاه عن ذلك ، فقال يا سيدي : انما قصدت رفع كلفتي عن الاخوان حين رأيتهم في ضيق عيش ، فقال يا محمد الفقراء انما يتركون الدنيا اختياراً بعد ان عُرضت عليهم ولو ان اهل مصر كلهم كانوا عيالي ما اهتممت لأجلهم انتهى .

وكذلك سمعت سيدي ابا الحسن الغمري يقول : لو صار عندي الف من المجاورين ما حملت لهم هماً لاني أعلم ان الله تعالى لا يضيّعهم كشفاً ويقيناً لا ظناً وتخميناً ، وما قيّدهم عندي الا ويسوق لهم ارزاقهم .

وكثيراً ما يأتي الشيطان الى المريد في بداية امره ويقول لــه : كيف تركت ما كان بيدك من الدنيا وجلست في هذه الزاوية فتأكل من أين، وتشرب من أين ، وتلبس من أين ، وما تعودت نفسك بالشحاذة وسؤال الناس فقل له اخشى لعنة الله لانه تعالى اذا كان يرزقني وانا مدبر عنه فكيف يضيعني وأنا مقبل على خدمته ؟ وهناك يفارقه ابليس والله اعلم .

ومن شأنــه ان يتمثل امر شيخه للاكثار من ذكر الله سراً وجهراً ولا يكون له شغل إلا ذلك ولا يزيد على الفرائض والسنن المذكورة ، فقد أجمع الاشياخ على انه ما تم طريق للمريد اسرع جلاء من دوام الذكر فهو كالحصى للنحاس المصدي فهو وان كان ساعياً في الجلاء كذلك لكن يحتاج الى طول زمان بخلاف جلائه بالحصا الذي هو بمثابة الذكر . ومن هنا قالوا لا ينبغي للشيخ ان يأخذ العهد على مريد الا بعد تضلعه من علوم الشريعة بحيث يصير يعد للمناظرة كما درج عليه السلف الصالح وهي طريق الشاذلية رضي الله عنهم ومن تبعهم وايضاح ذلك ان لطريــق عزيزة لا تقبل إلا من اشتغل بها وحدها فمن اعطاها كله اعطته بعضها ، ومن كان وراءه التفات الى مطالعة درسه مثلا فلا يصح له الاقبال على الذكر بكليته بل يصير في محاربة مع نفسه ، وان اشتغل بالذكر كان كالمختلس لا سيما اعتراض عليه . ويقولون له كيف تترك الاشتغال بالعـــلم وتشتغل بأمور وهمية فيحصل له التردد في طلب الطريق فلا يفلــح فيها . ومن هنا اختار القوم للمبتدىء من المريدين مذهب المحدثين وهو الاخذ بمــا صرحت به الشريعة اولا دون ما ولده العلماء بالاستنباط منهــا الا ان اجمع عليه بقصد التخفيف على المريد . ثم اذا رسخ في الطريق وقوي حاله وعمل بجميع ما صرحت به الشريعة من امر ونهي .. هناك يؤمر

بالعمل بما ولده المجتهدون والبحث عن اي مواضع استنبطوه من الكتاب والسنة . وربما صفت سريرته فأطلعه الله تعالى على مستند اقوال العلماء من غير نظر في كتاب ، كما وقع لسيدي علي المرصفي وسيدي محمد الشناوي بأخبارهما لي ذلك . ويسمى هذا علم التعريف بالاحكام الشرعية ، فلا يكون إلا من باطن الشريعة لانها هي المادة التي يقتبس العارف منها . وأجمعوا على ان اقل حصول ثمرة في الذكر ان يصير يحضر بقلبه في صلاته لا يخطر في باله شيء من الاكوان من حين يحرم الى حين يسلّم ، ومتى خطر بباله في فرض الصلاة او نفلها غير الله تعالى فالواجب عليه عندهم الاكثار من الذكر لانه الى الآن لم يحصل له ذكر وارد الكمال .

وسمعت سيدي علي الخواص رحمه الله تعالى يقول : انما حث الاولياء على الذكر لما فيه من جلاء القلب ليصير المريد يأتي الصلاة والعبادات كلها على الوجه المأمور به شرعاً لا غير ، ومتى كان له حجاب او ميل الى شهوة من الشهوات فمن لازمه الاتيان بالعبادات على وجه النقص عما امر به . قالوا وانما لم يشتهر عن السلف الصالح من الصحابة والتابعين الاكثار من الذكر ليلاً ونهاراً على طريق القوم الان لسلامتهم من العلل ، فكانت قلوبهم سليمة واخلاقهم محمدية ليس عندهم رياء ولا كبر ولا عجب ولا نفاق ولا غير ذلك مما يطرق المريدين الآن ، بل ربما يكون كل شيء حصدوه من الاخلاق الردية يطلع مكانه شيء آخر ، ومن هنا اجمع العلماء على وجوب مجاهدة النفس وامروا المريد بالسفر اذا لم يجد له في بلاده شيخاً يربيه والله اعلم .

ومن شأنه ان لا يخالف شيخه اذا امره شيخه مباحاً من مباحات

الشريعة ولا يحتج عليه بأدلة الاباحة ، لان الشيخ انما مراده الترقي للمريد والمباح لا ترقي فيه من حيث هو مباح . ومراد الشيخ ان تكون اوقات المريد كلها معمورة بامتثال امر أو اجتناب نهي فلا يوجد إلا في عمل يؤجر عليه ، وما جعل الشارع المباح إلا لتتنفس فيه الضعفاء من مشقة التكاليف لغلبة الملل عليهم من كثرة التحجير في الامور الشرعية . ولولا انه سبق في علم الله تعالى وقوع الملل منهم لما شرع لهم المباح بل كانوا كالملائكة يسبحون الليل والنهار لا يفترون .

وقد تقدم اجماع القوم كلهم على ان كل مريد ترخص ونام ولغى في الكلام وأكل اللذيذ من الطعام لا يرتجى منه خير ، إذ الطريق كلها جد وجهاد لا صلح فيها مع النفس ما دامت نفساً ولا راحة حتى يموت العبد ، فاعلم ان من شأن المريد الصادق المجدّ الأخذ بعزائم الشريعة دون رخصها .

قالوا ولا ينبغي للمريد ان يتشبه بشيخه في فعله المباح ولا غيره بحكم الارث لرسول الله ﷺ بخلاف المريد .

وقد قالت عائشة رضي الله عنها : كان رسول ﷺ يذكر الله تعالى على كل احيانه يعني حتى في حال مزحه مع الاطفال والعجائز وغيرهم .

ونقل الجلال السيوطي رحمه الله تعالى في الخصائص ان رسول ﷺ كان مكاشفاً بالحضور مع الله تعالى حال خطابه للخلق فلا يشتغل عن الله تعالى بشيء .

ونقل الامام القشيري عن سهل بن عبد الله التستري انه كان يقول : لي

منذ ثلاثين سنة أكلم الله والناس يظنون اني اكلمهم انتهى .

وذكر العلماء ان لرسول الله ﷺ أجر الواجب من حيث انه ﷺ منتزع لأمته مبين لهم الاحكام ، فكذلك الحكم للشيخ يبين للمريدين ما جهلوه من امور دينهم ويثاب على فعل المباح اذا أتوا به عرفياً صحيحاً بخلاف المريد لحجابه عن ذلك. فليحذر المريد من قوله للشيخ كيف تنهاني عن المبرح الفلاني وتفعله أنت فان ذلك جدال بغير علم ويصير به ناقضاً للعهد والله اعلم .

ومن شأنه ان يقدم امر شيخه على جميع اهوية نفسه ، فاذا امره بتنظيف المستراح وخدمة الفقراء في المطبخ والعجين رأى ذلك مقدماً على كل ما يترجح عنده فعله لان الشيخ اعرف منه بطريق الترقي . كما ان البيطار يعرف من امراض الدواب ما لا يعرفه اصحابها ، وقد خالف في هذا الأمر أقوام فحُرموا بركة صحبتهم لشيخهم ، وحرموا الترقي إذ النفس من شأنها التلبيس على صاحبها ، فما فعل طاعة إلا ولها فيها دسيسة تمنع الاخلاص ، وقد قالوا اعمل باشارة شيخك فان خطأه ارقى من صوابك أنت .

وسمعت سيدي علي المرصفي يقول : من خالف نفسه فقد افلح ، ومن وافقها وخالف شيخه فكأنه جعلها شيخاً له مع شيخه . ومن له شيخان لا يفلح ، لان القوم أجمعوا على ان توحيد القصد واجب ليجعلوا لهم هماً واحداً ، وقالوا من لم يكن مقصده واحداً متعلقاً بواحد لا يشم من توحيد الحق تعالى رائحة . وقالوا متى خرج المريد بحركة واحدة لشيئين حاجة مثلاً والصلاة فقد أشرك في القصد الا ان تكون الحاجة

مطلوبة شرعاً ، وذلك لان الشرك ظلم عظيم على اختلاف انواعه ، وهـو مشتق من الظلمة ، ومن دخل الظلمة يحار في الطريق ، ومن حار فيها فلا ترجيح عنده ، ومن فقد الترجيـح فقد الترقي ، ومن فقـد الترقي لا يفلح .

وكان سيدي ابراهيم المتبولي رضي الله عنه يقول : ما من صنعة ولا حرفة الا ويمكن العارف الكامل ان يوصل المريد منها الى حضرة ربه عز وجل ، وقد دخل الصحابة رضي الله عنهم في دين الاسلام وهم على حرف وصنايع فأقرهم رسول الله ﷺ على حرفهم وصنايعهم ولم يأمرهم بالخروج عنهـــا وصار يربيهم ويعلمهم امور دينهم الى ان بلغوا مراتب الكمال وبعضهم وصل لدرجة الكمال من اول وهلة . وبالجملة فما دام المريد له اختيار وتدبير ورؤية خلاف ما يأمره به شيخه فهو في مقام العداوة لشيخه والمحاربة له والمنازعة .

وفي كلام سيدي محمد وفا رحمه الله موشح :

القيت عن عاتقي سلاحي   وصرت سلماً على الطريق
طرحت نفسي وباطراحي   نجوت من فجهـا العميق

فكن يا أخي سلماً لشيخك لا ضارباً والله يتولى هداك .

ومن شأنه ان يبادر لامتثال أمر شيخه ولا يتوقف على معرفة الدليل على أمره به فان ذلك من اكبر قواطع الطريق ، فان علم الاستدلال انما يكون للأشياخ والمجتهدين لا المقلدين ، وليس قصد الشيـخ من المريد الا انه يصير يتكلم من مواجيده وما يقذفه الحق تعالى في قلبه من معاني الآيات والاخبار ، الا انه يصير يحفظ عبارات الناس وينقلها كالناسخ .

وأجمعوا على ان الشيخ متى سامح المريد في التحري عليه ومطالبته بالدليل على كل شيء امره به أو نهاه عنه فقد أفسد حاله ، وربما سرى ذلك الى بقية جماعته فيتلف حالهم ، ويدخلوا ب الجدال . فيجب على الشيخ ان يطرد مثل هذا عن مجلسه بحسن عبارة لا بالعنف ، اذا توفرت عنده قرائن الالتباس من اخلاقه المعروفة عند القوم . وذلك كأن يقول له يا ولدي انك قد صرت من اهل العلم بحمد الله ومـا بقي عندي علم يكفيك فانظر الى احد يزيدك علماً ولا تخالفني تغشّ نفسك . ثم اذا اخرجه الشيخ عن صحبته فان كان فيه خير رمن الله تعالى عليه بالهداية فسوف يرجع الى شيخه ، ويلزم معه الادب وان لم يكن فيه خير فقد استراح منه .

واخبرني شيخي شيخ الاسلام زكريا رضي الله عنه قال : سافرت من جامع الازهر الى المحلة الكبرى فأخذت الطريق عن سيدي محمد الغمري رضي الله عنه ، وأقمت عنده أربعين يوماً وقرأت كتاب قواعد الصوفية نحو اربعة كراريس وكنت ابحث معه على طريق الفقراء فقـال لي ، يا زكريا خذ كلام القوم بالتسليم فانه لا يفتح في طريقهم إلا من سلم لهم فقلت سمعاً وطاعة ، ولم اعد بعد ذلك الى البحث معه في شيء ابداً ، وببركة ما اسلم لم يُشْكل عليّ شيء من حين تركت مباحثته الا وبادر هو لازالة الاشكال عني من ذات نفسه . وكنت اذ بحثت معه يتكدر مني اكابر الجماعة ويفرح بذلك أصاغرهم لأن الشيخ كان مجيباً وكانوا لا يتجرؤون على سؤاله ، وعلمت حينئذ ان طريق القوم كلها ادب ومطالبات بالحقائق بخلاف اهل النقول انتهى ، والله اعلم .

ومن شأنه ان يعظم حضرة شيخه كأنها حضرة الصلاة فلا يجلس بين

يدي شيخه قط بقميص واحد الا ان يكون متجرداً من الدنيا ليس عنده غيره او يكون في شدة حر مثلاً . قالوا وينبغي للمريد ان يلبس لمجالسة شيخه احسن ثيابه ويتوب الى الله تعالى من كل ذنب كلما اراد ان يجالسه ، فان المتلطخ بالذنوب لا يصلح له دخول حضرة الشيخ وانما يصح له دخولها اذا تطهر ظاهراً وباطناً من كل ذنب . قالوا واذا كان مكان الشيخ بعيداً وخرج لزيارته فليذهب اليه وحده ولا يدخل معه بأحد لانه ربما كان مع الشيخ ادب يخصه به لا يصلح اطلاع العوام عليه . وكذلك لا ينبغي له اذا خرج لزيارة شيخه ان يشرك معه حاجة اخرى فان اشرك معه حاجة اخرى لقيه الشيخ بنصف البشاشة او ثلاث حوائج لقيه بثلث البشاشة . وهكذا فان الشيخ لا يلقى المريد إلا بقدر ما جاءه به .

وقد دخلت مرة على سيدي علي الخواص ومعي شخص فقال لا تعد تأتي معك بأحد ، ثم قال لي في أذني من غلبته شهوته فهو حمار ، وقد كنت عزمت على ترك أكل شيء من الشهوات ثم غلبتني نفسي فأكلته. وخرجت مرة لزيارة أخي أفضل الدين وكان في حارة الشيخ ، فلما زرته قلت أزور سيدي علي كذلك . فلما اقبلت عليه لقيني بنصف البشاشة التي كان يلقاني بها لما اخرج لزيارته وحده وقال لي حكم العدل مطلوب ففهمت المقصود ، ومن ذلك اليوم ما أشركت معه احداً والله اعلم .

ومن شأنه ان لا يتساهل ابداً في مد رجله تجاه شيخه لا حياً ولا ميتاً لا ليلاً ولا نهاراً مراعاة للادب مع شيخه غيبة وحضوراً ، وما رسخ مريد في هذا الادب مع شيخه إلا وترقى منه الى مقام المراقبة

لله تعالى اذ الشيخ انما هو سلّم للترقي ، ومحل ادمان يدمن فيه المريد كأن الاشياخ يقولون للمريد : تعال ادمن فينا دون الحق تعالى حتى تذهب رعونات نفسك كلها ، فاذا ذهبت الرعونات فقد صلحت لمعاملة الحق جل وعلا . فاعلم ان كل من لم يحكم المقام في الادب مع شيخه لا يقدر على الادب مع الحق جل وعلا ، ولا يشم له رائحة ، فيستفيد المريد من حرمان شيخه كأنه يطلبه ويمنعه منها وهو راض بذلك رضاه عن الله كذلك اذ لم يقسم له ما طلبه ويسعد بصبره على جفاه من غير سبب ظاهر صبره على تصاريف القصي . وهكذا فمن لم يرض بفعل شيخه لا يرضى بأفعال الله ، ومن لم يصبر معــــه لا يصبر مع الله ، وهكذا في سائر الامور ، فكل ولي لله يحب ان الخلق يدمنون فيـــه ويفدي جانب الحق تعالى عن سوء الادب بنفسه فافهم .

وإياك ان تظن بالاشياخ انهم انما يأمرون المريد بالادب معهم حباً لتميزهم عنه في المقام رياسة ، فان ذلك سوء ظن بالاشياخ ، وانما أمروهم بالادب معهم ليترقوا الى الادب مع الله تعالى ، وقد بلغنا ان ابراهيم بن ادهم مد رجله مرة في الليل فنودي في سره مــــا هكذا ينبغي مجالسة الملوك فما مد ابراهيم رجله في الخلوة حتى مات انتهى .

ويقع لي ذلك كثيراً مع الاشياخ فربما اردت مد رجل فيمتد لي في كل وجه ولي تجاهها فأنام جالساً .

ووقع لي ذلك مع سيدي محمد بن عنان فسحب رجلي بيده وقال مدها ناحيتي فاستيقظت ونعومة يده في رجلي وكان ذلك بعد موتـــه رضي الله عنه ، فاعمل يا اخي على ذلك تجد ثمرته والله اعلم .

ومن شأنه ان يبادر لامتثال امر شيخه له بالذكر جهراً بالملأ ولا يتعلل بالحياء فان للاشياخ في ذلك اغراضاً صحيحة ، وقد قالوا من لم يكسر قفص طبعه لم يكشف له حجاب ، وقد انشد سيدي عمر بن الفارض رحمه الله في ذلك :

تمسك بأذيال الهوى واخلع الحيا   وخل سبيل الناسكين وان جلوا

ومراده بخلع الحياء كسر قفص الطبع وهو الاستحياء من ذكر الله تعالى او التواجد بحضرة الناس لا الحياء الشرعي ، فان ذلك من ايمانه. ومراده بسبيل الناسكين مراعاة العباد في حركاتهم وسكناتهم واظهار الحشمة بحضرة الناس ، مع اعتمادهم على اعمالهم دون الله تعالى ، وهذا الامر قل ان يسلم منه عابد لا شيخ له ولو أنه اتخذ له شيخاً لكسر قفص طبعه .

وسمعت سيدي محمد الشناوي رحمه الله يقول : الواجب على المريد في بداية امره رفع صوته بالذكر في الملأ حتى يتحرق حجابه لان ذلك يجمع شتات قلبه . ثم اذا تمكن في الذكر وأنس بالحق تعالى دون الخلق فهناك لا يصح له مراعاة احد من المخلوقين دون الله تعالى ، ثم اذا اكثر من ترك الذكر برفع الصوت بحضرة الناس اصحاب الأنفس كالقاضي الجاهل بنفسه والمباشر حصل عنده خجل كأنه ارتكب معصية فمثل هؤلاء يجب عليهم الذكر برفع الصوت حتى يخرج عن الكبر والله اعلم.

ومن شأنه ان يتخذ له حجاباً بينه وبين اولاده وعياله كلما يذكر حتى لا يدخل احد عليه منهم الا بأذنه فيشوش عليه ، وربما زعق الذاكر في وجه الداخل فيحصل له مرض او خرس كما وقع لسيدي

تاج الدين الذاكر مع جارته.. دخلت عليه وهو يذكر ففتح عينه وصاح فيها فتكسحت وصار يخدمها ويشيل القذر من تحتها حتى ماتت بعد سنين ، وكان يعتذر اليها ويقول ما وقع لك لم يكن بخاطري والله اعلم .

ومن شأنه ان لا يرفع صوته في محل يتأذى احـــد به ، ومن قارىء ومدرس ونحو ذلـك كأن يجلس يذكر الله تعالى في مثل جامع الازهر فان الجامع انما يجلس الناس فيه الآن لطلب العلم وتلاوة القرآن وذكر الله تعالى عقب الصلوات فقط ، وربما أنكر عليه احد من المجاورين فمقت ، وربما قال له شخص لا تؤذينا بذكرك فيقع في سوء الادب مع الله تعالى في منعه من ان يقول لا إله إلا الله ، وربما رفع صوته بحضرة احد من المنكرين فاستهزأ به فوقع في الكفر ، وربما كدر عليه فكسبه بانكاره عليه فاشتغل قلبه بمخاصمته وانقطع عن الله عز وجل . وأثقل ما جـاء على قلوب الغافلين ذكر رب العالمين فينبغي الذاكر ان يذكر الله تعالى في المساجد المهجورة فان في ذلك عدة مصالح . ومن قال من المجادلين انا احب ذكر الله وانما أتأذى برفع صوته امتحناه وقلنا له اجلس بنا نذكر الله تعالى ساعة بصوت خفي واترك درسك النحو مثلاً ، فان استحلى ذلك كلمـا دعوته اليه فهو صادق في محبة سماع ذكر الله وإلا فلا يخفى حاله ، وأين هذا القول من قول سيدي عمر بن الفارض رضي الله عنه في كلمة لا إله الا الله :

تهـذب أخلاق الندامـا فيهتدي ... بهـا لسبيل العزم من لا له عـزم
ويكرم من لا يعرف الجود كفه ... ويحلم عند الغيظ من لا له حلم
ولو نضحوا منها ثرى قبر ميت ... لعادت اليه الروح وانتعش الجسم

ولو قربوا من حانهـــا مُقعداً مشى　　وتنطق من نجوى مـــدامتها البكم
وفي سكرة منهـــا ولو عمر ساعة　　ترى الدهر عبداً طائعاً ولك الحكم

الى آخر ما قال والله اعلم .

ومن شأنه ان لا يجاس ابداً في مجلس شيخه الخاص بأبناء الدنيا فان المريد ليس له في ذلك منفعة ، بخلاف الشيخ فانه مأمور بالاقبـــال على الناس كلهم قبول رحمة وشفقة ، وتعليم وتأديب . فلا ينبغي للمريد ان يتأثر من شيخه اذا زجره عن الجلوس مع هؤلاء لأنـــه انما زجره خوفاً عليه ان يسرق طبعه من طباعهم فيتلف ويتعب شيخه في معالجته . وليحذر المريد من اعتراضه على الشيخ في مجالسته لابناء الدنيا فان ذلك انما هو تأليف لهـــم ليصرفهم عن محبة الدنيا بالمسارقة شيئاً فشيئاً اذ المشايخ انما شغلهم بالاعوج ليقيموه . واما المستقيم المنقاد فهم في راحة منه . فاعلم ان كل مريد جلس مع شيخه في مجلس ابناء الدنيا فقد اساء الادب و لله اعلم .

ومن شأنه ان لا يزور احداً من أشياخ العصر الا باذن شيخه صريحاً او تعريضاً ولو كان ذلك المزور من اكبر اصدقاء شيخه. فان من شرط المريد ان لا يكون له الا شيخ واحد كما تقدم تقريره في اوائل الباب. واذا كان المريد لا يرى ان شيخه يكفيه عن غيره فقـد اتخذه شيخاً. قـــالوا ولا يجوز الاعتراض على الشيوخ اذا منعوا مريدهم من الاجتماع بغيرهم وحملهم على حب الرئاسة على أقرانهم بـــل الواجب حملهم على احسن المحامل ، وبأنهم ما قصدوا بمنع المريد من زيارة غيرهم الا خوفاً عليه من تزلزل اعتقاده فيهم فلا يفلح على يد هذا ولا على يد هذا .

قـال الشيخ محيي الدين بن العربي رحمه الله : وكم فسد من الزيارة مريدون ثم فارقوا مشايخهم وصاروا يحطون عليهم وعلى جماعتهم، ويقولون لمن سألهم عن سبب فراقهم لو رأينا منهم خيراً ما فارقناهم وما كل ما يعلم يقال ، وهناك يهلكون بالكلية لا سيما ان اجتمعـوا بعد مفارقتهم لشيخهم على من ينكر عليه فانه يزيدهم منه نفرة وتنقيصاً ، ولكن اذا اراد الحق تعالى رد ذلك المريد الى الخير وألهمه رشده جمعه على من يعتقد في شيخه فيحسن اعتقـــاده فيه حتى يندم على فراقه ويطلب الرجوع اليـــه ، ثم اذا رجع وجب على الشيخ قبوله اذا شهد له قلبه بالصدق ، والا فلا ينبغي له قبوله لئلا يتلف بقيَّة الفقراء ، والجملة فلا يكمل ادب مريد مع شيخه الا بعد اشرافه على مقام الشيخ ومعرفته بكماله وإلا فمن لازمه الاخلال بحقه وذلك لانه لا يشهد من الشيخ إلا مقامه هو فكل نقص رآه في الشيخ فانما هو حال ذلك المريد، وهو لا يشعر اذ الشيخ مرآته كما تقدم تقريره مراراً في هذا الباب. فلو قدر ان المريد كمل أدبه مع الشيخ لأوصله الى حضرة ربه في لحظة والله تعالى اعلم .

ومن شأنه ان يعظم شيخه كل التعظيم ولا يطلب منه ان يأتي الى منزله او يأكل من طعامه ، وفي كلام الامام الشافعي رضي الله عنه: وهان عليك من احتاج اليك . وقال بعض العلماء في معنى قوله تعالى « ادع الى سبيل ربك بالحكمة » قال هي الاستغناء عن المدعوين فان الداعي اذا كان محتاجاً الى مال المريدين هان في عيون المدعوين فلا يؤثر كلامه فيهم عادة والله اعلم .

ومن شأنه ان لا يلبس لشيخه ثوباً ولا نعـــلا ولا يجلس له على

فراش ولا يسبّح على سبحتـــه لا في غيبته ولا في حضوره — الا ان اذن له الشيخ في ذلك . وقد لبس بعض المنشدين في مجالس الفقـــراء جوخة سيدي محمد الحنفي الشاذلي بغير اذنه وكانت موضوعة على الحبل فنظر اليه سيدي محمد نظرة فمشى بها ولم يلتفت اليه فحصل له تمزيق من ذلك اليوم وصار يفعل المحرمات ، وكان عليه قبول عظيم في مصر فلم يصر قلبٌ ينظر اليه بمحبة ولا ود . هذا شيء عايناه وما رأينا احداً سلك الادب فعطبه احد أبداً . قال الأشياخ ولا ينبغي للمريد اذا وهبه شيخه ثوباً او نعلاً أو قلنسوة أو سواكاً ان يبغي به بدلاً فربما يكون الشيخ طوى للمريد فيه شيئا من اخلاق الرجال كما طوى ﷺ الرداء لابي هريرة رضي الله عنه — وكان كثيرَ النسيان — قال ابو هريرة فما نسيت شيئاً بعد ذلك ممـــا سمعته أو رأيته . وبلغنا ان الجنيد وهب الشبلي سواكاً فأعطوه في ذلك مائة دينار فأبى . قلت وممـــا وقع لي اني وهبت الشيخ شرف الدين الوسطي بمكة جبة تجاه الحجر الاسود فاعطوه فيها ثلاثين ديناراً ذهباً فأبى ، وكذلك خلعت على الشيخ تقي الدين ابن المقتول ثوب صوف اخضر تجاه وجه ﷺ فأعطوه فيه خمسين ديناراً فأبى والله اعلم .

وسمعت شيخنا شيخ الاسلام زكريا يقول : اذا وهب الشيخ للمريد قميصا او نعلاً فينبغي له ان يوقره فلا يعصي الله في ذلك الثوب ولا يمشي بذلك النعـــل الى موضع معصية ، وليجتهد ان يكون على اخلاق شيخه من الحيـــاء والكرم والزهد في الدنيا وترك المعاصي جملـــة تعظيماً لملبوس شيخه . قال ، وهكـذا درج المريدون الصادقون مع اشياخهم .

وسمعت سيدي علي الخواص رحمه الله يقول : من ادب المريـــد اذا زار شيخه ووقع بصره عليه ان ينزع نعله ويمشي حافياً إلا ان يكون في الارض نجاسة او شيء من المؤذيات انتهى .

وقد فعلت أنا ذلك كثيراً مع سيدي ابي الفضل شيخ بيت بني الوفا ومع سيدي علي الخواص رضي الله عنهما والله اعلم .

ومن شأنه ان لا يطعن في من ولاه شيخه نائباً عنه في أمر دين أو دنيـا لتدريس علم ووعظ ونظر وقف او جباية مال او نقيباً ، ونحو ذلك . فمن اعترض على شيخه في ذلـــك فكأنه ينادي بأعلى صوته على رؤوس الأشهاد ألا اشهدوا على انني نقضت عهد شيخي فلاناً ورجعت عن طريق القوم ، وذلك لانه كان بايعه على السمع والطاعة في كل ما يأمره به وينهاه عنه ، وان يحمل افعاله على احسن المحـــامل لكونه اعرف منه بأمور الدنيا والآخرة . فاعلم ان من اعترض على شيخه بشيء من أفعال شيخه ولو سراً او جادل في الوقف او النقيب الذي اقامه ، فقد نقض العهد الذي كان عاهد شيخه عليه ، وخرج عن العهد والطاعة . والواجب ، على الشيخ تأديبه وزجره أو إخراجه من الزاوية ، وكأنه يرى شيخه ضعيف العقل وهو أتم نظراً من شيخه ، فانه لو يعتقد ان شيخه أتم نظراً منه لما اعترض عليه بقلبه ابداً . ثم ان هذا الامر لا يقع قط من صادق وانما يقع ممن دخل على الشيخ بالتلبيس ولذلك نقض عليه في المستقبل بسوء الأدب

وسمعت سيدي علي المرصفي رضي الله عنه يقول : مـــا لم يعتقد المريد في شيخه انه يقدر بعون الله على تدبير المملكة كلها والا فهو

ناقص الاعتقاد وجاهل بالشيخ . ثم ان الشيخ لا التفات له الى الدنيا لاقباله على حضرة ربه عز وجل ، فوليّه حينئذ الحق تبارك وتعالى . واذا كان الحق وليه قصم كل من خان وليه من نائب او جابٍ او مستحق داس عليه في أمر تحت نظره وولايته ويأخذ للشيخ والفقراء حقوقهم منه ، إما بمرض لا شفاء له منه حتى يموت وإما بفقر أوكشف حال ، وإما بالعقوبة يوم القيامة انتهى .

وبالجملة فلو كانت وجوه المريدين مقبلة على حضرة ربهم لاحترموا كل من قدمه شيخه عليهم ، ولكن للأشياخ أسوة برسول الله ﷺ حين طعنوا في توليته لأسامة بن زيد لكونه من الموالي فقال رسول الله ﷺ ان أسامة لحقيق بالامارة وأن أباه من قبله كان حقيقاً بها ، ثم أنه ﷺ خطب الناس وقال أيها الناس اسمعوا وأطيعوا يعني لأمرائكم وان تأمر عليكم عبد حبشي... الحديث ، كل ذلك أدب مع الله تعالى الذي ولاه وقسم له الولاية . ثم لا يخفى عليك يا أخي ان هذا الاعتراض المذكور على الشيخ لا يقع من المريدين الصادقين في محبته أبداً ، انما يقع من اهل الجفا والبعد . ولم يبلغنا عن أحد من خواص اصحاب رسول الله ﷺ انه اعترض على رسول الله ﷺ بظاهره ولا بباطنه مطلقاً ، وقد قال تعالى : فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في انفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً . والأشياخ ورثته ﷺ في مقام الادب معهم وان تفاوت المقام . فاياكم ايها المريدون والاعتراض على الشيخ ولو بقلوبكم ، فان ذلك يكدر قلب شيخكم ويوقف عنكم حصول الامداد كما جربناه مع أشياخنا والله اعلم .

ومن شأنه ان لا يغفل عن الدعاء بأن الله تعالى لا يوقعه على شيء

من عيوب شيخه بتقدير جهودها ، فان ظهور عيب الشيخ للمريد يكون سبباً لنفرته عن شيخه ، ثم لا يقع ذلك إلا لمريد أشقاه الله ولم يرد له الكمال ، والقليل من المريدين من يثبت في صحبة شيخه بعد أن رأى له منه شيئاً من النقائص .

وكان الشيخ محي الدين النووي يقول : ما خرجت قط لأحد من مشايخي في الطريق الا تصدقت عنه في الطريق وقلت اللهم استر عني عيب معلمي ، ويقول من سلك ذلك مع شيخه نال بركته والله اعلم .

ومن شأنه ان يستغنم صحبة شيخه اذا تعدى العمر الغالب وأشرف شيخه على معترك المنايا ، فان ذلك وقت الثمرة فيعطي الشيخ ثمرة جميع مجاهداته طول عمره او آخره ويعطي جوامع الكلم في الطريق ، فيا سعادة من لازمه أواخر عمره وزاد في خدمته . . فانه يمنحه ثمرة جميع مجاهداته بلا تعب ولا نصب ، فيساوي شيخه في مقام العلم ويصير لشيخه عليه حكم الافاضة لا غير والله اعلم .

ومن شأنه ان لا يكلف شيخه قط المشي اليه ليسلم عليه من سفر أو يعوده من مرض أو يعزيه في موت أحد، بل يذهب هو الى شيخه فيسلم عليه اويعزيه . ومتى تغير قلبه عن شيخه إذا لم يأته فقد أساء الادب معه فيجب عليه تجديد العهد ، وقد وقع مثل ذلك لشخص من أكابر مريدي سيدي علي المرصفي فطلب من الشيخ ان يأتي الى بيته فيسلم عليه لما جاء من الحج فلم يتفق ذلك، فهجر شيخه فانقطعت عنه الامداد الى ان مات والله اعلم .

ومن شأنه ان يجهد في ان يكون مع شيخه بالادب باطناً كما هو معه ظاهراً فلا يتكلم قط في حق شيخه من قدامه بكلمة يستحي ان يواجهه بها ، فان ذلك من اكبر خيانة يقع فيها المريد ، وذلك كأن يتحدث مع احد من الناس ويقول

يا ترى هل شيخي يجامع كل ليلة ، أو ترى هل كان شيخي يقع في المعاصي قبل دخوله مثل ما يقع لنا ، ام لا ، وهل كان يرائي وينافق ويحب الدنيا ام لا ، فان ذلك كله فضول ولا ثمرة له إلا فتح باب الاستهانة بمقام الشيخ لا غيره ، فيجب على المريد ان ينظر الى شيخه بالتعظيم فلا يصور في ذهنه حالة نقص عند الشيخ ابداً ، لا في الماضي ولا في المستقبل ، لان الفقير ابن وقته .

وسمعت اخي افضل الدين رحمه الله تعالى يقول : كيف يصح التعبير عن شي من صفات القلوب وهي بيد الله تعالى يقلبها كيف يشاء ، فربما شرع الانسان يتكلم في تجريح احد فينقلب من النقص الى الكمال قبل ان ينقضي كلامه ، فيقع التجريح على حالة ماضية لا يصح وصفه بها الآن انتهى ، والله اعلم .

ومن شأنه ان لا يجلس بين يدي شيخه إلا وهو مستوفز كما يجلس العبد بين يدي السلطان ، وليحذرْ كل الحذر من الاكثار من مجالسة الشيخ فان كثرة مجالسته تذهب هيبته عند غالب المريدين كما يذهب حرمة الكعبة لأهل مكة ولمن جاورها ، فأين بكاؤه عند رؤيتها من جمود عينيه أيام المجاورة ، والقاعدة ان كل شيء كثرت مشاهدته هان في العيون ، والشيخ هو كعبة المريد التي يتوجه اليها في سائر مهماته فافهم .

ومن هذا الذي قررناه حرم غالب ابناء الأشياخ واولادهم ونساؤهم بركتهم لكثرة مشاهدتهم له وادلالهم عليه والله اعلم .

ومن شأنه انه اذا كان جالساً عند شيخ في وقت درس او غيره وقام فمن الادب ان لا يوليه ظهره حتى يبعد أو يتوارى عنه بجدار

ونحوه ، وكل من لم يتأدب مع شيخه لا يشم من الادب رائحة ، لان الشيخ هو الذي يدخل المريدُ من بابه الى حضرة ربه عز وجل ، وليس له باب غيره ، ومن لم يكن له واسطة في ابواب الملوك لا يمكنه الدخول والله اعلم .

ومن شأنه ان لا يلزم شيخه بالباطن الجواب عن مسألة سألها اياه ، او حكاية حكاها له ، او واقعة وقعت له بل يذكر حاجته ويسكت ، فان اجابه شيخه فذاك ، وإلا فليعرض بقلبه عن طلب الجواب لئلا يصير شيخه محكوماً عليه بالزامه الجواب ، وهذه طريقة احرى بخلاف ما عليه طلبة العلم ، والفرقُ ان طالب العلم مقصوده الاطلاع على النقل ليصير يفتي به الناس ويدرس به ولو لم يذقه ، بخلاف الفقير فانه لا يقنع بدون الذوق لذلك الامر في نفسه ، لان كل ما لا ذوق للعبد فيه يفارقه عند طلوع روحه بخلاف ما ذاقه فانه يموت عليه ويبعث عليه .

وسمعت سيدي علي المرصفي رحمه الله يقول : ما تجرأت قط على سؤال احد من مشايخي في واقعة من الوقائع ، ولا هجرت قط على مكالمتي لأحد منهم ، انما كنت انتظر بداءته لي بالكلام بعد ان يظهر لي انه فارغ لمكالمتي مستعد لكلامي ، فحينئذ فالكلمة مع التبجيل والتعظيم كما اكلم اعظم ملوك الدنيا .

وقد روى الترمذي وغيره مرفوعاً : ليس منا من لم يوقر كبيرنا ، ويرحم صغيرنا ، ويعرف لعالمنا حقه . فاعلم ان احترام الشيوخ توفيق

وهداية والاخلال بذلك عقوق وخذلان والله اعلم .

ومن شأنه دوام ربط قلبه مع الشيخ والانقيـاد له ورؤية اعتقاده ان الله تعـالى جعل جميع امداده لا يخرج إلا من باب شيخه ، وان شيخه هو المظهر الذي عينه الله تعالى للافاضة عليه منه ، ولا يحصل له مدد وفيض الا بواسطته ، ولو كانت الدنيا كلها مملوءة من المشايخ ، وذلك ليقطع الالتفات الى غيره لانه ليس لذلك الغير عنده وديعة فافهم .

وكان الشيخ زين الدين الخوافي رحمــه الله يقول : يجب على المريد ان يرى استمداده من شيخه الخاص هو بعينه استمداده من النبي ﷺ ، وان استمداد رسول الله ﷺ من الحق تعالى ليتصل المريد بطريق اهل الله حقيقة ، سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا . قال : واعلموا ان ربط المريد قلبه بالشيخ اصل كبير في سرعة الفتح ، بل اصل الاصول ، وان حكم الشيخ حكم الحدّاد ، وحكم غيره حكم الآلات ، فكما ان المطرقة والسندان والمنفخ والفحم والنار وغيرها من الآلات اذا جمعن من غـير حداد لا يصح عمل ، كذلــك آلات الطريق من الذكر والخلوة والمجاهدة اذ اجتمعت لا يفلح بها المريد ولا تنجلي مرآة قلبه ، فربط القلب بالشيخ هو الأصل في ذلــك كله كما جربناه ، وما أتى على المريدين انقطاعهم عن الفيض والترقي الا من عدم ربط قلوبهم بالشيخ على وجه التسليم والاذعـان والهمة الصادقة ، ومن اعظم شيء يقطع القلب عن الربط الاعتراض على الشيخ بالقلب .

قال الشيخ زين الدين الخوافي رحمه الله : وقد جرب جميـع المريدين

فوجدوا الاعتراض يقطع الفيض والامداد ، فكما يجب على المريد ان لا يعترض على نبيه ﷺ كذلك يجب عليه ان لا يعترض على شيخه بل يوافقه في كل شيء يأمره به وينهاه عنه من الخير ، سواء اكرهته نفس المريد ام احبته . قال تعالى : « وعسى ان تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى ان تحبوا شيئاً وهو شر لكم ، والله يعلم وانتم لا تعلمون » وما يأمركم شيخكم ايها المريدون إلا بما يأمركم به ربكم والله اعلم .

ومن شأنه ان يعتقد أن كل ذرة من اعمال شيخه افضل من جميع عبادته هو ألف سنة ، ومن هنا قال ابو سعيد الخراز : رياء العارفين افضل من اخلاص المريدين ، ومعناه ان اخلاص المريد معلول برؤية انه يخلص بخلاف العارف فانه منزه عن الرياء جملة وما رآه المريد من صورة رياء في حق شيخه انما هو صفته هو ، وكيف يصح من عارفٍ رياء وهو يشهد كشفاً ويقيناً ان الله تعالى خالق له ولجميع افعاله ليس له من اعماله الا نسبة التكليف فقط .

وقد قال احمد بن ابي الحواري مرة لشيخه ابي سليمان الداراني : اني لاجد لذة في معاملتي مع الله تعالى اذا كنت وحدي ، ولا أجد تلك اللذة اذا كنت بين الناس ، فقال له : اذلك اذاً لضعيف ، ولو قويت لاستوى عندك نظر الخلق وعدم نظرهم ، قلتُ وايضاح ذلك قولهم ان رياء العارف افضل من اخلاص المريد ، ان العارف لا يرى من الخلق إلا وجه الحق فلو قدِ أنه رياءهم فانما ذلك عملاً بحديث أروا الله من أنفسكم خيراً وعملاً بآية فسيرى الله عملكم ورسوله فهو رياء محمود لا مذموم ، فما وقع رياء من عارف للخلق ابداً ما دام كاملاً . ويؤيد ما

قلناه قول سهل بن عبد الله لي : منذ ثلاثـــين سنة أكلم الله والناس يظنون اني اكلمهم انتهى .

ومن شأنه ان لا يدبر عن محبة شيخه وخدمته إلا لضرورة يعذره شيخه بها ، فقد قالوا : من ادبر عن شيخه لحظة واحدة بعد ان خدمه سبعين سنة مثلاً كان ما فاته من تلك اللحظة اكثر مما ناله في السبعين سنة ، فيا خسارة من أدبر عن شيخه فان حكمه حكم من ادبر عن خدمة ربه ، واكثر المريدين جاهلون بمثل ذلك ، ولذلك عدموا النفع فاعلم ذلك .

ومن شأنه ان لا يصر قط على وقوعه في سوء ادب لا ظاهراً ولا باطناً ، لان المريد الصادق اذا ربط قلبه بالشيخ وتأدب بآدابه الظاهرة سرى المدد الباطن من قلب الشيخ الى قلب المريد كسراج يقتبس من سراج . واذا جـــاء المدد من الشيخ ووجد قلب المريد متلطخاً بسوء ادب رجع المدد . وكما ان كلام الشيخ ينصح باطن المريـــد الصادق فكذلك امدادات الشيخ الباطنة ، فمن نظف باطنه من جميع المخالفـــات وسلك الأدب مع الشيخ انتقلت جمع الامداد والاحوال والعلوم التي في قلب الشيخ الى قلب ذلك المريد ، فيا سعادة من حصر أنفاسه مع الشيخ وانسلخ من ارادات نفسه وأفنى مراده في مراد شيخـــه ، ومُزجت روحه بروحه على حكم الملاصقة ليرتقي من حكـــم عـــدم الاختيار مع الشيخ الى عدم الاختيار مع الله تعالى ، ويصير يفهـم من الله تعالى كما كان يفهـم من الشيخ ، ذلـــك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

ومن شأنه ان يزيد في تعظيم شيخه كلما باسطه وحادثه ، وليحذر من ترك ملاحظة الأدب جملة ، فان المريـــد الصادق لا يزداد بمباسطة شيخه له إلا احتراماً وإكراماً وتبجيلاً واحتشاماً ، وأنشدوا في ذلك :

كلما ازداد بسطة وخضوعاً   زدت فيه مهابة وجلالا

وسمعت سيدي علي المرصفي رضي الله عنه يقول : من شرط المريد ان يزيد في اجلال شيخه على الدوام حتى يفارقه ، وهو يشهد فيه انه اكمل الموجودين ، وليحذر من ان يرد على شيخه كلامه ولو كان النقل الراجح بيد المريد ، فان الشيخ انما يقول للمريد ما يرى فيه ترقّيه فليقف المريد عند قول شيخه ولا ينازعه ولا يجادله ولا يماريه ، ومتى خطر له نزاعه ولو في خاطره ، فليبادر الى التوبة من ذلـك على الفور ، فان النزاع بالباطن هو عين الاعتراض في الظاهر . وهو حرام على المريدين ، وكل مريد اعترض بباطنه فهو مسخرة للشيطان ، وعورته مكشوفـــة عند اهل الطريق والله اعلم .

ومن شأنه ان يعتقد ان طريقته أشرف الطرق كلها لكونهـا محررة على الكتاب والسنة تحرير الذهب والجوهر ، وان لم يعتقد ذلك ، فمن لازمه كشوف نفسه الى ما هو أشرف عندها ، وذلك يفرق قلب المريد عن السير فلا يفلح فيما هو فيه .

وكان سيدي يوسف العجمي رحمه الله يقول : من لم يعتقد في طريقه انهـا طريق الانبياء والمرسلـين والملائكـة المقربـين لم يحصل منهـا على حاصل . ويجب عليه ان يعتقد أن أشياخ الطريق اعلم بالله وباحكامـــه

وبالعلوم الربانية والأسرار الالهية من غيرهم .

وسمعت سيدي علي المرصفي رحمه الله يقول : يجب على المريد ان يعتقد في شيخه انه على شرع بين ربه وبينه من أمره ، ولا يزن أحواله بميزان عقله هو ، فقد يأتي من الشيخ صورة مذمومة في الظاهر وهي محمودة في الباطن ، كما وقع للخضر مع موسى عليهما الصلاة والسلام ، فيجب على المريد التسليم على ان ذلك لا يصدر قط من شيخ كامل إنما يصدر من ناقص فإن الكامل يجري مع الخلق بحكم العادة ولا يظهر عليه شيء مما يذمه ظاهر الشرع او تستغربه العادة ، فاعلم ان مراد القوم بالشيخ الذي يجب الانقياد له من كان متضلعاً من الكتاب والسنة ، ومثل هذا لا يجب عليه التقيد بما هو دونه في العلم فافهم والله اعلم .

ومن شأنه اذا وجهه شيخه في حاجة ورأى الصلاة تقام في مسجد في الطريق فلا يعرج على الجماعة بل يمضي في حاجة شيخه ثم يصلي بعد ذلك في الوقت ، لا سيما إن كانت تلك الحاجة ضرورية كإغاثة ملهوف انتهى .

قلت : هكذا قالوه ، ويستروح له بأنه ﷺ أرسل جماعة من اصحابه في حاجة وقال لا يصلّين احد منكم العصر إلا في بني قريظة ففعل بعضهم ذلك بعد ان خرج وقت العصر وبعضهم صلى العصر حين خاف خروج وقته وقال لم يرد منا تأخير الصلاة حقيقة وإنما اراد منا الاستعجال ، فلما اخبروا بذلك رسول الله ﷺ لم يعنّف احداً

من الفريقين ففعل احد هذين الفريقين يشهد للقوم ، ولكن الذي ينبغي لكل مريد في هذا الزمان أن يقدم صلاة الجماعة على الحاجة التي أرسله شيخه فيها لقصور غالب مشايخ هذا الزمان من بلوغ مقام الارث لرسول الله ﷺ في معرفة ما هو الأفضل من العبادات بالنسبة الى كل مريد فافهم والله اعلم .

ومن شأنه انه يوفي بكل شيء شرطه عليه الشيخ سواء أكان صعباً على المريد عادة أم سهلاً ، فان طريق القوم كلها مجاهدة ومكابدة وليس فيها راحة البتة ، واجمعوا على انه ليس للمريد ان يشترط على الشيخ شرطاً حتى انه يطيعه وينقاد له ، كما انه ليس للميت شرط على غاسله ، وكل مريد صدق مع شيخه فلا فرق بينه وبين الميت . وأجمعوا على انه ليس للمريد أن يكلف احداً من اخوانه وغيرهم خدمة نفسه التي يقدر هو عليها عادة وذلك ليرفع كلفته عن الخلق وينزه نفسه عن تحمل منتهم عليه ما امكن ، وليحذر من التشبيه بالشيخ في مثل ذلك جهده فان الشيخ ربما ضعفت جوارحه عن خدمة نفسه من شدة ما جاهد نفسه طول عمره ، وربما كان الناس يتقربون الى الله تعالى بخدمتهم له ويرون له الفضل عليهم الذي أهلهم ولا هكذا المريد .

وسمعت سيدي علي المرصفي رحمه الله يقول : من الأشياخ من يدفع الناس عن خدمتهم له بالقلب فلا يسأله أحد أن يقضيه حاجة وذلك لان الكامل من يخرج بثمرة اعماله من الدنيا كاملة متوفرة لا ينقص من رأس ماله شيء ، قال : وكان شيخنا منهم كان رحمه الله يخبز

خبزه على رأسه ويقضي جميع حوائجه بنفســـه ولا يسأل احداً من اخوانة شيئاً من ذلك رضي الله عنه والله اعلم .

ومن شأنه ان يعتقد أن شيخه عارف بالله ناصح لخلق الله ، وأجمعوا على أن من شرط المريد الأمانة لانه بصــدد حمل الأسرار — ولا توهب الأسرار إلا للأمناء . فـلا يجوز له افشاء سر من الأسرار إلا ان يأمره الشيخ او الشرع اذاعته ، وربما غلب عليــه الحال فأفشى سر الربوبية فوقع له كما وقع للحلاج في هذا الزمان الذي استتر فيه الأوليـــاء الصادقون والعلماء العاملون وصار الفقير إذا وقع في ورد له لا يهتدي غالب الناس الى خروجه من تلك الورطة ، وربما قتل ذلك الفقير ظلماً، فالكتمان واجب على المريد حتماً والسلام .

ومن شأنه ان لا يدخل على شيخه ولا يجلس بين يديه ابداً إلا على طهارة ظاهرة وباطنة مسلماً مستسلماً ، وهكذا درج جميع المريدين مع اشياخهم .

وقد كان الشيخ ابو مدين المغربي رضي الله عنه يقول : ما دخلت في ابتــداء امري على شيخي حتى أغتسل وأطهر ثوبي وعصاي وجميع ما علي وأطهر قلبي من جميع علومي ومعارفي الظنية ، ثم أدخل بعــد ذلك فان قبلني وأقبل علي ، فذلك عنـــوان على سعادتي ، وان اعرض عني وتركني رأيت العيب مني والشؤم علي .

وأجمع القوم على انه لا يجوز للمريد أن يعتقد في عاصٍ الاصرار على معصيته ابداً ؛ فان هذه المصيبة يقع فيهـــا اكثر المريدين فتوقفهم عن

السير . وليتأمل المريد في قول علماء الشريعة ان الظالم اذا اخذ من أحد دراهم ثم توارى عنا بحائط مثلاً انه يجوز لنا الأكل مما رأيناه في يده ولا يجوز لنا ظن استصحاب تلك الدراهم فيفتى بحرمة الانتفاع بها إلا على وجه التورع فقط احساناً للظن بذلك الظالم المسلم .

وايضا فقد قالوا ان الله تعالى عباداً لا تضرهم المعصية أي لعـــدم اصرارهم عليها ، فلعل ذلك العاصي او الظالم يكون منهم . وكل من لم يظن بنفسه السوء وان جميع الناس خير منه فلا يفلـــح في الطريق ولو أعطي من المعارف والكرامات ما أعطى .

وكذلك أجمعوا على ان كل مريد دخل على شيخ ليختبره فهـــو ممقوت جاهل ، فان الشيوخ لا يختبرون البتة ، ولا يطلب منهم كرامة ولا كلام على هواجس النفوس ، ومن طلب ذلك منهم فقد جهل وأساء الأدب معهم ، وربما استحكم فيه المقت فلا يفلح على يد شيخ بعـــد ذلك والله اعلم .

وسمعت سيدي علياً المرصفي رحمه الله يقول : لا يطلَب من الاشياخ الكلام على الأسرار وانما يطلب منهم معرفة الامراض والادواء لا غير . وقالوا ان المكاشفات انمـــا هي من احوال المريدين دون العارفين والله اعلم .

ومن شأنـــه اذا جلس مع الشيخ ان يلزم السكوت ولا يتلفظ بحضرته قط ، الا ان وجد امارة على اذن الشيخ له في ذلك ، وما لم ير امارة فالواجب عليه ادباً السكوت . وليحذر من رفعه الصوت

بحضرته ولو في علم ، فضلاً عن الكلام العاري . وكذلك لا ينبغي له ان ينبسط ويكثر الضحك ، بل يجلس على حكم الادب والوقار ، وقد قالوا لا يكون كثرة الضحك الا من سكر القلب ، واذا سكر القلب عقل اللسان . وقد بالغ بعض المريدين في الوقار للشيخ حتى صار لا يستطيع ينظر الى وجه الشيخ ابداً .

قال السهروردي رحمه الله : وضعفت مرة فدخل علي شيخي ابو النجيب فرشح جسدي عرقاً من هيبته فشفيت من وقتي وكنت في غاية الحمى واتمنى العرق لتخفف عني الحمى ، فكنت لا اجد ذلك ، قال : ولقد كنت يوما في البيت خاليا وعندي منديل وهبه لي الشيخ فوقع على الارض فصدم رجلي اتفاقاً ، فتألم لذلك باطني ، وهالني لمس قدمي لشيء من أثر شيخي ، فوجدت بعد ذلك بركة عظيمة من الله عز وجل لاحترامي لأوليائه .

وكان ابو القاسم القشيري رحمه الله يقول : ما دخلت على الاستاذ أبي علي الدقاق في بدايتي الا صائماً بعد أن أغتسل ، وكثيراً ما كنت أحضر باب مدرسته فارجع من الباب احتشاماً منه ان مثلي يدخل عليه . وكنت اذا تجاسرت ودخلت وبلغت وسط المدرسة تصحبني الهيبة فأصير أرعد من هيبته ، وكثيراً ما كان يحصل لي شبه تخدير في جسدي حتى انه لو غرز احد بي إبرة لما احسست بها . قال : ولا اعلم انني اعترضت بقلبي على شيء من احواله حتى مات .

وكان اشياخ الطريق يقولون : كل من لم ينتفع برؤية شيخه لم ينتفع

بصحبته بالقبول ، خرج نور الاقتداء من قبله . ومن لم ير شيخه نائباً عن رسول الله ﷺ في ارشاده لم يصل الى طريق الحق ، لانه من لم يتأدب مع شيخه لم يتيسر عليه الادب مع الحق . واعلموا ان كل من اهله الحق تعالى لحضرته فلا بد أن يخرج له عارفاً يقتدي به لموضع صدقه ، وانما فقد المريدون الاشياخ لعدم صدقهم .

وكان سيدي ابراهيم الدسوقي رضي الله عنه يقول : من كتم شيئاً من احواله عن شيخه كان خائناً والله لا يحب الخائنين ، ومن خطر بباله اتهام شيخه في شيء من احواله عظمت محنته ، ومن سافر عن شيخه قبل ان يتمكن من احواله فقد تفرقت همته والله اعلم .

ومن شأنه اذا وقع بينه وبين أخيه شحناء ان لا يتحكم على شيخه ويطلب منه أن يكون معه على اخيه ، بل الواجب عليه انتظار ما يحكم به الشيخ عليه ، فان للشيخ ان يعاتب ايهما شاء فيقول للمعتدي لما اعتديت على اخيك ، ويقول الآخر ماذا اذنبت حتى اعتدى اخوك عليك وسلط عليك . ويحكى حديث الطبراني مرفوعاً : ما تواد اثنان فيفرق بينهما إلا بذنب يحدثه احدهما . وفي كلام سفيان الثوري رضي الله عنه : ما عصى الله عبد وهو يعرفه إلا سلط عليه من لا يعرفه حتى تشدد عليه العقوبة .

وكان سيدي محمد الغمري رحمه الله يقول لمن خاصمه احد من اخوانه بغير حق : هلاّ قابلت اخاك بالعفو والصفح رفقاً به واعطاء للفتوة والصحبة حقها ، ثم يقول للآخر انك قد تعديت الشريعة باعتدائك على

اخيك . وكانت عائشة رضي الله عنها تقول : خيار الناس من اذا احسنوا استبشروا ، واذا اساءوا غفروا والله اعلم .

ومن شأنه ان لا يخاطب شيخه الا على وجـــه الاستفهام ، ولا يبدأه بالكلام ، ولا يجيب الا على حد الاحترام ، ولا يجهر له بالقول كجهره لاخوانه من المريدين .

وسمعت سيدي علي الخواص رحمه الله تعالى يقول : اياكم ان ترفعوا اصواتكم اذا كلمتم شيخكم في حاجـة ، ولا تنادوه باسمه المجرد عن الكنية واللقب كما ينادي بعضكم بعضاً ، ولكن فخموه وعظموه بحكم الارث لرسول الله ﷺ ، فان الله تعالى نهانا ان ننادي باسمه فنقول يا احمد يا محمد كما ينادي بعضنا بعضاً ، بل نقول يا نبي الله يا رسول الله ، وكذلك الشيخ تقول له يا سيدي يا ولي الله يا واسطتنا عند الله ونحو ذلك .

وسمعته رحمه الله يقول : ينبغي للمريد ان يتذكر حالة موسى مع الخضر عليهما الصلاة والسلام كلما أشكل عليه شيء من احوال شيخه ، فان موسى عليه الصلاة والسلام كان كلما أنكر على الخضر شيئاً وأطلعه على حكمته يرجع عن انكاره لوقته مع ان انكار موسى عليـــه الصلاة والسلام لم يكن الا على وجه الاستفهام لعصمته ، إذ الانبياء اكمـــل الناس ادباً واكثرهم حياء وتسليماً فافهم .

وكان الجنيد اذا تكلم بشيء وعارضه احد من المريدين يقول : وان لم تؤمنوا لي فاعتزلون . وكان يقول : من كتم عن شيخه شيئاً مـــن

احواله ولم يذكره له ولو ايماء وتعريضاً فقد خانه وصار منه على باطنه عقدة في الطريق ، ولو انه كان ذكر لشيخه ما في ضميره لحـل له بكلامه عقدته والله اعلم .

ومن شأنه اذا ظهر شيخ في بلد شيخه وانقلب اليه المريـدون والاكابر دون شيخه ان لا يلتفت اليه ، ومتى التفت اليه فهو دليل على فساد ابتداء الصحبة معه ، وقد قالوا كل مريد لا يعتقد في شيخه انه اعلم بتربيته من غيره لا تنعقد صحبته معه ولا يصح سريان شيء من اسرار قلب الشيخ اليه ، فان المريد كلما ايقن بتفرد الشيخ بالمشيخة في البلد كلما قويت محبته وتمكنت صحبته ، وحكم العكس بالعكس . وأجمعوا على ان كل مريد اشتغل بوقائعه وكشفه دون مراجعة شيخه فقليل انقطعت الوصلة بينه وبينه ، فان المريد وان فتح عليه بالعلوم والاحوال فباب علم الشيخ واحواله اوسع واكثر .

وسمعت سيدي علي المرصفي رحمه الله يقول : يجب على المريد ان يحكي جميع وقائعه لشيخه فما رآه الشيخ من الله تعالى امضاه ووافقه عليه ، وما كان من غير الله امره بالاضراب عنه ، فان الواقعة اذا كان فيها شبهة فيرجو زوالها ببركة ذكرها للشيخ ، ويستفيد المريد علمـاً بصحة الوقائع والكشوف كما تبرأ ساحته من جهة الأدب مع الشيخ ، وتبرأ ساحة الشيخ بتعليمه الامور واخراجه من مواطن التلبيس ، وربما تحمل عنه الشيخ ذلك الامر الذي حل به لقلة غشه وكـثرة شفقته وصحة ايوائه الى جناب الحق تعالى .

وسمعته رضي الله عنه ايضاً يقول : يجب على المريـد ان يـذكر

جميع وقائعه لشيخه لانه اعلم بمقامه ومصالحه ومفاسده من نفسه ، ولأنه جرب الامور ومارس الاحوال وركب الاهوال ، وبلغ مبلغ الرجال . وحكم المريد حكم من دخل في ظلمة ببرية قفر لم يسلكها قط ، فلا يعرف مواقع الخطر فيها ، ولا يميز بين النفع والضر ، وحكم من اتخذ له طبيباً عارفاً بالداء والدواء فصار يصف له دواءه وهو يتناول الامور المضرة له موافقة لهواه والله اعلم .

ومن شأنه اذا سافر شيخه من مكانه وتركه فيه ان يلازم شهود مكان شيخه الذي كان يقعد فيه ويسلم على شيخه كلما مر على مكانه في وقت من الأوقات كأنه ما غاب عنه ، ويراعي حرمته في غيبته كمراعاته لها في حضوره ، واجمعوا على انه لا ينبغي للمريد اذا رأى شيخه خارجاً الى مكان ان يقول له اين ، وكذلك أجمعوا على انه لا ينبغي للمريد ان يقول له دعني انام عندك ، أو آكل معك ، أو أفارقك لعمل حرفة او نحوها ، بل ينظر في ذلك كل ما يراه الشيخ له في ذلك ، وربما اجابه الشيخ الى ذلك فحصل للمريد غاية الابعاد ونفرت نفس شيخه منه بعد ذلك . وكذلك كلّ ما فيه داعية الى الادلال على الشيخ وترك للحرمة معه ثم لا يفلح المريد بعد ذلك ابداً ما دام هذا حاله .

ومن شأنه اذا شاوره شيخه في فعل امر من الامور ان يرد الامر في ذلك الى الشيخ ، كما كان الصحابة يقولون ﷺ كان اعلم من جميع اصحابه بأمور الدنيا والآخرة وانما كان يشاورهم تأليفاً لقلوبهم وبياناً لمقامهم في الادب معه او في المعرفة لذلك الامر الذي استشارهم فيه ، وكذلك الحكم في الشيخ بحكم الارث لرسول الله ﷺ ان مشورة الشيخ

للمريد ليس هو لافتقار الشيخ الى رأي المريد .

وكان سيدي ابراهيم الدسوقي رحمه الله يقول : ليس من ادب المريد ن يسأل شيخه عن حكمة ملازمته لمكان جلوسه فيه ، ولا ان يسأله اذا انتقل عنه لم انتقلت ، وليحذر ان يظن شيخه ان جلوسه في ذلك المكان او انتقاله عنه بحكم العادة بغير نية صحيحة إذ الشيخ محفوظ عن ان يفعل شيئاً من غير غرض شرعي . وكذلك ينبغي له ان يحذر من تأويل كلام شيخه عن ظاهره اذا أمره بأمر بل يبادر الى فعل ذلك الأمر من غير تأويل ، كما وقع لبعض الصحابة حين قال لهم رسول الله ﷺ لا يصلين احدكم العصر الا في بني قريظة وقد تقدم ذلك قريباً .

وكان سيدي يوسف العجمي رحمه الله يقول : من ادب المريد ان يقف عند كلام شيخه ولا يتأوله ، وليفعلْ ما أمره به شيخه وان ظهر ان شيخه اخطأ ، فقد قالوا ان على المريد اعتبار ما يخيَّل انه خطأ من كلام شيخه احسنَ من صوابه هو ، لخفاء مدرك كلام شيخه عليه وخروجه عن تلبسات النفوس ، وان قال اني تخيلت انك اردت كذا وكذا فهو في ادبار عن طريق الارادة ، وما أتى على أكثر المريدين الخذلان إلا من التأويل فانه حظ النفس ، ومن وافق حظ نفسه لا يفلح ، والله اعلم .

ومن شأنه ان لا يصلي في موضع يستدبر فيه شيخه ما امكن ان كان حاضراً الا ان عارضه في ذلك امر شرعي كأن يصلي في الصف الاول

وشيخه في الثاني فان ذلك لا يضر والله اعلم .

ومن شأنه اذا ذكر الله تعالى او فعل عبادة من العبادات ان يستحضر نظر شيخه اليه ليتأدب ويضم شتات قلبه ، وهذا واجب عليه ما دام تحت اذن شيخه . فان أذن له شيخه في التربية والاستقلال بنفسه كان بعد ذلك حاله حال شيخه مع ربه ، كما سيأتي بسطه ان شاء الله تعالى اواخر الرسالة .

ومن شأنه ان لا يدعي انه من أهل محبة القوم حتى يرى الخلق كلهم احسن حالا منه ، لا سيا جماعة شيخ آخر فان كل من خرج من تحت تربية شيخ ورأى نفسه أعلى من احد المسلمين فهو ممقوت ، لأن هذا هو الذنب الذي طرد لاجله . وهذا يخفى على كثير من المريدين والحمد لله رب العالمين . خاتمة : ان قال لنا مريد فما صفات الشيخ الذي يجب علينا الادب معه والانقياد لقوله والتقليد له في كل ما يأمرنا به فالجواب : صفته ان يكون متبحراً في علوم الشريعة بحيث لو اجتمع عليه مشايخ الاسلام من علماء المذاهب الاربعة وناظروه في جميع الفقة لأجابهم بنقول المذهب وقطعهم بالحجج الباهرة والاستدلال على كل ما لم تصرح الشريعة بحكمه ، ويقوم في تقرير مذاهب الائمة الاربعة مقام اهلها . ثم بعد ذلك يكون متقيداً بالكتاب والسنه في اقواله وافعاله وعقائده عارفاً بميزان الخواطر كلها من خاطر النفس او الشيطان او الملك او الخاطر الرباني ، ويعرف الفرقان بين هذه الخواطر . ومن شرطه ايضاً ان يكون عارفاً بالعلل والامراض المتعلقة بالابدان والارواح ليغني مريده عن سؤال غيره ، عارفاً بكل ما يرقي المريد او يقطعه عن الترقي من سائر الاعمال والاحوال الى ان يبلغه الى مقامات الرجال

ووقوفه على عين الحقيقة . ومن شرطه ايضاً ان يكون له قدرة على جذب المريد واستخلاصه من ايدي العوائق ، لكن يشترط مع ذلك صدق المريد وعمله باشارة شيخه — انك لا تهدي من أحببت . فان قيل متى يصح تلقيب الشيخ بالاستاذ ؟ فالجواب : اذا جمع هذه الثلاث خصال وهي ان يكون عنده دين الانبياء وتدبير الاطباء وسياسة الملوك ، فكل من جمع هــذه الثلاث فهو الملقب حقيقة بالاستاذ لانهــا اركان جميع المقامات .

وسمعت سيدي عليــاً الخواص وسيدي علياً المرصفي وأخي افضل الدين رضي الله عنهم يقولون مراراً ، يصدق بعضهم قول بعض : اربع مراتب قد زاحم الناس الاشياخ عليها في هذا الزمــان بغير حق وهي تلقين الذكر ولباس الخرقة وارخاء العذبة وادخال المريد الخلوة ، فان لكل منها شروطاً لا بد منها لانه متى فقــد الشرط فقد المشروط ، ومن قال ان هذه الشروط التي تذكرها ليست بشرط عند اهل الطريق لكونه هو عاجز عن تحصيلها فيه فقد جهل واساء الادب مع اشيــاخ الطريق الماضين كلهم ونسبهم الى الجهل ، كما وقع فيه بعض المتمشيخين في هذا الزمان بغير حق . فاما شرط من يلقن الذكر التلقين الحقيقي وهو التلقين النامي عند الاشراف على مقام الكمال فهو ان يقدره الله تعالى على ان يخلع على المريد جميع ما قسم له من علم لا إله إلا الله فــلا يصير يجهل شيئاً من احكام الشريعة التي صرح بهــا الشارع ﷺ من واجبات ومندوبات ومحرمات ومكروهات ومباحات ، فيغنيه بعد ذلك التلقين عن مطالعة كتب الفقه ، بــل يصير يدرس الناس في جميع مذاهب الأئمة المجتهدين . ومن لم يقدره الله تعالى على ذلك فهو متشبه

بأهل الطريق لا متحقق لصفـاتهم فله أجر التشبه بهم لا غير . وأما شرط من يلبس المريدَ الخرقة الالباس الحقيقي عند الاشراف على مقام الكمال ايضاً فشرطه ان يقـدره الله تعالى على سلب جميع الصفات الردية التي في المريد حال امره له بنزع الخرقة التي عليه عرقية أو رداء أو إزاراً او قميصاً ، فلا يتخلف عند المريد بعد نزعها خلق سيء ، ولا شيء من رعونات النفوس ، بل يصير باطنه كباطن الطفل ممسوحاً من كل رذيلة . ثم ان الشيخ يُلبسه كذلك ما كان عليه نظير ما نزعه منه ويفرغ عليه جميع ما قسم له من الاخلاق المحمدية التي كان يصل اليها بالعلاج والمجاهدة والرياضة فينصبغ بها انصباغـاً فلا يكاد يظهر منه بعد ذلك رعونة نفس ولا خلق رديء . فمن لم يقدره الله تعالى على مثل ذلك فهو متشبه كذلك بالقوم وليس هو من محققهم فله اجر التشبيه بهم لا غير. وأما شرط من يرخي للمريد العذبة الارخاء الحقيقي فـان يقدره الله تعالى على ان يخلع على المريد سر النمو والزيادة في كل شيء نظر اليه المريد او مسه بيده حتى لو مد العمل والحجر أو الخشب امتـد معه فيكون ارخاء العذبة لهذا من بـاب اظهار التحدث بالنعمة فيثاب على ذلك . وقد بلغنـا ان رسول الله ﷺ لما أرخى العذبة لعلي بن أبي طـالب رضي الله عنـه قصر معـه جـذع سقف بيت فـاطمـة ولم يصـل الى الجدار الآخر فمده فامتد معه ، وكان يتوضأ الوضوء كاملاً من كف واحد من الماء . فمن لم يقدره الله تعالى على خلع هـذا السر على المريد فارخاء العذبة له انما هو على وجه التشبه بالقوم فله أجر نيته ان صلحت ، فان المريد ربما تمشيخ بارخاء العذبة ورأى نفسه بهـا على غيره وذلك حرام ، كما افتى به ابن حجر وغيره . وشرط من يدخل المريد الخلوة

فهو ان يطلعه الله تعالى من طريق كشفه الصحيح الذي لا يدخله نحو ان ذلــك المريد يقدر على فعل جميع شروط الخلوة ولا يخل بشيء منها وذلك ليحصل له ثمرة الخلوة ، وكذلـك يطلعه الله تعالى على حصول جميع ثمرات الخلوة للمريد ليدخله على بينة من الله تعالى ومعرفة ، فان من لم يقم بآداب الخلوة ولم يحصل له ثمراتها فليس هو بمريد صادق ، كما ان كل شيخ لم يطلعه الله تعالى على ثمرات الخلـوة فليس هو بشيخ صادق وهو مقتول في نفسه بنفسه ، وهو من المستهزئين بأهل الطريق فحُكمه حكم حلم من الخيال اذا خرج في بابة قاض او أمير فيصير الصغار يضحكون عليه . وذلك عين مقت الله تعالى للعبد ، نسأل الله العافية . اذا علمتَ ذلك فأقول وبالله التوفيق من شرط المريد اذا كان يذكر الله تعـــالى في خلوة وظهر له شيء من الصور ان يذكر ذلك لشيخه لا سيما ان قال له انا الله لا اله الا انا او سبحاني ونحو ذلك ، وليحذر ان يكتمه عن شيخه ويميل اليه فـانه يهلك في ذمته ، وليقل آمنت بالله ، سبحان من ليس كمثله شيء ثم يتغـــافل عن شهود تلك الصورة ويتلهى عنها بالذكر ما امكن حتى يتجلى له سر من اسرار مذكـــوره فيغنيه عن الذكر به . ومن شرطه ان لا يعلق همته ما دام في الخلوة بحصول كرامة ولا يستند في خلوته ابداً الى جدار ولا غيره بل يذكر ربه امتثالاً لأمره مطرقاً رأسه ، مغمضاً عينه من حين يفتح المجلس الى ان يفرغ منه ، ملاحظاً لقوله تعالى في الحديث القدسي : انا جليس من ذكرني . ومن شرطه ان يثبت اذا ترادفت عليه الخواطر الردية وليحذر من قوله في نفسه ما كان لي حاجة بهذه الطريق ولا بهذه الخلوة ، فانه لا بد للسالك من ترادف الخواطر الردية عليه اوائل دخوله الطريق وفي

الخلوة لكون ابليس يجيّش عليه ويركب عليه يحاربه بخيله ورجله ، لكونه رآه عازماً على ان يكون من جلساء الحق جل وعلا . وهو حسود لله تعالى ، ولكل من رأى عنده طلب تقريبٍ من حضرة الحق تعالى فهو يحرص على ان يغير نيته ويرده ناكساً على عقبيه فلا يحب لنا خيراً قط، ولكن يجب على المريد الاستغاثة بشيخه كلما عرض له عارض من جهة النفس او الشيطان فانه ببركة استناده الى شيخه تندفع عنه العوارض ان شاء الله تعالى .

ومن شرطه ان يعود نفسه قلة الكلام وقلة الاكل قبل دخوله ليحب العزلة ويقل كلامه ويكثر سهره .

ومن شرطه ان يخلص النيه في دخوله الخلوة بإذن الشيخ ، ولا يجوز له دخولها بنية غير صالحة ولا بغير اذن من الشيخ . وينبغي له ان يقصد بها تهذيب اخلاقه ليستريح الناس من شره ، فإن في الحديث مرفوعاً : شر الناس من تركه الناس اتقاء فحشه . ومن شرطه ان يدخل الخلوة بالهيبة كما يدخل المسجد من حيث انه حضرة الله الخاصة ويستعيذ بالله من شر نفسه كلما دخلها وينقطع عما سواه من زوجة واولاد ومال ، فلا يكاد يخطر على باله شيء من ذلك ، لان خطور ذلك من علامة الالتفات الى وراء ، وقد اجمعوا على انه لا يصل الى مطلوبه من كان عنده التفات الى ورائه . ومن شرطه ان لا يدخل في الخلوة حتى يدخلها شيخه قبله ويصلي فيها ركعتين بحضور وهمة وجمعية قلب مع الله تعالى ثم يفيض ذلك في قلب المريد ليقرب عليه طريق الفتح .

ومن شرطه ان لا يلتفت الى ما يقع له من الكرامات بل يقبل ذلك أدباً مع الله تعالى لشكره عليه من غير وقوف معه ، فمن وقف مع شيء من ذلك فاته خير الدنيا والآخرة . وكذلك الكرامات للرجال بمثابة الحيض للنساء ومن قوي يقينه بالله تعالى لا يحتاج الى كرامة تثبته في دينه .

ومن شرطه ان يرى روحانية شيخه متصلة به لا ينحجب عنه شيخه لاتصال روحه بمريد آخر ، بل روحانية الشيخ تمد مريديه كلهم ولو كانوا مائة الف الف مثلاً . وليحذر ان يرفع واسطة شيخه له ويتوجه الى الله بلا واسطة فانه يتمزق ولا يحصل على طائل لجهله بالله عز وجل .

ومن شرطه ان يكون دائم المراقبة لينظر الله تعالى اليه فلا يغفل عن هذا المشهد لحظة فمن غفل عن ربه كذلك ردته الغفلة الى أنقص من حاله الذي كان له قبل دخوله الخلوة .

ومن شرطه ان يكون صائماً مدة الخلوة وذلك لان الجوع يحلل من الاجزاء الترابية والمائية بقدر ما يكون فيصفو القلب .

ومن شرطه ان لا يخلي إلا في خلوة مظلمة لا يدخلها شعاع شمس ولا ضوء نهار وذلك ليسد عن نفسه طرق الحواس الظاهرة ، فانها شرط لفتح حواس القلب .

ومن شرطه دوام الطهارة فلا يمكث لحظة واحدة محدثاً بل يبادر للطهارة كلما احدث وذلك لتلألأ الأنوار في قلبه .

ومن شرطه ان لايتكلم الا بكلام مشروع ويسد باب كلام اللغو جملة ، فان الانوار الربانية تخرج من قلب العبد اذا تكلم بلغو ويصير قلبه مظلماً خالياً من النور الحاصل بالخلوة ، ولا يضره الكلام مع شيخه في وقائعه ولا لخادمه الذي جعله الشيخ خادماً له مدة الخلوة لكن يكون ذلك بقدر الضرورة .

ومن شرطه ان تكون الخلوة التي يمكث فيها بعيدة عن سماع كلام الناس ، لان سماع كلام الناس يؤثر في القلب ظلمة بخلاف الكلام المشروع كما مر

ومن شرطه ان يخرج للوضوء والصلاة مطرقاً رأسه غير ناظر الى احد مغطياً رأسه ورقبته بشيء ، لانه ربما حصل له عرق في الخلوة فلفحه الهواء لما خرج فضعف وانقطع عن آداب الخلوة ، وليحذر من ملاحظة الناس له ورؤيتهم له بالتعظيم اذا خرج للوضوء والصلاة ، فان ذلك سم قاتل .

ومن شرطه ان لا يصلي منفرداً بل في جماعة ، فقد قالوا ما حصل لاحد خبل في عقله اذا اختلى إلا من تركه الصلاة في جماعة ، وليحذر من الشبع وكثرة شرب الماء فان ذلك يقسي القلب ويورث الحجاب ويظلم القلب ويورث الكسل والبطالة وجلب النوم .

ومن شرطه السهر الدائم ، فان ذلك يذيب الأركان الأربعة ويحللها وهي الماء والتراب والهواء والنار وهناك ينظر الى عالم الملكوت فيشتاق الى مرضاة ربه وينفر من كل شيء يغضب ربه .

ومن شرطه ان لا يتسلسل في خاطر ولا في التعقل في فهم آيـــة او حديث فضلاً عن غير ذلك .. لان الخلوة ليست تحل لمثل ذلك

ومن شرطه ان لا يفتح باب خلوته لأحد غير شيخه ، ولما اختلى ﷺ في غار حراء كان لا يصحب أحداً معه .

ومن شرطه عدم الغفلة عن الذكر الذي أمره به شيخه لانه مرسوم الولاية اذا كان مع ربط القلب بالشيخ .

ومن شرطه ان لا يعين للخلوة مدة اذا بلغها خرج فمن عين أربعين يوماً مثلاً وحدث نفسه بالخروج اذا مضت ، خرج من الخلوة في أول يوم بهذا الخاطر . لأنه يورث الشتات والتفرقة للقلب مدة الخلوة ، فيجب على المختلي ان يجعل الخلوة قبره لا يخرج منها إلا يوم القيامة — ذكره الشيخ نجم الدين البكري وقال انه أمر دقيق لا ينتبه له غالب الفقراء ، انتهى .

وسمعت سيدي علي المرصفي رحمه الله يقول : من أحكم معنى الخلوة (بالخاء المعجمة) صار الوجود له (حلوة) بالجيم وصار يخاطب سر الحق تعالى ، ومن قلوب الخلق ما لا يحجب عن ربهـــا بحجاب إلا حجاب العظمة ، انتهى .

واما ثمرات الخلوة التي لا ينبغي لشيخ أن يدخل المريد الخلوة إلا إن عـــلم من طريق كشفه حصولها له فهي خمسة وعشرون من انواع الكشف وقد اجمعوا على ان حصولها من علامات صحة الفتح ، وان من لم تحصل له فاشتغاله بالعلم والكسب والصنايع والحرف افضل له من دخول الخلوة ، فيقال لمن اختلى ماذا حصل لـــك من الكشوفات والعلوم فان رأيناه كاشفنا بهذه خمسة وعشرين كشفاً صدقنـــاه والا

اعرضنا عنه ، فأول الكشوفات التي تحصل للمختلي ان يكشف له عن عالم الحشر الغائب عنه فلا يحجبه ظلمة ولا جدار عما يفعله الناس في قعور بيوتهم ، لكن يجب عليه التوبة من هذا الكشف فوراً لأنـــه كشف سلطاني ، وينبغي له ان يسأل الله تعالى ان يخلق باسمه الستار . والفرق بين الكشف الحسّي والخيالي ان يغمض العبد عينيه عند رؤية شخص او عند رؤية فعل ، فان بقي له الكشف فهو خيالي ، وان زال فليعلم ان الادراك قد تعلق بمكان مخصوص .

ثانيها : ان تنزل عليه المعاني العقليّة في الصور الحسيّة فـــلا يصير بعد ذلك يحتاج الى اتعاب فكر في تحصيل شيء مما طريقه العقل .

ثالثها : ان يؤتى بأواني فيها شراب فينبغي له ان يشرب اللـــبن منها : ، وإلا فاللبن ثم العسل ، وان جمع بين اللبن والعسل فهـــو افضل ، وليحذر من شرب الخمر فانه يورث الشطح ، فان كان الخمر ممزوجاً بماء المطر فليشربه دون الممزوج بماء الانهار والآبار والعيون ، وعليه بالذكر حتى يرتفع عنه عالم الخيال ويتجلى له عالم المعاني المجردة عن المواد .

رابعها : ان يتجـــلى له المذكور ويغني عن الذكر في حضرة المشاهدة .

خامسها : ان يعرض عليه الحق تعالى مراتب المملكة كلها فـــلا ينبغي له الالتفات اليها .

سادسها : ان يكشف له عن اسرار الاحجار المعدنية وغيرهـــا فيعرف سر كل حجر وخاصيته في المضار والمنافع ويعرف عمل الكيمياء

الصحيحة التي لا تتغير على مرور الازمان ، فـــلا ينبغي الالتفات الى شيء من ذلك .

سابعها : ان يكشف له عن اسرار النبات حتى تناديه كل عشبة وتخبره بما فيها من الخواص ، ولا ينبغي له الالتفات الى ذلك ، فمن التفت الى ذلك طرد ، وليكن غذاؤه عند حصول هذا الكشف بما كثرت رطوبته وحرارته .

ثامنها : ان يكشف له عن اسرار الحيوان كله حتى الحشرات ويسلم عليها وتعرّفه بما اودعه الله فيها من الخواص النافعة والضارة وبمـــا تعبـد الله تعالى به من انواع التسبيح والتمجيد . وهنا نكتة جليلة وهو أن المختلي إن رأى العوالم مشتغلة بالذكر الذي هو عليـــه في الخلوة فليعلم انه كشف خيالي لا حقيقي فان خياله هو الذى اقيم له في الموجودات ، وان رآها مشتغلة بأنواع اذكارها هي فهـــو كشف حقيقي .

تاسعها : ان يكشف له عن سريان عالم الحيـــاة التي هي سبب الاحياء ومـــا تعطيه من الاثر في كل ذات وكيف تندرج العبادات في هذا السريان فيعرف نشأة الصلاة الحية من الميتة .

عاشرها : ان يكشف له عن اللوايـــح اللوحية ويخاطب بالمخاوف وتتنوع عليه الحالات ويقام له دولاب يعاين فيـــه صور الاستحالات وكيف يصير الكثيف لطيفاً وعكسه .

حادي عشرها : ان يكشف له عن نور نظائر السر حتى يطلب التستر منه فليدم على الذكر ولا يخف فانه ينقطع عنه ويندفع .

ثاني عشرها : ان يكشف له عن نور الطوالع وصورة التراكيب الكلية وتعرف آداب الدخول الى الحضرة الإلهية وآداب الوقوف بين يدي الحق جل وعلا ، وأدب الخروج من عنده الى الخلق ، وهناك يعرف ان كل شيء نقصَ من الظاهر زِيدَ في الباطن والذات واحدة وما ثم نقصٌ حقيقة .

ثالث عشرها : ان يكشف له عن مراتب العلوم النظرية ويعرف صور المغاليط التي تطرأ على الافهام وسريان السر الإلهي في العالم .

رابع عشرها : ان يكشف له عن عالم التصوير والحسن والخيال ويمده كل شيء في الوجود بما عنده .

خامس عشرها : ان يكشف له عن مراتب القطبية وعوالمها وكل ما شاهده قبل ذلك فهو من عالم اللسان ، وهناك يعطى عالم الرموز والاجمال والوهب .

سادس عشرها : ان يكشف عن عالم العزّة فيعرف جميع الاداة السليمة والشرائع المستقيمة المنزلة من عند الله بواسطة محمد ﷺ على أتم وجوهها ويميز قول الله من قول خلقه ولو حكاه تعالى عنهم ويتأيد عنده الاحاديث التي قيل بضعيفها بالكشف ، ويعرف ايضاً جميع المقامات ومراتبها في الحضرة الإلهية وتقابله كلها بالتوقير والتعظيم .

سابع عشرها : ان يكشف له عن غامضات الاسرار .

ثامن عشرها : ان يكشف له عالم الحيرة والقصور والعجز وخزائن الاعمال وهي من الجنان عليون فقط .

تاسع عشرها : ان يكشف له عن جميع الجنان ومراتب أهلها

كلهم وهو واقف على طريق ضيق ، ثم عن جهنم ودركاتها ومراتب اهلها ، وهناك يعرف كشفاً ويقيناً الاعمال الموصلة الى كل من الدارين .

العشرون : ان يكشف له عن ارواح اهل محبة الله عز وجل فيراهم حيارى سكارى قد غلب عليهم سلطان الوجل .

حادي عشرينها : ان يكشف له عن نور لا يرى فيه غير نفسه فيأخذه فيه وجد وهيمان ويتمايل كتمايل السراج ويجد في نفسه لذة لا يقدر قدرها .

ثاني عشرينها : ان يكشف له عن صور كصور بني آدم وستور تدفع وستور بياض ولهم تسبيح يدهش العقول فلا يذهل حين يرى صورته فيهم .

ثالث عشرينها : ان يكشف له عن اسرار الرحمانية فيعرف عاقبة أمره ومنزلته من حضرات الاسماء .

رابع عشرينها : ان يعرف منازع جميع احوال المجتهدين من الكتاب والسنة ويخرج من الخلوة وقد محى نفسه من دوان الفقراء الصادقين و واما من يخرج منها وهو يرى انه خير من أقرانه فهو ممقوت باجماع اهل الطريق ، إذ هو وقت اللّبس الذي اخرج به آدم من حضرة الله كما مر قبيل هذه الخاتمة .

خامس عشرينها : ان يعطيه الله تعالى المشي على الهوا والماء ويصير يتصرف بهمته في الكون باذن الله تعالى ، وتطوى له الارض ويخلع عليه هناك من الخلع ما لم يخطر على باله ، فهذه ثمرات الخلوة والحمد لله رب العالمين .

وكان اخي ابو العباس الحريثي يختـــلي الاربعين واكثر ويقول كل خلوة لا تمنح صاحبها هذه العلوم فهي عبث ناقص الاستعداد ، وهي :

علم حضرة الجمع الاكبر ، وعلم مزلات الاقدام ، واسباب السعادة والشقاء ، وعــــلم الفرق بين الكرامة والاستدراج في سائر الاحوال ، وعلم جميع مراتب العالم عند الله تعالى على اختلاف طبقـات الخلق ومعرفة انساب جميع الحيوانات الى ابيها الاول .

ومنها علم التجليات الالهية وعلم بطون عالم الشهادة في عـــالم الغيب وعكسه ، ومن هذا العــــلم زل بعض اهل الكشف فقال بعدم حشر الاجساد حين رأى ارواحاً تتحول في اي صورة شاء صاحبها ، وغاب عنه ان الاجساد تنطوي في الارواح في الآخرة عكس حالها في الدنيا .

ومنها علم جواهر القرآن كلها في مقام الاسلام وفي مقام الايمان وفي مقام الاحسان وفي مقام الايقان .

ومنها علم مراتب الملائكة في الدار الآخرة على التفصيل وعلى الجمع بين الضدين ، وادخال الواسع في الضيق ، وطي الزمان ، وشهود الجسم الواحد في مكانين فاكثر من مكانين فأكثر في آن واحد .

ومنها علم كلام الحيوانات من حيث تسبيحها بحمد ربها حال صلاتهـا ومعرفة الأداة المتعلقـة بملائكة الارض وملائكة الهواء بين السموات كلها ، وعلم البرازخ .

ومنها علم ابراز الغيوب من خلق الحجب ، وعـــلم الظلالات الاقدسية وعلم كيفية الحروف المسطرة في اللوح المحفوظ ، وعلم طول العالم وعرضه من الجهات الست .

ومنها علم حضرات الفردانية والصمدانية وعدتها سبعون الف حضرة ومعرفة الاحكام المتعلقة بأهل كل حضرة بحيث يصير يمليها كلها من قلبه .

ومنها علوم فتق الرتق بالعروق وفصل الوصل بالختوق وعلم الاسباب التي من اجلها اتخذت الاصنام والاوثان ارباباً من دون الله ، وما شبهه كل صاحب ملة ونحلة في مخالفته شريعة نبيه .

ومنها علم حضرات الرجوع ولماذا يرجع كلام الباري جل وعلا ، هل هو لذاته ، او لصفة قائمة زائدة عليها ، او لعله او نسبه خاصة ، وما محل الاعجاز من جميع الآيات .

ومنها علم تطورات الحروف ملائكة حال النطق بها بحيث يصير صاحب هذا الكشف يرى الجو كله ملائكة من كلام الخلق .

ومنها علم ملامات من مسه الشقاء من العصاة وتمييزه عمن لا حظ له في الشقاء أصلا برؤية جبهته ، وعلم التضمير في نحو قوله تعالى : وسارعوا الى مغفرة من ربكم ، ومعلوم لا يسارع الى المغفرة إلا بالوقوع في الذنوب وقد ثبت النهي عنها وهو علم شريف .

ومنها علم الغيب الذي انفرد به الحق جل وعلا ، والغيب الذي يطلع خواص عباده عليه ، وهل بين كل ارض وارض سماء فيها ملائكة ام لا .

ومنها علم الشرائع المبثوثة في جميع العالم وعلم جميع المعجزات والكرامات واستخراجها كلها من مقام محمد ﷺ .

ومنها علم مظاهر الآيات البرزخية والكرامات الكونية ، وعلم ما

خص الله تعالى به اصحاب الكهف من العلوم الاسرار ، وعلم الانفهامات القدسية والالهامات الملكية والصحف الفردوسية وحضرة الديمومية .

ومنها علم الآداب التي تجب على اتباع كل امة ومستحباتها عن غيرها .

ومنها علم الكنوز ومعرفة حل طلسمات جميع الكنوز بأي حرف شاء من حروف الهجاء على عدد مخصوص وحال مخصوص ويتصرف في جميع كنوز الدنيا بما شاء لكنه يترك ذلك اقتداء بجمهور الانبياء الاولياء .

ومنها علم ضم المعاني بعضها الى بعض كالالفاظ وهو علم غريب لان المعاني لا توجد الا مع الالفاظ ، وتجرّد المعاني عن الالفاظ محال في العقل .

ومنها علم فك المعمى من الاسرار وتفهم مراتب الايمان وايضاح السر وعلم التفاضيل بين الانبياء والاولياء على التعيين كما هم في حضرة الله تعالى .

ومنها علم حضرة الحجب الشهوانية في الدنيا والآخرة وما يحجب العبد منها عن الله تعالى وما لا يحجبه .

ومنها علم توالد الادلة والبراهين ومنه يعلم ان كلما ولده العقل في باب معرفة الله تعالى فهو مردود على صاحبه ، قال تعالى : لم يلد ولم يولد ، فافهم .

ومنها علم الطبائع ومنه يعلم الانسان انه قابل لجميع المحامد والمذام من حيث طينته ، وانه ما خرج عن المذام سوى الانبياء عليهم الصلاة

والسلام ، وصاحب هذا العلم لا يصير يفرح بالمدح ولا يحزن بالذم لانه لم يرد عليه شيء غريب وهو من اشرف علوم الكشف .

ومنها علم تمييز الحق من الباطل في سائر الاقوال والافعال والعقائد ، وادراك الباطل ميتاً لا روح فيه ، والحق حياً ، كما يدرك الحب اليابس من الاخضر من غير اقامة دليل على ذلك من الكتاب والسنة لو فُقدا والعياذ بالله تعالى .

ومنها علم القبض والبسط ، ومنه يشهد صاحب هذا المقام بسط الحق تعالى في حال قبضه وقبضه في حال بسطه وهكذا من حيث انه تعالى جامع للاضداد الا ما اخرجته النصوص الشرعية من ذلك ، كما هو معروف عند اهل الله تعالى .

ومنها علم جميع الطرق التي يدخل منها ابليس على جميع السالكين ومعرفة الامور التي تسد جميع طرقه عنهم وهو من اشرف العلوم .

ومنها علم الصفات والاحكام التي كانت للأرواح قبل دخولها في هذا الجسم والصفات التي تكون عليها بعد دخولها ، ومنه يعرف السالك الوجه الذي حصل من اجتماعات حتى كان العذاب عليهما جميعاً فان لكل واحد منهما على افراده غير مكلف ، انتهى .

فهذا بعض علوم الخلوة التي ذكرها أخي أفضل الدين رحمه الله .

وكان سيدي علي المرصفي رضي الله عنه يقول : كل خلوة لا يطلع صاحبها اذا خرج منها على هذه العلوم فلا ثمرة لها وهي غير مشروعة

بل هي الى الرياء اقرب ، فاولها : ان يكشف له عن علم اداب ردى الحجب وعدتها سبعون الف حجاب وذلك ليرفع عنه اذا دخـــل في الصلاة ، وان يعطى علم آداب المشاهدات العيانية والمكالمات البيانية . ثانيها : ان يعطيه الله تعالى معرفة اهل الجنة ومعرفة من يدخـــل الدار من الموحدين ممن لا يدخلها . ثالثها : ان يعطيه الله تعالى علم جميع ما احصاه الله تعالى في الامام المبين من العلوم وعدتها ما يحصل من ضرب ثلاث مائة وستين الفا في مثلها تسع مرات وثلث . رابعها : ان يعطيه الله تعالى معرفة احكام الكتاب والسنة في مقام الاسلام ومقام الايمان ومقـــام الاحسان ومقام الايقان ويصير يعرف شروط كل عبادة واركانها وسننها وآدابها في كل مقام من هذه الاربعة مقامات وهو علم عزيز .

خامسها : ان يعطيه الله تعالى علم فك رموز الحقائق وحل معميات الدقائق .

سادسها : ان يعطيه الله تعالى عـــلم آداب الدخول الى حضرة الله الخاصة بالصلاة وامهاتها عشرة آلاف ادب ، واما فروعها فلا تنحصر ، وما قدروا الله حق قدره .

سابعها : ان يعطيه الله تعالى علم استخراج جميع الكتب المنزلة من القرآن العظيم وتمييز جميع الشرائع عن بعضها وما تزيد كل شريعة او تنقص عن الاخرى .

وكان سيدي ابراهم المتبولي يقول : لما دخلت الخلوة اطلعني الله تعالى على رجوع جميـــع الكتب المنزلة الى القرآن ورجوع القرآن كله من حيث معانيه الى الفاتحة ورجوع الفاتحة الى الباء ورجوع الباء الى

النقطة ، وصرت استخرج جميع مذاهب المجتهدين من أي حرف شئت من حروف الهجاء .

ثامنها : ان يعطيه الله علم حضرات الاسماء ومعرفة اسناد كل قول في الشريعة الى اسم الهي :

تاسعها : ان يعطيه الله تعالى علم كل علامات الساعة وامهاتها الف علامة لا تقع كل واحدة الا بعد سنة ، ويصير يعرف الامور المبرمة والامور المعلقة من المنكرات فيشدد في المعلقة ويخفف في المبرمة لئلا يعارض فيما اخبر به الشارع .

عاشرها : ان يعطيه الله تعالى معرفة سائر الالسن الخاصة بالانس والجن فلا يخفى عليه فهم كلام احد منهم ولو تشكل في غير صورته الاصلية .

حادي عشرها : ان يعطيه الله تعالى علم سر القدر الذي طوى علمه عن الخلائق ما عدا محمد ﷺ ومن ورثه في المقام من طريق الكشف .

ثاني عشرها : ان يعطيه الله تعالى ما ينطوي عليه كل انسان من الخير والشر بمجرد رؤيه أنفه .

ثالث عشرها : ان يعطيه الله تعالى معرفة غسالات الخطايا في الماء الذي يتطهر الناس منه فيصير يميز بين غسالة الكبائر والصغائر والمكروهات وخلاف الاولى برؤية ذلك الماء فلا يخطىء .

رابع عشرها : ان يعطيه الله تعالى علم الطبائع ومعرفة ما يقبل الانتقال عن طبعه وما لا يقبل من سائر الحيوانات .

خامس عشرها : ان يعطيه الله معرفة العلوم التي يختص بهـا الانسان ، والعلوم التي يختص بها الملك ، والعلوم التي تختص بها البهائم ، وما يدخل مع الانسان قبره من العلوم ويدوم معه إلى الآخرة ، وما ينقطع حكمه بالموت .

سادس عشرها : ان يعطيه الله تعـالى معرفـــة ترتيب الأسماء الآلهية في الظهور وما اول اسم ظهر وما هو الذي تلاه في الظهور وهكذا ، وما هو الاسم المهيمن على سائر الاسماء .

سابع عشرها : ان يعطيه الله تعالى معرفـــة الآداب التي تختص بالبعث والنشور والحشر الى دخول الجنة ، ومعرفة الآداب التي تكون في الجنة ، وهل هي مستنبطة من آداب الشريعة ام يوحي بها الله الى اهل الجنة ، فان الادب مع الله لا يختص بمكان بـــل هو واجب على الدوام .

ثامن عشرها : ان يعطيه الله تعالى علم نسبته جميع الامور الى الله تعالى ، والى الخلق ومنه يعرف حقيقة مسألة : خلق الافعال التي عجزت عقول العلماء عن تحقيقها .

تاسع عشرها : ان يعطيه الله تعالى معرفة الجمع بين اقوال جميع المجتهدين واتباعهم ورجوعها كلها الى عين الشريعة من غير ترجيح قول على آخر كشفاً ويقيناً لا ظناً وتخميناً .

عشرونها : ان يعطيه الله تعالى معرفة أسرار القرآن والسنة المسمى بعلم الحقيقة ، ويطابق بينها وبين الشريعة ويراها حقيقة واحدة لهـا مرتبتان : عليا وسفلى .

حادي عشرينها : ان يعطيه الله تعالى معرفة جميع العلوم حتى يهلك صاحبها في عين ما يظن سعادته بها كعلوم البراهمة ونحوها .

ثاني عشرينها : ان يعطيه الله تعالى علم تطورات الاقوال والافعال والاغراض ومعرفة ما تطورت منه تلك الصور على اختلاف اجناسها بمجرد رؤيتها .

ثالث عشرينها : ان يعطيه الله تعالى وزن الرجال ومعرفة مقام كل انسان برؤية تدوير فمه أو بأصر عينه .

رابع عشرينها : ان يعطيه الله تعالى معرفة تفاصيل الآيات والصور وجميع الانبياء على اختلاف طبقاتهم وما فضل به كل واحد عن بقيّة اجناسه .

فهذه أربعة وعشرون علماً من ثمرات الخلوة في يوم وليلة ، وما زاد فبحسابه الى اربعين يوماً . انتهى كلام سيدي علي المرصفي رحمه الله .

ومن شأن الشيخ ان لا يجلس للمشيخة وفي بلده من هو أقدم هجرة في الطريق منه إلا ان يكون هو أعلم بها منه ثم يصير يستأذنه في ارشاد المريدين هيئة النائب عنه . وكذلك أجمعوا على انه لا يجوز للفقير التصدر لأخذ العهد وغيره مما يتعلق بطريق المشيخة الا بعد ان يجلسه شيخه او يجلس بإذن من ربه ألقاه في سره بالشروط المعروفة بين القوم ، وقد أذن لي شيخي بحمد الله في الجلوس كما مر بيانه في المقدمة وهو شيخي العارف بالله تعالى سيدي محمد الشناوي رضي الله عنه والحمد لله رب العالمين .

قال الشيخ محيي الدين بن العربي رضي الله عنه : واذا علم الشيخ

ان المريد قد استقل وكملت تربيته ودخل أوان فطامه وجب عليه ان يقطع عنه الإمداد من جهته ويتركه مع ربه ان شاء اقامه الله بين العباد وان شاء ستره بينهم ، ولا حكم بعد ذلك للشيخ عليه . قال : ويجب على المريد اذا ساوى شيخه أو جاوزه ان يلزم الادب معه ولا يجوز له ان يسيء معه الادب ابداً ، بل يحترمه وان لم يكن مقتدياً به ، قال : والذي نختاره دوام الاقتداء بشيخه . فأعرض يا أخي ما في هذا الباب من الآداب على نفسك فان رأيتها متخلقة بها فاشكر الله عز وجل ، فانك قد صرت مريداً . وان رأيت نفسك غير متخلقة بهذه الآداب فإياك ان تدعي انك مريد فان ذلك زور وبهتان ، وليكن ذلك آخر الباب والله تعالى اعلم .



الباب الثالث

في بيان نبذة من آداب المريد مع اخوانه

اعلم رحمك الله تعالى ان آداب الفقراء لا تنحصر لانها مجموع ما في الكتب الإلهية والاحاديث النبوية والآثار الصحابية والآداب السلفية ، ولكن نجمع آداب الفقير مع اخوانه كلهم ان لا يعاملهم الا بما يحب ان يعاملوه به ، وان يرجو لهم من الخير والمسامحة في ذنوبهم ما يرجوه لنفسه ، وان يحملهم في جميع ما يقعون فيـــه من مواطن الفهم على احسن المحامل مما يحب ان يحملوه عليه لو وقع هـــو في ذلك ، ويرجو لهم قبول التوبة ولو فعلوا من معاصي اهل الاسلام ما فعلوا كما يرجوا ذلك لنفسه اذا وقع فيما وقعوا .. فمن فعل بتفاصيل ما قلناه فقد وفى اخوانه حقوقهم ان شاء الله تعالى .

ثم لا يخفى عليك يا اخي ان المريد لا يقـــدر على التخلق بجميع آداب اخوانه لانه مشغول بحق الله تعالى عن حقوقهم ، فلا يقدر على الجمع بين حق الله تعالى وحق عباده ، وانما يؤمر ببعض اخلاقٍ لا بد منها في طريق الخلطة والمجاورة مما هو كالواجب في طريق العشرة . ثم اذا انتهى سيره وبلغ مبلغ الرجال فهناك يطالَب بالتخلق بأخلاق الكمال كلها . وايضاح ذلك ان الاخلاق المحمدية لا تخلع على احد ان دخل حضرة الله تعالى الخاصة التي يدخلها السالك عنـــد كمال سلوكه في العادة ، وتلك حضرة محرم دخولها على من بقيت فيه بقية من رعونات

النفوس ، بدليل عدم صحة الوضوء والصلاة لمن ترك لمعة من اعضاء الطهارة لم يصبها الماء او التراب . ثم اذا استقر في تلك الحضرة خلع عليه من الاخلاق المحمدية ما قسم له فيرجع متخلقاً بها من غير كلفة عليه في ذلك ، وأمر ان يعطي كل ذي حق حقه على الكمال من والد وزوجة وولد وصاحب وجار ونحوهم . ولو اننا امرناه في بدايته بذلك لما قدر على السير في الطريق لضعفه عن الجمع بين حق الله تعالى وحق عباده كما مر .

ثم وتقدير انه كان يعمل بها فهي كالاشباح بلا ارواح لكثرة العلل والدسائس في اعمال المريد ، اذا علمت ذلك فأقول وبالله التوفيق — من ادبه مع اخوانه ان لا ينظر لهم ابداً الى عورة ظهرت ، ولا الى زلة سبقت ، اذ هو معرض للوقوع في مثلها . ثم اذا وقع فهو يحب من جميع اخوانه ان يرحموه ويعتذروا عنه ويقولوا ان ابليس هو الذي اوقعه بارادة الله وانه اوقع من هو اعظم منه ونحو ذلك . فكذلك ينبغي له ان يعاملهم باقامة العذر وعدم الازدراء . فكما كره منهم الشماتة فيه وعدم اقامة العذر له ، فكذلك الحال فيهم يكرهون من يشمت بهم ويعايرهم ، ولو قيل لهم اجعلوا الشامت فيكم كالمعتذر عنكم لا يسمعون ولا يقدرون فكذلك الحكم فيه .

وقد اجمعوا على ان كل فقير اطلع على شيء من عيوب الناس ولو من طريق كشفه فهو في حضرة الشيطان لا في حضرة الله تعالى ولا حضرة ملائكته .

وقالوا : كل كشف اطلع صاحبه على شيء من عيوب الناس فهو

كشف شيطاني يجب عليه التوبة منه .

وقالوا : من نظر الى عيوب الناس وحملهم على المحامل السيئة قل نفعه وخرب سره وعدم الانتفاع بصحبة شيخه ، فالواجب عليه ان لا يتعدى النظر الى عورة نفسه ليسترها ، واما غيره فاذا أخبره وقدر على سترها فعل ، وان كانت تحتاج الى علاج فليدله على الشيخ ، لان المريد ليس هو معداً لاصلاح غيره وانما هو مشغول باصلاح نفسه فقط ليخرج عن رعوناتها .

وفي حديث الطبراني مرفوعاً : من تتبع عورات الناس تتبع الله تعالى عورته ، ومن تتبع الله عورته فضحه ولو في جوف رحله انتهى .

وكان الحسن البصري رضي الله عنه يقول : والله لقد ادركنا اقواماً لا عيوب لهم فتجسّسوا على عيوب الناس فأحدث الله لهم عيوباً .

وسمعت سيدي علي المرصفي رحمه الله يقول : كل من لم يستر على اخوانه ما يراه فيهم من الهفوات فقد فتح على نفسه باب كشف عورته بقدر ما اظهر من هفواتهم .

وكان سيدي احمد الزاهد رحمه الله يقول : اذا رأيتم احداً من اخوانكم على معصية لم يتجاهر بها فاستروه ، فان تجاهر بها بينكم فوبخوه ، ولا تفشوا ذلك ان لم يعلم به . فان لم ينزجر فوبخوه بين الناس مصلحة له لا تشفيا للنفس فلعله يرعوي وينزجر . وما دام يعصي في قعر داره ويغلق بابه عليه فهو لم يتجاهر الا ان كان هناك اطفال يحكون ما يرون فانهم كالرجال .

وكان الحسن البصري يقول : اذا بلغكم عن احد زلة ولم تثبت عند حاكم فلا تعيّروه بذلك ، وكذّبوا من أشاعها عنه ان لم يثبت ذلك عند حاكم ، لا سيا ان كان هو ينكر ذلك ـ لان الأصل براءة الساحة حتى تقام البينة العادلة عند الحاكم . ثم بعد ثبوت ذلك عنه فاياكم ان تعيروه ايضاً فربما عافاه الله وابتلاكم .

وكان سيدي محمد الغمري رضي الله عنه يقول : اذا رأيتم الفقير يتتبع عورات الفقراء في الزاوية فهو من أهل السوء ، وكل شيء حملهم عليه فهو وصفه هو ، ويجب على الشيخ اخراجه ان لم يتب لئلا يتلف حال الفقراء ويخيلهم من بعضهم بعضاً ، وان لم يخرج الا بالحكم الشرعي فاشتكوه له وأخرجوه وأقيموا عليه الوزن بالقسط ولا تسامحوه ، يخرب عليكم الزاوية عن قريب .

وكان يقول : ينبغي للنقيب ان لا يمكن الشباب العزاب ينامون في خلوة واحدة ابداً لان الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم ، فربما وسوس لأحد اللوث بهم وحملهم على محامل سيئة ليسوا من اهلها ، فيشغل قلوب الفقراء المتهومين والسامعين . ولا ينبغي لاحد من فقراء الزاوية وغيرهم ان يعترض على النقيب في منع العزاب من ذلك فيرجع اللوث عليه بسبب ذلك ، لان تفرقة اطفال المجاورين الذين يقرؤون القرآن هي من وظيفة النقيب لانه لسان حال الشيخ . فاذا اعطى طفلا لفقيه يقريه ويربيه فليس لاحد الاعتراض عليه ، بل الواجب على كل احد ان يفر من مواطن التهم ، فقد قال السيد عمر بن الخطاب رضي الله عنه : من سلك مسالك التهم فلا يلومن من أساء به الظن . قالوا : وما للشيطان سلاح في خراب الزاوية واهلاك دين اهلها اعظم من

تحريشه بينهم روسته لهم بمخالفة اغراض بعضهم بعضاً ، فيزين لكل واحد انه قائم بالحق ومن يعارضه على الباطل ـ فلا يكاد كل من الفريقين يرجع عما اراده .

وكان سيدي محمد الغمري وكذلك سيدي مدين رضي الله عنهما اذا جاء زاوية احدهما امرد جيد الوجه ـ لا يقبله ، ويقول ان حكم من يمكن الامرد الذي تميل اليه النفوس العفوية من الاقامة في زاويته حكم من يجعل على سطح داره قطع لحم ويطلب من الحدادي ان لا تنزل عليها انتهى .

فليتنبه الفقراء المقيمون في الزاوية لمثل الدسائس ولا يعترضوا على الشيخ ولا على النقيب اذا أخرج احدا من المرد ومنعهم المجاورة ، فان ذلك من عين الصواب والله اعلم .

ومن شأنه ان ينفق على نفسه وعلى اخوانه كلما فتح الله تعالى به عليه من الحلال اولاً فاولاً ، ولو كانت فجلة او خيارة ، ولا يعود نفسه الاختصاص بشيء عن اخوانه مطلقاً . فان من آثر نفسه على اخوانه في الشهوات لم يفلح ابداً ، وما صار الناس رؤساء في الطريق الا بكرمهم وإيثارهم وسلامة صدورهم من الحقد والحسد والضغائن . وقد أجمع الاشياخ على ان المريد متى أخر نصفا واحدا على اسم حوائجه المستقبلة مع حاجة احد من اخوانه الى ذلك خرج عن طريق الفقراء بالاجماع . قال المحققون : وكلامنا في الحلال اما ما فيه شبهة فلا يمسكه بحال .

وكان الشيخ ابو القاسم الجنيد يقول : ليس لفقير ان يمسك من

الدنيا شيئاً الا ان ينوي انفاقه على الحج مثلاً فيؤخر لاجله لكن باشارة شيخه . وقالوا : الفقير ابن وقته لا نظر له الى ماض ولا مستقبل والواجب عليه العمل على تنظيف باطنه من سائر ما يكرهه الله تعالى ، وهو كل شيء تميل اليه النفوس من الشهوات التي نهى الله تعالى اصفياءه عنها . وهذا شأنه ما دام سالكاً في الطريق . فاذا كمل حـــاله وبلغ مبلغ الرجال فهناك يعرف ما يأتي وما يذر ، فان ترك الدنيا كان ذلك بحق وان اخذهـــا كان ذلك بحق لانه خرج عن شبح الطبيعة وصارت الدنيا في يده لا في قلبه فيتصرف فيها تصرف حكيم عليم غير بخيل على احد بها ، الا ان منعه الشرع من اعطائه كأن كان ذلك يشغله عن الله او يفعل به معصية . ثم اذا خرجت الدنيا من قلبـــه فله تقديم نفسه وإيثارها على غيره اذا كان احوج عملاً بالعدل في ذلك فان نفسه اقرب المحتاجين اليه . وقد اجمعوا على ان المريد متى ترخص في ادخار الدنيا من ورائهم او طعام او ثياب تربى في باطنه البخـــل والشح والحرص ضرورة ، فيحتاج بعد ذلك الى علاج شديد ، وهيهات ان يزول بعد ذلك . ومن شك فليجرب . ولم يتخذ الله تعالى قط ولياً بخيلاً . وان كان الولي يمنع في بعض الاوقات لحكمة فلا يخرجه ذلـك عن الكرم لانه في ذلك متخلق بأخلاق الله تعالى ، فان من اسمائه المانع ، اي لحكمة لا بخل ، تعالى الله عن ذلك . وقد كنت في صغري ارمي كل شيء يأتيني من الدنيـــا هواناً بها مع اني كنت محتاجاً الى درهم منها ، وانما كنت افعل ذلك لأتعود الكرم وهواناً بالدنيـــا في عيون المحبين لها ومجاهدة لنفسي ، فرأيت اني خرجت عن محبتها بالكلية فنمت فرأيت القيامة قد قامت ونصب الصراط ادق من الشعر وأحد من السيف كما ورد ، وهو منصوب

الى جهة العلو كالحبل المتدلي من سقف وأكثر النـــاس يصعدون عليه فيزلقون ويقعون في النار . فأردت صعوده فلم اقدر فقال لي افتح كفك اليسار ففتحته فـأخرج من بين اصابعي شيء مقدار السفاية فقـال هذا الذي منعك ، فأردت الصعود فاستيقظت قبل الصعود . فكان ذلك من الله تعالى تنبيهاً على عدم حبسي الدنيا فالحمد لله رب العالمين .

ومن شأنه ان يكون عنده شفقة على دين اخوانه اكثر من شفقتـــه عليهم في امر دنياهم ، فينبههم في اوقات المواسم وتفرقة المواهب الإلهية كالأسحار والأوقات الفاضلة ، ويكون ذلك بسياسة ولين لفظ وسيادة ، لا بغلظة واحتقار ، فربمـا تحركت نفوسهم فلا يسمعون له . وكذلك ينبههم قبل الوقت ليدخل وقت الصلاة وهم على أهبة فلا يخافون فوت الاحرام مع الإمام او فوت السنّة الراتبة قبـل الفريضة ، كما عليـــه طائفة المتوسوسين ويقولون الوقت متسعاً ، وكثيراً ما يفوت احـــدهم صلاة الجماعة كلها . وكان بعض السلف اذا فاتته صلاة جماعة يعيدهـا وحده سبعاً وعشرين مرة مجاهدة لنفسه وان كان جمهور العلمـــاء على المنع من ذلك . ومن السلف الإمام المزني صاحب الإمام الشافعي كان يعيدها خمساً وعشرين مرة اذا فاتته الجماعة . وقـد رأيت مرة شخصاً من طلبة العلم بالجامع الأزهر جالساً يطالع في علم المنطق وصلاة الجماعـة في العصر قائمة ، فقلت : ألا تصلي ؟ فقال : الوقت متسع ، فقلت له : صحيح ولكن هل تقدر تجمع لك في صلاتك مثل هذه الجماعة ؟ فقال : لا ، فقلت له : فقم فصل ولا تغش نفسك . وينبغي لمن بات قائمـــاً يصلي من اول الليل الى آخره ان لا يرى نفســـه على احد من اخوانه الذين ينبههم وقت السحر ، بـل يرى نومهم اخلص من عبادته هو . فان

القلم مرفوع عن النائم دون القائم ، فربما كتب القلم فلان قام طول ليله رياء وسمعة ، وكان يجد في قلبه حلاوة اذا اطلع عليه الناس في ظلمات الليالي وهو قائم بين يدي الله عز وجل لا يستحي من مراعاة عبيده بين يديه ، ومثل هذا الى الاثم أقرب . فعُلم ان كل من قام ورأى نفسه أفضل من النائمين على غير وجه الشكر لله تعالى استحق اللعن والطرد ، فان ذلك هو ذنب ابليس الذي طرد به من حضرة الله عز وجل ، فافهم .

وأجمع الأشياخ كلهم على انه يجب على العبد ان يرى نفسه دون كل جليس من المسلمين ، ومن لم ير نفسه كذلك كان من المتكبرين ، والمتكبرون في جهنم . فان رأى نفسه خيراً من جميع اقرانه كان في النار تحت الكل ، وان ادخل الجنة كان في الجنة تحت الكل ، عكس من رأى نفسه دونهم .

وكان سيدي عبد العزيز الديريني رضي الله عنه يقول : من أراد ان يصير الوجود كله يمده بالخير فليجعل نفسه تحت الخلق كلهم في الدرجة لأن المدد الذي مع الخلق كالماء ، والماء لا يجري إلا في المواضع المنخفضة دون العالية او المساوية . فمن رأى نفسه مساوية لجليسه فمدده واقف لا يجري اليه ، أو أعلى منه فلا يصعد اليه ذرة من مدده ، وقد أوضحنا ذلك اول كتاب العهود فراجعه .

ومن وصية سيدي احمد بن الرفاعي لأصحابه وهو محتضر : من تمشيخ عليكم فتلمذوا له فان مدّ لكم يده لتقبلوها فقبلوا رجله ، وكونوا آخر شعرة في الذنب ، فان الضربة اول ما تقع بالرأس انتهى .

فلولا ان هذه الخصلة جامعة لكل خير ما ختم سيدنا احمد تربيته لأصحابه بها .

وقال يعقوب الخادم يوماً : يا سيدي أوصني ، فقال : كن خادماً لاخوانك ، مؤثراً لهم على نفسك ، محتملاً أذاهم بعد ذلك ، واحذر أن ترى نفسك أعلى منهم فتقع في حفرة ثم لا يساعدك منهم احد . ثم قال : أي يعقوب : انظر الى نخلة البلح لما قامت بصدرها وتعالت على جيرانها كيف جعل ثقل حملها عليها ، ولو حملت ما حملت لا يساعدها أحد ، وانظر الى شجرة اليقطين لما وضعت خدها على الأرض ولو حملت مهما حملت لا تحس بثقله تذكرة لأولي الأبصار .

وكان كثيراً ما يقول : من لم يكن له خدّ يداس لم يصر له كف يباس . لكن هنا نكتة ينبغي التفطّن لها وهو محل تلمذتنا لمن تمشيخ علينا ما لم يورثه ذلك عجباً وكبراً ، فان علمنا ذلك ولو بالقرائن امتنعنا من تعظيمه وتقبيل رجله رحمة به لا كبراً عليه ، والله تعالى أعلم .

ومن شأنه ان لا يزاحم على إمامه في الزاوية او غيرها لما في ذلك من تحمل بسهو المأمومين مع ضعف حاله ، بل هيهات ان يقدر على تحمل سهو نفسه وغفلته عن ربه . وايضاً فربما جره ذلك الى استحكام محبة الرئاسة فلا يفلح على يد شيخ بعد ذلك ، وعلامة محبته للرئاسة تكدره اذا انعزل منها وعلامة اخلاصه انه ينشرح اذا عزل . وقد بلغنا ان الشيخ جلال الدين السيوطي رحمه الله كان يصلي العصر في المدرسة البيبرسية وحده لعذر فجاء انسان وصلى خلفه فلما سلم قال له :

يا اخي ، لا تعد تصلي خلفي ، فاني عاجز عن تحمل نقص صلاتي نفسي فكيف اقدر على تحمل نقص صلاتك ، وهذا من قاعدة : السلامة مقدمة على الغنيمة ، ولكل رجال مشهد ، فإياك والاعتراض عليه فانه كان رجلا اعلم منك بيقين ، بـــل كان مجتهداً مطلقاً ومنتسباً لابي يوسف والمزني وابن القاسم كما رأيت ذلك بخطه رضي الله عنه ، فان المجتهد المطلق على قسمين منتسب وغير منتسب ، فالمنتسب هو من بلغ حـــد الترجيح في اقوال مذهب امامه ولم يخرج عن قواعده ، وغير المنتسب هو من انشأ مذهباً مستقلاً لم يسبقه اليه احد والله اعلم . ومن آداب الفقير ان لا يكون مقداماً لاخوانه في سوء ادب مع الشيخ ابدا .. كأن يخرج من تحت يد شيخه وتربيته ويتزوج بغير اذنه ويطلب الدنيا بالوظائف والحرف ويصير يوسع على نفسه ويأكل الشهوات ويمنع اخوانه من ذلك ، حتى لو قال له الشيخ انفق على اخوانك نصفاً واحداً لا يجيب . وفي ذلك اساءة أدب مع الشيخ ومع اخوانه لان جميع من في الزاوية يصير يحتج بفعله ويقول ان الشيخ كان رجلاً يقول لفلان اخرج عما بيدك ، وبذلك يتلف ضعفا المريدين . ثم من اقبح ما يقع فيه الفقير استهانته بغضب شيخه عليه لانه عنوان على غضب الحق جل وعلا عليه ومن استهان بذلك لعنه الله تعالى .

ومن علامة استحكام المقت فيه ان يصير يدعي الى مكان عليه من الادب مع الشيخ ، قيل ان تبدل وتغير فلا يجيب ويثقل عليه حضور مجالس الذكر والاوراد ويجعل بدلها نوما او كلام لغو على باب المسجد وغير ذلك ، ويحصل له قبض لما يقال له اسهر الليلة مـــع شيخك او وحدك ، ولا يكاد يخف عليه شيء من ذلك ، وربمـا دعاه شخص

من ابناء الدنيا الى السهر معه في طبخ طعام عرس ونحوه فيسهر معه طول الليل ولا يجد في نفسه ثقلاً من ذلك ، وان كلمه انسان في ذلك يقيم لنفسه الحجج الواهية ، ومثل هذا لا ينبغي للشيخ ان يقيم عليه ميزاناً بل يجعله كالأجانب ولا يقول في نفسه ان هذا كان مريداً لي فلا أتركه من المناقشة ، فربما فجر على الشيخ وصار يقطع في عرضه في المجالس ، كما وقع ذلك لبعضهم ، فليتنبه الشيخ لزمانه ويلحق بلاحق اللاحق ، فانه في النصف الثاني من القرن العاشر صاحب العجائب والغرائب .

وليكن على علم سيدي الشيخ انه ما خالف مريد شيخه وخرج من تحت تربيته إلا استحوذ عليه الشيطان وصار يركبه كما يركب الحمار ويصير هو الناطق فيه عنه ، وربما كان الشيخ يجهل مثل ذلك فيصير يتعجب من قلة حيائه وقبح عبارته ، ويعتقد ان ذلك من كلام مريده ، والحال انه من كلام ابليس .

وقد وقع لي ان مريداً خرج من تحت تربيتي فغضب من نصحي مرة فكشفت رأسي وغالطته واستغفرت في حقه كما أفعل مع الأجانب الذين ليس بيني وبينهم صحبة ، ورأيت ذلك أهون من مقاطعته وأقل إثماً له وللاخوان فانهم ربما استغابوه ووقعوا في عرضه لما خرج من طريقهم وغيّر وبدّل . ثم الذي ينبغي للشيخ مسارقة مثل هذا بالنصح من طريقة بعيدة ومدحه في بعض الأوقات وقوله انك قد وحشتنا كثيراً ويأمر اخوانه بذلك ، فربما خمدت ناره وحن الى اخوانه . ومن

ترك مثل هذه السياسة كان كمن غضب في البرية على غنمه حين شردت عنه وروح الى البلد وتركها للذئب يفترسها والله اعلم .

ومن شأنه ان يكون سداه ولحمته مسامحتـــه لاخوانه في كل شيء أذوه به من قول أو فعل أو سوء ظن ، لا سيما اخوانه المقيمـــين في الزاوية من البطالـين ، فان ابليس ما له شغل إلا اشتغـال مثل هؤلاء ببعضهم بعضاً ، إذ ليس معهم نور يحرق ابليس ، ولم تزل الأشيـــاخ تبتلى باقامة جماعة من الخابيل عندهم فيصبر الشيخ عليهم ويحذر اخوانهم من سلوك طريقهم لئلا يتلفونهم بمشاهدة أحوالهم الناقصة .

وقد كان سيدي علي المرصفي رحمـــه الله يقول : يجب على المريد البطـــال ان يفرح بتحذير شيخه الناس من مجالسته لئلا يلحقه إثم من تبعه في الكسل ومتى تكرر مثـل ذلك فقد نقض عهد شيخه .

وكان سيدي احمـد الزاهد يقول : ما صبر مريد على الكـــلام في عرضه واشتغل بالله ورضي بعلمه تعالى إلا جعله الله تعـالى إماماً يقتدى به عن قرب ، وما تعلق مريد من كلام قيل فيه إلا صار وراء الناس .

وكان سيدي محمد الغمري رحمـه الله يقول : من أراد ان يكون إماماً يقتدى به فليخلص النيّة في خدمة اخوانه ، ويصبر على جفائهم له وكلامهم في عرضه ، وحملهم له على المحامـل السيئة في خدمتـــه لهم وجميع أحواله .

وكان الإمام الحسن يقول : من أدب المريد أن يخـــدم اخوانه ثم يعتذر اليهم بأنه ما قام بواجب حقهم ثم يقر بالخيانة لهم على نفســـه

تطييباً لقلوبهم ، ولو علم انه بريء الساحة ما لم يترتب على ذلك حد وتعزير ، وإلا دخل فيمن ظلم نفسه ، وذلك حرام كما تقدم تقريره في الباب قبله .

وقد كان الإمام ابو بكر بن فورك رضي الله عنه يقول : ما سمي السندان بذلك إلا لصبره على دقه بالمطارق والله أعلم .

ومن شأنه ان يعامل اخوانه بالكرم والإيثار بحقوقه ، فلا يكون له التفات الى الدنيا ولا الى مطالبة ناظر ولا جابٍ بمعلوم وظيفته إلا اذا كان مضطراً ، وان وقع انه طالب الجابي او الناظر بعنف اعتذر الى اخوانه وقال اعذروني فاني كنت مضطراً فلا احد يتبعني في ذلك إلا أن يكون مثلي ، خوفاً ان يتشبهوا به ويحتجوا بفعله فيصير عليه التبعة في ذلك .

وكان الإمام القشيري رحمه الله يقول : ظلمة الركون الى المعلوم تطفىء نور الوقت ، فليحذر الفقير من دعواه عدم الركون أو أن مثل ذلك لا يضره ، وليرجع الى قول شيخه في ذلك ، فان نهاه عن الركون الى المعلوم وعدم المطالبة به فليسمع منه فانه أمير عليه وعلى ما يرقيه والله أعلم .

ومن شأنه ان لا يصدق في اخوانه نماماً وان نقل اليه ان اخوانك يكرهونك وقال رأيتهم كلهم البارحة متحلقين يجرحونك ويذكرون نقائصك ونفسك الخبيثة ، فليقل له يا فلان : انا من محبّة اخواني وودهم على يقين ومن كلامك على ظن ولا آترك يقيناً . فبذلك يتحرى النمام ولا يعود ينقل اليك شيئاً . وان قلت له أنا لا أصدقك حتى أجمع

بينك وبينهم وأنظر هل يصدقونك فيما قلت عنهم أو يكذبونك ، فانه لا يعود يأتي اليك بالنميمة عنهم أبداً كما جربنا ذلــــك . وما لإبليس سلاح يفسد به حال المريدين المقبلين على الله تعالى أقوى من أن يشغلهم ببعضهم بعضاً ، لعلمه بأن عبدهم الرياء وطلب المقام عند الخلق ، وانهم يقابلون كل من سعى في هدم مقامهم ، ولو عـــلم إبليس انهم أخلصوا لله تعالى كان أشغلهم بأمر آخر غير هذا ، فليكن الفقراء على حذر منه مثل ذلك. والله أعلم .

ومن شأنه أن يقوم بخدمة اخوانه ويكون مقداماً لهم في الخدمة ، فلا يرمي بنفسه إلى الكسل والخمول ، ويمتنع من مساعـــدة الفقراء في قضاء حوائجهم الزاوية ، ويحتج بالذكر او القرآن ، بـل ينظر أولاً في تحصيل أمور المعاش التي يورث قلبه الالتفات اليها ، ثم بعد ذلك يذكر ويقرأ . وليتأمل من لا يخدم الفقراء لو انهم كلهم قالوا : شيء لا يلزمنا القيام به ، كيف يصير كل واحد منهم يجري على اللقمـة ويقدمها على سائر مهماته في الدين ، فمن لم يخـدم فلا أقل من شكر من يخدمـــه والاعتراف بفضله ، فليسمع المريد للشيخ أو النقيب إذا قال له انقـل الحطب ، أو احمل قفة القمح إلى الطاحون ، أو إيت بها ، أو احمل طبق الخبز الى الفرن ، أو اجمع الوقيـد للفرن ، ونحو ذلـك ، فانه لا بد لأهل الزاوية ممن يقوم لهم بذلك ، إما بأنفسهم وإما بغيرهم . فاعلمْ انه ينبغي للشيخ اخراج كل من أبى الخدمة لأنه يتلف بقية الجماعة ويفتح عليهم باب تعسير الوصول الى ارزاقهم ، فان الله تعـالى ليسهل على العبد طريق رزقه بحسب ما العبد عليه من خدمة الله تعالى وخدمة عبـــاده .

ولا ينبغي لمن له مروءة من المجاورين أن يكون عيلة على غيره ، أو يعيش في جماعة العجائز والأرامل والعميان الذين في الزاوية . وقد كسل عندي جماعة عن الخدمة لأنفسهم ولاخوانهم فعسر الله تعالى عليهم أسباب أرزاقهم . وكذلك وقع لجماعة من فقراء الزوايا فذهب من وقفهم نحو الثلث للظلمة ، ففتشناهم فوجدنا ثلثهم ترك الاشتغال بالعلم والقرآن وصاروا طول نهارهم جالسين على حوانيت التجار والسوقة أو جالسين في الزاوية بطالين لا دنيا يحصلونها ولا آخرة .

وسمعت سيدي علي الخواص رحمه الله يقول : ان الله تعالى ييسّر الرزق لمن خدمه خالصاً مخلصاً وخدم اخوانه . كذلك وسمعته يقول أيضاً : لا يسهل الله تعالى على أحد رزقه ويوسعه عليه أبداً ما عاش إلا إذا كان يتعطّف على اخوانه بكل ما زاد عن حاجته . وكذلك القوم لا ييسّر الله تعالى عليهم أرزاقهم ويوسعها عليهم إلا اذا تعاطف بعضهم على بعض بكل شيء زاد عن حاجتهم ، وبالجملة فمن كان قائماً في مصالح الخلق كان الوجود كله يمده ويساعده ، ومن اشتغل بمصالح نفسه فقط دون اخوانه تخلف الوجود عن مساعدته وربما صار يقاسي في تحصيل رزقه وجده أشد التعب ، ومن شك فليجرب .

كما ان الشيخ اذا خصص نفسه عن الفقراء ولم يؤثرهم على نفسه بشيء ، أو لم يشركهم فيما بيده من الطعام وغيره ، يتوقف عليه رزقه ، كذلك والمريد الصادق ينظر في صفات شيخه التي هو عليها ان طلب ان يكون مثله في سعة الرزق أو غيره . وقد حول الله تعالى عن جماعة من الفقراء الرزق لما شحوا على الفقراء بما يدخل في يدهم

وتخصصوا به وصاروا يسألون الناس بالحال والقال ، وكان لسان حال جناب الحق تعالى يقول للملائكته انظروا في حال عبادي فكل من رأيتموه يؤثر الناس على نفسه بطعامه وثيابه وجميع ما يدخل يده فزيدوه من الرزق ، وكل من رأيتموه يصطاد على اسم الفقراء ثم يتخصص به فحولوا عنه الرزق ، فليتنبه المريد لمثل ذلك ويؤثر اخوانه على نفسه بالخدمة لهم وادخال الراحة على نفوسهم وأبدانهم ، وليسمع للشيخ فان مقصود الشيخ ان تصير جماعته كلهم مثله لكل واحد زاوية وفقراء وسماط والله تعالى أعلم .

ومن شأنه أن لا يكون مقداماً لاخوانه في التكاسل عن حضور مجالس الذكر بالكليّة ، او عن الحضور في أول المجلس ، أو عن حضور صلاة الجماعة ، أو مجلس العلم أو الأدب ، فمن كان مقداماً لاخوانه في ذلك أساء الأدب معهم وكان عليه وزر كل من تبعه . وفي الحديث لا يزال قوم يتأخرون – يعني عن صلاة الجماعة – حتى يؤخرهم الله في النار . ومذهب الإمام أحمد رضي الله عنه ان صلاة الجماعة فرض في الصلوات الخمس ، ولو أنه صلى وحده عصى الله عز وجل . ثم ان الذي ينبغي لكل من تخلف عن مجلس خير ان يهرت نفسه ويوبخها بحضرة اخوانه ويقول لهم احذروا ان تتبعوني في ذلك فاني أخطأت في تخلفي عن هذا الخير . وقد سبق الى مثل ذلك سفيان الثوري رضي الله عنه فكان يتهم نفسه ويقول لأصحابه احذروا أن تقتدوا بأفعالي فاني رجل قد خلطت في ديني . وينبغي له اذا تخلف عن أول المجلس وجاء في أثنائه ولو في الدعاء بعد الفراغ أن يحضر ولا يستحي أبداً ، كالحكم فيمن أتى الجماعة وهم في التشهد الآخر يستحب له الاحرام ليحصل له جزء من فضل

الجماعة أو أجزاء صغـــار ، ولا ينبغي لفقير تخلف عن خير أن يقيم الحجج على اخوانه اذا لاموه على ذلك فانه مجادلة عن النفس بالباطل ، بل الذي ينبغي له المبادرة الى الاستغفـار وقوله جزاكم الله تعـالى عني خيراً ، وهـذا دليل على شـدة محبتكم لي وانكم أشفق على ديني مني ، ودلك ليعودوا عليه بالنصح ثاني مرة ، بخلاف من يجادل عن نفسه ويقول لهم اعرف انكم تكرهونني من قبل اليوم .. فانهم لا يعودون الى نصحه خوفاً من شدة غضبه ، والله تعالى أعلم .

ومن شأنه أن لا يكون مقداماً لاخوانه في الخروج من مجلس الذكر قبل الفراغ منه ، لا سيما اذا احتبك المجلس في شدة الذكر فان ذلك يضعف قلوب الذاكرين ، وليستعــد للمجلس بقلة الأكل والشرب حتى لا يحتاج الى تجديد طهارة عن الحدث من حين يجلس الى حين يفرغ ، لا سيما مجلس الذكر من بعد صلاة الجمعة الى العصر ، فقد ورد : من صلى الجمعة وجلس لذكر الله تعالى الى العصر كان كتاباً في عليـــين . وفي الحديث : المؤمنون كالبنيان يشد بعضه بعضاً .

ومن شأن ضعفاء المريدين انهم يستهينون بالعبادة إذا لم يكثر الفاعلون لها ويشتد عزمهم لها اذا كثر العاملون لهـا ، فلا ينبغي لعاقل ان يكون سبباً لضعف همة اخوانه عن الخير . وقـــد عددت مرة لبعض المجاورين نزول الميضـــاة والخروج لباب الزاوية عشر مرات من صلاة الجمعة الى العصر فنزلت وراءه الميضاة فرأيته يدور الأخلية واحداً واحداً يتأمل فيها ويقف ساعة ثم يطلع الزاوية ، فعرفت ان ذلك ترويحـــاً لنفسه من حضرة الذكر ، ولو انه كان صادقاً لم يفارق المجلس لينظر

مواضع القذر التي هي مجلس للشياطين ، فالعاقل من تنبه لنفسه واكرمها على الخير حتى تصير تحب الخير ولا تمل منه إلا في النادر .

وسمعت سيدي علي المرصفي رحمه الله يقول : اياكم ان تخرجوا من حلقة الذكر اذا احتبك المجلس آخر الذكر لان ذلك يضعف همة الضعفاء . ولعل ذلك هو المعنى الذي حرم لاجله الانصراف من صف القتال الا متحرفاً لقتال او متحيزا الى فئة اخرى يقاتل معهم ، والذاكر مقاتل في سبيل الله للشيطان بيقين ، فليس له الانصراف ادبا من ناحية المجلس الى اخرى الا متحرفاً لقتال مكان او متحيزاً الى من فيه ، يذكرون الله تعالى بقلوب ضعيفة فيقوي قلبهم على الذكر ويطرد عنهم ابليس بذكره ، فانه اذا رأى قلب الذاكر غافلا افترسه وركب على قلبه فيستأصله ويهلكه . فاذا جاءه من يذكر بهمّة وعزم استخلصه من يد الشيطان كما يستخلص المقاتل الأسير من يد العدو . وقد اباح الله للمقاتل ان يقف في أي مكان كان من صف القتال وما حرم عليه إلا الانصراف والله اعلم .

ومن شأنه ان لا ينصرف من مجلس الذكر الذي يكون مع الشيخ ولو لحاجة ضرورية إلا بعد استئذانه الشيخ صريحاً او بالاشارة ، لا سيما مفارقة من علت رتبته من اصحاب الشيخ فانه يتعين عليه المشاورة جزماً لئلا يقتدي به غيره فتضعف حلقة الذكر ، لان المجالس انما جعلت ليقوي بعض الناس بعضاً ، فاذا كسل واحد كان جاره نشيطاً ، وكلما عظم الفقراء امر مجلس الذكر واعتنوا به كلما علت همة الفقراء . وكلما استهانوا بحضوره كلما انحطت همة غيرهم ، لا سيما الاكابر من من جماعة الشيخ ، فان احدهم اذا انصرف من المجلس قبل فراغه كان

كأمير العسكر اذا خرج من القتال مكسوراً فان غالب الجيش يتبعه . فليحرص اكابر المجلس على ان احـدهم لا يقوم من المجلس حتى يفرغ لئلا يقتدي به الناس ، فان ابليس لا يفارق هذه المجالس ابدا ، فربما رأى الفقير مقبلاً على الله في ذكره وهو في جمعته معه فيقول له : قم فانظر السوق من على باب الزاوية او اذهب الى بيتك فانظر ماذا يصنعون وارجع ، ومقصود ابليس بذلك ان يخرجه من تلك الجمعية والحضور مع الله تعالى وينقص أجره . فاذا وسوس بذلك لفقير فينبغي له ان يرد كيده في نحره ويقول : إخسأ لعنك الله اتريد ان تخرجني من حضرة الله تعالى الى حضرتك . فان لم يرتد عنه خاطر ابليس فليعرض ذلك على الشيخ ويستأذنه في ذلك فان اذن له في الخروج فذلك والا لزمه مخالفة ابليس ، فان الله تعالى جعل الانبياء ونوابهم من الدعاة الى الله تعالى أمناء على الامّة في كل ما يرقي درجاتهم ، كما اشار اليه قوله تعالى : انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله واذا كانوا معه على امر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه الآية . ومجالسة الاشياخ في الذكر وقراءة القرآن والعلم امر جامع بيقين . فلا ينبغي لاحد ان يفارقهم حتى يستأذنهم ، ثم انهم اذا استأذنوا الشيخ في المفارقة لحاجة لم ينبـغِ لهم ان يقوموا دفعة واحدة فيضعفوا قلب الباقين بل يقومون متراسلين واحدا بعد واحـد مثلا . ثم اذا فرغ اهل المجلس من الذكر وأرادوا الجلوس فليرجعوا الى اماكنهم التي كانوا جالسين فيها قبل الزحف الى قلب الحلقة ، ولا ينبغي لهم بعد الذكر ان يجلسوا في جانب الحلقة ويتركوا الجانب الآخر خاليا فيدخل لهم الشيطان من ذلك الموضع ، كما ورد ذلك في صفوف الصلاة فان الشارع امرهم ان يتراصوا في الصفوف لئلا يدخل الشيطان

بينهم فيوسوس لاحدهم في صلاته بما ليس له به حاجة . ومعلوم ان مجالس الذكر انما هي محاربة للشيطان ، وكلما بعد العدو كان اقوى لنا من التحامه بنا .

قال الاشياخ : ولا ينبغي للمنشد ان ينشد بعد فراغ الذكر الا بعد استقرار نفوس الذاكرين وفراغهم من وارد الذكر ، فلا ينبغي الانشاد على اثر لذكر : لان ذلك يفرق قلوب الجماعة . وكذلك لا ينبغي للمنشد ان يتخذ الانشاد عادة سواء احتاجوا اليه في التنشيط ام لم يحتاجوا اليه بل يجعل الانشاد خاصا بكل وقت رأى همتهم فاترة عند الذكر ، وهذا من باب يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال . وما دامت الهمة قوية فلا ينبغي له الانشاد لان قلوبهم مجموعة على حضرة الله تعالى والقاء بالهم لمعاني ما ينشده المنشد يفرقهم عن الله تعالى .

وكان سيدي مدين لا يدع المنشد ينشد الا بعد سكتة فيسكت الجماعة حتى يرى منهم الملل ساعة ثم يأمر المنشد فينشد ، فاذا اجتمعت حواسهم ذكر بهم ، فلا يزال كذلك حتى يفرغ المجلس ، وربما رأى همة الفقراء قوية فيمنع المنشد من الانشاد جملة . ومن هنا قالوا ينبغي ان يكون المنشد هو الشيخ لانه اعرف بجمعية قلوبهم وتشتيتها ، فان لم يتيسّر فرجل صالح له المام بمصطلح الفقراء ما سيأتي بسطه عند مبحث السماع في الخاتمة ان شاء الله تعالى . ثم اذا دعوا وانصرفوا من مجلس الذكر فلا ينبغي لاحدهم ان يتحدث مع اخيه بكلام مطلقاً الا لضرورة شرعية لان الكلام اللغو بعد مجلس الذكر يطفىء النور الحاصل بالذكر . فلينصرف الفقراء كلهم ساكنين مطرقين الى خلاويهم او امكنتهم التي يجلسون فيها ويشرعون فيما اقامهم شيخهم فيه باذن الله تعالى من قراءة

او ذكر او اشتغال بعلم وقضاء حاجة ونحو ذلك .

قال الاشياخ : وانما أوجبوا على المريد مواصلة الاذكار بعضها بعضاً لتتراكم انوارها على القلب وترحل عنه الظلمات الحاصلة بارتكاب الحرام والشبهات في القول والفعل . وقالوا : من لغا بعد المجلس فكأنه لم يذكر شيئاً وربما كان لغوه ساعة يرجح في الظلمة على نور ذلك المجلس كله ، فينبغي للشيخ او النقيب ان ينبه الفقراء على مثل ذلك ويقول لهم : يا فقراء قوموا مأجورين الى اورادكم ولا تخلطوا نور الذكر بظلمات اللغو حتى ان ذلك يصير عادة الفقراء ولا يحتاجون الى تنبيه والله اعلم .

ومن شأنه ان يحب لاخوانه ما يحبه لنفسه ويقرب عليهم طريق الوصول الى مراتب الكمال كما يحب ذلك لنفسه وذلك بالاشتغال بالذكر على الدوام ، فان الله تعالى قد جعل لكل مريد مناهل وعقبات لا يصل الى مقام الكمال الا بقطعها كلها ، فان شاء قطعها في جمعة ، وان في شهر ، وان شاء في سنة ، وان شاء في عدة سنين على قدر عزمه وهمته . ثم انه بعد الوصول يتنعم باقدار الحق تعالى الجارية عليه بقية عمره ، فأطول الناس نعيما من قطعها في جمعة وبعده من قطعها في شهر وبعده من قطعها في سنة وهكذا .

وقد أنشد سيدي الشيخ ابو النجا اللغوي المتأخر رحمه الله في قطع هذه الحجب من موشح :

اجل مرآتك ترى الحق اليقين * واخرج عن ذاتك لنفرح بآخرين *
تنظر ما فاتك على طول السنين * يا عبد الخندوس * لفقدوا عبوس *
تحمل للدبوس * وللمسكين تدوس * دخان المشعل * ودقات الطبول *

وافعل لا تفعل * تحير فيها العقول * ما اسرع ما يعزل ومن بعد الوصول اينو قال محبوس * في قفضوا يدوس * اياك الناموس يطلع كالقـادوس ملا واندق روس * الى آخر ما قال والله تعالى اعلم .

ومن شأنه ان يراعي مواطن غفلـــة اخوانه عن الذكر في الزاوية فيذكر الله تعالى وحده في وقت غفلتهم لتنزل الرحمة على اخوانه فيحسن اليهم بذلك ويُكتب له اجر عظيم ويشهد له يوم القيامة بذكر الله كل من سمع صوته من ناطق وصامت ولا يشهدون له الا ويقبل الله شهادتهم. وربما قام ذكر الواحد في وقت غفلة اخوانه في الاجر والثواب بعدد من غفل منهم ، والله تعالى يحب من عباده من يحب ذكره ويراه قوتاً وشفاء له من كل داء .

واخبرني سيدي محمد السروي رحمـه الله ان جماعة تراهنوا على انهم يجدون زاوية سيدي محمد الغمري في المحلة الكبرى ساكتة عن الذكر في ليل او نهـار فلم يجدوها فكانت كالكعبة بالنسبة للطـائفين ، فهكذا كانت جماعته .

واخبرني الشيخ شمس الدين الطنيخي احد اصحاب سيدي الشيخ ابي العباس الغمري ان ولد المجاور او عمه كان يأتي الى الزاوية فلا يتجرأ احـــد منهم ان يسلم عليه حتى يشاور النقيب ، وكان احدهم اذا كلمه اخوه كلمة سب او تنقيص لا يرد عليه بل يحفظها ــ ان لم يصفح عنه ــ الى يوم المنـــاقشة الذي كان لهم ، وكان الشيخ يغلق عليهم باب المكان الذي يجلسون فيه ويأخذ مفتاحه تحت ركبته حتى لا يدخـل عليهم غريب ثم يتحاكمون بين يدي الشيخ فيأخذ للمظلوم حقه من الظـالم . وكان

الذي يسامح أخاه اكرم عند الشيخ من الذي يأخذ حقه ، وكان يقول لهم لا ينبغي لفقير ان يمسك على اخيه كلمة جفاء في حال غضبه لان بعض العلماء لا يقول بصحة طلاق الغضبان لتزلزل عقله ، وكان يقول كل من مسك على الناس كل كلام قالوه فيه كثر اعداؤه وانحطت همته الى سافلين .

وفي كلام سيدي احمد بن الرفاعي رحمه الله : من انتصر لنفسه واجاب عنها تلف وتعب ، ومن سامح الناس وفوض امره لمولاه نصره من غير اهل ولا عشيرة والله اعلم .

ومن شأنه اذا كان مجاوراً في زاوية الشيخ ان يحمل النهرة والكلمة الجافية من كبراء الزاوية كالخطيب والامام والنقيب والجابي ما داموا سالكين ، لان الناقص يرى له الفضل على اخوانه بتربيتهم وتعليمهم الادب وخدمتهم ، فلا ينهر احد الا وهو يرى نفسه عليه ، فاذا كمل سلوكه صار يرى فضلهم عليه الذي كسبوه الاجر ، ولذلك يمتثل امرهم اذا استقضوه في حوائجهم ، لكن باذن الشيخ ان كانت الحوائج لهم ، وان كانت للزاوية فلا يحتاج الى اذن من الشيخ خاص بل ذلك داخل في اذنه ، للنقيب ان يستعمل في حوائج الزاوية من شاء من المقيمين . وقد تقدم انه يحرم على المجاورين التعصب بالباطل لحظ النفس على كل من اقامه الشيخ نقيباً او جابياً او خادماً ، والطعن عليه بنحو قولهم هذا لا يصلح لهذه الوظيفة . ويجب عليهم التسليم له . فان الطعن فيمن اقامه الشيخ يؤدي الى ضرر شديد وتشويش القلوب بعضها من بعض ويوقف عليهم اسباب مغاشهم ، وربما خرجوا من كثرة الشكاوي للحكام

والنكد من الزاوية وعملوا صناعاً ومحترفين او يسعوا على وظائف ضعفاء الفقهاء ومساكينهم ، فلا يخلّوا في الحارة مسجداً ولا سبيلاً في يد احد إلا سعوا اليه فتمقتهم قلوب المؤمنين بعدُ ان كانوا يتبركون بهم لانهم اخرجوا قلوبهم من الخير وملأوها بحب الدنيا ومضايقة اهلها قبل ان يخربوا زاويتهم . وربما سكن ابليس عندهم في الزاوية وصار هو الشيخ لهم ان داوموا على الشرور والنزاع ، فلا يزال يوسوس لهم في امر بعضهم بعضاً بسوء الظن ونقل الكلام والفتن حتى لا يخلي لهم وقتاً لعمل الدنيا ولا لعمل الآخرة ، وينقادون له اكثر مما كانوا ينقادون لشيخهم الإنسي ، وذلك لان شيخهم الإنسي كان يدعوهم الى كل شيء يخالف هوى نفوسهم ، وابليس يدعوهم الى كل ما تهواه نفوسهم ويحجبهم عن شهود قبيح افعالهم حتى لا يكاد احد منهم يتوب من زلة وقع فيها ولا يستغفر . وتقدم انه ليس لابليس مصيدة يصطاد بها فقراء الزاوية اعظم من التحريش بينهم واشتغالهم ببعضهم بعضاً فيقطعهم بذلك عن الاشتغال بالله عز وجل ، ويصيرون كالشياطين لا يذكرون إلا النقائص ولا يطلعون الا على العورات ، وتتجلى لهم صفاتهم القبيحة فيظنون انها صفات غيرهم والله تعالى اعلم .

ومن شأنه اذا كان فقيها ان لا يعارض النقيب اذا استعمل احداً ممن يقرأ عليه في قضاء حوائج الفقراء كالخبز والعجين ، بل الواجب على المجاور خدمة نفسه واخوانه بنفسه او بأولاده الذين يقرؤون عليه ، وكل من خالف في ذلك ومنع اولاده ان يخدموا احداً مع اكلهم من طعام الزاوية نسبوه الى غرض فاسد ، ولاثوا به ، وقذفوا عرضه ، لا سيا ان كان الاولاد وجوههم نظيفة . هذا كله اذا استخدمهم النقيب بالاذن العام . فان

صرح شيخ الزاوية له باستخدامهم فليس للفقيه منعه من ذلك قطعاً . فليكن الفقيه الذي يقرىء اطفال الزاوية حاذقاً يلحق بلاحق اللاحق ولا يخلي احداً من اخوانه يظن به السوء ويرغب اولاده في قضاء الحاجة على ما جرت به العادة بالتناوب او بحسب ما يراه الشيخ ، فانه ثم من لا ينفع في القراءة لتشتت ذهنه وينفع في الخدمة كما هو مشاهد في الزوايا ، فيمكث الواحد العشرين سنة ولا يحفظ القرآن ، فمثل هذا تبين لا يصلح ان يكون فقيهاً فيستخدم او يتعبد بالذكر والاوراد وإلاّ جرته البطالة الى الفواحش ، فينبغي لفقهاء الزاوية كلهم ان يرغبوا اولادهم في قضاء الحاجة من غير ترجيح اولاده على اولاد غيره والله اعلم .

ومن شأنه ترغيب اخوانه المترددين الى الزاوية في ذكر الله تعالى مع الفقراء صباحاً ومساء ، ولا يتخذوا جلوسهم في الزاوية للغو والغفلة وذكر تواريخ الناس ، فان ابليس بالمرصاد لمثل هؤلاء فيحضرون على نية مجالسة الشيخ او غيره ويعصون الله في بيته ! فليكن الفقير رحمة على اخوانه ويحب كثرة الاخوان في الذكر محبة في الله عز وجل لا حباً في المشيخة ، كما يقع فيه بعضهم . ويتعين كثرة الحث على الحضور إذا كان الورد طويلا ، كسهر ليلة الجمعة أو العيد أو ليالي القدر ، فربما مل بعضهم فينام ويسهر البقية . واذا كانوا جماعة قليلة فربما غلب عليهم النوم كلهم فبطل المجلس . وان نام أحدهم لحظة بين الظهر والعصر منعته في السهر الآتي ، وقد كان ﷺ يقول استعينوا على قيام الليل بالقيلولة وبأكلة السحر على الصيام .

وكان سيدي عبد العزيز الديريني رحمه الله يقول : النوم قبل الظهر

دواء للسهر الماضي ، وبعد الظهر دواء للسهر المستقبل انتهى .

والمريد الصادق يغير على زاوية شيخه ان يختل نظامها في ورد أو وظيفة ، بل كل شيء رآه معطلاً فعله لله تعالى كما مر بسطه في هذه الرسالة والله أعلم .

ومن شأنه ان يحذر اخوانه من سلوك مواطن التهم بحيث يصير احدهم اذا نسب اليه فسق من حرام او فاحشة يصدق الناس فيه ذلك ، فللشيخ ان يؤنبه على سلوكه مسالك التهم ليسد الباب الذي أتاه من تصديق الناس في كشفه الفواحش ، ولو انه كان حفظ ظاهره من الوقوع في اسباب قلة الدين ما قبل أحد فيه الزور والبهتان ، بل كان الناس يكذبون من أضاف اليه شيئاً من النقائص ويقولون حاشا لله ان يقع فلان في مثل ذلك ، فاعلم ان محل تأديب الشيخ له انما هو على تساهله في عدم حفظ ظاهره لا على التهمة والله أعلم .

ومن شأنه ان يحث اخوانه على مجلس الذكر صباحاً ومساء برحمة ورفق اذا تعوق الشيخ عن الحضور ، ولا يعلق ذلك بحضور الشيخ فان الشيخ له أوراد أخر غير أوراد المريدين ، وان حضر معهم فانما ذلك لما يراه من ضعف قلوبهم وهمتهم عن الخير لا غير . وتقدم انه ليس للمريد ان يتشبه بالشيخ في أحواله إلا إن أمره الشيخ بذلك ، فليلزم المريد ورده الذي أقامه الشيخ فيه ولا يتخلف عن الذكر مع الجماعة إلا لضرورة يعذره بها الاخوان . وقد كان شخص من مريدي سيدي الشيخ مدين يذكر مع الجماعة ، ثم ترك الذكر وصار يذكر وحده ، فقال له الشيخ في ذلك فقال يا سيدي ان الاجتماع انما جعل لمن همته

ضعيفة وقلبه ميت ، وأنا بحمد الله قلبي صار حياً لا أحتاج ان اتقوى بغيري ، فأمر الشيخ باخراجه من الزاوية ، وقال : ان مثل هـــذا يتلف الجماعة فيصير كل فقير يقول أنا لا أحتاج الى الاجتماع بغيري في الذكر فيذهب شعار الزاوية ، فان من شأن النفس الخيانة والدعاوي الكاذبة ففي الاجتماع امتثال أمر الشيخ وقيام الشعار والله اعلم .

ومن شأنه ان يرشد اخوانه ويعلمهم الآداب الشرعية والصوفية من غير ان يرى نفسه عليهم بذلك ، فقد يكون احدهم اكثر اخلاصا لله تعالى منه واحسن معاملة له ، فلا يلزم من كونه اعلم من المريد ان يكون افضل منه عند الله تعالى ، وهذا امر شذ عنه كثير من مشايخ هذا الزمان فيظن بنفسه انه افضل من مريديه عند الله من حيث كونه اعلم منهم ، فلينتبه الشيخ المفضل لما ذكرناه والله تعالى اعلم .

ومن شأنه ان يدل اخوانه على دخول حضرة ربهم من اقرب الطرق التي يعرفها ، ويرشد الى كل ما فيه توبيـــخ لنفوسهم اذا تخلفوا عن مجالس الخير ، فلعل ذلك التوبيخ يجبر خلل ترك ذلك الخير . ولا ينبغي للفقير ان يسامح نفسه بترك التوبيخ والهرت لئلا تتبعه الكسالى على ذلك ، كما لا ينبغي للمتخلف ان يعتذر بالاعذار التي لا يقبلهـــا الشيخ والاخوان ، فيغش نفسه ، وليقدّر ان انساناً يعطيه الف دينار لو حضر مجلس الذكر مثلا فان رأى نفسه تفوت الالف وتعتذر بضرورة استغرقت الوقت فهو صادق في تخلفه ذلك اليوم عن الذكر ، وان رآها حريصة على الحضور لاجل الف دينار ويقطع علائقها كلها التي تزاحمها وقت حضور

ذلك المجلس فهو كاذب في تخلفه عن الخير بعذر ، فان قول سبحان الله لا اله الا الله ارجح عند المؤمن من ملء الارض ذهبا . قال تعالى : (المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا) . قال ابن عباس : الباقيات الصالحات هي قول العبد سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر ، فشيء شهد الله تعالى بأنه خير العبد لا يجوز له ترجيح ضده عليه ، بل وربما كفر بذلك . وقد رأيت من اخواننا من يتعلل بثقل النوم عليه وقت صلاة الصبح الاوله ، فلا يكاد يحضر فيها ابدا ، ثم اذا كان له حاجة في القلعة او عند شخص يخاف يفوته يستيقظ تلك الليلة من التسبيح ، وذلك دليل على كذبه في دعواه غلبة النوم وقت الصبح ، وانما ذلك من ضعف داعيته للخير . فلينتبه الفقير بمناقشته . ولذلك رأيت جماعة بمجرد ما يجلسون معي في مجلس الصلاة على رسول الله ﷺ ينعس احدهم ويصير يتمايل يمينا وشمالا ، فأضع له في فمه قطعة حلاوة أو أعد له في يده دراهم فيعتقد انها له فيستيقظ لوقته ويذهب عنه النوم ، وذلك من اقوى الادلة على ترجيح الدنيا على ذكر الله والصلاة على رسول الله ﷺ . ومثل هذا يتخذ له شيخا يلطف كثايفه حتى يقلب تلك الداعية التي للدنيا لجهة الآخرة ، ويصير يستيقظ اذا ذكر تعالى ، وينام اذا أعطي دراهم او حلوى ، ويذوق طعم الايمان الكامل والله تعالى اعلم .

ومن شأنه ان يكون مقداماً لاخوانه في كل عمل شاق من اعمال الدنيا والآخرة ، كنقل الحطب والقمح الى سطوح الزاوية ، وكسهر الليالي الكاملة . وذلك من ادعى انه اقدم هجرة عند الشيخ فهو احق بذلك من الحادث القريب العهد بالمجاورة ، فان المجاورين كلهم ناظرون

الى فعل كبراء الزاوية . ومن هنا قالوا : ينبغي المفقير ان يكون ابعد الناس عن الريبة ومواطن التهم وارتكاب الرذائل ليسمع له اخوانه اذا نصحهم ، فلا يأمرهم بقيام الليل مثلا ثم ينام هو ، ولا يزهدهم في الدنيا وفي عدم جمعها ويرغب هو فيها ويجمعها ، ويعامل بها الناس قراضا وتجارة ونحوهما . ولسان حال الفقراء الذين يأمرهم بامر ولا يفعله هو يقول له : انصح انت نفسك ويقعون في عرضه . فليحذر كبراء الزاوية من مثل ذلك . وشيخهم اولى بكل ما ذكرناه ، فينبغي له ان يساعد الفقراء في نقل القمح او الحطب او الحصاد او الدراس او الحرث ولو مرة او يوما ، فان بذلك يحصل النشاط للفقراء ، والله في عون العبد ما كان العبد في عون اخيه . وقد بلغنا ان رسول ﷺ كان اذا خرج اصحابه لجمع الحطب يخرج معهم ويجمع له حزمة ويرجع بها الى الدار ، وكذا كان يفعل الامام علي رضي الله عنه ويقول لا ينقص الكامل من كماله ما جر من نفع الى عياله والله أعلم

ومن شأنه ان يتظاهر بعداوة من عادى احداً من اخوانه بغير حق قياماً بواجب حقوقهم ، فلا يجوز له عداوته بالباطن الا ان كان من اهل الكشف وكشف له عن شقاوته في الاخرة والعياذ بالله تعالى ، وكذلك من حقوق اخوانه عدم مصافاة من وقع في فساد واخرج من الزاوية وعدم العزومة عليه بالاكل او الجلوس معه اذا دخل الزاوية لصلاة او غيرها خوفاً من تغيير قلوب الاخوان ، فمراعاة خواطرهم اولى من مراعاة خاطر من ثبت فساده ورميه الفتن مثلاً . وهذا يقع فيه كثير ممن لم ينظر الى عواقب الامور ، فينبغي ان يتنبه الساذج لمثل ذلك . وكان الواجب على اظهار العداوة موافقة لاخوانه الصادقين

في الزاوية ، لكن مع ارشاد ذلـك المفسد الى اظهـار الندم وسياقه السياقات لاخوانه حتى يطيبوا عليه قياماً بواجب حقه القديم ، فـان الانسان يسأل يوم القيامة عن صحبة ساعة فلا ينبغي لاحد ان يطيب خاطره على ذلك المفسد حتى يطيب خـاطر الجميع ولا يبقى منهم واحد.

ثم ما يقع فيه غالب فقراء الزاوية كثرة الوقوع في غيبة من اخرج بفساد ، وذكرُ واقعته لكل داخل او لكل من سأل ما سبب اخراجه، وذلك لا يجوز ، وربما وقعوا في عرضه على سبيل الغيبة والتشفي منه ، فيعودون افسق منه واسوأ حالاً ، وربما ابتلوا عن قريب بما ابتلي هو به ، فيفتضحون ويخرجون كذلك ، فيجب الكف عن عرض كل من خرج من الزاوية وتركه ، ولا يجوز اللوث به ليالي وجمعاً وشهوراً . وربما تاب الله تعالى عليه عقب الذنب فلا تجوز غيبته بحال ويصير ذلك من البهتان والزور عليه ، فليحذر الفقراء من مثـل ذلك . وربما رجع الفقير الى الزاوية بوجه من الوجوه ويصير بعضهم يحكي له مـا قالوه فيه فيشتد في عداوته على من وقع فيه حتى لا يكاد احدهم يسامح أخـاه في الدنيا ولا في لآخرة ، فتأملوا ذلك ايها الاخوان واعملوا بما اوضحته لكم والله اعلم .

ومن شأنه ان يرشد اخـوانه الى ترك البغي على من بغى عليهم ، ولا يأمرهم قط بمقابلة الباغي ويقول : مقابلة الفاسد من وجوه النظر ، كما يقع فيه غالب المتهورين في دينهم . وفي الحديث الصحيح : أدّ الامانة لمن ائتمنك ولا تخن من خانك . وفي زبور داود عليه الصلاة والسلام : يا داود لا تبغ على من بغى عليك ان اردت اني انصرك ، فمن بغى على

من بغى عليه تخلفت عنه نصرتي . وفي الزبور ايضاً : لا تستبطىء الاجابة لدعائك في حق عدوك فاني انما ابطىء اجابة دعائك لأعاملك بنظير ذلك اذا ظلمت انساناً ودعا عليك ، فان طلبت اجابة دعائك بسرعة فلا تستغرب سرعة اجابة دعاء عدوك عليك انتهى والله اعلم .

ومن شأنه ان لا يغفل عن خدمة من مرض من اخوانه في الزاويه لا سيما في الليل حين ينام الناس ويتركونه ولا له اهل ولا اصحاب يفتقدونه ، فانه يتعين عليه خدمته او حمله الى المارستان . وقد ورد ان العبد يسأل يوم القيامة عن حقوق جميع اخوانه واصحابه ، ثم ان كان الفقير المريض ليس معه شيء ينفقه على المرض فينبغي لاخوانه ان ينفقوا عليه من مالهم ، او يقترضوا له على ذمة الله عز وجل ، واذا حملوه الى المارستان فلا بد من توفية حقه في التردد اليه وتوصية الناظر والقيم عليه ، ولا يزال يتردد اليه الى ان يبرأ او يموت ، والله في عون العبد ما كان العبد في عون اخيه والله اعلم .

ومن شأنه ان يخدم عميان الزاوية والعجائز والايتام ويقود الأعمى الى مكان حاجته ، ويفلي له ثيابه ولحيته من القمل اذا طلب منه ذلك ، وكذلك يرفع للأعمى ثوبه فان ذلك مما يقرب الى الله عز وجل لكون هؤلاء في كفالة الله عز وجل وهو وليهم . وكلما ادخل اقوياء الزاوية السرور على العميان والارامل والايتام كلما سهل الله تعالى عليهم اسباب رزقهم ووسعه عليهم ، وحكم العكس بالعكس .

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله يقول : من اراد نزول الرحمة عليه فليخدم العميان والايتام ، وكلما زاد العبد في الرحمة على العباد

زاده الله درجات في الجنة .

وقد كان سيدي الشيخ عثمان الحطاب رضي الله عنه يخدم العميان والايتام ويغسل لهم ثيابهم ولحاهم ، ويقودهم الى مواضع حاجاتهم ، ويطبخ لهم ، وينقي لهم القمح ، ويحمل لهم القفة من الطاحون ويقول هذا شرفي والله اعلم :

ومن شأنه ان يخدم الاشراف الذين جاوروا في الزاوية زيادة على خدمة غيرهم ، وليحذر من مخاصمة احد منهم فانها كالمخاصمة لجدهم ﷺ ، واذا بغى عليه احد من الاشراف يرى ذلك تشبيها بجريان المقادير من الله عز وجل فيتلقاه بالصبر والرضى . وكذلك من شأنه ان يأخذ بيد الظالم ويكفه عن ظلمه بالقول والفعل ، والا فسدت فقراء الزاوية ، وليس له ان يرى الفقراء يتضاربون بالعصي او يتشاتمون وهو ساكت ، بل يردهم عن المخاصمة ما امكن ، لكن بحسن سياسة ولين قول . وكثيرا ما يُرى بعض الفقراء يتركون الدخول بين المتخاصمين زاعمين انهم اسوأ حالاً منهم ، وذلك لا ينهض حجة في ترك الأخذ على يد الظالم ، فيجب عليه كف الظالم ولو كان أسوأ حالاً منه . ووقع لبعض مشايخ الزوايا الساذجين ان اثنين من الفقراء تضاربوا بحضرتـــه بالعصي حتى ادموا بعضهم بعضاً فقالوا له يا سيدي ألا تكفهُم عن بعضهم فقـــال النجاسة لا تطهر غيرها ، وهذا من جملة السذاجة والشرع اولى بالاتباع والله اعلم .

ومن شأنه ان لا يدخل على اخوانه غماً اذا ارسله الشيخ في حاجة الى شخص من الولاة او غيرهم ممن لا يعتقد في الشيخ فسب الشيخ ،

او لم يقض الحاجة ، فمن الأدب ان يقلب ذلك الجواب الى ضده بسياسة ولا يدخل على الشيخ واخوانه غماً بحكاية الكلام الجافي في حق الشيخ بل يكون حسن السفارة ، ولا يبلغ الشيخ عن اخوانه إلا خيراً . وقد يكون ذلك الشخص الذي يشفع فيه الشيخ عند الأمـــير لا يستحق الشفاعة فيه لكثرة قبح ذنبه ، فيصبر الشيخ حتى تبلغ العقوبة حدها فيه . ثم الذي ينبغي له كلما لقي صاحب شيخه الذي نقل عنه انه اساء الأدب مع الشيخ ان يسلم عليه من عند الشيخ ويغالطه ولا يعاتبه على شيء مما كان وقع فيه في حق الشيخ ، لا سيا من كان صاحبـــا بالاسم فقط من أكابر الحارة فان مغالطتهم واجبة لئلا يصيروا اعـــداء للشيخ فيؤذونه ويؤذون جماعته .

واذا وقع ان الشيخ ارسل النقيب الى احد من تجار الحارة يقترض منه ثمن قمح او حطب او نحو ذلك فلم يعطـه شيئاً واظهر المنع مثلا فينبغي له ان يقلب الحديث للشيخ كما فعـــل مع الولاة وليس له ان يبلغ الشيخ ذلـك ، والمحسن مخير ان شاء يحسن او لا يحسن ، لا تحجير عليه في مـاله الا بالشرع . والحسنة لم تنحصر في الشيخ ولا في جماعته، فليكن الشيخ وجماعته على حذر من العتب على احد من التجار في هذا الزمان ، فانهم ربما كانو اضيق معيشة من الشيخ لقلة المكاسب في هذا هذا الزمان وعفة نفوسهم عن الشحـــاتة من بعضهم بعضاً ، بخلاف الفقــراء سداهم ولحمتهم ، سؤال بالحـــال او بالقـال الا من شاء الله تعالى .

وبالجملة فكل فقير تشوش ممـــن لم يقرضه او لم يهبه او لم يتصدق

عليه ، فهو لم يشم من طريق الفقراء رائحة وهو مغتاظ على من لا ذنب له كالحسودي .

وسمعت سيدي علي الخواص رحمه الله يقول : اذا ارسلت قاصدك في حاجة فلم تقض في ذلك الوقت فلا تتكدر من القاصد ولا من المسئول فيها ، فانه ما ابطأ بها الا وقتها الذي ضربه الحق تعالى لها ، فلا يمكن ان يكون في غيره والله اعلم .

ومن شأنه ان يراقب قلبه من جهة اخوانه ، فمهما رأى عنده تغيراً وتشويشاً من احد من المسلمين فليرجع على نفسه باللوم ، وليسع في ازالة ذلك من قلبه ويقيم العذر لاخيه فيما وقع فيه معه قياماً بواجب حق الاخوة ، ويرى انه اخطأ في تشوشه من اخيه ، ولو بلغ له مرتبة الصدق .

وقد قال الامام الشافعي رضي الله عنه : لا تثق بود من لا يحبك الا معصوماً .

وكان الامام احمد بن حنبل رضي الله عنه يقول : عليكم بصحبة الصوفية ، فان للقبيح عندهم وجوها من المعاذير ، فعلم انه من احتقر اخاه بسبب زلة وقع فيها ، فما وفى حق الاخوة ، وأحق ما يحتاج اليك اخوك اذا عثرت دابته . واجمعوا على انه لا يثبت للعبد قدم في طريق الفقراء حتى يتخلق بالرحمة على جميع العالم طائعة وعاصية كل بما يناسبه والله اعلم .

ومن شأنه ان يرشد من حضرته الوفاة من اخوانه الى الوصية وطلب

براءة ذمته ، ولا يستحي من ذلك ، وليسهر عنده الى الصباح كما مر تقريره قريباً ، وربما يكون الأجل في ذلك الوقت فيفارقه على وفائه بحقه .

وقد استحيا أقوام من قولهم للمريض أوص فمات وحقوق الناس عليه ، ووقع بين ورثته ما لا خير فيه ، وذهب أكثر التركة للحكام ، فاذا لقنه الشهادة فسمعه يقول : لا ، فلا ينبغي له أن يسيء به الظن ، فانه انما يقول لا من أجل الشياطين الذين يحضرون الأكابر ليفتنوهم عن دين الاسلام ، كما وقع للامام احمد بن حنبل رضي الله عنه أنه كان يقول في حال طلوع روحه : لا ، بعد ، فقالوا له في ذلك فقال ان الشيطان ظهر لي وهو عاض على اصبعه ويقول : فتني يا أحمد ، فكنت أقول له لا بعد ، أي لا أيأس منك ومن فتنتك الا ان طلعت روحي على التوحيد . وليحذر الفقير من ذكر مريض بسوء فربما كانت منيته في ذلك المرض فيختم على عمله ويذهب الى الآخرة من غير براءة ذمة خصمه ، وهذا الأمر قلّ من يسلم منه ، فليتنبه الفقير لمثل ذلك والله أعلم . ... ان يكون سداه ولحمته الصفح والعفو عن زلل الاخوان ولا يعتدي على من اعتدى عليه ، وان كان الحق تعالى قد أباح ذلك بشرط المثليّة ، إذ المثليّة متعذرة فربما زاد ونقص ، وربما أثرت فيه تلك السيئة أقل مما أثرت في خصمه ، ونحو ذلك ، فالمجازاة رخصة للضعفاء لقوله تعالى فمن عفا وأصلح فأجره على الله .

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله يقول : اعف عمن ظلمك عملاً بأمر الشارع لك بذلك ، ولا تقل قد أباح لي الشرع أن أقابله بمثل ما فعل ، فكم من مباح تركه أفضل .

وكان يقول : اترك حقك لأخيك ما استطعت ، وأقل عشرة اهل المروءات والهبات من اخوانك ما استطعت ، وعليك بالنظر فى محاسن الناس دون مساوئهم ، فانه ما من مسلم إلا وفيه خلق حسن ولو كان من أفسق الناس .

وكان يقول : اذا هجرت اخاك المسلم بشرطه فلا تزد في هجرتك على ثلاثة أيام بلياليها ، وابدأ بالسلام بعد الثلاث لتكون خير الرجلين ، وعليك بتحمل الأذى وتجرع مرارته من جميع الانام ، ففي الصحيح مرفوعا : لا أحد أصبر على أذى من الله انتهى ، ان رزقه وخيره فائض على من جعل له زوجة وولدا وكفر بانبيائه وكتبه ، فليتحمل الفقير الأذى تخلقاً باخلاق الله عز وجل .

ومما وقع لي وانا طائف بالبيت في سنة سبع واربعين وتسعمائة انني نظرت في قلبي فلم اعرف دعاء واحدا مما ورد ان اقوله في الطواف ، فسمعت قائلاً يقول لي : من داخل الحجر قل اللهم افرغ عليّ من الاخلاق المحمدية ما أتحمل به الاذى من جميع العباد ، اللهم افرغ علي من الاخلاق المحمدية ما اتلقى به جميع الاقدار الجارية علي بالرضى والتسليم ، اللهم افرغ علي من الاخلاق المحمدية ما اكون به هاديا مهدياً ، اللهم افرغ علي من الاخلاق المحمدية ما تصير به حركاتي وسكناتي كلها مرضية عندك ، اللهم افرغ عليّ من الاخلاق المحمدية ما أتجمل به بين يديك في الدنيا الآخرة ، فكانت بعد ذلك هي اكثر دعائي بعد الدعاء الوارد والله اعلم ..

ومن شأنه ان لا ينسى اخوانه من الدعاء لهم بالمغفرة والرحمة والعفو

كلما وجد الوقت صافياً مع ربه عز وجل ، سواء كان في ليل او نهار أو سجود او غيره ، ومن فوائد ذلك الوفاء بحقوقهم وليقـــول الملك الموكل بالدعاء ولك مثل ذلك ، ودعاء الملك لا يرد .

وسمعت سيدي علي الخواص رحمه الله يقول : اذا وجد أحدكم الوقت رائقاً من الكدورات فليسأل الله تعالى المغفرة لجميع المسلمين من اهـــل عصره ، وهذا من اعظم حقوق المسلمين ، ولا يتنبه له كل الا بحـكم التبعية لنا من مخصوصين . وفي الحديث لا يؤمن احدكم ، يعني الايمان الكامل ، حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه . وفي القرآن العظيم : ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان . ويقاس عليه من تأخر عنا بالايمان او ساوانا ، ثم ان طلب المغفرة لهم يكون على نوعين : اما بأن الله تعالى يحول بينهم وبين الوقوع فيما لا ينبغي ، وامـــا ان لا يؤاخذهم اذا عصوا ، وليس للمغفرة تعلق ثالث ، ويكون العصابة الذين يدخلون النار من الموحدين مستثناة شرعاً لئلا يعترض معترض على تعميم الدعاء بالمغفرة انتهى والله اعلم .

ومن شأنه ان يعترف بالفضل لكل من احسن اليه من اخوانـه لا سيما من بدأه بهدية فانه لا يقدر على مكافأة بدأته بها ، ولهذا فضل ابو بكر الصديق رضي الله عنه على غيره من الصحابة بسبقه الى الاسلام من غير توقف ولا روية ، فليكن الفقير حاذقاً منصفاً فان سبق بالهداية لا يرى فضله ، وكذلك المكافىء لا يرى انه كان السابق . وليحذر الفقير من ان يأخذ ولا يكافىء ، بل الذي ينبغي له ان يكافىء كل مـــن احسن اليه ولا يتهاون في ذلك ، كما عليه طائفة ممن تعودوا الاخذ من

الناس بصدقاتهم وهداياهم ، فان الفقير الصادق يهرب من تحمل منن الناس ما امكن .

وكان الشيخ محيي الدين بن العربي يقول : لا تقوم بجزاء من بدأك بالهدية ابداً ، ولا يجزى من بدأك بقوله انا احبك ، فلو احببته بعد ذلك ما عسى ان تحبه لا تبلغ درجة تقدم حبه اياك ، اذ حبك انما هو نتيجة عن حبه اياك والله اعلم .

ومن شأنه اكرام كل وارد عليه من اخوانه فلا يأكل وحده شيئاً ابداً ما استطاع ، وعليه بعدم التشويش ممن قال له انا ابغضك ، بل ينبغي له التفتيش على الصفات التي بغضه لاجلها ويزيلها ، ثم ينظر ، فان زال بغضه والا كرر التفتيش ثانياً وثالثاً . فاعلم انه لا ينبغي ان يؤذيه في نظير قوله ان يبغضه . وقد ورد ان امرأة قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم اعوذ بالله منك ، فقال لقد استعذت بعظيم ، إلحقي بأهلك فطلقها ولم يقربها اكراماً لكونها استجارت بالله . فاعلم ان كل فقير قال له أخوه اعوذ بالله منك من شرك ولم يكفه شره فهو قليل الأدب مع الله تعالى لا يرجى له فلاح ، فان من آذى من استعاذ بالله منه كان الله تعالى خصمه كما قال بعضهم والله اعلم .

ومن شأنه ان لا يحدث اخاه بكذب لأن في ذلك استهانة بحقه ، وفي المعاريض مندوحة عن ذلك اذا اضطر الى الكلام . وكذلك من حق الاخ ان يقوم له اخوه اذا ورد عليه ولوكره هو ذلك ، لا سيما ان كان الوارد من حملة القرآن او العلم .

وسمعت سيدي علي المرصفي رحمه الله يقول : ينبغي للفقير ان لا يساعد اخاه على ما فيه نقص لدينه كأن يعلم منه محبة القيـــام له في المحافل ، اذ القيام حينئذ فيه مضرة على دينه ودين اخيه .

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله يقول : اياك ان تترك القيـام لاخيك في المحافل فربما تولد من ذلك الحقد والضغائن فتعجز بعد ذلك في ازالته ، وقد كان الناس اذا قام لهم احـد في المحافل يتوشوشون وصاروا اذا لم يقم لهم احـد يتكدرون ثم يصيرون يظهرون فيمن لم يقم لهم المعايب ، فينبغي للفقير ان يدور مع اهل الزمان بطريقه الشرعي ، والا حصل له تعب عظيم . وربما خرج من بلدته او من حـــارته من كثرة الاذى ، وأصل ذلك كله قلة سياسته وقلة معرفته بطبائع زمانه. وقم يا أخي لاخيك وفاء بحقه لا لظنك انه يحب القيام له ، فان ذلك سوء ظن به .

وكان الإمام الشافعي رضي الله عنه يقول : لا تقصر في حق أخيك اعتماداً على مروءته انتهى ، فان لك في تأدية حقه أجر من حيث حق الآدمي ، وأجر من حيث امتثالك أمر الله عز وجل بالأدب .

وكان الشيخ محيي الدين بن العربي يقـــول : اذا انتسب أخوك الى أحد من الأكابر من اولياء او امراء فاحـذر أن تطعن في نسبـه ولو في نفسك فتدخل بين ذلك الشخص وبين الله تعالى وبين صاحب الفراش ، فتقع في إثم كبير ، بل ورد ان الطعن في الانساب كفر والله أعلم .

ومن شأنه أن لا يشح على أخيه اذا سأله المساعدة في التزويج ولو

بقميصه وقبقابه الزايد ، أو شيء من القمح ، فان الاعانة في ذلك من أفضل القربات ، بل ذكر بعض المحققين ان الاعانة في النكاح أفضل من اعانة الغزاة والمكاتبين ، إذ هو أفضل نوافل الخيرات ، ومنه يتفرع من يجاهد ومن يفعل سائر الخيرات . والأجر يعظّم السبب ، فلولا النكاح ما وجد مجاهد ولا عابد لله تعالى . وهذا أمر يتهاون به غالب الفقراء ، وبعضهم يقول : وإيش قام على الفقير بالتزويج في هذا الزمان ، وينفره منه ليعتق نفسه من مساعدته ، وما درج السلف الصالح على مثل ذلك والله أعلم .

ومن شأنه ان لا يكفّر احدا من اهل القبلة بذنب ، ولو لاث الناس به ، لقلة ورع الناس اليوم في المنطقة وعسر معرفة الالفاظ التي يكفر بها الانسان دون غيرها . اذ التكفير امرها . بل اقل ما فيه انه اخبار عن انسان بأنه خالد مخلد في النار لا تجري عليه احكام الاسلام ، لا في حياته ولا بعد مماته . ثم ان مرجع ذلك الى العقيدة ، ومعلوم ان الانسان يعجز عن تحرير معتقده في عبارة فضلا عن معتقد غيره . وفي الحديث : من قال لاخيه يا كافر فقد باء بها احدهما ، فان كان كما قال والا رجعت عليه ، ومعنى ذلك ان المكفر هو الكافر لأنه كفّر مسلماً لاسلامه فافهم :

وينبغي للفقير ان لا يعود لسانه بالكلام المر لاخوانه فيكون من شرار الناس . وفي الحديث : شر الناس من تركه الناس اتقاء فحشه ، فهذه شهادة من رسول الله ﷺ بأن الفاحش البذيء من شر الناس .

وسمعت سيدي علي المرصفي رحمه الله يقول : احذروا سب احد

من المسلمين فربما سب احدكم ابا انسان فسب الآخر اباه .

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله يقول : التورع في المنطقة اشد من التورع في اللقمة والثياب والله أعلم .

ومن شأنه ان لا يحقر احدا من خلق الله عز وجل الا عند امر الله فان الله تعالى ما احتقره حين خلقه وصوره ، وكيف يعتني الحق تعالى بعبد ويخرجه من العدم الى الوجود وتجيء أنت تحقره !! هذا من الجهل المحض . وما أمرك الله تعالى أن تحتقر أحداً من عباده ، وانما أمرك ان تنكر على أفعاله المخالفة لما شرعه لا غير ، فتأمر العاصي وتنهاه وأنت غير محتقر له ، فربما كان في علم الله انه أعلى منك مقاماً وأنت من الفاسقين ويصير يشفع فيك يوم القيامة . وتأمل قوله ﷺ في شجرة الثوم انها شجرة اكره ريحها ، فما كره ذاتها وانما كره ريحها . فاعلم ان عداوتنا للكفار والعصاة عداوة صفات ، بدليل انهم اذا أسلموا وحسن حالهم حرم علينا كراهتهم والله تعالى أعلم .
... ان يقدم حوائج اخوانه الضرورية على عباداته من سائر النوافل ، لأن الخير المتعدي نفعه أفضل من القاصر على فاعله ، لا سيما ان أمره شيخه بذلك ، كما مر في الباب قبله . اللهم إلا ان ينهاه شيخه عن خدمتهم فليس له ذلك ، لأنهم ربما كلفوا في مقام المجاهدة لنفوسهم . والخدمة لا تكون عادة إلا للسادات الذين فرغوا من علاج أخلاقهم ، وصاروا يرون نفوسهم أحقر الخلق أجمعين ، بحيث لو حقرهم الناس وازدروهم لا يتغير منهم شعرة ، لأنهم يشهدون ما قاله الناس فيهم دون ما يعلمونه هم من أنفسهم .

وقد قدمنا في الباب الأول انه ينبغي لمن يخدم اخوانه ان لا يرى بذلك نفسه عليهم فيشقى في الدنيا والآخرة ، اما في الدنيا فلكثرة تعب بدنه والخدمة ، واما في الآخرة فلحرمانه الثواب . وانما الأدب ان يرى خدمته لهم من باب الواجب عليه وفاء ببعض حقوقهم . وقد جرب الاشياخ كلهم نفوسهم فوجدوا انه لا يستحق السيادة الا من تواضع لله تعالى .

وسمعت سيدي علي الخواص رحمه الله يقول : لا ينبغي للمريد الانكار على الشيخ اذا نهاه عن خدمة مريض من اخوانه ، فربما كان ذلك المرض عقوبة له ، بل يجب عليه ان يعتقد ان الشيخ ارحم بذلك المريض منه ، لكن اذا بلغت العقوبة حدها فهناك يأمره بخدمته .

وكان ابو سليمان الداراني وغيره يقولون : لا تصلح هذه الطريق الا لاقوام كنسوا بأرواحهم المزابل ، انتهى والله اعلم .

ومن شأنه ان يبادر لخدمة بيوت الخلا احتساباً لوجه الله تعالى ، ولو كان لها خادم بأجرة ، فيزيل ما على الملاقي وحول الميضاة من القذر ، وليكن ذلك اوقات غفلات الناس ، كضحوة النهار او في السحر ، بحيث لا يراه احد ، فان للنفس لذة وحلاوة اذا عرفت بالتواضع اعظم من لذة الكبر لاصحابه . وكانت هذه وظيفة الامام الغزالي وسيدي علي الخواص والشيخ أمين الدين إمام جامع الغمري رحمهم الله تعالى . واذا رأى المطهرة ناقصة من الماء فينبغي له ان يكملها مساعدة للقيم ، لانه سنة السلف ان لا يتطهروا الا من ماء لا منة لاحد عليهم فيه ، واذا ملأ في الفسقية شيئاً صار كأنه ملأ ماء طهارته ،

وينبغي ان يسقط منته فيه عن المتوضين . وبالجملة فما خدم احد اخوانه الا صار على وجهه نور وإنس ، ولا تكبر عن ذلك احد الا صار على وجهه ظلمة .

وقد كان سيدي علي الخواص اذا لبس مرقعته التي يكنس فيها المساجد وينظف فيها الأخلية كأنها جواهر تضيء ، فالزم يا أخي خدمة الاخوان يرضَ عنك الرحمن وتدخل اعلى الجنان والله تعالى اعلم .

ومن شأنه ان يتخذ عنده الموسى والسكين والابرة والمقص والمخرز والخيط ونحو ذلك مما يحتاج اليه عادة ، وذلك ليرفع كلفته عن اخوانه وينفعهم بعاريتها . وكذلك من ادبه ان يتخذ عنده المشط والخلال والسواك والقطيفة لمسح الاعضاء ، والسجاد للصلاة عليها فيفرشها حيث ادركته الصلاة في غير المسجد . وتقدم في الباب الاول ان السلف الصالح ما اتخذوا السجادات للضخامة ، حاشاهم من ذلك ، وانما هو لمصلحة الصلاة . وقد اجمعوا على انه لا يدخل الحضرة الإلهية من في قلبه مثقال ذرة من كبر . كما ورد في دخول الجنة . فان الحضيرتين كلاهما بين يدي الله عز وجل ، ولو في صلاته وهما : عز النفس وشهود الغنى في نفسه عن فضل ربه غفلة لا حضوراً . فاعلمْ ان من تخلق بالذل والفقر لا يمنع من دخول حضرة الله تعالى في وقت من الاقات .

ومن شأنه اذا وقع في سوء أدب في حق أخيه أن يبادر الى الاستغفار بكشف الرأس والوقوف عند النعال واضعا يده اليسرى على اليمنى ليخالف هيئة الصلاة ، مطرقاً برأسه الى الأرض ، نادماً على ما

وقع منه في حق أخيه مثلا ، فان لم يقبل اخوه اعتذاره فمن الأدب ان لا يجلس بل يبقى قائماً الى ان يرحمه أخوه . ويجب عليه ان يرجع على نفسه باللوم ولا يجيب عنها ذرة واحدة ، بل يعترف بانه ظالم على اخيه ، فان طال به الوقوف حتى خرج عن العرف ، فينبغي لاخوانه ان يردوا له الحديث : من أتاه أخوه متنصلاً من ذنب فليقبل ذلك محقا كان أو مبطلاً ، فان لم يفعل لم يرد الحوض ، رواه الترمذي وغيره .

وسمعت سيدي علي الخواص رحمه الله يقول : اذا جـــاء اخوكم معتذراً فاقبلوه لا سيما ان أطال الوقوف مستغفراً ، فان لم يجد احدكم في قلبه رقة له فيرجع على نفسه باللوم ويقول لها : يأتيك أخوك مستغفراً في حقك فلا تقبليه ، فكم وقعتِ انت في حقه ولم تلتفتي اليه فأنت اذا اسوأ حالاً منه . ومراد القوم بذلك كله زوال الكدر لا غير ، ومن رضي الكدر لقلبه فليس له في الطريق قدم ، فان رأس مال الانسان هو قلبه والله أعلم .

ومن شأنه ان لا يكون عنده حسد لاخوانه اذا كثرت طاعاتهم وانقلاب الناس الى اعتقاد فيهم ، بل يفرح لهم كلما كثرت طاعاتهم ، ويكون حريصا على وقوع الأدب منه في اخوانه ، واذا عمل بأدب يجب ان يكون اخوانه كلهم كذلك يعملون به حتى لا يتميز عنهم بشيء . وما زاد القوم على غيرهم الا بمراعاتهم الآدب في كل شيء ومع كل شيء ، حتى انهم يوجهون أباريقهم كلها الى القبلة ويرون ذلك مـــن الأدب . واذا كان الاناء لا وجه له كالكوز والزبدية جعلوا لها وجهـا بالنيـة ووضعوه للقبلة التي هو محل مناجاة الحق جل وعلا . وقد دخل جماعة

زائرين على فقراء كانوا مشهورين بالخير فوجدوا اباريقهم لغير القبلة فردوا ولم يسلموا عليهم ، وقالوا لو كان هؤلاء من أهل الأدب لوجهوا اباريقهم للقبلة . وسيأتي في الخاتمة في آدابهم في السفر أنه يستحب لاحدهم اذا سافر ان يشد وسطه ، ويقرب خطاه ، فانه يذهب شدة التعب . وفي الحديث اذا احدكم سافر فليشد وسطه وليقارب بين خطاه . وانه يستحب لاحدهم اذ سافر ان يودع اخوانه بالعناق ان كانوا رجالا ، وإلا ودعهم بالاشارة ان كانوا صغاراً ، ثم يسلم عليهم ويمشي القهقرى ، غير مول وجهه عنهم حتى يتوارى عنهم بجدار أو يبعد عنهم جداً . ثم اذا رجع ووصل الى مقصده فلا يبادر الى الاغتسال من عياء السفر بل يصبر الى اليوم الثالث أو الرابع ، وفي ذلك سر يذوقونه . واما في الظاهرة فهو ان المسافر يمسح من التعب فربما ضره الغسل واورث عنده ضربان المفاصل بخلاف اعضاء الوضوء لكونها مكشوفة غالباً فلا يضرها ماء الوضوء والله اعلم .

ومن شأنه ان لا يرى نفسه على احد من جماعة شيخ آخر فانهم اخوانه في الطريق ، لان طريق اهل الله واحدة ، ترجع الى واحد وان تعددت . وما اتخذ النـاس لهم شيخاً الا ليهذب اخلاقهم ويزيل رعوناتهم حتى يصير احدهم يرى ان الناس كلهم ناجون وما هالك الا هو . فامتحنْ يا أخي نفسك بهذا الميزان ، فان رأيت نفسك صارت كذلك فأنت صادق في ادعائك انك انتفعت بصحبة شيخك ، والا فما حصلت على شيء . وهذا الامر قد كثر في فقراء هذا الزمان فيصحب احدهم الشيخ الى ان يموت ثم يصير مقراضاً في طوائف الفقراء لا يعجبه احد منهم ، مع انه لا رآهم على كبيرة ولا اصرار على صغيرة . وهذا

من اكبر المقت ، نسأل الله العافية .

وترى احدهم يقول : ما بقيت عينينا ترى احداً مثل شيخنا ، فيقال لهم ماذا انتفعتم به ؟ فلا يجد شيئاً يقول . وكل جماعة يقولون شيخنا قفل بعده باب الله ، فلا يكاد ينتفع باحد من اولياء عصره نسأل الله العافية .

ومن شأنه ان يرى محاسن اخوانه ويعمى عن مساوئهم جملة واحدة، فلا يتجسس لهم قط على عيب حتى يحققه .

وقد كان الشيخ ابو مدين الكمساني رضي الله عنه يقول : الفتوة هي رؤية محاسن الاخوان والغيبة عن مساوئهم .

وكان يقول : انصف اخوانك واقبل النصيحة ممن هو دونك تدرك شرف المنازل . وكان يقول : من احوج اخاه الى سؤاله عن حاجة من الحوائج التي يقدر عليها فما وفى بحق صحبته ولا اخوّته .

وكان يقول : من لم يتفقد عيال اخيه في غيبته بما يحتاجون اليه فقد خان الصحبة .

وكان يقول : من ميز بين ثيابه وثياب اخيه في الملك فما شم للصحبة رائحة ، وانما صحبته نفاق .

وكان يقول : ليس بأخيك من احتجت الى استئذانه في اخذ شيء من كيسه .

وكان يقول : لا تكمل صحبتك الا بانشراح صدرك بكل ما اخذه

الاخوان من مالك وثيابك وطعـامك ، ومتى وجدت انقبـاضاً لذلك فأنت منذ فق في صحبتك .

وكان يقول : من حق أخيك عليك أن تتحبّب اليه بكل ما يحب حتى لا يجد في نفسه حرجاً من جهتك في شيء يتصرف فيه من مالك ، ومن وجد ضيقاً في صدره وحزازة إذا أخذ شيئاً من مالك فما قمت له بواجب حقه عليك ، فان الحزازة التي يجدها أخوك حين يأخـذ مالك مثلاً ، انما هي لبقية بقيت عليك من البخـــل ، فاعمـــل يا أخي على الاحسان الى اخوانك حسب طاقتك ليكون موتك عندهم أشـد عليهم من موت أبيهم الشفيق ، والحمد لله رب العالمين .

وقد كان رجل يعول الف نفس فلما مات سمعوا صرير نعشـــه على أعناق الرجل ، فأنشد شخص :

وليس صرير النعش ما يسمعونه ولكنها أصلاب قوم تقصّف
وليس عبير المسك ما تنشقونه ولكنه ذاك الثنـــاء المخلف

ومن شـــأنه أن لا يحب العلو على أحـــد من اخوانه في أمر من أمور الدنيا ، فقد أجمع الأشياخ على ان حب العلو على الناس من أقوى أسباب الانتكاس . هب ان العاصي من اخوانك ناقص المقام ، فأنت أنقص منه ، لأنك ترى نفسك عليه ، لا سيا ان كان بسبب تنقيصك له أصابك فيه الكبر عليه ، فانك اذا تأملت وجدت نفسك في التكبر أعظم منه فلـُم نفسك أولاً قبل غيرك .

وقد كان الشيخ أبو مدين رضي الله عنه يقول : انكسار العاصي خير من صولة المطيع .

وكان يقول : من أحب العلو على اخوانه ، فقد فتح باب الظلم من ولاة زمانه ، ومن رأى نفسه على مشايخ عصره فقد فتح باب ظهور الدجاجلة الفتانين في الدين . فان الدجل هو التمويه بالباطل في صورة حق ، كما يدعي الدجال الأكبر انه يحيي ويميت ، ويفعل الأمور التي لا تليق إلا بالحق جل وعلا ، من باب الاستدراج والمكر به والله تعالى اعلم هو الفاعل في كل ذلك . فاعلمْ ان من ينصح اخوانه لا يخرج من الاثم إلا ان رأى نفسه دون المنصوح ، فينصح أخاه في حال رؤية ان أخاه أحسن حالاً منه ، فايك يا أخي والدعاوى الكاذبة ثم إياك ، والحمد لله رب العالمين .

ومن شأنه ان لا يغفل عن نصح نفسه واخوانه ، فلا يطمع في ما في يد الخلق ، ولا يصحب مبتدعاً ، ولا امرأة ، ولا يرى في شيخه نقصاً ، ولا يغفل عن ذكر ربه ، ولا عن شكره ، ولا يتخلف عن مجالس الذكر ولا عن خدمة الصالحين واحترامهم ، فان فعل ابتلاه الله بالمقت بين العباد .

وقد قالوا : الطمع في الخلق شك في ايهام للخالق .

وقالوا : احذر من صحبة المبتدع ابقاء على دينك ، ومن صحبة النساء ابقاء على قلبك .

وقالوا : من ظهر له في شيخه نقص عدم النفع به .

وقالوا : من غفل عن ذكر ربه فقد حكم الشيطان على نفسه .

وقالوا : من جالس الذاكرين انتبه من غفلته ، ومن خدم الصالحين ارتفع بخدمته .

وهذه الأمور لا يستهين بها إلا جاهل تسرقه الطباع ، فعليك يا أخي بالعمل بها والله يتولى هداك .

ومن شأنه التواضع لكل من رفعه الله تعالى عليه في علم أو عمل أو جاه ونحو ذلك ، أدباً مع الله تعالى الذي رفعه عليه ، فان الفقير الصادق داير مع رضى الحق تعالى لا مع حظوظ نفسه .

وقد حكى لي شيخنا الشيخ محمد الشناوي رحمه الله ان شريفاً جلس عند سيدي ياقوت العرشي فصار الناس يقبلون يد ياقوت ورجله ولا يلتفتون الى الشريف ، فأخذ في نفسه من ذلك ما يأخذ البشر ، فقال له سيدي ياقوت في أذنه سراً : يا سيدي انما عظموني لأنني تبعت جدودك في أخلاقهم ، فأنا تبعت جدودك ، وأنت تبعت جدودي ، يعني في الجهل ، فلذلك عظموني دونك ، انتهى .

ومن شأنه أن يحث اخوانه على مراعاة الله تعالى بقلوبهم ، ولا يكتفي أحدهم بشكر الناس له على ما يظهره من أعماله ، مع انه يجاهر ربه بالمعاصي فيما بينه وبين ربه ، فان ذلك من علامات المقت . وما قنع أحد بشكر الناس إلا كشف الله تعالى عورته وفضحه ولو على طول عقوبة له .

وقد كان الشيخ أبو مدين رضي الله عنه يقول : الحق تعالى مطّلع على السرائر والظواهر والضمائر ، في كل نفس وحال ، فأيما قلب رآه موثراً له ، مراقباً له ، حييا من رؤيته اليه حفظه من الطوارق والبوائق والمحن ومضلات الفتن .

وكان يقول : من لم يراقب نظر الله تعالى اليه ، نظر أحوال نفسه

بعين الدعوى ، وأفعاله بعين الرياء ، وأقواله بعين الافتراء .

وكان يقول : عمرك كله نفَس واحـــد ، فاحرص ان يكون لك لا عليك ، وليس للقلب إلا وجهة واحدة ، فمتى توجه اليهـا حجب عن غيرها .

وكان يقول : إياك أن تراقب غير الله وتميل اليـه إلا باذنه ، فمن فعل ذلك سلبه الله مناجاته .

وكان يقول : أضر الأشياء على العبد مخالطة من لا يرى حب ربه في أفعاله وأقواله وعقائده . وفي رواية أخرى : من أضر الأشياء على المريد صحبة عالم غافل عن مراعاة ربه بقلبه ، ومنصرف جاهل بأحكام الشريعة ، وواعظ يداهن الناس ويرخص لهم طلباً لميلهم اليه والله أعلم .

ومن شأنه أن يحذر اخوانه من الوقوع في الدعاوى التي لا يكون على ظاهرهم منها دليل ، بل ولو كان على ظاهرهم دليـــل يحذرهم من الدعوى أيضاً ، ويأمرهم بستر المقام حتى يتولى الله تعالى اظهارهم بغير مراد منهم ، وقد هلك في هذا الأمر خلق كثير .

وقد قال الأشياخ : كل من رأيتموه يدعي مع الله تعالى ما لا يكون على ظاهره منه شاهد فاحذروه ، وكل من خرج الى الخلق قبل وجود الاذن الإلهي الخاص فهو مفتون وهو مسخرة للناس ، وما خرج الأولياء الى الخلق إلا بعد أن هُددوا بالسلب ان لم يفعلوا .

قلت : وقد جاء شخص يطلب مني أن ألقنه كلمـة التوحيـــد ، فرأيته يحب الرئاسة ، ومعلوم ان التلقين من غير مجاهـدة على مصطلح الناس اليوم يزيده رعونة ، فلم أجبه الى ذلك ، فاجتمع بعدي بعـدة

مشايخ ونكث عهدهم ، وصار كل من نصحه يفارقه ويصير يحط عليه ، وادعى ان جماعة من أشياخ الطريق الذين ماتوا أتوه في النوم وقالوا له ابرز الى الناس ، ولعله ابليس ، فجمع له بعض جماعة من العوام وصار يقول لهم أنا اليوم أكبر الأولياء وأوسعهم دائرة ، والأقطاب كلهم من تحت أمري ، فصار الناس يسخرون به وبالفقراء الموجودين في عصره ، فحكمه حكم خلبوص المغاني ، اذا خرج في بابه قاضي أو أمير فيضحك الناس عليه ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . ولا يخفى ان الكرامات فرع المعجزات ، وان لم تكن كرامة الانسان مصدقة لدعواه فهو كذاب ، كما درج عليه السلف الصالح والله أعلم .

ومن شأنه أن يحث اخوانه على دوام الحمية في الأبدان والقلوب والنفوس ، وذلك بترك المخالفات وعدم الركون الى الاغيار وترك الدعاوى ، فان من وقع في واحدة من هذه الخصال ولم يحتمِ عنها فهو معدود من رعاع الناس وأراذلهم ، فكما ان قلوب من يحتمي تكون معمورة بذكر الله ، كذلك يكون قلب من لا يحتمي محلاً للغفلة والوسواس .

وقد كان الشيخ أبو مدين يقول : لا ينفع مع الوقوع في المخالفات عمل ، كما انه لا ينفع المريض ما يصفه له الحكيم من غير حمية ، وكما انه لا يضر مع التواضع بطالة ، كذلك لا ينفع مع الكبر عمل ، انتهى والله اعلم .

ومن شأنه ان يحذر اخوانه من ان يطلبوا بعباداتهم مقاماً أو حالاً ،

فمن من طلب لنفسه حالاً أو مقاماً ، فهو بعيد عن طرقات المعارف . وكذلك ينبغي له أن يحثهم على عمارة اوقاتهم بالموافقات ، ويسألهم ان يحثوه كذلك . وقد أجمع اهل الطريق على ان كل من طلب بأعماله مقاماً سقط من عين رعاية الله عز وجل . وقالوا : ان اقامك ثبت ، وان أقمت نفسك سقطت . وقالوا : من لم يستعن بالله تعالى على نفسه صرعته . وقالوا : من طلب الظهور بنفسه خرب قلبه وتعسر عليه الوصول الى شيء من أحوال الصادقين ، فهو يدعي الصلاح والحق تعالى يكذبه وملائكته واولياؤه ، ثم يحشر يوم القيامة في جملة المنافقين .

ومن شأنه أن يحث اخوانه على العمل على تحصيل مشاهدة الحق تعالى في حال عملهم ، فان الأخ الصادق ربما يقوم في بعض الأوقات مقام الشيخ . وقد طالت الطريق على غالب الناس من غفلتهم عما قلناه ، فحجبوا بالأعمال عن المعمول له ، ولو انهم كانوا لاحظوا المعمول له لاشتغلوا به عن رؤية الأعمال ، شتان بين من همته الحور والقصور ، وبين من همته رفع الستور ودوام الحضور .

وقد كان الشيخ ابو العباس المرسي يقول : من لم يقم بآداب أهل البدايات ، فكيف يستقيم له مقامات اهل النهايات .

وسمعت سيدي علي الخواص رحمه الله يقول : كل عمل لا يحضر فيه العبد مع ربه فهو كالميتة ، وهو بالنفاق أشبه ، وذلك لأنه يوهم الناس انه حاضر مع الله تعالى حال مناجاته ، والحال انه مع الخلق . وهو نفاق . ان المنافقين في الدرك الأسفل من النار ، وانما كانوا كذلك للعبهم بالأديان . ومن هنا أباح الشرع نكاح الكتابيات للمسلم وحرم

نكاح من لا كتاب لها فافهم انتهى .

وسمعته ايضاً يقول : انما أشغلهم برؤية أعمالهم لانهم لم يصلحوا لمعرفته والله اعلم .

ومن شأنه ان يحذر اخوانه من كل شيء يؤذيهم ويوقفهم عن السير ، وقد قالوا : من ضيع حقوق اخوانه ابتلاه الله تعالى بتضييع حقوقه .

وكان الشيخ افضل الدين لا يكاد يترك نصح اخوانه في شيء ويقول : من غش اخوانه فهو دليل على غشه لنفسه . ورأى مرة شخصاً يرد ما يعطيه له الناس فقال يا أخي : ترك الدنيا للدنيا شر من اخذها ففتش نفسك فربما اتاك اخوك بشيء فرددته خوفاً ان يسقط مقامك وجاهك من قلبه لا لله تعالى .

وسمعته مرة أخرى يقول : اياكم ان تفتحوا على انفسكم باب تقدير مقامات الطريق لاخوانكم ، فتنقطعوا بذلك عن السير ، فان ذلك انما هو من وظيفة الاشياخ انتهى والله اعلم .

وكذلك ان يحذر اخوانه من مجالسة اهل البدع فانها مجربة لاماتة القلب . وقد كان السلف الصالح كلهم يقولون : من كان فيه ادنى بدعة فاحذروا من مجالسته ، فمن تساهل في ذلك عاد عليه شؤمها ولو بعد حين .

وقد كان الشيخ ابو مدين رضي الله عنه يقول : بلغنا عن مالك رضي الله عنه ، انه كان يقول من اكتفى بالتعبد دون الفقه خرج وابتدع ،

ومن اكتفى بالكلام في العلم دون الاتصاف بحقيقته تزندق وانقطع ، ومن اكتفى بالفقه دون العمل به اغتر وانخدع ، ومن عمل بما علم تخلص وارتفع ، ومن لم يأخذ الأدب من المتأدبين افسد من تبع والله اعلم .



خاتمة

في ذكر جملة من آداب القوم وشروطهم العامة في كل احد من مريد وشيخ

اعلم رحمك الله ان دائرة طريق القوم تبتدىء من بعد انتهاء دائرة غيرهم ، لأن كل أدب في الشريعة في باطنه أدب آخر يسميه أهل الله تعالى الاعتبار ، اي يعبر من ظاهر الفعل الى باطنه ، فيكون صورة الفعل واحدة والقصد يختلف ، كمن يريد بعبادته الاجر في الآخرة ، ومن يريد بها القيام بواجب حق الربوبية ، وانه لا يستحق على ربه بخدمته شيئاً حتى يطلبه منه . فصورة قاصد الثواب كصورة من لا يطلبه على حد سواء . ونظير ذلك أيضاً من يغسل أعضاءه من الحدث الظاهر او النجس ومن يغسلها بالتوبة من سائر المعاصي حال غسلها ، فنية الأول مقصورة على رفع الحدث والنجس الظاهر ، ويزيد عليه الثاني رفع النجس الباطن من استعمالها — أي الأعضاء — في غير ما شرع لها ، لا سيما القلب الذي هو أمير البدن كله . فانه اذا فسد أفسد الجسد كله ، فلا بد من غسله من سائر المعاصي ، كالكبر والعجب والنفاق والرياء والحسد والحقد واحتقار الناس وغير ذلك . ويجمع الآفات كلها محبة الدنيا ، كما اشار اليه قول عيسى عليه الصلاة والسلام : حب الدنيا رأس كل خطية . فلم يخرج عنها خطية واحدة . ولعل من قصر بصره على الحدث الظاهر لا يخطر في باله التوبة من حب الدنيا ابداً .

وقد كان الفضيل بن عياض رحمه الله يقول لاصحابه : اجلسوا بنا نتوب من الذنب الذي لا يهتدي اليه الناس ، وهو حب الدنيا ، من مال وطعام وكلام ومنام ، فان هذه الاربعة هي محبة الدنيا انتهى .

واعلم يا أخي ان كل من دخل الطريق بحق وصدق علم ان في القوم مجتهدين في طريق الباطن ، كالمجتهدين في الطريق الظاهر . فكما ان المجتهدين في الشريعة استنبطوا منها آداباً واحكاماً وشروطاً وواجبات ومحرمات ومكروهات ، فكذلك المجتهدون في طريـــق القوم ، فاياك والانكار عليهم الا بعد دخول طريقهم . وهنـاك لا تنكر عليهم الا ما خالف جميعهم او جمهورهم اذا علمت ذلك ، فأقول وبالله التوفيق من آدابهم ان يجتمعوا في الاكل على السفرة ، ولا يأكلون فرادى الا لعذر شرعي ، ولهم ان يشتركوا في الخبز دون الادام وعكسه .

قال سيـــدي يوسف العجمي رضي الله عنـه : وكان السلف الصالح يجتمعون في الخبز والمرقة جميعاً ويأكلون على وجه الايثار ، فلما غلب على بعض الفقراء الحرص والشره قسموا الطعام دفعاً للظلم . وليحذر فقراء الزاوية ان يتخلق احد منهم بكبر فلا يجلس على سماط الفقراء ويطلب الاكل وحده في الخلوة ، فان ذلك علامة على عدم فلاحـه في الطريق ، وهو بدية خروجه من يد التربية . ويقع ذلك كثيراً لمن صاحب ابناء الدنيا واظهر لهم الضخامة فهو يستحي منهم ان يروه وهو جالس مع العميان والمساكين ، يأكل على سماطهم ، ولو ان تخلفه عن الاكل معهم كان تورعاً من اكل الصدقات مثلا .. لما كان يأكل من خبز الزاوية اذا خلا وحده ، فتأمل والله اعلم .

ومن آدابهـم ان لا يعض احدهم اللقمة واللحمة والقلقاسة فيجدها حارة مثلا فيردها الى الوعاء ، لان ذلك تعافه النفوس . وكذلك لا ينبغي له ان يتناول لقمة كبيرة ثم يقطعها بفمه ويرد باقيها للقصعة . وكذلك من الادب ان لا ينظر الى جليسه في الأكل ، لان ذلك ربمـا اخجله ، واذا وضع الخادم السماط واراد انهم يأكلون قال بأعلى صوته : الصلاة الصلاة . ولهم في ذلك حديث يستندون اليه وهـو قوله ﷺ واماطتـــك الاذى عن الطريق صلاة واعانتك اخاك على دابته ليركبها صلاة ، الى ان قال وكل معروف صلاة . والاكل من المعروف ، لانه في الاصل اما واجب او مندوب فافهم .

قالوا : وان كان الشيخ حاضراً فينبغي ان يقول الصلاة لانه صاحب الاذن حقيقة ، والنقيب انما هو نائبه في ذلك . ومن آدابهم قلة التحدث على الاكل ، وقلة الضحك المزح ، فانهم حقيقة على مائـــدة الله عز وجل ، وهو ناظر اليهم والى آدابهم وايثارهم لبعضهم وشكرهم له .

قالوا : ولا بأس بالحكايات اللطاف في الامور المتعلقة بآداب الأكل مما فيه ترغيب في قلة الاكل او النهي عن الاكثار منه ونحو ذلك .

وقد سمعت الشيخ ابا بكر الحديري يحكي عن الاكل للشيخ محمـد المنير محمد بن عنان وللشيخ عبد الحليم وللشيخ محمد العدل وللشيخ محمد بن داود ، ان طفيلياً حضرته الوفـاة فقال له ولده يا أبت اوصني وصية اذكرك بها ، فقال يا ولدي اذا جئت الى سمـــاط ولم يفسحوا لك فاجلس وراء احد منهم وخربش في ظهره فاذا التفت اليك قل له اضيق عليكم ، فيخجل ويقول لا ، ويفسح لك حياء منـك ، فاذا فسح لك

فادخل وزاحمه فانه يتأخرْ عنك فتملك انت السماط ، فضحك المشايخ كلهم رضي الله عنهم .

ومن آدابهم كذلك اذا جلس احــدهم على مكان السماط ان لا ينتقل عنه الى مكان آخر الا لمصلحة بعد مشاورة الشيخ او الخادم ، ولا ينبغي للخادم ان يخص احداً بطعام اذا كان الطعام متنوعاً ، فان في ذلـك تفرقة لقلوب الضعفاء من الفقراء ، وان احتاج احدهم الى شرب الماء في وسط الأكل فلا بأس ، ولكن يأخذ عروة الكوز مثلا الخنصر والبنصر او يأمر احداً يسقيه بيده النظيفة ، ولا يأخذ الكوز ابداً بالاصابع التي يأكل بها الطعام ، لا سيما الزفر كالسمك او البصل او الثوم .

قـــال الشيخ نجم الدين الكبري : واذا شرب فليشرب ووجهه الى القوم ولا يصرف وجهه عنهم كما يفعله العوام بقصد الاحترام ، واذا كان هناك احد يجهل هذا الادب فليعلمه به قبل ان يشرب ليحفظه من الانكار عليه بالجهل .

قال : وكذلك لا ينبغي له ان يؤثر احداً ظاهراً ولا من هو فوقه في الدرجة من شيخ او امير او عالم ، وانما يؤثر على من هو دونه في العادة الظاهرة للناس ، والا فمعلوم انه لا يجوز له ان يرى نفسة على احــد الا على وجه الشكر ، والا فقـــد يكون من يراه الناس دونه اعظم من الحاضرين كلهم عند الله تعالى .

قالوا : ولا ينبغي له ان يواجه احداً بالايثار بل ينحي له الطعـام قليلا قليلا ، فان كان اخوه محتاجاً اليه مد يده اليه وجرّه الى عنده والا تركه . ولا ينبغي ان يقول احدهما للاخر : خذ انت هذا الورك

فيقول الآخر ما يأخذه الا انت ، فتصير عيطة وخبطة ويجعلوا لذلك الورك قدراً عظيماً .

وكان اخي افضــل الدين رحمه الله اذا أُلح عليه في اكل شيء يمتنع من اكله ويقول ان الحاحه علي دليل على شدة بخله ، وطعام البخيل داء كما ورد في الحديث .

قال الشيخ نجم الدين البكري رحمه الله : واذا قال الخادم او الشيخ « الصلاة » اول الاكل وهناك فقير لا يريد الاكل فمن الادب جلوسه معهم على السفرة موافقة لهم ، ولو لم يأكل ، كما قالوا فيمن دعي للوليمة ان يحضر ثم ان شاء اكل وان شاء ترك . قال : واذا قال الشيخ او الخادم للفقراء آخر الأكل اشكروا الله تعالى فمن الأدب المبادرة الى القيام .

قالوا : ولا ينبغي لأحد ممن قام ان يقرأ القرآن او يؤذن او يصلي حتى يفرغ الفقراء كلهم من غسل ايديهم الا لضرورة شرعية ، لضيق الوقت ، او خوفاً من انقطاعهم عن الرفقة اذا كانوا مسافرين .

قالوا : واذا فرغ احدهم من غسل يده فليدع لمن يصب عليك بنحو طهرك الله من الذنوب ، وليتحــذر الذي يصب على الفقراء من وقوع الصابون في الغسالة التي في الطشت او البالوعة ، فان وقع منه فليصب عليه ماء طيباً ثم يستعمله . واختلفوا في اخذ الصابون او الاشنان من صاحب الدستور هل يأخذ منه باليمنى او باليسرى ، ولكل واحــد وجه . وكذلك اختلفوا في كنس الحصر او البسط بعد الطعام ، فمنهم من قال يكنس باليسرى ويحمل اليمنى لدفع الفتات الذي على الارض ،

ومنهم من قال يكنس باليمنى لجريان العادة بذلك ، فانه طعام يستحب اكله كما ورد . ومن شأنهم ان لا يقول احدهم لي او ثوبي او نعلي الا مع الحضور ، ان ذلك من نعم الله تعالى عليه ، دون ان يقول ذلك مع الغفلة وادعاء الملك ، وانه ينبغي لاحدهم ان يقول اين الثوب اين النعل ونحو ذلك ، والسر في ذلك ان من شرط القوم ان لا يروا لهم ملكاً لشيء يتخصصون به عن اخوانهم ، بل كل من احتاج الى شيء مما في يد غيره عادة اخذه منه بطيبه نفس ، وهناك تنزل عليهم الرحمة ان شاء الله تعالى .

ومن آدابهم مع الله تعالى ، وقليل فاعله ، ان يتعرضوا لنفحات الحق تعالى الواقعة في الليل والنهار فان له تعالى نظرات الى القلوب عبادة في كل يوم وليلة ، فيمنحهم تعالى فيها من لطائفه ومعارفه واسراره مـا يشاء بقدر استعدادهم ، فاذا فارقك شخص ساعة واحدة ، او أعرض عنك نفساً واحداً ، وأنت جالس معه ثم عاد عليك وجب عليك التهيء للقائه بالحرمة والتعظيم احسانا للظن به ، لان الله تعالى نفحه نفحة او نظر اليه نظرة من تلك النظرات فصار بها اعلى مقاما منك . ثم ان كان ذلك الامر صحيحاً فقد وفيت معه الادب ، وان لم يكن كذلك فقد تأدبت مع الله تعالى حيث عاملته بما تقتضيه المرتبة الإلهية من الكرم على كل وارد على حضرتها .

قال الشيخ محيي الدين بن العربي رضي الله عنه : وهذا الامر قل من يتفقد نفسه فيه من الفقراء ، وذلك لاستحكام الغفلة على قلوبهـم والله اعلم .

ومن ادبهم ان لا يحتجبوا عن احد الا لعذر ، ولا يقولوا لمـــن قصدهم في حاجة ان ارجع وتعال لنا وقتا آخر ، ولا يمنعوا سائلا ابداً الا لحكمة لا لبخل ولا شح ، كما مر تقريره في الابواب السابقة . وكذلك من ادبهم اخراج الميل الى الكونين من قلوبهم دون الله تعالى ، والايثار بجميع ما يدخل في يدهم على اخوانهم المسلمين . كذلـــك من ادبهم الاغتراب عمـــداً عن كل موضع عظمهم الناس فيه وخافوا منه الفتنة ، وهجران من لا خير فيه ، مع عـــدم اعتقاد السوء فيه ، فيعامله معـــاملة من يسيء به الظن من غير سوء ظن ، وان كان تركه للخلق خوفاً من ان يشغلوه عن الله تعالى فهو غرض غير صحيح والله اعلم .

ومن آدابهم في السماع المعروف بين القوم ان لا ينفعلوا فيه خوفاً من الوقوع في النفاق .

قال السهروردي رحمه الله : ومن ادلة السماع مـا روي ان الله تعالى خاطب الذر في الميثاق الاول بقوله : الست بربكم ، واستفرغت عذوبة سماع ذلك الكلام الارواح .. فلذلك كانت تطرب وتتحرك كلما سمعت امراً مطرباً ، لانه يذكرها بالسماع الاول .

وكذلك كان الجنيد رحمه الله يقول : وكان ابو علي الدقاق رحمه الله يقول : الحرام من السماع سماع العوام لبقاء نفوسهم ورعوناتها ، والمباح منه سماع الزهاد لحصول مجاهداتهم ، والمستحب هو سماع اصحابنا لانه يحيي قلوبهم .

وكان الحارث المحاسبي يقول : مما يتمتع به الفقراء سماع الصوت الحسن مع الديانة .

وسئل ذو النون المصري رحمه عن السماع عند الصوت الحسن فقال معلول وان كان فيه مخاطبات واشارات . وسئل عنه مرة اخرى فقال : هو وارد حق يزعج القلوب الى حب القرب من حضرة الحق تعالى ، فمن اصغى اليه بحق تحقق ، ومن اصغى اليه بنفس تزندق ، اي خالف باطنه ظاهره .

وكان الجنيد رضي الله عنه يقول : تنزل الرحمة على الفقراء في ثلاثة مواطن . فذكر منها السماع ، قال : وذلك انهم لا يسمعون الا عن حق ، ولا يقومون الا عن وجد .

وكان الجنيد رحمه الله يقول : السماع فتنة لمن طلبه ، ترويح لمن صادفه . وكان يقول كثيراً : السماع يحتاج الى ثلاثة امور ، المكان والزمان والاخوان .

وكان اهل عصر سيدي عمر بن الفارض يقولون : كل سماع لا يحضره سيدي عمر فليس فيه بسط ، وذلك لانه كان يحرك الجماعة . وعمل بعض الأكابر جمعاً ودعى الفقراء فأنشد القول الى ان سيم فلم يحصل لأحد منهم وجد ، فأرسلوا وراء سيدي عمر يجعله فحضر ، فقال للمنشد انشد ما بدا لك فأنشد يقول :

لي بالحجاز وديعة خلفتها ... اودّعها يوم الفراق دموعي

فقام سيدي عمر ودار وتواجد فتواجد كل من كان هناك ، ذكره الشيخ عبد الغفار القوصي رحمه الله .

وكان الشبلي رحمه الله يقول : السماع ظاهره فتنة وباطنه عبرة ، فمن عرف السماع وفتنه خاف منه . وكان يقول : لا يصلح السماع الا لمن

ذبح نفسه بسيوف المجاهدات وحيى قلبه بنور الموافقات ، وهو لاهل المعرفة غذاء لأرواحهم .

وكان ابو علي الروزباري رحمه الله اذا سئل عن السماع يقول : ليتنا نخرج منه رأساً برأس .

وكان ابو عثمان المغربي رحمه الله يقول : من ادعى السماع بصدق ولم يستمع من صرير الباب وصوت الطيور تصفيق الرياح فهو مفترٍ مدعٍ ، وذلك لأن الباعث للسماع عند الصادقين شهودهم ان كل شيء ورد عليهم انما ورد من حضرة الله تعالى ، فهم مع صاحب الحضرة لا مع من ورد عليهم ، ولذلك تساوى عندهم صوت الحمار وصوت احسن الناس صوتاً ، ثم اذا غلب حال القوم في السماع فمن الأدب التسليم لهم اذا صاحوا او مزقوا ثيابهم او بكوا على حسب ما يكون احوالهم .

وكان ابو عثمان الحيري يقول : السماع على ثلاثة اوجه ، فوجه للمريدين والمبتدئين .. يستدعون بذلك الأحوال الشريفة ، ولكن نخشى عليهم من ذلك الفتنة والرياء . ووجه للصادقين يطلبون بذلك الزيادة في احوالهم . والوجه الثالث لاهل الاستقامة من العارفين ، وهو تساوي الحركات والسكون عندهم .

وكان ابو سعيد الجدار يقول : من ادعى انه مغلوب في السماع فعلامته الصحيحة ان لا يبقى في ذلك المجلس محق الا انس به ، ولا مبطل الا استوحش منه .

وكان الشيخ محيي الدين يقول : اذا كان الرجل ممن لا يجد قلبه مع

الله تعالى الا في السماع ، فالواجب عليه ترك السماع اصلاً ، لان في ذالك مكراً إلهياً خفياً لا يعرفه كل احد . وان كان يجد قلبه فيه وفي غيره، ولكن يجده في النغمات اكثر ، فحضوره حرام . ولا نعني بسماع النغمات الغناء بالشعر فقط ، وانما نعني به سماع النغمات بالغناء وغيره . قال : واذا وجد الفقير قلبه في سماع القرآن لحسن صوت القارىء ، ولم يجد قلبه فيه اذا سمعه من قارىء آخر ، فسماعه معلول ، وتلك الرقة التي يجدها في قلبه من الطبيعة الانسانية ، ذكره في الباب الثالث والثمانين ومائة من الفتوحات .

وكان الجنيد يقول : اذا رأيت المريد يميل الى السماع فاعلم ان فيه بقية من البطالة .

وكان سهل بن عبد الله رضي الله عنه يقول : معنى السماع علم استأثر الله تعالى به لا يعلمه الا هو ، والعبارات تقصر عنه ، ولكن الصادقون تشير اليهم المعاني فيستريحون بذلك من تعب الحجاب .

ولما دخل ذو النون المصري بغداد في المحنة التي عمد من مصر اليها ، اجتمع عليه صوفيتها ومعهم موّال فاستأذنوه بأن يقول بين يديه شيئاً فأذن لهم فأنشد يقول :

صغير هواك عذبني فكيف به اذا احتنكا
وقد جمعت في قلبي هوًى قد كان مشتركا
اما ترى لمكتئب اذا ضحك الخلي بكى

فقام ذو النون وسقط على وجهه وصار الدم يقطر من جبينه ولا ينقط على الارض منه شيء ، فقام رجل من القوم يتواجد ، فقال له

ذو النون هو الذي يراك حين تقوم فجلس . قال ابو علي الدقاق كان ذو النون في هذه الحكاية صاحب اشراف على ذلك الرجل حيث نبهه ان ذلك ليس من مقـامه ، وكان ذلك الرجل صاحب انصاف حيث قبل ذلك وجلس بسرعة ولم ينفعل .

وكان الشبلي اذا استمع يملـح شجرة الجميز او الجوز من قوة حـاله انتهى .

ورأيت سيدي محمـد السروي يستمع في زاوية المتبـولي ، فحمل على كفه الايسر قيفاراً كبيراً ملأن ماء فصار يدور به ، ورأيته مرة اخرى حمل المنشد بيد واحدة ورمى به على رجل آخر .

وكان ابراهيم المارستاني يقول : بلغني ان موسى عليه الصلاة والسلام قص يوماً في بني اسرائيل فمزق واحد منهم قميصه ، فأوحى الله تعالى اليه : قل له مزق لي قلبك ولا تمزق لي ثيابك .

ونقل الشيخ عبد الغفار القوصي رحمه الله ان الشيخ ابا محمد الهاشمي الشريف رضي الله عنه سئل عن السماع فقال : لا ادري ما اقول فيه ، ولكنني حضرت في دار شيخنـا ابي الحسن التميمي سنة سبعين وثلثماية وقد عمل دعوة دعى فيهـا الامام أبا بكر الأبهري شيخ المالكية ، والشيخ ابا القاسم الداركي شيخ الشافعية ، والامام طاهر بن الحسين شيخ الحديث ، والشيخ ابا الحسن ابن سمعون شيخ الوعـاظ والزهاد ، وابن مجاهد شيخ المتكلمين ، والقاضي ابا بكر البـاقلاني ، وابن الحسن شيخ الحنابلة ، وجمـاعة أخرى من العلمـاء ، فقالوا لشخص حسن الصوت : اسمعنا شيئاً ، فأنشد لهم شعراً من جملته :

غطت اناملها في بطنْ قرطاس رسالة بعبير لا بانفـــاس
ان زر فديتك لي من غير محتشم فان حبك لي قد شاع في الناس
فكان قولي لمن ادى رسالتهــا قف لي لاسعى على العينين والراس

قال السيد الشريف : فبعـــد ان رأيت هؤلاء الأشياخ يسمعون لا يمكنني ان افتي بعدم السماع ، فان هؤلاء هم اكابر مشايخ العراق ، حتى انه لو سقط السقف عليهم لم يبـــق في العراق من يفتي في حـــادثة انتهى .

وقد بسطنا الكلام على ذلك في كتاب المنن والاخلاق في البـــاب الثامن منها .

وكان يوسف بن الحسين الرازي رضي الله عنه يقرأ القرآن ويسمعه ، فلا يحصل عنده تواجد ، فسمع يوماً شخصاً يقول .

رأيتك تبني دائماً في قطيعتي ولو كنت ذا حزم لهدمت ما تبني

فصاح وبكى حتى ابتلت ثيابه ولحيته ، ثم قال تلومونني على قول بعض اهل الدازاني زنديق وهو ذا ، أقرأ القرآن من الصباح الى المساء لم يقطر من عيني قطرة ، وقد قامت علي القيامة بهذا البيت .

وقيل لابراهيم الخواص رحمه الله : ما سبب تحرك الانسان عند سماع الاشعار ويجد في سماعها مالا يجد في سماع القرآن ؟ فقال رضي الله عنه : انما لم يغلب على الناس التواجد عند سماع القرآن لثقل ما فيه من التكاليف ، فكأنه صدمة لا يمكن التحول معها ، بخلاف سماع الاشعار لانها تروّح القلب لعدم التكليف فيها .

وكان ابن الدراج يقول : مررت على قصر حسن على الدجلة فرأيت

رجلاً بهي المنظر وبين يديه جارية تغني وتقول في سبيل الله : ود كان مني لك يبذل . كل يوم تتبدل . غير هذا بك اجمل . فسمعها شاب عليه مرقعة تحت القصر فقال لها : أعيدي فأعادته ، فقال الشاب : هذا صورة تلوني مع الحق تعالى . ثم شهق شهقة خرجت روحه ، فكفناه ودفناه ، فعلم بذلك صاحب القصر فقال اشهدكم ان كل شيء بيدي لله تعالى ، وكل مماليكي احراراً ، ثم جعل في وسطه ازاراً وعلى كتفه رداء وخرج فلم يعرف له بعد ذلك خبر .

وقال ابو سعيد الخراز رحمه الله : رأيت علي بن الموفق في السماع وهو يقول : اقيموني اقيموني فأقاموه فقام فتواجد . وقام الداعي ليلة الى الصباح بهذا البيت والناس قيام يبكون :

ارد دوا فؤاد مكتئب ليس له من حبيبه خلف

قال القشيري رحمه الله : وكان الامام سهل بن عبد الله التستري يسمع القرآن والذكر وغير ذلك فلا يتغير ، فلما كان في اواخر عمره صار يتواجد ويقول : ضعفنا والله عن التحمل وصار واردنا اقوى منا .

وكان ابو عثمان المغربي يقول : سمعت على البئر تقول الله الله الله .

وكان خير النساج رحمه الله يقول : قص موسى عليه الصلاة والسلام يوماً على بني اسرائيل فزعق واحـــد منهم فانتهره موسى فأوحى الله تعالى اليه : يا موسى بحبي باحوا ، وبطيبي ناحوا ، وبوجدي صاحوا ، فكيف تنكر عليهم ! انتهى .

وكان عود بن عبد الله له جارية حسنة الصوت فكان يأمرها بالغناء فتغني له بصوت حزين حتى تبكي القوم .

وكان ابو سليمان يقول : كل قلب لا يحركه الا الصوت الحسن فهو ضعيف ، فيداوى كما يداوى الصبي اذا اردت ان تنومه . وكان يقول: الصوت الحسن لا يدخل في القلب شيئاً ، وانما يحرك ما كان ساكناً فيه من الشوق الى الله تعالى .

وكان لسيدي عمر بن الفارض جواري يغنين له فيقوم ويتواجد وكان يتغالى في شرائهن لاجل حسن اصواتهن رضي الله عنه .

وكان ابو القاسم القشيري رضي الله عنه يقول : السماع في كل وقت انفع ما يكون للضعفاء فيأخذ كل عضو نصيبه منه فما ينزل على العين يبكيها ، وما ينزل على اللسان يصيح به ، وما ينزل على اليد تمزق به الثياب وتلطم به الوجه ، وما يقع على الرجل يرقص به انتهى .

وحكى الشيخ تاج الدين بن عطاء الله ان الشيخ عز الدين بن عبد السلام سئل عن سماع الغنى فقال : مثل ماذا فقال مثل قول القائل

غنت فاخفت صوتها في عودها فكأنها الصوتان صوت العود

فقال الشيخ عز الدين : اعده علي ، فقال السائل : يكفيني منك في اباحته انتهى .

وسمعت سيدي علي الخواص رحمه الله يقول : يحرم على الشيخ الذي يقتدى به ان يسمع من آلات اللهو لانه يفسد اتباعه لغيبهم عن مشهده انتهى .

وأجمع القوم على ان كل ما جمع القلوب الشاردة عن حضرة الله عز وجل فهو حسن ، قلت : والمراد بحضرة الله عز وجل حيث اطلقت

في لسان القوم شهود العبد انه بين يدي الله عز وجل ، فما دام هـذا مشهده فهو في حضرة الله ، فاذا حجب عن هذا المشهد فقد خرج منها والله اعلم .

وذكر الشيخ محيي الدين وغيره ان من ادب القوم في السماع ان لا يكون هناك من ليس من اهل طريقة او من اهل طريقهم ، لكنه ينكر السماع ولا يقول به . وذلك لانه يقبض القوم بتغيره لكونه اقوى منهم ، اذ النفس تحب السماع بالطبع ، وانما تكرهه لمشاهدتها حالة اخرى اعظم من السماع ، فلذلك كان لها سلطان على نفوس السامعين لبطونها . فعلم انه يجب في صحة السماع ان يكون جميع السامعين على قلب رجل واحد . قالوا : وان وقع ان يكون القوال من القوم او من المعتقدين فيهم كان احسن . قالوا : واذا القوال من العوام الخارجين عن طريق القوم فينبغي لهم ان يزيدوه في العطاء لينبعث ويخلع ، ويباسطوه حتى يميل الى القوم ، لان النفس مجبولة على حب من يحسن اليها .

وسمعت سيدي علي المرصفي رحمه الله يقول : لا ينبغي للفقراء ان يطلبوا من القوال انشاد شيء معين ، بل يتركوه على حسب ما ينطقه الله تعالى به ، وذلك ابعد عن حظوظ النفس ، ولكن ان كان الشيخ حاضر وأمر القوال ان ينشد شيئاً معيناً فلا بأس ، لانه أعلم بما يحرك قلوب الجماعة انتهى .

قال الشيخ محيي الدين بن العربي رحمه الله : واذا ظهر للقوم سآمة من القوال او كسل او رأوا صوته يفرق قلوبهم ، فمن الأدب ان يسكتوه . ويجب عليه ان لا يتشوش منهم ، فان تشوش فلا يصلح

للانشاد الا ان تاب انتهى . واذا اسكتوه فيشتغلون بنفوسهم أو يأخذون في الذكر حتى يحصـــل للقوال باعث ويحصل بانشاده الجمعية ، لكن يكون الذكر على طريقة واحدة موزونة وهي احسن عند المحققين من سماع القوال ، واقوى في الاستعداد لمن كان له قلب ، او القى السمع وهو شهيد . قالوا : واذا حرك القوال صاحب حال ووقع منه شيء من ثيابه فهو للقوال خاصاً ، فان في الحديث من قتل قتيلاً فله سلبه .

قالوا : واذا كان التواجد من معنى آخر خلاف قول القوال ، ووقع نه ثوب فهو للجماعة ، فيشركهم فيه القوال لانه من الجماعة . والمتواجد مصدق فيما يدعيه من حصول السبب الذي تواجد منه ، فلا ينبغي ان يكذبه احد ، اذ التهمة لا يكون بين القوم .

قالوا : واذا تحرك شيخ القوم وسقط منه شيء فالحكم فيه للشيخ ليس لهم ان يتحكموا في خرقة شيخهم ، ولكن يجب على الشيخ ان يقسمها بينهم ، ولا بد . فان امسكها ولم يحكمهم فيها ولا قسمها بينهم فقد خرج عن طريق القوم . وللجماعة ان يجتنبوه ، وليس للمريدين ان يقتدوا به في مثل ذلك ابدا . ثم ان امساكه الخرقة قد يكون لاحد امرين اما لبخل ما طرأ عليه لعدم عصمته ، وأما لطلب الستر بحاله لسوء هذا الادب حتى يسقط من عين الجماعة ، وكل من هذين الامرين لا يليق بالمريد اتباع هذا الشيخ فيه وان تبعـــه لا يفلح .. لانه ان كان بخيلا فأقبح من كل قبيح صوفي شحيح ، وان كان متستراً بذلك الفعل كذلك لعلة في نفسه لا يعرفها المريد ، والمريد انما ينتفع بشيخه في الأخلاق والآداب التي ظاهرها محمود .

قال الشيخ محيي الدين : وكل من قام في السماع عن غلبة فللجماعة ان يقوموا لقيامه ، وليس لهم ان يقوموا لقيام من بقيت عليه بقية من الاحساس والشعور ، بل يحرم عليه هو القيام ، لانه منافق ظهر بصورة الصادقين لا بمعناهم . اللهم الا ان يقوم متواجدا معرفا الجماعة بتفعله ، وان يطلب به تحصيل الوجد ، فللجماعة ان يقوموا لقيامه ، فان مذهبهم الموافقة والمساعدة ، وذلك الفقير صادق في دعواه ، وان كان الاولى به وبكل قائم في السماع ان لا يقوم الا بحالة فناء وغلبة .

قالوا : ولا سبيل الى بيع الخرقة اذا وقعت ، فان في ذلـــك استهانة بالفقراء ، اذ الخرقة مثلاً اذا دخلت في النداء في السوق او غيره تدنست بالايدي الغافلين ، وذلك استهانة بطريق القوم في عيون الناس من العوام .

قالوا : وليس للفقراء ان يتحكموا في خرقة من ليس من اهـــل طريقهم ولا في خرقة من لا يقول بذلك من العبّاد والزهاد ، ولكن اذا ضمهم معهم مجلس وتحكم الفقراء في شيء من ثيابهم فـــلا بأس ، وبغير اذنهم لا يجوز . بل يخرجون به من طريق اهل الله تعالى ، لانه ليس من حكمة اكل اموال الناس بالباطل ، وانما جوزنا مثل ذلك للفقرا فيما بينهم لرضاهم بذلك وتواطئهم وصار ذلك عرفا بينهم بطيب نفس ، بحيث ان الفقراء لو ردوا على احدهم بخرقته لتكدر ولم يرجع فيها لانه اخرجها من ملكه ، ولا بد فاياك والاعتراض في القوم في ذلك والله اعلم .

قالوا : وينبغي للقوال ان يقف على يمين الشيخ او نائبه ، فمهـــما

اشار عليه الشيخ به انشده الا ان يكون المنشد عالما بما يحرّك قلوب الفقراء لشدة ارتباطه بالشيخ في الباطن ، فله ان يقف حيث شاء .

قالوا : واذا سقطت عمامة الشيخ عن رأسه او وضعها هو اختيارا لثقلها او لشدة حر ونحو ذلك ، فمن الادب موافقة الفقراء له في ذلك ، فيضعون كلهم عمائمهم كذلك ، وان رمى الشيخ عمامته الى القوال او رداءه فلهم ان يوافقوه بصدق ، وليحذر احدهم ان يرمي خرقته للقوال من غير اشارة الشيخ فانه ترك الادب . واذا وقع من احد من الفقراء خرقة او عمامة في غير وجد ، فيستحب للنقيب رفعها عن مواقع الاقدام اكراماً لها ، وان كانت عمامة الشيخ رفعها كذلك وصار قائماً بها الى ان يطلبها الشيخ بالقرينة أو الاشارة ، فهناك يتقدم النقيب ويضعها على رأس الشيخ قائلاً بسم الله الرحمن الرحيم مع استشعار الحياء والادب :

قال الشيخ محيي الدين : ولا ينبغي ان ينشد في مجالس الفقراء الا الشعر الذي قصد به قائله ذكر الله عز وجل بلسان التغزل أو غيره ، فانه من الكلام الذي اهل به الله تعالى فهو حلال قولا وسماعا ، وهو مما ذكر اسم الله عليه ، بخلاف الشعر الذي قصد به قائله غير الله فانه بمنزلة من يتوضأ بالنجاسة قربة الى الله تعالى ، لان القول في الحديث حدث بلا شك ، وهو مما اهل لغير الله .. والنية لها اثر في الاشياء ، والشاعر ما قصد الا التغزل في محبوبه المخلوق . انتهى ذكره في الباب الثامن والتسعين وثلاثمائة من الفتوحات .

وسمعت شيخنا الشيخ امين الدين امام جامع الغمري يقول : لا ينبغي

انشاد كلام مثل سيدي عمر بن الفارض على مجلس شربة الخمر ، فقد وقع لشخص انه انشد قوله : شربنا على ذكر الحبيب مدامة ... الى آخرها على مجلس خمر فحول الله تعالى غائطه الى فيه ، وبوله الى انفه ، فلم يزل كذلك الى ان مات والله اعلم .

ومن آدابهم البعد عن مواطن التهم ، وليس من طريقهم مؤاخاة النسوان والاحداث ولا مكالمتهم لغير ضرورة ، وما قال باباحة النظر الى المستحسنات التي نهى الشارع عنها الا قوم فجّار ، خرجوا عن الطريق ولبسوا على العامة بلبس الزي ، حتى ظن من لا معرفة له بميزان الشريعة انهم من الاولياء مع انهم افسق الفاسقين . وهم على جانب عظم من الكسل والفتور عن الخير . وكل من رأى زيهم الذي لبسوه وتقصير ثيابهم وحف شواربهم وتصغير عمائمهم وارخاء عذبتهم تمشيخاً لا اتباعاً للسنة اعتقدهم ظاهراً ، وربما كان ذلك حتى يرتب الولاة له جوالي او شيئاً من الدنيا كما هو مشاهد في خلق كثير ، فلما بنوا امرهم في الطريق على قواعد فاسدة ونيات خبيثة ، وسوس لهم ابليس باظهار التواجد والسماع مع النسوان والشباب ، وقال لهم لا تمنعوا النساء والشباب الخير وحضور مجالس الذكر قياساً على الصلوات في المساجد ، ثم وسوس لهم بالميل الى التلذذ بمجالستهن وكلامهن حتى امالهم الى طلب الفسق بهن ، فما وجدوا لذلك سبيلا ، فمثل هؤلاء يجب على كل مؤمن تحذير الناس من صحبتهم ، ومن كان صادقاً في السماع فليستمع في نفسه من غير حضور مع هؤلاء الفسقة والله اعلم .

ومن شأنهم ان لا يقعد معهم في مجلس سماعهم منكر عليهم ، كما

مر آنفا ولا يكون هناك من المنكرات ، حتى لو التبس نعل فقير بغيره ، او ركوته بغيرها ، اثر ذلك فيهـــم قساوة القلب ، ولم يقدروا على الاستماع ، لان ابدال النعل بغيره من الورع تركه ، لانـــه يظلم قلب الفقير وبغيره . وقد بلغنا ان ابا يزيد رضي الله عنه وجد وحشة في تواجده فقـــال اني اجد في قلبي وحشة فانظروا سبب ذلك ، ففتشوا فوجدوا نعـــل فقير قد أبدلت في المسجد مع شخص من اصحاب ابي يزيد ، فطلبوا صاحب النعل فوجدوه من اكبر المنكرين عليهـــم .

ومن شأنهم ان يعاملوا كل وقت بما يناسبه ، ومتى ادخلوا على ما يقتضيه وقت آخر تكدر عليهم وقتهم . وقد وقع لسيدي علي المرصفي رحمه الله انه بات عنده معلاق عنب فوجـــد في قلبه كدورة فأخرجه للفقراء في الليـــل فرجع اليـــه صفاء قلبه . هذه حكايته لي ووقـــع نظيرها لغيره ايضاً . ووقع ايضاً لبعضهم ممن كان تدفق في الورع انه وجد في قلبه كدرا حال ذكره ، ففتشوا ذلك فوجدوا القارورة التي فيها الدهن قد استعاروها ليشتروا فيها الدهن مرة المصباح فاشتروه فيها مرة اخرى بغير اذن اصحابها فزال الكدر والله اعلم .

فاذا كان الكدر يحصل للفقراء في مثل هذه الامور ، فكيف بالخصام والضرب بالعصي والمعاداة ! فالله يلطف بنا آمين .

ومن شرطهم ان لا يجلسوا مع مجادل ينكر على اهـــل الطريق احوالهم لحديث عن نبي لا ينبغي التنازع . وعلوم اهل الله انما هـــي علوم رسول الله ﷺ لانهم متقيدون بالشريعة لا يخرجون عنها الى رأي او قياس الا في النادر ، وفي القرآن العظيم : خـــذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين . فشمل الجاهلين بطريق اهل الله .

وكذلك من شأنهم المؤاخـذة بالنسيان وبكل امر يوقفهم عن الترقي لانهم سيارون على الدوام ، وليس لهم ان يسامحوا مريداً بزلة واحدة غيرة للشرع ومصلحة للمريد ، بخلاف حقوقهم ، فيسامحون الناس فيهـا وان كثرت .

قال الشيخ محيي الدين : وانما آخذوا المريد بالنسيـان لان طريقهم طريق حضور مع الله تعالى في عموم الحـالات ، والنسيان فيها نادر ، والنادر لا حكم له بخلاف طريق غيرهم ، فان الغالب فيها الغفلة ، فلذلك لم يسامح اهلها المريد بالنسيان إلا في اماكن معروفة في كتب الفقه ، كما اذا نسي ركنا من اركان الصلاة او نسي الطهارة وصلى فانه يعيد جزماً ، انتهى .

ومن شأنهم ان ينصفوا الناس من انفسهم بينما لا ينصفون انفسهم من احد ، كما ان من شأنهم قبول الاعتذار ممن اعتذر اليهم مـــع ان الاعتذار غالبا انما يقع ممن ليس هو من اهل الطريق ، فان اهل الطريق يقيمون للخلق المعاذير قبل ان يقع منهم الاعتذار . فاعلم انه لا اعتذار بين عامين ، وانما الاعتذار بين مريدين او بين عارف ومريد ، فالعارف يتنزل ويعترف للمريد مداراة له ، وهو لا يحتاج الى اعتذار من المريد والله اعلم .

وقد كان الشيخ محيي الدين بن العربي رحمه الله يقول : الاعتذار تزكية للنفس وتهمة للمعتذر اليه انتهى .

ومن شروطهم ان لا يغش احد منهم احدا ، وانما يتعاملون بالمناصحة

والانقياد لبعضهم بعضاً في الخير وعدم المنافرة والاعتراض بالفهم لا بالامور التي وردت صريحة في الكتاب والسنة . وأجمعوا على انه لا يصح ممن ثبتت له قدم في الطريق بغض ولا شحناء ولا حسد ولا بغي ولا غيبة ولا نميمة ولا حقد ولا مكر ولا رياء ولا نفاق ، فان فعل ذلك فهو عدو لله .. فكيف يدعو غيره الى الله تعالى ! فامتحن يا اخي من يدعي انه من الواصلين بهذه الميزان يظهر لك صدقه او كذبه ، لان الواصل لا يرى في الوجود فاعلا حقيقة إلا الله فيرسل غضبه وحسده على من !؟ وان نزل عن هذه الدرجة وجد جميع المسلمين عبيد الله ومن أمة رسول الله ، فكيف يؤذي عبد ربه او امة نبيه في حضرته ، فان الواصل دائماً في حضرة الله وحضرة رسوله لا يبرح ، فيقال لمن ادعى الوصول واذى احداً انت كذاب والله أعلم .

ومن شروطهم ان لا يعدوا احداً بوعد إلا في النادر ، لان صدق الوعد انما يكون للانبياء عليهم الصلاة والسلام لعصمتهم ، وأما غيرهم فربما وعد واخلف فيصير فيه خصلة من النفاق . وسواء كان الموعود به جليلاً او حقيراً كله واحد . ثم ان وقع ان الفقير وعد احداً بوعد ولم يوف به وجب الوفاء به واستغفر الله تعالى ، كما هو مذهب الإمام مالك رضي الله عنه .

ومن شروطهم الورع والتثبت في كل ما يروونه عن رسول الله ﷺ لقوله : من كذب عليّ متعمداً — وفي رواية باسقاط متعمداً — فليتبوأ مقعده من النار ، وهو حديث متواتر بقيد التعمد . وفي الحديث ايضاً : كفى بالمرء اثماً ان يحدّث بكل ما سمع . وفي رواية لمسلم : حسب

المرء كذباً ان يحدث بكل ما سمع ، ذكرها مسلم في صدر صحيحه .

وقد قالوا : الورع في المنطق أعز من الكبريت الاحمر .

وسمعت شيخنا شيخ الاسلام زكريا يقول : لا تعتمد على رواية احد من هؤلاء المتعبدين من غير علم حتى تجربه في الصدق والعلم . فكثيراً ما يروي شيخ الزاوية شيئاً ويضيفه الى رسول الله ﷺ والحال انها رؤية منام لبعض العارفين وهو يعتقد انها جاءت عن رسول الله ﷺ من طريق المحدثين ، فعليه اللوم وان كان ذلك مبنياً على حسن الظن بالناس ، لان لحسن الظن مواضع ليس هذا منها . وقد تقدم في الباب الاول وغيره ان من شرط من يطلب طريق القوم ان يكون متضلعاً من علوم الشريعة المطهرة ، حتى لا يصير عنده التفات الى غير الطريق التي سلكها . وان طريق القوم محررة على الكتاب والسنّة ، تحرير الذهب والجوهر ، فمن لم يكن من أكابر العلماء لا يفلح فيها ، لأن له في كل حركة وسكون ميزاناً شرعياً يجب عليه علمه قبل الفعل والله اعلم .

ومن شأنهم شدة الورع وكثرة التوقف على الأكل مما بأيدي اهل زمانهم حتى يعلموا ورعه في كسبه ، وقد خالف قوم من اهل زماننا هذا فادعوا المشيخة وصاروا يأكلون عند المكاسين في رمضان وغيره ويقولون : نحن قوم لا يؤثر فينا الحرام ، وهذا من الافتراء القبيح على أهل الطريق انهم كانوا كذلك ، فالله تعالى يغفر لنا ولهم . فيجب على كل مسلم ان ينكر صنيعهم قياماً بواجب حق الشريعة والعلماء العاملين والأولياء الصالحين . ولو ان هؤلاء اعترفوا بأنهم خالفوا طريق السلف الصالح حتى لا تتبعهم العامة على ذلك لكان أخف اثماً . وقد قدمنا

ان سفيان الثوري رضي الله عنه كان يتهم نفسه ويقول لأصحابه اياكم ان تقتدوا بي حتى تزنوا أحوالي على الكتاب والسنة ، فاني رجل خلطت في ديني وأكلت من جوائز السلطان . وكذلك بلغنا عن الحسن البصري انه كان يقول ذلك والله اعلم .

ومن شأنهم حفظ آداب الشريعة لا سيا أواخر أعمارهم ، ولا يقدمون على فعل شيء حتى يعرفوا انه موافق للشريعة واذا شكوا في أمر سألوا عنه العلماء وعملوا بما يفتونهم به من التشديد او الرخصة بشرطها .

وقد ألف سيدي الشيخ محمد بن عنان رضي الله عنه رسالة من أولها الى آخرها في الحث على اتباع الشريعة وسؤال العلماء عن ما فيه شك وسبب ذلك انه كان في بلاد الشرقية بين قوم الغالب عليهم البدع ، ولا يتيسّر للفلاحين ان يشتغلوا بالعلم حتى يصير احدهم يعرف جميع الحلال والحرام من نفسه من غير سؤال العلماء ، وكان الشيخ محمد هذا على قدم السلف الصالح ، وما كنت امثله إلا بطاووس اليماني او بشر الحافي ، لشدة ما هو عليه من اتباع السنة المطهرة وعدم تضييع شيء من اوقاته في غفلة عن الله ، بل كان ليلاً ونهاراً مقبلاً على ربه عز وجل رضي الله عنه .

وكان سيدي علي الخواص يقول للمتعبدين من الفقراء : عليكم بسؤال العلماء عن امر دينكم ، ولا تعملوا شيئاً الا بعد علمكم بأنه موافق للشريعة . وكان يقول : من خان في آداب الشريعة الظاهرة ، فأحرى أن يخون في علم الحقيقة والأسرار الإلهية . ومعلوم ان الحق تعالى

لا يهب أسراره إلا للأمناء من عباده ، وكل من ابتدع في الشريعة شيئاً ، فقد آثر هواه على شرع ربه الذي اختاره الله ورسوله للأمة والله أعلم .

ومن شأنهم اذا دخل احدهم في الطريق ، وهو ذو زوجة او مال ، ان لا يتغير عن حالته الا باذن شيخه ، فلا يطلقها باختياره ، ولا يتزوج اذا كان عازباً ، ولا يرمي ماله للناس ، ثم يصير يسأل الناس ، وقد مر ايضاح ذلك في الأبواب السابقة في مواضع ، ولذلك من شرط الصادقين منهم ان لا يبيت احدهم على دينار ولا درهم كما مر ، ولا يأخذ من الناس من اموالهم بالسؤال ليفرقها على المحاويج ، الا ان كانت زكاة ، او كان كاملاً في الطريق ، يرى الخلق كالأطفال في حجره ، يربيهم ويفعل معهم ما هو الأصلح لهم . فمثل هذا الاعتراضُ عليه كالاعتراض على الخضر عليه الصلاة والسلام ، فيما فعله مع موسى عليه الصلاة والسلام — فان قول الخضر عليه الصلاة والسلام وما فعلته عن امري ، مثل قول نبينا ﷺ ان اتبع الا ما يوحى إليّ . فكما ان الخضر عليه الصلاة والسلام هو شيخ الاولياء في علوم الحقيقة ، بحكم النيابة لرسول الله ﷺ ، فعلم انه لا ينبغي الاعتراض إلا على من لم يبلغ حد الكمال من المتمشيخين بأنفسهم ، فيسألون الناس الحافاً ، فينفرون منهم ، فيقل نفعهم على يدهم . ويقولون نحن ملامتيّة ، وذلك جهل ، فان الملامتيّة هم الكمل من رجال الله تعالى ، ومبنى طريقهم على الحياء والعفة ، كما هو مبسوط في كتب القوم ، وهي طريق الشيخ الجنيد بعينها والله اعلم .

ومن شأنهم عدم الاعتراض على الشيوخ ، إذ الاعتراض عادة لا يكون

إلا من الأعلى للأدنى ، لأنه هو الذي يعترض بعلم .

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله يقول : لا يسمى اعتراض الأعلى على الأدنى اعتراضاً ، وانما الأدب تسميته تأديباً وارشاداً ، كحال الشيخ في تربية المريد ، فلا يسمى الشيخ معترضاً على المريد ، فعلى الأدون ان يصمت عن كل شيء جهله ، ولا ينكر على فاعله إلا ان علم حكمه في الشريعة ، ومتى أنكر على شيخه فقد ابطل اصل عقده معه والله اعلم .

ومن شأنهم الصدق ، فلا يتكلمون ابداً عما لم يذوقوه ، خوفاً على أنفسهم ان يدّعوا مقاماً لم يبلغوه . ومن اصول طريقهم انهم لا يتكلمون إلا بما يشاهدونه ، واذا سمع احدهم شيئاً من اخيه لم يفهمه ، فلا يجوز له الرد عليه ، وانما الواجب عليه ان يعلم فوراً ان ذلك من مشاهد اخيه الصحيحة ، الذي لم يبلغها هو ، وان اخاه أعظم منه مقاماً ، فينبغي له التوجه بهمته الى الله تعالى ، ان يرزقه مثل ما رزق أخاه ، او يتلمذ له ويخدمه ان لم يكن له شيخ ، كما جرى عليه اهل الطريق . وهذا الأدب ما رأيت له ذائقاً إلا قليلا . وغالبهم لا يقدر على نفسه تنكبس ، لأن يتلمذ لأخيه ابداً . ومن هنا قال الشيخ عبد القادر الجيلي رضي الله عنه : من أعلى اخلاق القوم ان يتلمذوا لأحد من اقرانهم ، فانها احسن رياضات النفوس ، وهو اصعب من الجوع والسهر والعزلة وغير ذلك ، انتهى .

ويؤيد ذلك ما تقدم في وصية سيدي احمد بن الرفاعي في مرض موته لخواص اصحابه حين سألوه وصية موجزة ، من قوله : من تمشيخ

عليكم فتلمذوا له ، فان مدّ يده لكم لتقبلوهـا فقبلوا رجله ، وكونوا آخر شعرة في الذنب ، فان الضربة اول ما تقع في الرأس . فان قيل ان اشياخ الطريق كاملون بيقـين ، وخرجوا عن رعونات النفوس ، لا نرى احـداً منهم يتلمذ لأحد من اقرانه كما قلتم ، فالجواب ان كلامنا فيمن تأبى نفسه القراءة على اقرانه ، وهؤلاء الأشيخ بحمد الله لا تأبى نفوسهم ، ذلك كما هو معلوم من قرائن احوالهم ، فاياك ان تظن بهم في المريدين والله اعلم .

وكان الشيخ محيي الدين رحمه الله يقول : من شروطهم اذا دخلوا زائرين لأحد من اشياخ عصرهم ان يفرغوا قلوبهم من جميع ما عندهم من العلم ، بمعنى انهم لا يقنعون بما عندهم ، بل يطلبون الزيادة ، فان العلم لا قرار له ، فيجب على كل زائر للاشياخ ان يفتح باب قلبه لما يلقي اليه ذلك الشيخ ، ليخرج من عنده سالماً من الاعتراض ، ومتى سمع من الشيخ ما لا يقبله قلبه رجع على نفسه باللوم وقال هذا أمر لم اصل انا اليه ، ولا ينسب الشيخ الى الخطأ البتة ، ومن فعل ذلك مع شيخ فقد خرج عن قواعد الطريق والله اعلم .

ومن شأنهم ان ينظروا الى العصاة بعين الرحمة لا بعـين الازدراء والاحتقار . وقالوا : الازدراء بشيء من العالم يرجـع والعياذ بالله الى الاعتراض على القدرة التي أعطت كل شيء خلقه ، وذلك ينافي طريق الولاية والاصطفاء . وقد تقدم في الأبواب السابقة انه لا يجوز لأحـد استصحاب المعصية على من وقع فيها ، بل ينبغي ان يعتقد فيه انـه تاب من وقتها وندم ، فمن سريرته ، او يحتمل ان يكون ممن سبق له

من الله السعادة ، فلا تضره المعصية . وكل من ظن بنفسه انه خير من احد من المسلمين ، فهو جاهـــل مخدوع ، ولو اعطى من الكرامات ما اعطى . وقد رأى سيدي عبد القادر الجيلي مرة شارب خمر يتمايـل فخطر بباله انه خير منــه ، فناداه السكران : يا عبد القادر ، قادر ربي على ان يجعلني مثلك ويجعلك مثلي ، فاستغفر سيــدي عبد القادر وطأطأ رأسه . فانكر يا اخي منكرات الشرع بحكم الشرع ، واجعــل انكارك على الأفعال لا على الذوات ، والله اعلم .

ومن شأنهم كلهم اغاثة الملهوف ويقدمون اغـاثته على قراءة احزابهم واورادهم وكل شيء من نوافلهم ، كما مر تقــريره مراراً . ومن ادعى الولاية وقلبه فارغ من تحمل هموم العباد فهو كاذب في دعواه ، وليتأمل تلقيب القطب بالغوث يعرف انه ما لقب بذلـــك الا لكثرة اغاثته الملهوفين في الشدائـد . وهذه الحقيقة سارية من القطب الى جميع اهل دائرته رضي الله عنهم . فاعلم ان من جامع زوجته ودخل الحمام ولبس المبخرة ونام على الفرش الوطية واكــل اللذيذ من الطعام او بنى داراً او غرس بستاناً ايام تكدر الناس ، فهو لم يشم من الغوثية رائحة ، لان حامل الهم لا يتهيأ بمثل ذلك ، ولا تميل اليه نفسه ، فينبغي لمن لم يتحمل هموم الناس ان لا يخرج على من يتحمل همومهم ، بــــل يهرت نفسه ويوبخها ، عملاً بحـديث الطبراني مرفوعاً : من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم انتهى .

ورأيت بعضهم لا يهتم بأمر المسلمين ويزعم ان ذلـك من التسليم لله وهو قصور ، فان التسليم لله لا ينافي الاهتمام بأمر المسلمين المأمور به والله تعالى اعلم .

ومن شأنهم ان يجزموا بفضل كل من طلبوا زيارته من الشيوخ عليهم قبل ان يخرجوا لزيارته ، ولا يخـرجوا قط لزيارته على وجه الاختبـار له ، لان ذلك يورث المقت ، إذ الشيوخ لا يختبرون البتـة لكمالهم ، وانما الحق تعالى هو الذي يختبرهم ، واما الخلق فربمـا كانوا دونهم في الدرجة ، فكيف يختبرونهم في مقام لم يذوقوه .

وقد دخل سيدي عبد القادر الجيلي ومعه اثنان على رجل كان يلقب بالغوث ، وكان من شأنه ان يختفي اذا شاء ويظهر اذا شاء ، فقـال سيدي عبد القادر نويت التبرك بهذا الرجل ، فقال الآخر انا لا اعتقده الا ان اظهر لي كرامة ، وقال الآخر انا منكر عليه ، فبينما جالسون إذ ظهر من بينهم فنظر الى من قـال انا منكر وقال : انت المنكر علي اني لأرى نار الكفر تلتهب فيـك ، وقال للآخر انت الذي تقول لا اعتقده الا ان اظهر لي كرامة ستجرأ عليك الدنيا الى شحمتي اذنيك ، وقال لسيدي عبد القـادر انت الذي تزورني للبركة سيعلو شأنك حتى تؤمر بأن تقول قدمي هذه على عنق كل ولي لله عز وجل وتخضع لك اولياء المشرق والمغرب ويطأطىء رقابهم ، فكان الامر كما قال . واما المنكر فسافر من بغداد ليناظر القسيسين ببـلاد الروم ففعل وناظرهم فغلبهم فأعجب السلطان وقربه وطلب منه تزويج ابنته فقال لا يمكن ذلك الا ان تدخل في دينها فتنصر وتزوجها ومات على دين النصرانية . واما الذي اوقف اعتقاده على اظهار كرامة فتولى مال بيت المال وصار من اوسع الناس في الدنيا لسواد به ذكره في كتاب البهجة والله اعلم .

ومن شأنهم ان لا يطلبوا من مشايخ عصرهم الكلام على هواجسهم

وانما يطلبون منهم ان يعرفوهم بالادوية التى يستعملونها لازالة امراضهم الباطنة ، هذا هو جل مقصود الناس منهم ، فان المكاشفات بأحوال بواطن الناس انما هي احوال المريدين ، تقوية ليقينهم في الطريق ، وتأييداً لهم ، والعارفون قد تمكنوا في مقام اليقين .

وسمعت سيدي عليا المرصفي رحمه الله يقول : يجب على صاحب الكشف ان يسأل الله عز وجل في زواله لما فيه من الاطلاع على عورات الناس ، فهو من احوال المريدين لا العارفين والله اعلم .

ومن شأنهم انهم لا يطلبون من الخادم ان يجري في خدمته لهم على وفق اغراضهم كلها ، بل اذا اتاهم بما لا يوافق اغراضهم سكتوا ولم يعاتبوه على ذلك ، الا ان يكون الخادم تلميذاً للشيخ ، فله ان يعاتبه ليعرف ميزان ذلك في المستقبل ، وأما الماضي فقد وقع .

وقال السهروردي رحمه الله : وانما كان من شأنهم ترك العتاب للخادم طلباً لتهذيب اخلاقهم ورياضة لنفوسهم ، كما انهم في جميع معاملاتهم مع الخلق على هذا القدم ، فيحتملون اذاهم ولا يقابلونهم بنظير ذلك ، ويحملون عن الناس كَلّهم ولا يلقون كَلّهم على احد ، وينهون العصاة ، وينبهون الغافل ويرشدون الضال ، ويقودون الأعمى ، ويساعدون الخادم ، ويطحنون معها على الرحا ، ويكنسون البيت .

وقال الشيخ محيي الدين : ومن الفقراء من صارت ارادته فانية في كل ما يريده الحق تعالى من الخير ، فمثل هذا لا يرى شيئاً في الوجود يخالف غرضه حتى يتكدر لاجله لغيبته عن حظوظ نفسه ، وفناء ارادته في ارادة ربه في كل ما يجريه على يدي عباده في حقه .

وقد قالوا : من فني عن ارادة نفسه فلا نفس له ومن لا نفس له فلا غرض له ، ومن لا غرض له فلا مرض له ، وذلك ان سبب الامراض عدم موافقة الاغراض والله اعلم .

ومن شأنهم اذا كملوا في الطريق وتصدروا لارشاد الناس وقضاء حوائجهم ، ان لا يتخذوا لهم على ابوابهم حجاباً إلاّ ان يكون في البيت عيال ولا مكان لهم يتوارون فيه ، وذلك حتى لا يفقدهم احد يقصدهم في حاجته . وقد كان سيدي مدين يتخذ على بابه ستارة ، وكذلك سيدي علي المرصفي لاجل العيال دون ان يكون لهم حاجب . وكان سيدي احمد الزاهد يجلس دائماً في خلوته في الجامع ، ولا يدخل على العيال الا بعد صلاة الجمعة لا غير ، ويخبر ان ذلك كان من خلق سيدي يوسف العجمي رحمه الله ، فكان كل من طلبه وجده ، فان انكر احد على القوم في اتخاذهم حجاباً على بابهم قلنا له : وثبت في ان رسول الله ﷺ كان له حجاب من خدمته الارقاء وغيرهم كأبي وابن مسعود ، وكان اذا جاء مثل عمر بن الخطاب يستأذن ذلك الخادم في الدخول فيستأذن له رسول الله ﷺ ويفعل ما يأمره .

قال الشيخ محيي الدين رحمه الله : وهذا الخُلق لا يكون لهم الا بعد فراغهم من تهذيب نفوسهم ، اذ التصدر لقضاء حوائج الناس عادة لا يكون الا بعد ذلك . ومن كان عليه بقية علاج لاخلاقه الردية ، فهي تجذبه الى وراء ، فلا يصح له التوجه الى الله تعالى بكليته في قضاء حوائج العباد . ومعلوم ان كمال التوجه شرط في سرعة قضاء الحوائج ، وكل من تصدر لقضاء حوائج الناس قبل الفراغ من تهذيب نفسه فهو

طالب الرياسة ، وثناء الناس عليه ، وعكوف النـاس عليه ، وكثرة ترددهم اليه ، ومشيهم في ركابه . وربما تلبس عليه النفس في ذالـك وتقول له انك انما تفعل ذلك محبة في الخير ، وما اقامك في ذالك الا الحق تبارك وتعالى فاشكر الله على ذلك ، فان غيرك يتمنى ان يكون مثلك فلا يقدر .. فمثل هذا هالك ، وهو يظن انه ناجٍ . ولو انه تفطن لدسائس نفسه لعدم تحريضها من ورطة الرياء ، ومن اسره تحت هواه، ومن سخرية الشيطان به على جميع قضاء حوائج غيره بطريقه الشرعي، كما يجب على طالب العلم الاخلاص فيه والسلامة من محبة صرف الناس وجوههم اليه . وفي الحديث : ما من احـد يكلم في سبيل الله والله اعلم بمن يكلم في سبيله ، الحديث ، فأخبرنا انه ما كل من جاهد يكون مخلصاً لوجه الله تعالى ، ولا كل من قتل بين الصفين يكون شهيداً ، فلينتبه من يعمل شيخاً في النصف الثاني من القرن العاشر لمثل هـذه الغوائل والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم .

وكان سهل بن عبد الله التستري رحمه الله يقول : ينبغي للعبد ان لا يغفل عن تفتيش نفسه في عباداته ، فضلا عن معاصيه ، قلّ عبـد يسلم من التقصير في طاعاته والغفلة فيهـا عن الله تعالى ، فلا يقومون الا تائبين ، ولا يجلسون الا تائبين ، ولا ينامون الا تائبين والله اعلم .

ومن شأنهم التجافي والتباعد عن ما للنفس فيـه غرض من سائر الشهوات ، فلا يتغنى أحدهم في طلبه ولا يتمناه ، بل ان جاءه ذالك من غير تعب في تحصيله ومن وجه حِلّ تخير فيه ، فان شاء اكله وان شاء تركه الا ان يكون في مقام المجاهدة للنفس ، او مقام توفير اللذة

الى موطنها الحقيقي ، فيتعين عليه ترك الاكل وفاء بحق المقام ، كما كان عليه عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وأبو ذر واضرابهم من الاولياء . وليس لمن هو في هذين المقامين ان يتناول شيئاً من طيبات الشهوات الدنيا . وقد ورد : الدنيا حرام على اهل الآخرة ، وقيل انه من كلام ابى ذر وغيره ، قلت والمراد ان ذلك حرام من حيث الكمال في المقام ليوافق قواعد الشريعة المطهرة ، نحو قوله تعالى : كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا الله ، والله تعالى اعلم .

ومن شأنهم القناعة ، وهي وقوف النفس عند ما رزقت من غير تشوف الى زيادة ، اذا حصل بين يدي العبد ذلك الرزق من غير مزاحم عليه اكل بقدر ضرورته وترك الزائد لغيره ، وليس بعد ذلك مقام في القناعة . فاعلمْ ان من يكون له كل يوم ما يكفيه الكفاية الشرعية ، ويسافر من بلاده البعيدة الى السلطان ليرتب له شيئاً زائداً أو يسافر الى بعض مشايخ العرب ليأخذ منه شيئا من القمح او العسل ونحوهما ، فهو بعيد جداً عن طريق المريدين ، فضلاً عن العارفين الذين يزعم انه منهم .. لان من شأن القوم الشكر لله تعالى على السراء والضراء . وذلك لانهم يعتقدون انه تعالى اعلم بمصالحهم من انفسهم ، فلا يطلبون زيادة على ما اعطاهم في يوم والله اعلم .

ومن شأنهم ترجيح الخوف على الرجاء لكونه اكمل واجمل في حق العبيد ، ولا يرجحون الرجاء إلا عند خوفهم ان يتحكم فيهم سلطان القنوط . وكذلك من شأنهم الانقباض في نفوسهم اذا رأوا منكرا في الشرع ايثارا للجناب الإلهي ، وشفقة على الفاعل لذلك المنكر . وليس

لهم ان يقولوا هذا فعل الله فلا ينقبض ، منه لانه جهل . فان الكامل يسمى ابا العيون فعين ينظر بها الى فعل الحق فيجده في غاية الحكمة ، وعين ينظر بها الى مخالفه العبيد وعصيانهم لاوامر ربهم فيغار لله تعالى . وفي الحديث انه ﷺ كان يغضب اذا انتهكت حرمات الله عز وجل ، فعلم ان انكار المنكر لا يقدح في مقام التسليم لان كلاهما مأمور به شرعاً والله اعلم.

ولذلك من شأنهم غض الطرف عن فضول النظر والاسراع في المشي مع السكينة والوقار ، فيمشون مثل الجمل الموقور حملا ، وقد كان ﷺ اذا مشى كأنه ينحط من صبب .

ولذلك من شأنهم اصلاح ذات البين ، واعظم اوقاتهم ان يطلع الحق تعالى على سرائرهم فلا يجد فيها حبا لاحد الا باذنه ، ولا التفاتا الى غيره .

ولذلك من شأنهم التعامي عن عيوب الناس وسترها ونشر محاسنهم الا المبتدعة ، فانه يجب عليهم التحذير منهم ، وذلك من باب الرحمة بالمسلمين حتى لا يزيد عذاب المبتدع باتباع الناس له في بدعته ، ولا يأثم أحد بسببه .

ومن شأنهم الشفقة على خلق الله تعالى من ناطق وصامت بطريقه الشرعي .

قال الشيخ محيي الدين : ولقد حدثني الوجيه المدرس بمدينة ملطية انه كان هناك وال بمدينة بخارى ، وكان من اظلم الناس . فركب يوما

فرأى كلباً اجرب وكان ذلك في يوم شديد البرد ، فقال لبعض غلمانه ارفعوا ذلك الكلب الى دارنا فرفعوه فتلطف به واحسن اليه فلما جاء الليل نودي الوالي في منامه يا فلان كنت كلبا فوهبناك بكلب ، فهذه رحمة بكلب اثرت الرحمة للظالم . وفي الحديث في كل كبد ربطة اجر .

ووقع لسيدي احمد بن الرفاعي انه رأى كلباً اجذم وقد شعره والناس يزجرونه فحمله الى البرية وجعل له ظله وصار يطعمه ويسقيه ويدهنه حتى عوفي فغسله بماء حميم ودخل به بلده أم عبدة ، فقيل له اتعتني بكلب هذا الاعتناء ، فقال : خفت من الله تعالى ان يؤاخذني بعدم الاحسان اليه ويقول لي ، اما كان في قلبك رحمة لخلق من خلقي ؟ والله اعلم .

ومن شأنهم ان يتصدقوا كل يوم عقدا بقلوبهم على جميع عباد الله تعالى بعرضهم وبدمائهم واموالهم ، ولا يطالبون احدا بحق الدارين اكراما لمن هم عبيده ولمن هم من أمته ﷺ . وأصول الشرع تقصد هذا الفعل ، فانه من باب العفو ومكارم الاخلاق ، وان كانت الاعراض لاتباح بالاباحة لو صرح اهلها بالاباحة ، ولكن كلامنا في عفوهم عن الناس اذا وقعوا في عرضهم بحكم الاتفاق ، والا فلم يبلغنا ان احدا من القوم قال للناس قعوا في عرضي ابدا . وفي الحديث أيعجز أحدكم ان يكون كأبي ضمضم ، كان اذا اصبح يقول اللهم قد تصدقت بعرضي على عبادك يعني الذين يقعون في عرضي تعديا وظلماً ، لكن لا يخفى ان التصدق المذكور لا يكون الا في حق الآدمي ، فانه بمثابة من سامح الناس بديونه . اما في حق الله تعالى فليس للعبد في ذلك تصريف . وايضاح

ذلك ان معاصي الآدميين لها وجهان : وجه يتعلق بالله من حيث تعديهم حدوده ، فلذلك اليه تعالى لا لهم ، ووجه يتعلق بهم فيصح لهم العفو عنه والله اعلم .

ومن شأنهم ان لا يقرضوا احدا بقصد العوض ، وانما يعطون كل محتاج ما يرونه محتاجاً اليه من غير مطالبته بالعوض ، وذلك لانهم يشهدون ان جميع ما بأيديهم من المال انما جعله الله تعالى عندهم للمحتاجين من عباده ، ولا يرون لهم مع الله ملكاً حتى يطلبوا العوض لاجله .

وكذلك من شأنهم عدم الالتفات الى خلف ، واذا التفتوا التفتوا جميعا ، وقد نادى شخص الشبلي رحمه الله مرة من خلفه فلم يجبه وقال : اما علمت ان الفقراء لا يلتفتون الى وراء ، ولا يجيبون من ناداهم من خلف القفا والله اعلم .

ومن شأنهم التفاؤل والأخذ بالفأل الحسن النظير به ، يعني بطريقه الشرعي ، وقد قرع رجل باب الشيخ ابى مدين فخرج اليه ، ولم يكن في نية الشيخ ان يخرج اليه أو لا يدخله في ذلك الوقت داره ، فقال له : ما اسمك ، فقال : احمد الفائدة ، فقال له الشيخ : ادخل ، فان العاقل لا يطرد الفائدة اذا وصلت الى باب داره وهو يطلبها .

قال الشيخ محيي الدين : وكان احمد هذا من سادات القوم ، انتهى .

ومن شأنهم انهم لا يأكلون ولا يشربون ولا ينامون ولا يتحركون ولا يسكنون الا عن ضرورة او حاجة ، وذلك ليثابوا على جميع

افعالهم ثواب الواجبات ، لان الانسان اذا اضطر الى مباح صار فعله واجباً ، وثواب الفرض اعظم من ثواب السنة إلا في بعض المسائل عند بعضهم ، كابتداء السلام مع رده في حق المتشاحنين فانه ﷺ ... وخيرهما الذي بدأ بالسلام ، فليتأمل .

ومن شأنهم لبس الوسط من الثياب .. وهم في نيتهم على طبقات فمنهم من يلبس لآخرته وهو صاحب التمكين ، ومنهم من يلبس لوقته ، وهم دون ذلك ، فان الكامل من يكون الوقت حكمه ، وبما هو تحت حكم الوقت ودونه من يحكم عليه وقته . فالذي يلبس لآخرته هو من لبس ما يستر عورته ويقيه من الحر والبرد . واما الذي يلبس للوقت فهو المتجرد الذي لا يشتري ولا يبيع ، وانما هو مشغول بحاله ، وهو انقص مقاماً من الذي قبله ، وعلامة صدق هذا ان يتساوى عنده الثوب النفيس والخسيس على حد سواء ، ومن رجح الثوبَ النفيس على الحقير فهو صاحب رعونة ، ليس له قدم من اتباع السنة في ذلك . فان في اخلاق رسول الله ﷺ انه كان لا يبـالي بأي ثوب يلبس ، وكان ان رأى ثوبا قطنا لبسه ، او صوفا لبسه ، او عبـاءة لبسها ، وصلى بها اماما في المسجد ، كما هو معروف في كتب الحديث والله اعلم .

ومن شأنهم ان يقدموا الفقراء على الأغنياء في البشاشة والاكرام ، لان الله تعالى عاتب نبيّه ﷺ لما كان يقبل على صناديد قريش ، مع ان ذلك انما كان طلبا لتمييل قلوبهم اليه حتى يسلموا ، ومن اوجعَ قلب فقير لاجل غني سقط من ديوان القوم .

وكان الشيخ محيي الدين يقول : ما عاتب الله نبيه ﷺ الا لكونه اقبل على الاغنياء بحضرة الفقراء ، ولو ان الاغنياء جاءوه وحدهم لكان من كرم اخلاقه الاقبال عليهم انتهى .

وسمعت سيدي عليا المرصفي رحمه الله يقول : من الاولياء من امر بتعظيم صفات الله ، حيث ظهر العبد فيما بها ، فيعظم الامير على الفقير لظهوره بالتصريف في هذا الدار بخلاف الفقير ، فان من شأنه الذل والافتقار للذين هما ليسا من صفات الله قطعا انتهى ولكن جمهور الاولياء على الاول والله اعلم .

قالوا : وليس من شرطهم ان لا يكون لهم مال ، ولكن منهم من يكون له مال ، ومنهم من يكون فقيراً ، ومقام الفقراء يجمعهم كلهم . وقد ذكر الشيخ محيي الدين ان القطب قد يكون لا مال له فيخرج الى بيوت اصحابه فيسألهم لطبيعته ما يقوم بها كالشفيع لها ، ولا يقدح ذلك في كماله انتهى والله تعالى اعلم .

ومن شروطهم ان لا يجلسوا في مقام المشيخة الا ان اجلسهم استاذهم او نبيهم ، من طريق كشفهم الروحاني او يجلسهم ربهم بما ألقى اليهم في سرهم من طريق الالهام الصحيح ، لان الشيخ اذا لم يكن عارفاً بطريق السلوك ودواء المريدين ، وجلس يربي المريدين ، بما يأخذه بطريق الكتب طلباً للرئاسة — اهلك نفسه واهلك من تبعه . فان سياسة المريد لا بد منها ، والشيخ انما يسوس نفوس المريدين بنظير ما كان يسوسه به شيخه ايام بدايته من تأليف المريد بالكلام الحلو والاحسان اليه ، ومسارقته بالنصح شيئاً فشيئاً ، حتى يميل بالمحبة للشيخ ، ويصير

والداً له في الولادة الطبيعية التي هي اول عمر الانسان الحقيقي ، فـان حكم المريد قبـل دخوله في طريق اهل الله الحقيقية ، لهو حكم الذي لم يولد ، كما اشار اليه قول عيسى عليه الصلاة والسلام : لن يلج ملكوت السموات من لم يولد مرتين . وقد اشار الى ذلك سيدي علي بن وفـا بقوله عن المتمشيخين في عصره بغير حق :

تمشيخوا من قبل ان يوجدوا	فعمرهم ضـــاع ولم يولدوا
حال عليهم حال اهلاكهم	من شاخ فالموت له مرصد
وهل نفوس همـــها وهمها	الا بوادٍ وهمـــها مبعد
مشوا مكبين على وجههم	عمياً عن العليـاء لا يهتدوا
قد حسبوا الارض سماء لهم	فاستقربوا مـا هو مستبعد
وكل مـا مالوا بأهوائهم	قالوا صعـــدنا وهم اخلد
فاعجبْ لمن شاخوا على صغرهم	في ارذل العيش سواء يجهدوا
رضوا بأن يعتقـــدوا سادة	وهم لادنى وهمِهم اعبُد
فلا تحـاول طبهم انهم	لكل من خالطهم يفسدوا
وقل سلام واعتزل امرهم	وافقد عليماً فقده احمد

الى آخر ما قال ، فعُلم ان من لم يكن عنـــده سياسة للمريدين واحسان لهم ، وصبر على تلويناتهم وتغييراتهم ، لا يفلح على يده الا النادر . ولما أنفت نفس داود نبي الله ﷺ من مجـــالسة عصاة بني اسرائيل ، غيره لجناب الله عز وجل وهجر مجـــالستهم ، اوحى الله تعالى اليه يا داود المستقيم لا يحتاج اليك ، والاعوج قـــد أنفت عن تقويمه فلم اذاً ارسلت ؟ فتنبه داود لامر آخر كان عنه غافلاً ، وصار

يطبخ لهم الطعام ويدعوهم ، ويذهب الى زياراتهم في دورهم ، ويسارقهم بالمواعظ شيئاً فشيئاً ، حتى اهتدى به خلق كثير من بني اسرائيل ، فاعمل يا اخي على ذلك والله تعالى اعلم .

ومن شأنهم هضم نفوسهم على الدوام ، فـلا يرون ان شيئاً من اعمالهم يرضي الله تعالى في ساعة من ليل او نهـار ، بل يرون دائماً انهم قد استحقوا الخسف والمسخ لصورهم ، حتى كان ابو يزيد رضي الله عنـه كلما يستيقظ من نومه يمسح على وجهه فوراً ، فقيل له في ذلك ، فقال اخاف ان يكون الحق تعالى مسخ صورتي صورة كلب او خنزير لسوء ما اتعاطاه .

وكان سريّ السقطي يقول : اني لانظر الى انفي في اليوم كذا كذا مرة مخافة ان يكون قد اسود وجهي ، وانا غافل عن مراقبة الادب مع الله ، وكان كثيراً ما ينظر وجهه في المرآة لاجل ذلك .

وكان معـروف الكرخي يقول : أشتهي ان اموت ببلد غير بغداد خوفاً ان لا يقبلني قبري فافتضح ويسيء الناس الظن بأمثالي .

وممن أدركناه على هـذا القدم سيدي الشيخ علي النبتيتي البصير ، وتلميذه سيدي علي البحيري والشيخ محمد المنير ، وسيدي علي الخواص ، وشيخ الاسلام زكريا ، وشيخ الاسلام نور الدين الطرابلسي الحنفي ، والشيخ عبد الحلـيم بن مصلح رضي الله عنهم اجمعين ، فكان سيدي علي النبتيتي اذا قام من الليل يفحص ويبكي كالطير المذبوح ، ويقول يا رب لا تهلك اهل هذه البلاد بذنوبي ، وكان يقول : لو خسف الله تعالى بمصر وقراها بسبب ذنوبي الكان قليلا انتهى .

فلا تظن يا اخي ان احداً من القوم يرى انه من الصالحين ابداً ، وان وقع انه رأى ذلك استغفر منه .

وكان الحسن البصري رضي الله عنه يقول : والله لو حلف شخص ان اعمال الحسن ، اعمال من لا يؤمن بيوم الحساب ، لقلت له صدقت يا اخي لا تكفّر يمينك . وقد طلب بعض الفقراء وقوع كرامة من سيدي عبد العزيز الديريني رضي الله عنه فقال لهم : يا اولادي وهل ثم .... لعبد العزيز في القرن السادس اعظم من ان الله تعالى يبقي الارض ولا يخسفها به ، وقد استحق الخسف به من ازمان !
ثم قال : ما ارفع رجلي على الارض واردها اليها واحدها ، الا شكرت الله تعالى على ذلك . وفي رواية اخرى انه كان دائماً قلقاً فقيل له في ذلك فقال اني اخاف من الخسف بي في كل لحظة .

وسمعت سيدي علي الخواص يقول : لا يستبعد الخسف به في هذه الايام الا كل مغرور ، فقد خسف الله تعالى بقوم كانت ذنوبهم دون ذنوبنا بيقين ، فروى الامام احمد والبزار مرفوعاً : بينما رجل ممن كان قبلكم خرج في بردين اخضرين يختال فيهما ، امر الله تعالى الارض فاخذته ، فهو يتجلجل فيها الى يوم القيامة . وفي رواية : بينما رجل يمشي في حلة تعجبه نفسه اذ خسف الله تعالى به الارض ، فهو يتجلجل فيها الى يوم القيامة . قال ابن عباس وذلك بزقاق ابي لهب بمكة ، وممن رآه حين خسف به العباس رحمه الله .

وروى البزار ورواته رواة الصحيح مرفوعاً : ان رجلاً كان في حلة حمراء يتبختر او يختال ، فخسف الله تعالى به الارض ، فهو

يتجلجل فيها الى يوم القيامة .

وروى الترمذي وغيره مرفوعاً : يبيت قوم من هذه الامة على لهو ولعب ، فيصبحون وقد مسخوا قردة وخنازير . وفي رواية للترمذي : يبيت قـــوم على لهو ولعب ، فبينما هم كذلك اذ خسف الله بأولهم وآخرهم .

وروى الامام احمد وغيره مرفوعاً : يبيت قوم من هذه الأمة على طعم وشرب ولهو ولعب ، فيصبحون قد مسخوا قردة وخنـــازير ، وليصيبنهم خسف وقذف ، حتى يصبح النـــاس فيقولون خسف بدار فلان ، وليرسلن عليهم حجارة من السماء ، كـما ارسلت على قوم لوط ، على قبائل فيهـا وعلى دور . وليرسلن عليهم الريح العقيم التي اهلكت عاداً على قبائل فيها وعلى دور ، بشربهم الخمر ولبسهم الحرير ، يمسخ منهم قردة وخنازير ليوم القيامة .

فانظر يا اخي بعين الانصاف الى هـــذه الامور التي وقع الخسف بأهلها ، تجدها دون ذنوبنا بيقين . فكم نظر احـدنا الى عطفيه حين لبس صوفاً جديداً مثلاً ، وكم نظر الى عمـــامته بعد ان عممها على رأسه من غير غرض شرعي ! وكم يتبختر في مشيته رافعاً نفسه على على اقرانه ! وكم بات احـدنا على لعب واكل وشرب ولهو ، مصرا على كثير من المعاصي ، وكم وكم وكم ! فلا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم . وصاحب هذا المقام لا يصير له رأس ترفع بين الناس ، وربما استحيى ان يجالس احـداً من المسلمين ، لا سيا في المحـــافل ، كالمحافل الدينية وختوم الدرس ، فاذا احضر في مثل ذلك ذاب خجلا وحياء ،

وتمنى ان الأرض تبلعه ، كما يعرف ذلك كل من ذاق مذاق العارفين . فاعذروا ايها الاخوان من دعوتموه من الفقراء الى حضور محفل وأبى ، فربما كان مقامه شهود نقائصه وعيوبه ، واذا جلس بين النـــاس كأن عورته مكشوفة ، ولا يجوز لكم حمله على التكبر ، كما بسطنـا على ذلك آخر المنن الكبرى ، والحمد لله رب العالمين .

وليكن ذلك آخر كتاب لواقح الانوار القدسية في بيـــان قواعد الصوفية والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله .

قـال مؤلفه : وكان الفراغ من تأليفه في عشر من ذي الحجة الحرام سنة احدى وستين وتسعماية بمصر المحروسة ، والله اعلم .



الفهرست

الصفحة

★ **الأنوار القدسية**

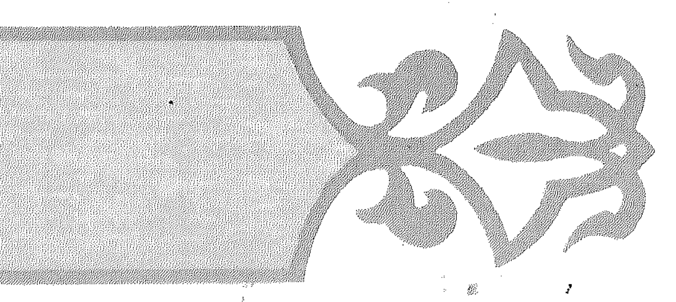
في معرفة القواعد الصوفية

تأليف الامام العلامة عبد الوهاب الشعراني

طيلة القرون الوسطى ، لم تستأثر حركة فكرية بالصفوة من المفكرين على اختلاف مللهم ونحلهم مثل ما فعلت الحركة الصوفية ، وذلك لما حوته من قواعد خلقية ، ومثل انسانية يلتقي عندها الشرق بالغرب في اعلان حقيقي لاخوة البشر تفيؤاً لراية الصوفي العظيم محي الدين بن عربي القائل :

وقد صار قلبي قابلا كل صورة فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأوثان وكعبة طائف والواح توراة ومصحف قرآن
ادين بدين الحب انى توجهت ركائبه ، فالحب ديني وايماني

وهذا الكتاب يلقي ضوءاً وهاجاً على حقيقة الصوفية بحيث يأخذ بيد المريد متدرجاً به في ذلك الطريق الصاعد ، وبشكل عملي ، موضحاً له السبل والقواعد التي تجعل منه شيخاً صوفياً ناهلا — ان شاء — من الانوار القدسية حتى في عصر القنبلة الذرية .



يطلب من مكتبة المعارف - بيروت
ص.ب: ١٧٦١